

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

المسنة السادسة
العدد الأول

جمادى الأولى ١٣٧٣ هـ
يناير ١٩٥٤ م

إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
”قرآن كريم“



رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدرها دارالتقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تنشر الطبعة الثانية بإذن خاص من

المهندس القمى نجل المغفور له العلامة القمى، السكرتير العام

لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تصدى لنشرها

مجمع البحوث الإسلامية للآستانة الرضوية المقدسة

و

مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية

١٤١١هـ / ١٩٩١م

الأموال الفنية والطبع

مؤسسة الطبع والنشر الآستانة الرضوية المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خواطر من الزاكرة

لحفرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم

وكليل جماعة التقريب

بهذا العدد تدخل (رسالة الإسلام) في عامها السادس
على بركة الله تعالى ، وقد بعث إليها فضيلة الأستاذ الأكبر
الشيخ عبد المجيد سليم - حفظه الله - بهذه الكلمة تحية
وتهنئة لها ، وفيها من النصح والتوجيه ما نرجو أن يهدي
الله إليه ، وينفع به . [التحرير]

الحمد لله الذي أتم علينا نعمته وارضى لنا الإسلام ديننا ، والصلاة والسلام
على نبينا محمد الذي أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وعلى سائر
أنبياء الله ورسله ، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

أما بعد ، فإني أبعث بتحيتي وتهنئتي إلى مجلة « رسالة الإسلام » الغراء ، وهي
على أبواب عامها السادس ، وأسأل الله لها تمام التوفيق ، واطراد النجاح ، وأن يُمدد
القائمين عليها بعونه ، ويؤيدهم بنصره ، ويؤتيهم من لدنه رحمة ، ويهيئ لهم من أمرهم
رشداً ، إنه تعالى ولي الصابرين ، وإن رحمته قريب من المحسنين .

* * *

وأنتزه هذه الفرصة فأدلى من ذاكرتي ببعض الخواطر التي تعرض لي أحياناً ،
عسى لعله يفيد المجلة كتابتها وقراءها إن شاء الله تعالى :

١ — فن ذلك أن الناس يذمون التعصب للرأى ، ويرونه ضاراً بالعلم منافياً لما ينبغي أن يكون بين أهله من سماحة ، وقد يصل بهم الأمر إلى أن يقيسوا رقى الأمم والجماعات بمقياس يرجع إليه ، فإذا وجدوا التعصب سائداً في قوم وصفوم بالناخر الفكري ، أو بالفصور ، أو بالتزمت ، أو بضيق الأفق ، إلى غير ذلك من العبارات الدالة على الجود أو لوازم الجود ، وعلى العكس من ذلك نراهم يصفون المتسامحين ، فهم عديم أفوى عقولا ، وأهدى سبيلا ، وأصلح للحياة الاجتماعية الراقية .

وإطلاق القول على هذا النحو بجانب للصواب ، فإن « التعصب » إن أريد به عدم قبول الحق عند ظهور الدليل بناء على ميل المرء لعصبته ، وجده في نصرته فهو مذموم منهى عنه في الإسلام ، ويطلق عليه لفظ « العصبية » وقد نعى الله على أهل الجاهلية في غير آية من كتابه الكريم ، تمسكهم بها ، ومن ذلك قوله جل شأنه « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون . بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جشكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » (١) .

وفي الحديث الشريف (ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل عصبية ، وليس منا من مات على عصبية) (٢)

وشبه بهذا الذى كان يفعله أهل الجاهلية تعصب بعض المقلدين لمذاهب أئمتهم وإن وقفوا على ضعفها أو بطلانها ، وفي ذلك يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام « ومن المعجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه

(١) سورة الزخرف ٢١ - ٢٥

(٢) رواه أبو داود عن جبير بن مطعم ، كافي الجامع الصغير .

بحيث لا يجد لضعفه مدفعا ، وهو مع ذلك يقلده فيه ، ويترك من شذله الكتاب والسنة ، ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة فضلا عن مقلده . .

وقد أفاض العلماء في فساد هذه الطريقة وبيان مجافاتها للصواب ، وتأهبا من الحق ، ومن القواعد التي يقررها الشرع والعقل أن (الرجوع إلى الحق خير من التماذى في الباطل) .

وإن كان المراد بالتعصب الغيرة على ما يراه المرء حقا ، وبذل الجهد في الدفاع عنه ، وعدم التسامح فيه ، فذلك محمود ، بل واجب بالشرع والعقل ، فانه لا بد للحق من مستمسك به ، مدافع عنه ، ولو ساغ أن يتطابق الناس جميعا على التسامح في شأن الحق ، والفتور عنه ، لبطل الحق ، ومُعَمَّى على الناس وجهه ، والتبس بالباطل في كثير من الشئون .

ولهذا لا يصلح مجتمع يخلو من المستمسكين بالحق ، المدافعين عنه ، الذين لا يترخصون فيه ولا يتساحون ، وإن جميع الدعوات الصالحة الحسنة ما رمت أصولها ، ولا تتمقّت فروعا ، إلا باستمسك أهلها بها ، وصدقهم في النضال عنها ، لأنهم آمنوا بها إيمانا ثابتا لا يتزلزل ، ولولا هذا الإيمان الصادق القوى المتمايك لماتت - والعياذ بالله - دعوة الإسلام في مهدها ، ولفسد المجتمع الإسلامي من أول الأمر بما يسميه المتحللون مساهلة أو مياسرة ، ونسميه نحن انحلالا أو اضمحلالا .

وقد أمر الله المؤمنين بأن يكونوا أقوياء في الحق ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ومدح الذين يمسكون بالكتاب ، ولعل هذه الصيغة إنما اختيرت للتعبير عن معنى القوة في الأخذ ، وهو ما صرح به في مثل قوله تعالى لنبيه يحيى : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » ، ولنبيه موسى : « نأخذها بقوة » ، كما أمر المؤمنين بأن يكونوا « قوامين لله » ، والقوام بالشئ غير القائم به إذ هو مبالغة في القيام تقتضى القوة في الاستمسك والتشبث ، وذلك كله ينافي التراخي عن الحق ، والمساهلة فيه .

هذا والناس إنما يفقدون الحاسة للحق ، والحرارة في الدفاع عنه ، لو احد من أمرين : إما جهل به يصرفهم عنه ، فهم لم يدوقوا حللوه ، ولم يباشروا بشاشته ، فأنى لهم أن يعباؤا به فضلا عن أن يغاروا عليه ، وإما شغل بغيره يملأ القلب ، ولا يترك مجالاً للنضال عن الحق ، والكفاح في سبيله ، وأولئك هم الذين يعرفون الحق ويشغلهم عنه ما آثروه من أنفسهم ومصالحهم ، فهم يتظاهرون بأن تركهم مناصرة الحق إنما هو تركهم التعصب ، وكراميتهم التزمت والتشدد ، والله يعلم أن ذلك منهم نكول ونكوص وإبنار لم اجل الدنيا على أجل الآخرة ، وأشد ما تصاب به الأمم في علانها وأهل الرأي فيها ، هو التحايل للخروج من تبعات الكتان بالأويل والتضليل .

بهذا يتبين أن التعصب ليس مذموماً كله ، وأن اتخاذ أمره مقياساً للرفق أو الانحطاط يجب أن يتلقى بحذر ، ويقدر بقدر .
ألا وإن دعوة التقريب لدعوة إلى الأخذ بمحموده والانتباه عن مذمومه ، وإنها لدعوة الإسلام .

٢ — ومن ذلك أن بعض الكاتين في الدفاع عن الإسلام ، يسلكون سبيلاً لا أرى لهم أن يسلكوها لما فيها من الخطر ، وإن استر . وأقصد بهم الذين يجارون مفكرى الغرب فيما يرونه خيراً للمجتمع أو شراً ، ثم يحاولون أن يبرئوا شريعة الإسلام من هذا الشر ، أو يضيفوا إليها الأمر بذلك الخير .

مثال ذلك : تعدد الزوجات ، فإنهم يأخذون عن الغرب مجافاته للمجتمعات الراقية ، وإنضائه إلى ألوان من الكوارث تجعله أمراً ضاراً بالناس ، ثم يدافعون عن الإسلام بأنه يمنع تعدد الزوجات بقوله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » مع قوله جل شأنه : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .

وليس هذا حقاً ، فإن الإسلام أباح التعدد لحكم جليلة ، ومنافع للمجتمع يدركها المنصفون ، فن الخير أن نشرح وجهة الإسلام في هذه الإباحة ، لا أن

خواطر من الذاكرة

نشكرهما ونمارى فيها ، ولنعلم أن الله تعالى لم يشرع لنا حكماً إلا كان مطابقاً للحكمة والمصلحة والرحمة ، فإلى بيان ذلك فلتتجه الأفكار والأقلام .

وقد كان من آثار اغترارنا بما يراه أهل الغرب أن وفدت علينا وافدات كثيرة عن هذه الطريق ، فصار فينا من يطالب بقصر الدين على ما يسمونه النواحي الروحية أو الخلقية أو التهذيبية أو نحو ذلك ، وألا ندخل به في النظم والمسائل العملية ، وغفلوا عن الفرق بين شريعة الإسلام وغيرها ، فإذا كان غيرنا لم يجد فيها عنده مناهج الإصلاح وتنظيم المجتمع ، فلا يجوز أن ينسحب ذلك علينا وفي شريعتنا كل مقتضيات الحياة الصالحة الراشدة .

وكذلك صار فينا من يستحسن إطلاق حرية المرأة دون التفات إلى ما يجوز من ذلك في شريعتنا وما لا يجوز ، ودون دراسة بصيرة منصفة لوجهة نظر الشريعة الإسلامية في صون المرأة والمحافظة على كرامتها وآدابها ، ووقاية المجتمع من شروخ الانحلال والفتنة إذا ترك الحبل على الغارب للنساء والرجال في المجتمعات ، ومثل هذا استحسان تدوية المرأة بالرجل في الميراث ، واستحسان بعض المعاملات الربوية ، ومحاولة إيجاد منفذ للقول بإباحتها شرطاً ، وإغراء بعض أهل العلم باسم التجديد والجرأة الفكرية وإظهار الإسلام بمنظر المطاوعة للتقدم على الوجه الذى يزعمون - إغراؤهم باقتحام حصون التشريع تلبية لهذه الأهواء الباطلة .

وقاعدة الإسلام التى لا يجوز الخروج عنها لمؤمن ، أن ننظر فيما يعرض لنا من مسائل وأحكام ، فما كان في كتاب الله تعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أخذنا به ، وعملنا على بيان حكمته وما فيه من المصلحة ، ليقنع به من يظنون أنه مخالف للعصر ، أو غير صالح للمجتمع الحديث كما يقولون ، فإن لم نجد طبقنا أصول الإسلام في النظر وتحريم المصلحة مستعينين بآراء من سبقنا من سلفنا الصالح ، وأتمتنا الاعلام ، دون أن نقيد إلا بما صح سنده ، ورجح دليله .

أما أن نعتق رأى لأن شعباً من الشعوب اعتقه ، أو مفكراً من مفكرى

الشرق أو الغرب دعا إليه ، ثم نلتبس له وجهاً في الإسلام ، أو نأطرَ الأدلة الشرعية عليه أطرّاً ، فليس ذلك سواء السبيل .

• • •

٣ — وأمر ثالث يحضرنى الآن وأحب أن أنه إليه ، ذلك أنى سمعت أن بعض أهل العلم كان يحث الناس في بعض الجمعيات الإسلامية ، على الاهتمام بالثقافة الدينية ، والعناية بتربية جيل يفهم الدين والشرعة حق الفهم ، ويؤمن بهما على بصيرة حق الإيمان ، وأن نصلح مناهجتنا وطرق دراستنا لهذه الثقافة الإسلامية إصلاحاً يتفق وهذا الاهتمام ، فإن الإدراك الصحيح هو أقرب وسيلة إلى الإيمان القوى ، وإن الإيمان القوى هو أكبر مدد للروح المعنوى .

سمعت أن بعض أهل العلم كان يكلم الناس بهذا ، فقال قائل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حارب وجاهد بقوم لم يكونوا يعرفون من الإسلام إلا شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وكان العربي البدوى يدخل الإسلام بهذه الكلمة ، ثم يصبح جندياً محارباً يجاهد في سبيل الله ، دون أن يعرف ما قاله مالك أو أبو حنيفة أو غيرهما في المحيرة بالحيض من النساء ، أو فيمن ولدت بالشرق وزوجها غائب عنها أكثر من مدة الحمل في المغرب ، ولا في زواج تم بين إنسى وجنية ، أو جنى وأنسية ، إلى غير ذلك من المسائل التى يشغل بها أهل العلم الآن ، والناس في جهاد لطرده الاستعمار ، ومقاومة المبادئ الهدامة ، والمذاهب الاقتصادية الخطرة ... الخ .

هذا ما يقوله بعض الموجهين للشباب ، وهم فيه مغالطون ، فما كانت الثقافة الإسلامية والتعاليم الإسلامية بخافية عن الأمة في مجموعها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وما كانت الأمة متمثلة فقط في هذا الأعرابي البدوى الذى لا يعرف إلا الشهادتين ، ولكن كان فيها رجال من خول الفكر والرأى ، وعابرة السياسة والحرب على علم وبصيرة وإيمان ، ولم يقل أحد إن النبي وأصحابه أعرضوا عن إعداد العدة ، وتهيئة الأمة بالوسائل المادية ، إلى جانب

الروح المعنوى ، بل كانوا يملكون أبناءهم الرماية والسباحة ، ويعودونهم الجرى والسبق وركوب الخيل ، وهذه كانت يومئذ هي علوم القوة ووسائل الجهاد ، ولو كان فى زمن الرسول طائرات لملوهم الطيران صناعة وركوبا ، ولو كان فى زمنهم قفز من الطائرات لملوهم كيف يقفزون ، وإنّ جهلنا بديننا هو الذى جعلنا نظن أن الله قاصر على الأحكام الخاصة ، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وسبيل القوة هو المشاركة فى العلم فلا يجوز للسليدين أن يهملوا علما من شأنه أن يزيد قوتهم ، ويؤمّنهم شر أهدائهم ، وإلا كانوا مخالفين لهذه الآية .

فهذا واجب على الأمة ، ولكنه لا ينافى اشتغال فريق من أبنائها بالعلوم الشرعية ، والأحكام الفقهية ، فإن فقه الإسلام ما هو إلا منهاجه وشرعته فى الحياة . ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولا يعيب المشتغلين به أن يتعمقوا فى دراسته إنما العيب فى أن يقصروا فيه ، ويكتفوا عنه ، وفى أن تكفى الأمة بالعلوم النظرية دون العلوم العملية .

والله تعالى هو المسئول أن يهدينا سواء السبيل ، وأن ينجبنا الجدل القيم ، فإنه « ما ضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل » .
« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب » ٩

فَسِيرِ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

— ٦ —

عود على بدء في نداءات السورة : الوفاء بالعقود أصل من أصول الاجتماع — المقومات المادية والمعنوية للأمة — الصلاة والتطهر شعيرتان من شعائر الإسلام — ميثاق الإيمان يقتضى للمؤمنين أن يكونوا « قوامين لله » : على « القوامية لله » تبنى عظمة الأمة — القسط صمام الأمن في كل مجتمع — العدل ميزان لا يتأثر بالحب ولا بالهوى — البغض في الله لا يبرر الانحراف عن العدل — سوابق الفضل والإحسان ، مدد للإيمان — لا سبيل للنجاح إلا ابتغاء الوسيلة إلى الله

آيات النهى عن موالاته المؤمنين للكافرين في هذه السورة — لاموالاته للأعداء ، ولكن بر وقسط ولو سلف منهم الإيذاء — العداوات ليست دأمة .

استطراد للعبرة : المسلمون أولى بالبر والقسط فيما بينهم — جناية التعصب على الأخوة الإسلامية .

لا ولاية بين الحق والباطل — لا رابطة بين منافق ومنافق — دلالة التعبير بلفظ : « الاتحاد » .

بواعث اتخاذ الكافرين أولياء : ملاحظة المصالح الخاصة — قصة حاطب بن أبي بلتعة — لماذا لم يحكم عليه الرسول بالكفر — عبرة المؤمنين من هذه القصة — مصالحة الأعداء لاحتمال تغلبهم — ابتغاء العزة والسلطان عندهم — اتقاء شرهم .

عود على بدء في نداءات السورة :

تقدم الكلام عن ست آيات من الآيات التي جاءت في سورة المائدة مبدوءة بنداؤه المؤمنين ، وتتكلم اليوم عن ثلاث أخرى من هذه الآيات موضوعها :

تحريم اتخاذ المؤمنين أولياء من أعدائهم ، ينصرونهم أو يستنصرون بهم على قومهم ،
وبيان أن تولى المؤمن للكافر مناف لعقد الإيمان ، مخرج من ريقته .

وقبل أن نتكلم عن هذه الآيات نذكر أن جميع ما جاء في هذه السورة من
الآيات المبدوءة ببدء المؤمنين ، قد تضمن موضوعات هامة لها قيمتها في تكوين
الامة تكويناً قوياً صالحاً في دينها وشعائرها وأسس حكمها ومعاملتها لمخالفها ،
ولكى نبين ذلك ، ونربط به حديث اليوم ، نعود إلى النداءات السابقة لعرضها
عرضاً يسيراً ، ونستذكر موضوعاتها التي تحدثت عنها :

فائداء الأول : وهو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، هو
أعمها وأشملها ، وهو بمثابة العنوان لكل ما جاء بعده من النداءات التي هي في الواقع
تفصيل لإجماله ، وتفريع على قاعدته وأصله .

الوفاء بالعقود أصل من أصول الاجتماع :

والوفاء بالعقود أصل من أصول الاجتماع ، وركن من أركان الحضارة .
الراقية المهدبة التي تنشذ الاستقرار والطمأنينة ، فلا غشراً أن يكون له هذه
الاهمية في التشريع الإسلامي ، وأن تبدأ به السورة التي كانت من أواخر ما نزل
من القرآن ، والتي أنتمت على المسلمين قواعد المجتمع الصالح الرشيد ، حتى جاء فيها
قوله تعالى : « اليوم يثس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوم واخشون ، اليوم
أكلت لكم دينكم وأنتمت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

المقومات المادية والمعنوية للامة :

وقد أتبع هذا الأمر الإجمالي بيان ما أحل الله للمؤمنين من الطيبات ، وما
حرم عليهم من الخبائث ، في الطعام والصيد والنساء ، وجاء النص في هذا البيان على
حل طعام أهل الكتاب ، وحل الزوج من نسائهم قطعاً لما عسى أن يقوم بالأذهان
من حرمة ذلك ، اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم
وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب
من قبلكم إذا آتيتنهم من أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ، .

ولا شك أن طبيعة الاجتماع البشرى تفرض تعظيم هذه الناحية التي ينتمي بها الناس أن يعرفوا الأساس فيما لهم أن يتناولوه أو يمتنعوا عنه مما يقيم بنيتهم ، ويلبي نداء طبيعتهم ، ويحفظ حياتهم .

والنداء الثاني ، وهو قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ ، الخ هو أمر الأمة بأن تحتفظ بظهورها ومميزاتها وما جرى فيها مجرى الخصائص ، فلا تقتك شيئاً من ذلك ، ولا تتهاون فيه ، فإن تتهاون الأمة في شعائرها ، وتفريطها في الطابع الذي تمتاز به ، من شأنه أن يدفعها إلى التحلل ، ويفضي بها إلى الانهيار ، ويظهرها أمام الأمم الأخرى بظهور الهازل المستهتر الذي لا يتورع أن يهدم بيده أساس بيته ونظام عيشه ، كما أن من شأنه أن يسقط هيبتها ، ويهون من عظمتها ، ويُجرئ عليها غيرها ، ولذلك نرى الأمم إن تتهاونت في شيء مما يتصل بها فلن تتهاون فيما يعد شعاراً لها ، ومظهراً من مظاهر كرامتها وعزتها ، وربما قامت الحرب الضروس من أجل راية أهينت ، أو شارة احتقرت ، أو نحو ذلك مما له مساس بكرامة الأمة ، واعتداء على هيبتها .

ومما ينبغي أن نلفت إليه أن هذين الندامين قد جاءا في السورة متداخلين متديجين اندماجا ربما أوحى بأنه لا انفصال بين ما هو من مقومات الأمة في حياتها المادية ، وما هو من مقوماتها في حياتها المعنوية ، فالشعار والمظهر ، كالمأكل والمشرب وسائر ضروريات الطبيعة ، كل ذلك لا بد منه في حياة الاستقرار والطمأنينة .

ومما ينبغي أن نلفت إليه أيضاً أن الله - جلّت حكمته - قد أكد في تضاعيف هذين الندامين ، وجوب احترام الشعائر ، والوفاء لها ، بالنبه عن الانسياق وراء بواعث الرغبة البشرية في الانتقام متى تعارض ذلك مع الوفاء لشعيرة من الشعائر ، كشعيرة تأمين الشهر الحرام ، والبيت الحرام ، وذلك قوله تعالى : « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

الصلاة والتطهر شعيرتان من شعائر الإسلام :

والنداء الثالث ، وهو قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم ، الخ ، هو تنظيم للوسيلة إلى أهم عبادة كلها الله المؤمنين ، وهي الصلاة ، والوسيلة إليها هي التطهر ، والصلاة شعيرة من شعائر الإسلام ، من أقامها فقد أقامه ، ومن هدمها فقد هدمه ، ووسيلتها التي فرضها الإسلام على هذا النحو في الغسل والوضوء والتيمم لا توجد عند غير المسلمين ، فهي أيضاً من المظاهر المميزة للأمة الإسلامية ، وهي من العقود التي يأمر الله عباده بالوفاء له بها ، ويحذرون من استنفاها ، ويذكرونها في شأنها بنعمته عليهم ، وميثاقه الذي وانقهم به « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون . واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي وانقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ، واتقوا الله ، إن الله عليم بذات الصدور .

والنداء الرابع هو قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله أن الله خبير بما تعملون .

ونحب أن نخص هذا النداء بكلمة فيها شيء من البسط لبيان أهميته في تقوية كيان الأمة ، وضرورته في حفظ سياجها .

ميثاق الإيمان يقتضى المؤمنين أن يكونوا « قوامين لله » :

وأول ما ننبه إليه في ذلك أنه جاء كسائر الداءات الأخرى ، تفصيلاً لعقد من العقود التي أمر المؤمنون بالوفاء بها في أول هذه السورة ، فيميناك الإيمان الذي واثق الله به المؤمنين ، يقتضى أن يكونوا « قوامين لله » .

على (القوامية لله) تنبى عظمة الأمة :

والقوام : هو المبالغ في القيام بالشيء ، المضطلع به اضطلاعاً قوياً ، فهو شديد الحرص عليه ، شديد الوفاء له ، شديد الغيرة على تمامه وصلاحه . إن الناس قد يشتغلون بألوان من الأعمال ، ويهتمون بكثير من الشؤون ،

ويقومون بهذا وذلك قياماً معتاداً ما لوفا لا يكافهم انبعاثاً خاصاً ، ولا يدفعهم إلى بذل جهود فوق العادة في سبيل تجويد أعمالهم واثقانها ، ولكتنا نصادف في الأمم ، وفي البيئات العامة أو الخاصة ، أفراداً يكون اهتمامهم بأعمالهم وما أسند إليهم ، أو ما أخذوا أنفسهم بالقيام به ، اهتماماً على نحو فريد له شأن يلفت النظر ، ويشير الإعجاب ، ويبشر بالخير والصلاح . إن أمثال هؤلاء يَفْتَنُونَ في أعمالهم فناء كلياً ، ولا يدخرون في سبيل إصلاحها وإتمامها سعياً ولا جهداً ، ويفارون عليها غيرة شديدة تبعث فيهم نشاطاً عجيباً ، وجلداً غريباً ، وصبراً يصبح مضرب الأمثال ، ترى الواحد منهم لا هم له إلا أن يحقق النجاح لما اضطلع به من شأن ، ولا شيء في نظره يمكن أن يلويه عن ذلك أو يصدّه ، فلا هو بالحريص على غنى أو مجد يناله ، ولا هو بالضعيف عن عتبات أو صعاب تعترضه ، ولا هو بالكص على عقبيه إذا طال عليه الأمد ، أو تعقدت بين يديه العقدة .

هذا هو « القَوَام » ، بالشئء ، وهذا هو الذي يطلب الله إلى المؤمنين أن يكونوه له ، فهو يريدهم أن يكونوا « قوامين لله » ، مضطلمين بأمره على نحو قوى ظاهر القوة ، لا أن يكونوا صوراً ضعيفة هزيلة ، يَرْضَوْنَ بأيسر الأمور ، وأدنى الآمال ، ولا يبذلون أكرم الجهود ، ويتلصسون المعاذير عن ضعفهم وتخاذلهم ، وهذا لون من التربية للشعوب ، والعمل على إيجاد رأى عام قوى فيها ، كما يقول علماء الاجتماع ، يكون مهيباً محترماً ، يوجه إلى الخير العام الذي يصوره هذا التعبير البليغ الجامع : « كونوا قوامين لله » . فكل الناس مطالبون بأن يكونوا على هذه الصفة ، ذوى شخصيات قوية ، مضطامة بما تضطلع به في نبات وعزم وشجاعة ، واضطلاعاً بذلك لله ، فهو قصدها ، وهو باعثها ، وهو ملهمها ، وهو غايتها ، عندئذ يكون الحاكم « قَوَّاماً لله » ، والمحكوم « قَوَّاماً لله » ، والناصح « قواماً لله » ، والمنصوح « قواماً لله » ، ومثل ذلك كل عامل فيما حوَّله الله ، وعندئذ تكون الأمة بناء قوياً ، من لبنات قوية ، وتكون في حصانة من أن تهضم أو تهدم أو تهزم أو تُظلم أو تهمل .

القسط صمام الأمن في كل مجتمع :

هكذا يأمرنا الله تعالى أول أمر في هذا النداء ، ثم يأمرنا بعد ذلك بالأمر الثاني ، وهو قوله عز وجل : « شهداء بالقسط » ، والقسط هو العدل ، وهو صمام الأمن في كل مجتمع ، والشهادة به لإظهاره للحاكم ليحكم به ، وإظهاره من الحاكم بالحكم ، فالحكام مطالبون بأن يكونوا شهداء بالقسط ، على معنى أن يظهروه ويؤيدوه ويحكموا به ، والناس مطالبون بأن يكونوا شهداء بالقسط على معنى أن يُدُلُّوا به إلى من وَلَّوه حكمهم ، وأن يظهروه عليه ، ويؤيدوه فيه ، ويرضوا به ولا يخرجوا عليه ، والقسط في الحكم والشهادة هو أساس الاستقرار والطمأنينة في كل مجتمع ، فإدام ميزانه صادقا ، والأيدي التي تمسك به أمانة حفيظة ؛ فالمجتمع بخير وسعادة ، أما إذا اختلف ميزانه ، أو اعتل من وكل إليه أمره ، فهنا الشقاء كل الشقاء ، وهنا التزعزع أشد التزعزع ، وهنا ضياع الثقة بين الناس بعضهم وبعض ، وبين الحاكمين والمحكومين ، وهنا تربص كل فريق بصاحبه ، وتحثُّن الفرص للإيقاع به ، وهنا - لذلك كله - ضعف الأمة ، وطمع أعدائها فيها ، ثم انقضاءهم عليها ، ثم استعبادهم لها ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . .

العدل ميزان ، لا يَأْثُرُ بالحب ولا بالشأن :

ثم يقول الله تعالى : « ولا يجرمنكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » ، فينهي بذلك للمرة الثانية في هذه السورة عن ملاحظة عوامل الكراهية والشأن ، التي من شأنها أن تلَوِّن العدل بغير لونه ، وأن تحمل على التحيف وإضاعة الحق ، وذلك هو الإخلال بالعدل عن طريق الاجحاف بصاحب الحق ، والحيلولة بينه وبين الوصول إلى حقه .

وقد جاء المعنى المقابل لهذا في سورة النساء حيث يقول الله جل شأنه : « ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ، فهو نهى عن ملاحظة عوامل التعصب

لنفس ، أو التحيز للقرابة ، مما يمتد على تلوين العدل بغير لونه ، وإعطاء المشهود له ما لا يستحقه ، وذلك هو الإخلال بالعدل عن طريق محاباة النفس ، أو من تميل إليه النفس .

البغض في الله لا يبرر الانحراف عن العدل :

ومما ينبغي أن نلتفت إليه أن الآية التي نحن بصددتها من سورة المائدة ، تحتم بالأمر بالعدل ، وبيان أنه هو الأقرب للتقوى ، أى من ملاحظة دواعي الكراهية والشأن ، وكأنها بذلك تشير حتى إلى الحالات التي يكون فيها الشأن لله ، لا لغرض شخصي أو دنيوي ، فالمكروهون حتى لمثل هذا الغرض الشريف ، الذين تقرر الشريعة بغضهم ، بل تأمر به ، يجب أن يتمتعوا مع هذه الكراهية بالعدل وإيفاء الحق ، فلو أننا وازنا بين المصلحة في إقامة العدل لهم ، كما يقام لسائر الناس ، وبين ما يتوهم من المصلحة في ظلمهم ، والحيف عليهم ، انتقاماً منهم ، وضغطاً عليهم بحجة أنهم أعداء الله ، والخارجون على أمره ، والمفسدون في أرضه ، لوجدنا المصلحة الأولى أحق بالاعتبار ، وأشبه بالسموالذي يريده الله ابني الإنسان وأقرب لتقوى الله ، وأدنى إلى تحقيق مرضاته ، أما المصلحة الأخرى فليست بجانب هذه إلا وهما يخيله الشيطان ليفسد به العدل على المؤمنين ، ويدس به عليهم ، كيداً لهم وخداعاً ، وإيقاعاً بهم وبمجتمعهم ، على أن أمر الكراهية والشأن غير مضبوط ، فكثيراً ما يظن الإنسان أنه يكره امرأ لا يكرهه إلا في الله ، والواقع أنه يكرهه كراهة شخصية لسبب من الأسباب بدا له أو خفي عليه ، وليس من الحكمة أن تعلق العدالة بهذه العاطفة المتأرجحة غير المنضبطة ، وإنما الحكمة كل الحكمة تقضى بأن تكون العدالة حرة مطلقة الحرية ، محايدة لا تعرف المحاباة ولا الكراهية ، ولذلك يمثلونها في هذا العصر شخصاً معصوب العينين ، حتى لا يرى ما يتأثر به ، وفي يده ميزان مستقيم ، وتنا لله إن هذه لمي عدالة الإسلام التي يأمر بها القرآن ، ولا يرضى إلا بها رب القرآن ، والتي لا تعرف عدواً ولا صديقاً ، ولا قريباً ولا بعيداً ، والتي تضع أمام الناس هذه الحقيقة الصادقة ، إذ تثبت ميزان العدالة في أيدي المسكين به ، وتخوفهم من أن يلتوا فيه ، أو يعتدوا على

قدسيته ، مع علم الله بهم ، وخبرته التامة بأعمالهم ، واثقوا الله إن الله خير بما تعملون . .

سواق الفضل والإحسان ، خير مدد للإيمان :

والنداء الخامس هو قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسلطوا عليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم ، واثقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، وقد تقدم بيان المقصود منه ، في العدد الماضي ، حيث أبجى الله رسوله والمؤمنين من كيد عدوهم ومؤامراتهم عليهم ، وسواق الفضل والإحسان خير مدد للإيمان وحسن التوكل ، وفي هذا التذكير تقوية لقلوبهم ، وبشارة بنصرهم وتأيدهم ، ما داموا على ربهم دون سواء معتمدين ، وصرف لهم عما عسى أن يرادهم من التعويل على غيره ، والخماس الأمن والطمأنينة من سواء ، وهو بهذا تمهيد لآيات النهي عن اتخاذ أعداء الله أولياء ، كأنه يقول لهم : إن شأني معكم أن أحفظكم وأدرا الشر عنكم ، ولا أمكن عدوكم منكم ، لأنكم أوليائي ، وأنا وليكم ، فلا تركنوا إلى غيري ، ولا تتولوا سواي ، ولا تطلبوا الأمن والسلامة إلا من طريق .

لا سبيل للفلاح إلا ابتغاء الوسيلة إلى الله :

وكذلك النداء السادس : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون ، فهو إيدان بأن ابتغاء الوسيلة إلى غيره ، ومن بينها اتخاذ أعداء الله أولياء ، لا يجدي صاحبه نفعا ، ولا يكسبه نصرا ولا أمنا ، وإنما يكسبه ذلك أن يكون الله وليه ، وأن يجاهد في سبيله ، فذلك هو الذي يرجي فلاحه ، و ينتظر نجاحه .

ولا شك أن هذا مبدأ من أقوى المبادئ التي تصلح عليها الآدمي ، وتستقيم بها العقول ، وتشجذ الدرائم والحمم ، إذ يؤمن كل امرئ بأن الفلاح لا سبيل إليه إلا ابتغاء الوسيلة إلى الله ، والجهاد في سبيل الله ، فإذا ابتغى الناس الوسيلة إلى الله أرضوه بطاعته في أمره ونهيه ، وإذا جاهدوا في سبيله قمعوا الباطل ، ونصروا الحق ، وأقروا في مجتمعهم الخير ، ونفوا عنه الفساد والشر .

آيات النهى عن مولاة المؤمنين للكافرين في هذه السورة :

بعد هذا تنجي الآيات التي تنهى المؤمنين عن اتخاذ أعداء الله أولياء ، وهي نداءات ثلاثة :

أولها : في تقرير هذا النهى ، وبيان أن واقع الطبيعة والفطرة تقتضيه ، وأن مجاوزة هذا الواقع ظلم لا يرضاه الله ، ولا يهدى أصحابه ، ثم في تصوير اندفاع مرضى القلوب إلى ارتكاب هذا الظلم ، وما يتعلمون به من المعاذير لتبرير فعلهم وما يرجى من تطور الأمور تطوراً يفضى بهم إلى الندم والحسرة ، ويفضى بالمؤمنين إلى الشماتة بهم ، والسخرية منهم ، وذلك هو قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ، يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تَصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ، وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ » .

النداء الثانى من هذه النداءات الثلاثة - وهو النامن من نداءات السورة - فى أن الله تعالى مستغن عن ىرتد عن دينه ، وأن يضمر ذلك شيئاً ، وسوف يأتى بدل من ىرتد بقوم تحقّق فىهم صفات الإيمان الصحيح ، والجهاد الصادق ، وقد ألحق بهذا النداء آيتان أخريان تقرران أن المؤمنين ليس لهم من ولى إلا الله ورسوله وإخوانهم فى الإيمان والتزام أحكامه ، وأن عاقبة الذين يتولون الله ورسوله والذين آمنوا هى الفلاح والغلب ، لأنهم حزب الله ، وذلك هو قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » .

النداء الثالث : وهو السابع من نداءات السورة - يكرر النهى عن اتخاذ الأعداء أولياء ، ولكنه يذكر هؤلاء الأعداء بأوصافهم التى استحقوا بها هذا النهى عن ولائهم ، ويجمع فى ذلك بين الذين أوتوا الكتاب والكفار من كل من اتخذ الدين هزوا ولعبا ، واتخذ نداء المؤمنين إلى الصلاة التى هى مظهره وشعاره هزوا ولعبا ، وذلك قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مَّوْمِنِينَ ، وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ . »

هذه هى النداءات الثلاثة التى جاءت فى سورة المائدة متضمنة النهى عن موالاته المؤمنين لغيرهم من أهل الكتاب ومن الكفار .

لا موالاته للأعداء ، ولكن بر وقسط وإن سلف منهم الإيذاء :

وينبغى أن يذكر القارىء أن هناك فرقا بين « الولاية » التى هى النصرة والمعاونة على تحقيق غرض مشترك ، بحيث يؤمن كل من « الوليين » أن لصاحبه عليه حقا هو مطالب بأدائه عن باعث قلبى ، وبين البر والقسط اللذين يجب أن يسودا المجتمع وتقوم عليهما العلاقة بين المواطنين ، وإن لم تجمعهما فكرة ، أو تواخ بينهما عقيدة ، ولذلك وقف القرآن من كل واحدة من هاتين العلاقتين موقفا يناسبها ، فهو ينهى المؤمنين أشد النهى عن اتخاذ المخالفين لهم من أهل الكتاب والمشركين « أولياء » يرتبطون بهم ارتباط المتناصرين بعضهم ببعض ، وذلك بأن يستعينوا بهم على المؤمنين ، ويعينهم عليهم ، بينما يبيح للمؤمنين أن يعاملوا المخالفين فى الدين معاملة أساسها البر والرحمة والقسط ، ما دام لم يصدر منهم إيذاء لهم ، ولا تحريض عليهم ، ولا محاولة لفتنتهم عن دينهم « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » ، بل هو يذهب إلى أبعد من هذا فى التسامح ، فيبيح للمسلم أن يتخذ البر والقسط أساسا للتعامل بينه وبين مخالفه الذى آذاه ، بشرط ألا يصل الأمر بينهما إلى حد « الولاية »

والنصرة ، ويدل على ذلك قوله تعالى بعد الآية المتقدمة : إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ، فقد صرحت هذه الآية بأن المنهى عنه - في شأن هؤلاء - هو اتخاذهم أولياء ، لا مجرد البر بهم ، والقسط لإيهم .

العداوات ليست دائمة :

وقبل هاتين الآيتين يقول جل شأنه : عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم ، وفي هذا إيماء بأن العداوات ليست دائمة ، وأن القلوب تتغير وتتحول ، وأن الرفق والإحسان قد يكونان سبيلا إلى إصلاح النفوس ، وتقريب القلوب ، وقد حدث فعلا في تاريخ المسلمين أن كثيرا ممن كانوا أعداء لهم ، وحربا عليهم قد أسلدوا وحسن إسلامهم ، وأبلى في الدفاع عن الدين بلاء حسنا ، فاقته تعالى لا يرضى بأن يتخذ المؤمن مخالفه في الدين وليا ومناصرا ، ولكنه مع ذلك يعطى هذا المخالف حقه في علاقات المعاشرة والمواطنة التي تقوم على البر والرحمة والقسط ، وكلا الأمرين هو غاية الحكمة والدستور الطبيعي للإنسانية في كمال وعيها ، وكال رقيها وسموها .

استطراد للعبارة : المسلمون أولى بالبر والقسط فيما بينهم :

ويحسن بنا أن نقف هنا وقفة يسيرة مستطردين إلى معنى يهمننا في هذا المقام فنقول : إذا كانت سماحة الإسلام قد وصلت إلى حد أن أباحت للمسلمين البر باعدائهم ومخالمتهم في الدين ، وأن يقسطوا لإيهم ، يعدلوا في شئونهم ، وإذا كان القرآن الكريم قد نهى المؤمنين عن ملاحظة عوامل الشآن في معاملتهم لأعدائهم وقال لهم : ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، ثم قال لهم : ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ، ؛ أفلا يذكر المسلمون أن علاقتهم فيما بينهم أولى بهذه السماحة ، وأجدر بأن تبنى على أساس البر والرحمة والقسط ، فلا تحملهم النزعات الطائفية أو المذهبية على تناسي ما بينهم من أخوة الإسلام ، والتراحم الذي لم يحرم القرآن منه حتى أعداء الإسلام ؟

جناية التعصب على الأخوة الإسلامية :

إن عهود الخلاف البغيض ، والعصية الطائشة ، قد أفضت بالمسلمين بعضهم مع بعض إلى موقف كانوا فيه أسوأ حالا من موقف أعدائهم ، فمؤلا يعاملون بالبر والقسط ، وأولئك يعاملون بالعنف والتسفيه ، بل يتهم بعضهم بعضا بالكفر والمروق ، وقد نبت هذا المعنى أول ما نبت في بيئة الحوارج ، فهم الذين كانوا ينظرون هذه النظرة القاسية إلى مخالفهم في الرأي من المسلمين ، فإذا وقع في أيديهم كتابي تركوه وشأنه ولم يعرضوا له بسوء وأبلغوه مأمنه ، أما إذا وقع لهم مسلم من مخالفهم فإنهم يستحلون دمه ، لأنه في زعمهم كفر بعد إيمانه ، ولذلك كان بعض المسلمين إذا ألقت به المقادير بينهم لم يجد وسيلة إلى التخلص من شرهم ، والإفلات من أيديهم ، إلا أن يكنى عن دينه ، فيقول : أما من أهل الكتاب ، وعندئذ يطلقونه ويحمونه .

فهذا الذي يرويه التاريخ عن الحوارج وتعصبهم على أهل القبلية الإسلامية ، واعتبارهم الاختلاف في الرأي مروقا من الدين ، قد سرى إلى المسلمين في كثير من عصور التاريخ الإسلامي ، وشمل كثيرا من الأقطار الإسلامية ، وكان المسلم بخاصم أخاه المسلم ويقاطعه ، بل يظله ويهضمه ويُسَلِّمه مجرد أنه يخالفه في مذهبه أو ينسب إلى طائفة غير طائفته ، وهكذا بعد أن كان المسلمون في مواقف يتلقون فيه أمر ربهم بالإحسان إلى أعدائهم ، والبر بخصومهم ، والعدل معهم ، أصبحوا في موقف يذكرون فيه بأخوة الإسلام ، وتراحم الإيمان ، وأصبح بعضهم يلتمس العدل والنصف في معرفة رأيهم ، والوقوف به عند حده دون تأويله وتأويل سيئا ، وتحمله ما لا يحتمل من وجوه الكفر والمروق ونحوها - أقول : أصبح بعضهم يلتمس ذلك من بعض فلا يجده ولا يصل إليه ، كأنه مع أخيه أدنى حالا من الكتابي أو المشرك مع المسلم .

يجب أن يزول هذا إلى غير رجعة ، يجب أن يتسامى أهل الإسلام عن هذا الحضيض ، حضيض الخلاف والقطيعة والإنصات إلى النزعات المفرقة المبددة للجهود ، الصارقة عن النافع من الأعمال الصالحة ، والعلوم الصحيحة .

ونعود بعد هذا إلى موضوعنا في دراسة النهى عن اتخاذ الكافرين أولياء ، فنقول :

لا ولاية بين الحق والباطل :

إذا توافق جماعة على أمر ، فكان نظرهم إليه واحداً ، وحظهم منه واحداً ، فالفطرة تقضى بأن يكونوا فيه نصراء ، بعضهم أولياء بعض ، وذلك يتصور بين المؤمنين والمؤمنين ، ويتصور بين الكافرين والكافرين ، ولكنه لا يتصور بين مؤمن وكافر ، ولا يتصور بين منافق ومنافق ، ولذلك أثبت الله الولاية للمؤمنين بعضهم مع بعض ، فقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، وأثبتهم للكافرين بعضهم مع بعض فقال : « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » وهو نفس التعبير الذى جاء فى آيتنا التى نحن بصدددها : « يأبى الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، أما ولاية المؤمن للكافر فقد نفى الله أن تكون ، وذلك حيث يقول : « ومن يتولم منكم فإنه منهم » ، يعنى أن الإيمان وتولى الكافر متنافيان ، فلا يمكن أن يجتمعا ، ولا يعقل أن المؤمن من حيث هو مؤمن يوالى الكافر من حيث هو كافر ، وكل آيات القرآن متضافرة على هذا ، ففى سورة التوبة : « يأبى الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استجبوا الكفر على الإيمان ومن يتولم منكم فأولئك هم الظالمون » ، والشاهد فى قوله : « فأولئك هم الظالمون » والآية تدل على أن هذا النهى الحاسم لا يتأثر بأية رابطة حتى رابطة الأبوة والأخوة ، وهى الرابطة النسبية : رابطة اللحم والدم ، وفى سورة المائدة : « ويةقول الذين آمنوا أهدؤا الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئهم لمعكم ، حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » ، والإشارة إلى الذين يتولون الكافرين .

لا رابطة بين منافق ومنافق :

ولم يثبت الله سبحانه وتعالى « الولاية » بين المنافقين بعضهم مع بعض ، لكن قال « والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض » ، والتعبير بلفظ (من) يفيد معنى التقشبه ، ولا يفيد معنى التناصر والولاية ، إذ لا رابطة قلبية بين منافق ومنافق ،

فكل منهما يريد أن يصل من طريق النفاق إلى ما يبتغيه دون أن تساوره فكرة الانتصار لشيء ، لأنه غير مؤمن بشيء .

وبعبارة أخرى : كل من المؤمن والكافر ذو عقيدة ، وقلبه ممتلئ بها على صحتها أو فسادها في الواقع ، فعنى . والاه أحدهما للآخر أن أحدهما أحلى قلبه من عقيدته وأحل محلها عقيدة الآخر فعمل لها ، وترسمها ، وحرص على تقوية أمرها وتأييدها ، فإن وقع ذلك من المؤمن فقد كفر ، وإن وقع ذلك من الكافر فقد آمن ، فالولاية بمعناها الواقعي الصحيح لا تقع إلا بين اثنين مشتركين في معنى واحد ، إما أن كانا أو كفرا ، أما المنافق فإن قلبه خلاء ، لا عقيدة تعمده ، وإن كان تكييف أمره ، من حيث إنه ترك الإسلام : أنه كافر .

دلالة التعبير بلفظ . الاتخاذ :

يرد بعد هذا سؤال : لم نهى الله اذن عن اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء ، ما دام الولاء والتناصر لا يمكن أن يكون بين مؤمن وكافر ؟

والجواب : أن التعبير في هذه الآية وغيرها بقوله . لا تتخذوا ، فيه إشعار بأن العلاقة بين المسلمين والكفار لا يمكن أن ترقى إلى درجة الولاية الحقيقية الطبيعية ، وإنما هي من باب . الاتخاذ ، والاصطناع ، وذلك أن هناك فرقا بين أن تقول : فلان صديق فلان ، وأن تقول : اتخذ صديقا ، فالأول مفيد أن الصداقة بينهما حقيقة طبيعية ، والثاني دال على أنها تعتمد التكلف والتصنع ، وقد جاء لفظ . الاتخاذ ، في القرآن الكريم غالبا فيما ليس الشأن فيه أن يكون ، مثل . ما اتخذ الله من ولد ، . إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب . . إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا ، . اتخذوا أيمانهم جنة ، . اتخذوا دينهم هوا ، . اتخذوا الشياطين أولياء ، ، ولا يخرج عن ذلك ما جاء في قوله تعالى . واتخذ الله إبراهيم خليلا ، فإن شأن الألوهية عدم الخلة على الحقيقة ، وإنما هو اتخاذ ، أى اصطفا . واختصاص بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله .

فالقرآن ينهى المؤمنين عن إيجاد هذه العلقة بينهم وبين الكافرين ، بأن

يتخذون أولياء يلقون إليهم بالردة ، كما جاء في سورة الممتحنة ، يأبها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمردة ، ، أما الولاية الحقيقية فنية بالطبع ، ليست مما ينهى عنه ، لأن المؤمن الذي استقر الإيمان في قلبه حقاً وصداقاً ، لا يمكن أن يجتمع في قلبه مع الإيمان ولا مع الكافر عدو لدينه ، كما قررنا .

بواعث اتخاذ الكافرين أولياء : ملاحظة المصالح الخاصة :

وقد بين لنا القرآن الكريم البواعث التي تبعث على اتخاذ الكافرين أولياء ، وأنها ترجع إلى ضعف في الدموس ، ونقص في الإيمان :

١ — فمن ذلك أن يلاحظ المرء مصلحة لأهله ورحمه ، فيجامل مخالفه في العقيدة إلى حد أن يكون لهم ولياً ونصيراً على إخوانه وموافقيه ، حفظاً لمصالح أهله ورحمه .

قصة حاطب بن أبي بلنعة :

وقد روى أن آيات ، الممتحنة ، نزلت في شأن حاطب بن أبي بلنعة ، وهو رجل من المهاجرين شهد بدرًا ، وكان له بمكة أولاد ومال ، فلما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة ، أراد حاطب أن يتخذ في قريش يدًا يحمون بها قرابته وماله ، فكتب إليهم كتاباً يخبرهم فيه بما اعتزمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسله مع ظعينة كانت بالمدينة وقصدت إلى مكة ، فأطلع الله رسوله على ذلك ، فأرسل علياً والزبير والمنداد ، فأدركوها في الطريق ، وأخذوا منها الكتاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا حاطب ، ما هذا ؟) قال : (لا تعجل عليّ إني كنت امرأً ملصقاً في قريش ، ولم أكن من أنفسهم - يعني أنه لا نسب له فيهم ، لأنه إنما كان حليفاً لثمان - وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كمرأ ولا ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنه صدقكم) فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنه شهد بدرًا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

لماذا لم يحكم عليه الرسول بالكفر :

وهكذا اعتبر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ضعفا فيه ، ولم يعتبره كفرا ولا ارتدادا يقتضى ضرب عنقه ، وذلك لأنه صدقه حين قال ما قال ومن بينه : (وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام) فمضى زلة منه ، تكييفها الصحيح : أنه اتخذ الكافرين أولياء فأفدى إليهم بسر المؤمنين الناساً لمصلحة خاصة له ، وهو ذنب عظيم ، ولكنه لم يصل إلى الكفر والارتداد ، لأن الكفر إنما يكون (بالتولي) أى بوقوع الولاية الحقيقية لا بالاتخاذ الذى هو الاصطناع والتكلف ، وهو محل النهى ، ولما كان هذا الرجل قد شهد بدرًا - وما أدراك بمن شهدوا بدرًا - فقد غفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم جنايته ، لما غفرها من سابقة الإحسان ، ولا سيما وقد بدت توبته وأسفه وبالف اعتراده وكشفه عن حقيقة نفسه ، دون مواربة ولا استخفاء .

عبرة المؤمنين من هذه القصة :

وينبغى أن نتعلم من هذا الموقف الذى كاد يودى برجل من أصحاب بدر ، لولا سابقته وما وقر فى قلب النبي من صدقه وتوبته - ينبغى أن نتعلم من هذا أن المؤمن يجب أن يكون واثقاً بالله ، متوكلاً عليه ، وأن يودى ما فرضه الله عليه ، وينتهى عما نهاه عنه ، غير ناظر إلى عواقب ما يفعل أو يترك ، فإنه إذا كان مبتغياً بفعله وتركه وجه الله ، كان الله حسبه ، وإذا دار فيما يفعل أو يترك حول أوهامه فى نفسه أو ولده أو رحمه اضطرب وأغضب ربه ولم ينفعه ما قدر ، وفى هذا تقول سورة الممتحنة : ان تفعمكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير .

وفى هذا إجماع بخطأ الذين يخرجون عن حدودهم وما أمرهم الله به ، خوفاً على أهلهم وأولادهم ، فتراهم يرتكبون الأوزار ، وينقضون عن مرتكبيها ، مصانعة لعيشهم ، واحتفاظاً بوظائفهم أو مراكرهم فى المجتمع ، وضناً بأولادهم أو أقربائهم أن يصيروا إلى فقر بعد الغنى ، أو ذل بعد العز ، أو تقشف بعد النعم

وهؤلاء في الحقيقة موازنون بين رضا الله ورضا أنفسهم وأهلهم وشهواتهم ،
فيؤثرون ذلك على الله ، وبئس ما يصنعون .

مصانعة الأعداء لاحتمال تغلبهم :

٢ — ومن ذلك أن ينظر المرء إلى عدوه نظرة الخوف من تغلبه عليه ،
وهذا هو المذكور بقوله تعالى : « فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ،
يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة » . وهو شأن كثير من تبلى بهم دعوات الإصلاح
والخير : في قلوبهم دائماً فزع ، ينظرون إلى غدهم متوجسين منه شراً ، ولا
يستطيعون أن يواجهوا أهل الباطل أقوياء ثابتين ، وإنما يقفون أمامهم متزلزلين
خائفين ، وإن ضرر هؤلاء على أصحاب الإصلاح لشديد ، بل هم أشد من الأعداء
السافرين ، وقد دلت التجربة الصادقة على أنه لأصلاح الأمر إلا إذا كان الدعاة
إليه والقائمون عليه مؤمنين به ، حاسمين في موالاة أربائهم ، ومجافة أعدائهم ،
أما التوسط في هذا فلا خير فيه ، بل هو الشر كل الشر .

ابتغاء العزة والسلطان عندهم :

٣ — ومن ذلك أن يبتغى المرء بموالاة عدوه شيئاً من العزة والسلطان
والجاه ، فتراه يتشبث بأهله ، ويترخص في مجاملته وموالاته وهو يعلم أنه عدو
الله ، ولعله لا يبذل مثل هذه المجاملة والموالاة لأحبابه ، ويعمل هذا وذلك بأنه كياسة
ولباقة ومداراة وإبقاء لقالة السوء ، وما هو في الحقيقة إلا ضعف وكلال وسوء
تصرف ، وقد ذكر هذا في قوله تعالى : « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون
المؤمنين ، أيتخون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعاً » .

هذه ، غالباً ، هي الأسباب التي تبعث على مصانعة الكافرين واتخاذهم أولياء ،
كما يشير إليها القرآن الكريم .

اتقاء شرهم :

وهناك موضع يحتاج إلى بعض الإيضاح ، وهو ما استثناء القرآن الكريم
في قول الله جل ذكره : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين

ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير .

ويرى المفسرون أن الاستثناء في هذه الآية معناه أن ترك موالاته الكافرين حتم على المؤمنين في كل حال إلا في حال الخوف من شيء يتقونه ، ويمثل به البغوى . لذلك في تفسيره بأن يكون الكفار غالبين ظاهرين ، أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان ، وقلبه مطمئن بالإيمان دفعاً عن نفسه من غير أن يستحل دماً حراماً أو مالا حراماً ، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين ، وفي ذلك يقول صاحب الكشف : « والمراد بتلك الموالاته مخالفة ومعاشرة ظاهرة ، والطلب مطمئن بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع » .

أقول : أما المخالفة والمناصرة بين المؤمنين والكافرين ، فإن كانت على مصلحة مشتركة وليس فيها ضرر بالمسلمين ، ولا تأييد للكافرين في دينهم ، ولكن على أن يكون لكل من الفريقين دينه ، فلا مانع من ذلك ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخالفاً لخزاعة من المشركين ، وقد صالح يهود المدينة ، وكتب بينه وبينهم كتاب أمن ، ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم ، وفي أمن على دمايتهم وأموالهم ، وبما جاء في عهده إليهم . وإنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ... وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، ومواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم أو أثم ... الخ ، ويجب على المسلمين في مثل هذه الحالة أن يفوا لهم ما وفوا لهم ، وأن يبنذوا إليهم على سواء إن خافوا خيانتهم ، كما هي قاعدة العمود في الإسلام ، ولا يتوقف ذلك على حالة الخوف من المؤمنين ، والغلبة من الكافرين ، بل يجوز في كل الحالات ، ولا يدخل في نطاق ما نهى المؤمنون عنه ، فلم ينه الله تعالى إلا عن الموالاته في الدين ، بأن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ينصرونهم في دينهم أو ينتصرون بهم على قومهم ، متجاوزين ولاءهم للمؤمنين ، وهو ما عبرت عنه

هذه الآية إذ تقول : « من دون المؤمنين ، أما ما رآه ذلك من التعامل والتعاون في التجارة والصناعة والبحث والكشف والاقتصاد ونحو ذلك ، حتى الشئون السياسية والعسكرية التي يكون للمؤمنين فيها مصلحة ، وليس على أحد منهم فيها ضرر ، ولو كانوا من غير دولتهم ، فلا بأس به ، ولا مانع منه ، فإنه حينئذ للمؤمنين لا عليهم .

وإن كان المراد بما قاله هؤلاء المفسرون الذين نقلوا كلامهم أن المؤمنين في حالة ضعفهم وخوفهم يقفون من الكافرين موقف الولي والنصير في الظاهر ، فليس هذا داخلا في عموم النهي الذي صدرت به الآية حتى يستثنى من هذا العموم ، فإن المنهى عنه هو اتخاذهم أولياء ونصراء من دون المؤمنين ، فكيف نفهم أن يستثنى من ذلك حالة الضعف والخوف ، فيكون المراد أنه يجوز لكم حينئذ أن تتخذوهم أولياء من دون المؤمنين .

والظاهر أن الاستثناء في هذه الآية منقطع ، والتقدير : لكن إن تقوا منهم ثقافة فذلك لكم ، وليس في هذا أن نواليهم ونناصرهم من دون المؤمنين ، وإنما فيه أن نزل في حالة الخوف على مقتضى القوة بقدر ما نتق به الضرر ، مع أخذ الحذر من الله ، وإتقاء أن يعلم فينا سوءا أو نية باطلة ، وهذا هو حكم الفطرة ، وما تمل به الحكمة ، وما كان الله ليكلف المؤمنين في حال خوفهم بأن يستمسكوا بما لا يستطيعون الاستمسك به ، وأن يضحوا بأنفسهم ومصالحهم تضحية لا ثمرة فيها ، ولا رجاء منها .

هذا ما اتسع المجال لكتابته في هذا العدد عن هذه النداءات الثلاثة : السابع والثامن والتاسع ، من نداءات سورة المائدة ، وإلى العدد الآتي لعلنا نستطيع أن نلم فيه بما بقي من أطراف هذا الموضوع الهام ، إن شاء الله تعالى .

وربنا المستعان وبه التوفيق ٢

الديمقراطية الصحيحة

لحضرة الاستاذ الجليل محمد علي علوبه

رئيس جماعة التقريب

- ٣ -

الديمقراطية والإسلام :

ظهر الإسلام في بقعة جرداء ، وفي بلد ما كان الناس يعرفون فيه سوى الغزو والتناحر والخمر والميسر وعبادة الأوثان ، وكانت الأمية هي السائدة في هذا الشعب شأها في كل شعب يسيطر فيه القوى على الضعيف ، وكان الحق للقوة القبلية ، وبالجمله كان هذا الركن من العالم مباهة شر وشقاء وحروب وتقاتل ومنبع رذائل .

في هذه الظلمات ظهر نور الإسلام ، والمتبع لأوامر الوحي الذي هبط على الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه يعلم أن الدين الإسلامي بدأ بتطهير النفوس من الرجس ، وتكريم الإنسان كإنسان له منزلته وكرامته جاعلا أساس العقيدة وحدانية الله جل شأنه ، وأن نبيه محمداً ما هو إلا عبد الله ، بعثه الله رحمة للعالمين .

توالى نزول الوحي على هذا الرسول الأمين - لإرشاد الناس وتطهير النفوس من الأدران والجهالات والمعتقدات الفاسدة ، وغرس العقيدة الصحيحة - طول إقامة الرسول الكريم في مكة ، فلما استقر الدين وتركزت مبادئه في قلوب من آمنوا به وهاجر رسول الله إلى المدينة ؛ أخذ الوحي ينزل بالأنظمة والتوجيهات الواردة في كتاب الله ، ولم يزل التشريع يتدرج حتى أتته الله وأعلن القرآن الكريم هذا التمام بقوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

ويمكنى لتأييد ما نقول أن ترجع إلى الآيات المسكية وأن تقارنها بالآيات المدنية لترى كيف عنى القرآن قبل أن يبنى الإسلام ذلك البناء التشريعى الشاخم بتطهير النفس وإرسائها فى جانب العقيدة والحلق على أسس صالحة حتى يكون العمل فى نظم الحياة الدنيا قائماً على أساس سليم .

* * *

أما هذه المبادئ الأولى التى قام عليها الإسلام لتطهير النفوس من أدران الأزمنة الغابرة ومفاسدها فكثيرة نجتزئ منها بما يأتى :

(١) وحدانية الله جل شأنه فهو الإله الذى يستحق وحده أن يعبد لأنه الخالق البارئ الذى يعلم السر والعلم .

(٢) أن نبيه ورسوله الذى يتلقى الوحي عنه ما هو إلا عبد له كسائر أنبياء الله ورسله وسائر الناس .

(٣) أن دين الإسلام ليس خاصاً ببقعة أو شعب من الشعوب ، وإنما هو دعوة إلهية وعقيدة عامة عالمية لتطهير نفوس الناس كافة .

(٤) أن الله جل شأنه كرم بنى آدم ، وسوى بينهم ، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالقوى ، وليس فى الدين طبقات ، وقد أقام الإسلام فكرة التعاون بين الناس على أساس متين من الفضيلة والإيثار ورعاية الرحم الإنسانية لحيرهم جميعاً . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . .

(٥) دستور الإسلام هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة النابتة عن رسول الله ، وأقول الصحيحة النابتة ، لأن كثيراً من الأحاديث قد وضعها أعداء الإسلام ودسوها على المسلمين ، وقد تجرد العلماء لبيان ما صبح وما لم يصب بعد تمحيصها ومراجعة سندها ، ووضعوا لذلك قواعد تشهد بفضلمهم وغيرتهم على الدين ودقنهم فى البحث ، وذلك كله مبسوط فى مؤلفاتهم الكثيرة ويمكن الرجوع إليها .

(٦) ليس لمخلوق فى دين الإسلام بعدد الرسول أن يدعى أنه ظل الله فى

أرضه أو أن يتحدث باعتباره مصدر الإسلام ، إنما مصدر الإسلام هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، فلا تلمس غفرانا من غير الله ، ولا ترج غير الله ، ولا تنتظر ثوابا أو أجراً من غير الله ، فلا واسطة بينك وبين الله المطلع على سريرتك ونيتك . إنما الأعمال بالنيات . وقال ربكم ادعوني استجب لكم .

(٧) ليس في الإسلام الكليروس ، ولكل مسلم أن يعتقد أنه حر يلتمس التوجيه من كتاب الله وسنة رسوله ، وإذا غمَّ عليه أمر فعليه أن يلجأ إلى من هو أفقه منه وأقدر على فهم الكتاب والسنة . فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون .

(٨) ليس في الإسلام مبدأ (الاعتراف) عن الخطايا لأحد من البشر ، وليس فيه طلب الغفران من أحد ، ولا تقديم القربان لضمان دخول الجنة . وإنما القاعدة الأساسية في الإسلام لمن أراد أن يتخلص من ذنبه ، هي الندم على ما فرط ، وطلب المغفرة من الخالق دون التجاء لأحد سواه .

(٩) لا رهبانية في الإسلام ، فالدين لا يعرف الحرمان من الزواج ، بل يحض أتباعه على الزواج والتناسل أخذاً بسنة الطبيعة البشرية ، ولأن المسلم في حياته لا يعرف الكهانة والكهنوت ، وإنما هو إنسان يمضي في الحياة الدنيا ويسعى في مناكبها مسترشداً بما أوحى ربه من الجمع بين العلم والعمل والجد لنصرة دينه والانتفاع بدينه تحت نظام دستور الله .

هذه بعض قواعد دين الإسلام ، وسنأتي على ذكر أحكام أخرى في الموضع الذي يحسن أن تكون فيه .

* * *

شخصية الرسول :

وقبل أن نشير إلى نظام الحكم في الإسلام ونقارنه بالديمقراطيات ، نرى لزما علينا أن نتكلم بوجازة عن شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يتصل بموضوعنا الذي نعالجه .

هل هو حاكم فرد - أى (أتوقراطى) بالمعنى السابق ذكره ؟ أو هو (دكتاتور)
ينفرد بالامر دون رقيب أو حسيب ؟ وهل هو (ديموقراطى) بالمعنى الذى نفهمه
مما أسلفنا ، أو (ديماجوجى) أو هو غير ذلك بما قد يرد على الخاطر ؟ .

إنه عليه الصلاة والسلام ليس هذا ولا ذاك ، إنما هو رسول اجتباه ربه
ليبلغ رسالته ، وأوحى إليه دستوراً هو القرآن الكريم ، وائتمنه على تنفيذ أوامر
هذا الدستور ونواحيه ؛ يرضى هذه الأمة فى حياته بتنفيذ ما ورد فى الكتاب
الكريم ويترك لهم بعده هذا الدستور على المنهج الوارد به وبما فسر به ، صلوات
الله عليه من طرائق التفسير والتنفيذ .

عظم شأن رسول الله بين المسلمين وبهرت عظمتة نفوسهم ، وساعد على ذلك
ماضيه الطاهر ، وشهرته بالأمانة ، وحسن سيرته ، وسمو أخلاقه ، فنزل الوحي
يحذر الناس من أن يتجاوزوا به مركزه عند الله وعند الناس : « قل إنما أنا بشر
مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله
الرسل ، « إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر » .

لكن عظمة الرسول الكريم باتتانه على الوحي وبشخصيته كانت كبيرة تزايد
بمرور الزمن ، حتى كان المسلمون يقفون لمقدمه إجلالاً واحتراماً ، فكان ينهزم
عن ذلك ، ويقول لهم : (لا تعظموني كما يعظم الفرس ملوكهم) .

توالت الأيام وعظمت قوة الرسول ، وفى هذا لإغراء للنفوس الصغيرة
بالسطوة وقوة الجاه والعظمة ، فلم تزحزح هذه المغريات تلك النفس العظيمة
عما رسم لها من تبليغ رسالة الله للناس على النحو الذى أراده الله ، وقد ظنوا أن
العظمة تغرى بعض النفوس بابتغاء السلطة الفردية ، لكن رسول الله صلى الله
عليه وسلم واجههم بقوله : (لست ملكاً ولا جباراً وإنما أنا ابن امرأة من
مكة كانت تأكل القديد) وذكرهم بقوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » .

فانظر : لقد كان للنبي أن يفاخر بأبيه وجده وأنه من قريش ، بل من سادة
قريش ، أولئك الذين لهم مركزهم المعروف ، ولكنه يفضى عن مباهاة آبائه

وينتسب إلى أم فقيرة ، والعرب لا يفاخرون بنسبتهم إلى النساء ، لكن بنسبهم لأصلاهم ورجالهم فكيف لا يفاخروا بهذا كله ؟ ألم يكن ذلك اقهر النفس وإعلان قومه أن لا هدف له سوى رفع شأن الأمة وهدايتها إلى الطريق القويم غاضا الطرف عن شخصه وذاته ؟ أليس في هذا الصنيع معنى سام يجعل المرء يفنى في مبدئه دون أن يحوم حول نفسه ؟ .

ثم انظر : كيف كان الوحي له هاديا ومرشداً إذ قام عليه الصلاة والسلام يدعو إلى الله رجلا من كبار مشركي قريش ، وبينما هو كذلك مر عليه رجل ضرير مسلم يسترشه في أمر من الأمور الدينية ، وعطل بذلك محادثة الرسول مع المشرك الكبير ، فغضب الرسول على الضرير المسلم ولم يكلمه وولى وجهه عنه ، فلم يلبث أن نزل عليه الوحي معاتباً له على ما عامل به هذا الضرير رغم أن مركزه الاجتماعي أقل كثيراً من ذلك المشرك الكبير : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدرىك له له يركى أو يذكر فتفقه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يركى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى » فكان هذا الضرير إذاً مرتباً بعد ذلك بالمسجد حياه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى) .

تلك هي تعاليم الإسلام التي توحى بأن لا عظمة للعظيم إلا بتواضعه وتكريمه للفقير ، ومساواته الضعيف بالقوى ، وهناك ما هو أقوى من ذلك وأدلى على عظمة هذا الرسول ووجهه للأمة وللعدل والمساواة كحادثة الرجل الذي طلب منه صلى الله عليه وسلم أن يُقَصِّصَ من نفسه لضربة ضربه إياها ، فأذن له بأن يقتصر منه ، وكشف له عن صدره ، فلم يسع الأعرج أن أمام هذا المظهر السامى إلا أن يتراعى على صدر الرسول يقبله ويبكى .

فن من الحاكمين يصل إلى هذه المعاني السامية التي تتضاد أمامها معاني الديمقراطية الحديثة ؟ .

إن سيرة رسول الله وصفاته هي سنة من السنن الإسلامية يجب أن يأخذ بها المسلمون لتكون نبراساً لهم فيما يكون عليه ولي الأمر من صفات حتى يحقق المثل الصالح للحكوميين ، وقد دلنا التاريخ على أن الحاكين إذا انحرفوا عن جادة الحق ، ولم يكونوا المثل الصالح لطهارة النفس وحسن السيرة والتضحية في سبيل منفعة الشعب ، كان ذلك مضيعة للأمر وسبباً في انهيار الشعوب وممالكها .

قد يتصور من ولي الأمر أن يشتد على نفسه ، ولكنه في العادة قد يضعف أمام ذويه ، وينحرف مرغماً بحكم العاطفة الطبيعية ارضاء لأمه أو بنيه ، ولكن رسول الله قد نهانا عن الانقياد لهذا الضعف الإنساني بأمثلة هي أيضاً سنة في الإسلام يجب أن يعيها المسلم ، فقد اقترفت سيدة من قريش هي فاطمة المخزومية جريمة السرقة واعترفت بما اقترفته ، ولم يكن لها ما يبرر اقتراف هذا الجرم ، وكان على الرسول أن ينفذ فيها حكم الله رغم مكانتها في قريش ، فأتى إليه الناس يلتمسون العفو عنها ، لكن الرسول الأمين أجابهم بقوله : « إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت لقطع محمد يدها » .

وقد يشتد المرء على نفسه ، ويشتد على بنيه في تنفيذ الحق والعدل ، ولكنه قد يضعف أمام زوجته لما يكنه عادة لها من دواعي الحب والإشفاق ، وهنا أيضاً ظهرت قوة الأمين في تنفيذ دستور الله غير مراعاة دواعي قلبه حتى يكون ماعله سنة للناس أيضاً ، فلقد فطن زوجات الرسول إلى مكانته في القلوب وسلطانه على النفوس ، وأن أموال المسلمين بين يديه وتحت أمره في الحدود التي رسمها له الله ، ورأين وهن هذه المكانة أن يتميزن عن غيرهن من النساء في المعيشة والزينة ، فطلبن من الرسول ذلك والحنن فيه ، فنزل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحَبِّبْنَ تِلْكَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ، وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْحَسَنَاتِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَلْءٍ » .

ومعنى هذا صراحة أن زوجاته إما أن يكن كباقي زوجات المسلمين في العيش وفي المحافظة على أموال الأمة : لا بذخ ولا زخرف ولا ترف ، وإما الطلاق بالحسنى .

هذا هو النظام الذى يجب أن يسير عليه الحاكم حتى تستقيم أحوال المحكومين فلا محابة لشخصه ، ولا محابة لبنيه ، ولا محابة لزوجته وذويه ، وتلك هى سنة الإسلام ، وما يجب أن يكون عليه الحاكم فى بلاد الإسلام ، بل هى سنة كل حاكم إذا أراد خيراً لأمته ورفعته لدولته ، وهذا هو الأساس فى الإسلام وفى كل دولة قبل أن تفكر فيما يسمونه بالديمقراطية ، لأن نظامها لا تجدى نفماً إلا إذا كانت قائمة على طهارة النفس ، تلك الطهارة التى يجب أن تكون مقدمة على الدساتير وبغيرها لا يقوم نظام للحكم سديد مهما اشتدت الدساتير وقويت .

* * *

نظام الحكم فى الإسلام :

بعد الذى قلناه وجب علينا أن نبحث فى نظام الحكم فى الإسلام ، ولقد قلنا إن رسول الله لم يرد أن يكون ملكاً أو ديكتاتوراً ، وأعلن أنه فرد من عامة المسلمين اصطفاه ربه وأوحى إليه بدستور الإسلام وهو القرآن ، يقوم على تنفيذه بأمانة وصدق ، ولا شئ غير ذلك ، وإذا لم يكن النبي الكريم ملكاً ولا جباراً فوضعه إذن غير تلك الأوضاع التى ابتكرها اليونان وغيرهم ، وإذا جاز لمسلم أن يقول بوجوب وجود حاكم للمسلمين على غرار ما يقوم به رسول الله ، فأى وصف يوصف به هذا الحاكم أو ولى الأمر أو المنفذ لأوامر الله ودستور الله . صف هذا الحاكم بما شئت من مسميات ، فلقد دعا المسلمون أبابكر الصديق باسم خليفة رسول الله ، ولقبوا عمر بن الخطاب بلقب أمير المؤمنين ، وكلا اللقبين لم يكن تنفيذاً لنص فى الإسلام ، فتسمية الحاكمين بلقب ملك أو خليفة أو سلطان أو قيصر أو امبراطور أو شاه أو غير ذلك من الألقاب هى تسمية بشرية ، والمسلمون أحرار فيها على شريطة أن يفهموا أن فوق الناس جميعاً : الملك الخالق وهو الله سبحانه وتعالى .

قام أبو بكر الصديق وسمى بالخليفة ، فإذا كان شأنه مع الرعية ؟ قام خطيباً يلقي على الناس عهداً ، وذلك هو الأمر الذى يقوم به الحكماء فى هذه الأوقات على النحو الذى يرتبه الناس فى عصرنا الحاضر : أصبح حاكماً دستورياً عن طريق الانتخاب ، وله دستور قائم هو كتاب الله وسنة رسوله ، فلتكن خطبته خطبة عرش أو خطبة رئاسة كما يسمونها فى الأزمنة الحاضرة ، فإذا قال ؟ قال للشعب :

« أيها الناس : قد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن رأيتونى على حق فأعينونى وإن رأيتونى على باطل فسدّدونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم . فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا إن القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه والضعيف قوى حتى آخذ الحق له ، أقول قولى وأستغفر الله لى ولكم ، أى شئ . أجل من هذه الخطبة لحاكم دستورى ؟ لقد جمعت فأوعت ، وإذا كانت خطب العرش أو الرئاسة فى الأوقات الحاضرة تعنى بالتفصيل وبما ينوب الحاكم من أعمال الوزارات المختلفة ، فما ذلك إلا لأن الأمور قد تشعبت والالتزامات قد تعددت وجاز للناس أن يقولوا ما شاءوا فى تلك الخطب ، لكنها لا تخرج فى الواقع عما تضمنه خطاب أبو بكر الصديق من ضرورة قيام حكومة دستورية تستند على انتخاب حر ، وأن تكون الأمة مصدر السلطات ، وأن الحاكم يجب أن يخضع لإرادة الأمة ، وإلا وجب عليه ترك الحكم .

* * *

مات أبو بكر الصديق وديمقراطية حكمه كما علمت ، وهى مستمدة من ديمقراطية رسول الله التى عرفت أنها مستمدة من كتاب الله جل شأنه ، فكان على المسلمين أن ينتخبوا حاكماً أو خليفة أو راعياً لهم كما انتخبوا من قبل أبا بكر ببيعة السقيفة ، وقد اتفقوا فاختروا عمر بن الخطاب بوصية من أبى بكر .

كان عمر شديداً من يوم نشأه مريباً ، لكنه وقد هذبته الإسلام ، إلا أن نفسه وأخضعه أصبح ديمقراطياً يلازم بين الشدة والعدل والديمقراطية ، فقام بين الناس خطيباً يقول لهم : « من رأى منكم فى أعوجاجا فليقومه » فأجابه رجل من السامعين

حواله لو رأينا فيك اعوجاجا نفومناه بسيوفنا ، فقال عمر : الحمد لله الذي أوجد في أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر بالسيف .

وخطب عمر الناس مرة في موضوع المهور التي كان يفالئ فيها الجاهليون ، وأمر بعدم المغالاة فيها ، فوقفت امرأة تعارضه ، وتحتج بقوله تعالى : وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، فلم يكن من عمر إلا أن رجع عن رأيه قائلاً : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

هذا هو عمر وتلك هي ديمقراطية حكمه وخضوعه لدستوربه ، وإن الإنسان ليرى في حكم هذا الخليفة ما يعد تطبيقاً بصيراً لدستور الإسلام في كثير من شئون الحكم .

فن ذلك أنه منع كبار الصحابة من الخروج من المدينة المنورة حتى لا يفتشوا في الأقاليم فيكلف الناس حولهم لما لهم من مكانة في النفوس ، وصحبة لرسول الله ، فتتعدد الزعامات وتضعف بذلك وحدة الحكم الإسلامي ، بهذا منع ما عساه أن يكون من تفرق المسلمين شيعاً وأحزاباً بتفرق القادة والرؤساء .

ومن ذلك أنه كان يراقب الولاة فيحصر ما كان يملكه الوالي قبل تعيينه ، وما يملكه بعد ذلك حتى إذا رأى ثروة للوالي ليست مستمدة من أصل شريف معروف حاسبه وسأله من أين لك هذا ، وأضاف الثروة المشتبه فيها إلى بيت المال ، وهذا هو الوضع الحاضر فيما تعمله الحكومات من محاسبة الحاكمين على ما اقتنوه من ثروة غير مشروعة .

وكان في كل أدواره يمنع الولاة من الاتجار ، ويلزمهم ألا يقوموا إلا بأعمال الحكم والإدارة ، وألا يقتاتوا إلا بما قرره لهم من أجر ، وتلك هي القاعدة التي وضعها عمر للأجيال التالية لمنع استغلال النفوذ .

ولقد كان يؤمن بأن الحاكم يجب عليه قبل أن يكون شديداً على الولاة وغيرهم ، أن يكون في نفسه مثلاً صالحاً يقتدى به ، لهذا كان متشفهاً ، على شظف من العيش يجوع إذا جاعت أمته ، ويكتفي بأكل الشعير والزيت ، ولقد جاع مرة فقررت بطنه فقال (قرقرى ما شئت فوالله لا أشبعك والامة جائعة) .

ومن أعماله التي تفسر بها أحكام الشرع ، أنه منع أخذ الخراج عام المجاعة ولم يجد فيه حد السرقة .

ومر يوماً في بعض الأسواق فرأى رجلاً يمشى في السوق منكساً رأسه مسرفاً في تواضعه ، مظهرًا تنسكه فرأى أن هذا مناف لما أقرب به الدين من أن يكون المسلم شهماً بآدى العزة ، فنهزه بقوله : (ارفع رأسك انك تميت الدين أمانك الله) .

* * *

حضرت الوفاة عمر وسأله المسلمون عن خلفه ، وطلبوا إليه أن يوصى لابنه عبد الله فرفض لأسباب منها أن الإمارة عبء ، فهي تكليف لا تشريف وأنه قد خشى أن يكون في حكمه قد انحرف عن جادة الحق ، فلا يريد أن يعرض أحداً من بنيهِ لما يخشاه على نفسه ، ومنها أن الإمارة ليست ورائية ، فلا يصح أن تقلب ملكاً عضوضاً ، ومنها أن الرياسة والحكم يجب أن يكون للشعب بالبيعة أى بالانتخاب ، فلماذا لم يوص باختيار أحد معين ، وترك الأمر للمسلمين ينتخبون من شاءوا ، ولكنه رشح ستة من كبار الصحابة منهم عثمان وعلى ، وعهد إليهم أن يرشحوا من بينهم من يروونه أهلاً للخلافة ، على أن يبايعه الشعب إن شاء ، فرشحوا عثمان ، فبايعه الناس .

قام عثمان بالخلافة ، ثم انتهى الأمر بقتله لا من فرد غاضب ، كذلك المارق أبي لؤؤة الذي اعتدى على حياة عمر بن الخطاب حقداً وضيعة ، فكان اعتداء فردياً ، لكن الاعتداء على عثمان كان من فريق من المسلمين ثاروا عليه لأنه حابى بعض أقاربه ، ورأوا في هذا العمل خروجاً على دستور الإسلام ، ومخالفة لما سار عليه الرسول الكريم وأبو بكر وعمر ، ولم يشفع له أنه كان من كبار الصحابة وعن أدوا للإسلام خدمات جليلة ، فنزل من ماله بالكثير لخدمة دينه ، وجمع المصحف الشريف ، كل ذلك وغيره لم يمنع الناس من الثورة عليه وقتله لسبب واحد هو ما اعتبروه من المحاباة ، في تعيين الولاة والحاكين ، وفي توزيع مال الأمة على بعض الأقارب والأصهار ، فكانت هذه الأعمال مع الأسف أول نلّة

في صرح نظام الحكم الإسلامى ، وأكبر نكبة أصابت المسلمين ، فلقد كانت نكبة امتد أثرها الفادح إلى النزاع على الخلافة من بعده بين الإمام على رضى الله عنه ذلك الإمام العظيم الطاهر ومعاوية بن أبى سفيان ، وقد وصل الخلاف إلى تدخل عائشة رضى الله عنها ، وكانت الطامة الكبرى فقام النزاع المسلح وتفرق المسلمون شيعاً وأحزاباً ، وتبللت الانكار ، وقاسى الإمام على من مول هذه الفتنة ما قاسى ، فتنة لم تصبه في شخصه وذريته لحسب ، وإنما كانت فتنة أصابت الإسلام في صميمه .

وليعلم من هذه العبرة من لا يعلم أن المحاباة من الحاكمين من أقوى الأسباب لإثارة النفوس ودفع الناس إلى الثورات وتحطيم الأمم وقتل الأبرياء مع غير الأبرياء . واتفقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة .

* * *

استقلال القضاء :

اسلفنا فيما سبق معنى الديمقراطية في الإسلام ، فهي قائمة على نزاهة الحاكمين ليكونوا مثلاً صالحاً وعلى أن ولى الأمر فيهم يختار بالبيعة ، وأن الأمة تراقب أفعاله وألا طاعة عليها له إذا خرج على نصوص الدستور الإسلامى وتسكر لها ، والأمة رقية على ذلك كله ، وألا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وقد رأينا بما سبق كيف يناقش المحكومون الحاكمين ويراقبونهم ، وكيف كان الحاكمون يخضعون لرأى الشعب بل يحضونه على أن ينقد ويهدد ، ويكفى أن تعلم أن عمر بن الخطاب كان يحض أمته على مراقبته ، وقد قال للشعب في إحدى خطبه : « لا خير فيكم ما لم تقولوا ، ولا خير في ما لم اسمع . »

وهاك مثلاً واحداً يشعرك بما كان للقاضى من حصانة واستقلال واحترام . كان على رضى الله عنه أميراً للؤمنين ، ورأى في تطوانه يهودياً يحمل جوشنا أى درعاً ، وكان هذا الدرع ملكاً لعل ضاع منه ، وطلب الخليفة من اليهودى أن يرد إليه الدرع فرفض مدعياً أنه له ، فلم يجد الخليفة وسيلة سوى الالتجاء إلى القاضى شريح ، ذلك القاضى الكبير الذى مارس القضاء من أيام عمر ، وقف

الخصمان أمامه كل يدلى بمجته : الخليفة يدعى واليهودى ينكر ، طلب القاضى من الخليفة شهوداً على ملكيته للدرع رغم كونه خليفة ، وأخذاً بقاعدة « البينة على من ادعى » ، فأجاب الخليفة بأن لا شهود له فحكم القاضى لليهودى بالدرع ، وبينما الخصمان خارجان من مجلس القضاء عرض اليهودى على الخليفة أن يأخذ درعه فرفض احتراماً لحكم القاضى ، وعندئذ أجابه اليهودى بقوله : « أتم لستم من البشر ، ولكنكم ملائكة ، واعتنق الإسلام لوقته .

انظر الفارق بين قوة القضاء في ذلك الوقت ومزله في النفوس ، وخضوع الخليفة له وهو الحاكم الأعلى إذ يلجأ إلى القاضى للفصل في خصومة شخصية بينه وبين أحد أفراد الرعية ولو كان غير مسلم ومن أعداء المسلمين ، حقاً أن العدل أساس الملك ، وأن الظلم مضیعة له .

* * *

موازنة بين الديمقراطيات :

أخذ المؤلفون والفلاسفة على الديمقراطيتين اليونانية والرومانية أنهما ديمقراطيتان لا عموم لهما ، ففيهما كما قلنا عدم احترام المرأة ، وإباحة الاسترقاق ، والغزو والفتح والاستعمار وإيجاد الطبقات ، كما أحوا باللائمة على ديمقراطية الثورة الفرنسية ، قائلين إن الثورة الفرنسية التى قامت سنة ١٧٨٩ م ، وحطمت الأغلال ، وأعلنت حقوق الإنسان في الحرية والإخاء والمساواة أصبحت اليوم ناقصة لتطور الزمن وظهور مشاكل اقتصادية واجتماعية لم تكن تعرفها .

وإنى أود أن أبسط هذه المآخذ جميعها ، وما يقابلها من النظم الإسلامية الواردة في كتاب الله وسنة رسوله فأقول :

حقوق الإنسان :

قرر الدين الإسلامى تكريم بنى آدم والتسوية بين جميع أفرادها بالنصوص التى ذكرها من كتاب الله ، وأتى نبيه الكريم - تأييداً لما أودعه الله قرآنه - بهذا المبدأ حيث يقول في خطبة حجة الوداع « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم

واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت اللهم فاشهد . ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب . .

إذن ، فقد نادى الإسلام بالحرية والمساواة والإخاء قبل أن تنادى بها الثورة الفرنسية باثني عشر قرناً . ولم يكن المسلمون في عملهم هذا إلا رافعين لشأن الإنسانية جمعاء ، فلم يبقوا على نظام الطبقات الذي كان في اليونان وفي الرومان وفي بلاد الفرس والهند وفي مصر وفي جزيرة العرب نفسها ، بل جعلوا الناس إخواناً متساوين في الحقوق والواجبات ، لا فرق بينهم بالألوان ولا بالأصول ولا بالأجناس ولا بالأنساب ولا بالاديان ، الكل تحت حكم واحد هو حكم الله .

فأين هذا مما نراه الآن في بلاد المدنية والحضارة وفي القرن العشرين ، من التفرقة بين الأجناس ، وبين الملونين وغير الملونين ؟

حرية المرأة :

لم يكن للمرأة حرية أيام اليونان والرومان ، كما لم تكن لها حرية في جزيرة العرب أيام الجاهلية ، فكان الجاهليون يثدّون البنات ، وقد نزلت في ذلك آيات كريمة ، منها قوله تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيسكه على هون أم يدسه في التراب » . « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت » ، « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » . فنع الإسلام بذلك تلك الوحشية التي كان يرتكبها الجاهليون في بلاد العرب .

ولم يكتف الإسلام بأن أعطى للمرأة حرية أكثر من حريتها في بلاد اليونان والرومان ، بل أسدى إليها أكثر مما تمنحه إياها البلاد المتحضرة في وقتنا هذا . ذلك أن الإسلام أعطى للمرأة شخصية محترمة ، فلها حق الملكية المستقلة عن ملكية زوجها تنصرف فيها كما تشاء من تأجير وبيع وشرأ وهبة ووصية ، ولها أن توكل من تشاء غير زوجها وبلا التجاء إلى إقرار منه ولها أن تخاصم بنفسها أمام القضاء ،

فهى لإنسان كامل لا يربطها بزوجها سوى رباط الزوجية والخضوع لقواعد الفضيلة والأخلاق التى أمر بها الإسلام ، والتى ترتضيها الأخلاق الكريمة ، فأين هذا مما نراه الآن فى البلاد المتحضرة ؟ .

الفتح والاسترقاق :

موضوعان متصلان أحدهما بالآخر ، فالاسترقاق فى كثير من الأحيان كان نتيجة الغزو والفتح ، وكان الفاتحون يأخذون الأسرى فى الحروب كأرقاء ، ثم كانوا يغيرون فى بعض الأحيان ليلتقطوا أسرى يبيعونهم فى الأسواق ، ولولم يكن هناك حروب بين دولة ودولة ، لهذا نرانا مضطرين إلى البحث فى موضوع الفتح والاسترقاق تحت باب واحد .

كان الاسترقاق شائعاً فى الأزمنة الفائرة ، كما كان الغزو والفتح ، وبدلنا التاريخ على أن الأمم القديمة كان ديدنها أن تغير على ما جاورها من الأمم الأخرى وكان الناس فى تلك الأزمنة أفراداً وحكومات يجذبون هذين العاملين ويعتبروهما تجارة وبطولة معاً ، فكان الرق والغزو فى بلاد فارس والهند والصين ، وفى بلاد اليونان والرومان وغيرها فى أوروبا وفى مصر القديمة والسودان ، وبالجملة كانت الفوضى والاعتداءات شائعة فى بلاد العالم القديمة .

وبحسب لنا التاريخ أن الغزو والاسترقاق كانا شائعين أيام الديمقراطيةين اليونانية والرومانية ، حتى أن أرسطو وهو المعلم الأول الذى يتفق مع المفكرين فى ضرورة تطبيق العدل بين الناس ، يرى أن الرق أمر طبيعى ، وأن بعض الناس خلقوا ليكونوا أرقاء تحت سيطرة سادتهم المواطنين الاثينيين ، وكان الأرقاء يباعون فى الأسواق علناً رجالاً ونساءً كما كانوا يباعون فى بلاد الرومان .

وكان للسيد سواء فى أوروبا أو فى آسيا أو فى غيرها حق السجن والجلد والتعذيب ، بل والقتل أحياناً : يزاولون هذه الحقوق ضد عبيدهم ، ويستخرونهم فى أشق الأعمال وأحقرها .

ولقد وصل الأمر في شرائع بعض الأمم مثل بلاد الرومان ، إلى حد أن قوانينها تجعل للدائن الحق في حبس مدينه الحر وإسقاط حريته إذا لم يدفع الدين المطلوب منه ، وأن يسخر هذا الحر المدين في خدمة دائنه حتى يستوفى دينه .

ولم تمنع شريعة اليهود حق الفتح والاسترقاق ، بل قتل الأمم التي لم تعلن خضوعها رجالا ونساء وأطفالا ، وأباحت نظم اليهود تخريب البلاد التي لا ترضى بحكمهم ، وأخذهم أسرى أو قتلهم . وإذا أردت زيادة الإيضاح فعليك أن ترجع إلى الاصحاح العشرين من سفر التثنية ، وإلى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الخروج ، وإلى كتاب مدينة العرب للعالم الكبير جوستاف لوبون ، وكتاب الرق في الاسلام للرحوم أحمد شفيق باشا .

أما الدين المسيحى فإنه وقد ظهر في فلسطين وكانت تحت سيطرة الدولة الرومانية ، وكانت لها شرائع وقوانين ، فإنه لم يتعرض لنظم الحكم ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يهدف في كل أقواله وعظاته إلى تطهير النفس والحث على مكارم الأخلاق ، وكان على أتباعه أن يدعو ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فكان سيدنا عيسى عليه السلام ينادى بقاعدته الذهبية الواردة في الكتاب المقدس (ماذا يستفيد الانسان إذا ربح العالم كله وخسر نفسه) كل هذا وغيره من وصايا السيد المسيح يدلنا على أن الإدارة ونظام الحكم كانا متروكين لحكومة الرومان وقيصرها ، وأن الدين المسيحى يرى إلى تطهير النفوس من أدران الشر . دون تعرض للتفاصيل .

لكن أتباعه قد انحوا انحوا آخر ، فلم تقم طائفة مسيحية تحرم الاسترقاق ، ولم نعتز في كلام القديسين بولس وبطرس وتوما على ما يحول دون الاسترقاق ، بل كان بعضهم يوصى الرقيق بطاعة سيده . انظر هنا أيضا كتاب جوستاف لوبون في مدينة العرب ، وبالجمله كان دين السيد المسيح يوصى بالزهد والرحمة والأخوة والمحبة ، ولم يتعرض لأكثر من هذا .

انتهت العصور القديمة كما انتهت العصور الوسطى بما فيها من بطش وقسوة

وظلم ، حتى أنت الحكومات المتحضرة ، ويكفيك أن تعلم أنه صدر في فرنسا سنة ١٦٥٨ م قانون يدعى بالقانون الأسود يبيع الرق واصطياد الزوج ، واستمر هذا القانون إلى سنة ١٨٤٨ م ، ثم كانت انجلترا تبيع الاسترقاق أيضا ، ولطالما أخذ الزوج من مساكنهم ومن أحضان أمهاتهم ، ليكونوا أرقاء مستعبدين ينقلونهم من بلادهم إلى المستعمرات النائية ، وأهمها المستعمرات الأمريكية الشمالية والجنوبية ، ودليلا ما نراه الآن في الأمريكيتين من هذا العدد الوفير من الزوج الذين أخذوا من أفريقيا واستوطنوا الأمريكيتين قهراً وظلماً ، واستمر الاسترقاق الانجليزي يفعل ما يشاء حتى القرن التاسع عشر ، وبحسبي أن أرجع القارئ إلى ماسطرته دائرة المعارف البريطانية ودائرة المعارف الفرنسية تحت باب الاسترقاق .

ثم استمر هذا النوع من الاسترقاق تحت ستار المدنية الحديثة فيما نراه أمام أعيننا الآن في المستعمرات البريطانية والفرنسية ، وفي معاملة الملونين في أمريكا وأفريقيا الجنوبية : تردد الصحف صداها في أيامنا الحاضرة ، عهد المدنية وحضارة القرن العشرين .

الرق في الإسلام :

أتى الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي ، وحول جزيرة العرب أمم قد انغمست في الغزو والفتح والاسترقاق ، وكانت بلاد الحجاز كثيرها من أشد بلاد العالم ظلماً وقسوة وجهالة ، جعلت الغزو والاسترقاق ديدنها والرقيق أساس عمرانها في فلاحه الأرض والأعمال الشاقة ، وكان السادة يعاملون الأرقاء كما كان سادة البلاد المحيطة بهم يعاملون رقيقهم ، وأصبح الاسترقاق جزءاً من حياتهم .

أتى الإسلام قائماً على رسالة النبي وحده ، ثم التفحوله نفر قليل مهدد بالتعذيب والقتل ، وكان على النبي أن ينشر رسالته والخوف يحيط بأنباعه من كل جانب ، وما كان له إلا أن ينشر وحدانية الله حتى يقلع المشركون عن عبادة الأوثان ، وتلك رسالة روحية قائمة على العقل وحسن التدبير ، وما كان في مقدوره أن يصادمهم حينها عما درجوا عليه وتغلغل في نفوسهم ويحملهم على أن يتركوا عبيدهم ، ويتركوا

مصلحهم في دنياهم ، ولو أنه فعل انقامت الفتنة وتعطلت رسالة الله في هذه الاقوام القاسية ، وبكفيك أن تعلم ما كان عليه هؤلاء الناس من قسوة في القلوب وتهاافت على مصالح الدنيا ، وما كانوا عليه من غزو ونهب وسلب ، وما عكفوا عليه من أخلاق مخمونة ، بل أن تعلم أن بعض هؤلاء الناس - وكانوا اقتنعوا بصحة الإسلام ووحداية الله وأصبحوا مسلمين - لما علموا باستمرار فرض الزكاة عليهم بعد وفاة النبي ، رجعوا إلى شركهم وتركوا دينهم الذي ارتضوه ، وأوجدوا بذلك تلك الفتنة التي سببت حروب الردة ، ومتى كان هذا الشعب حديث عهد بالشرك والتمر على النظم إلى هذا الحد ، فإن من الواجب عقلا التدرج في تهذيب النفوس القاسية لتقلع عما ورثته من تقاليد وعادات رسخت في نفوسهم ، وأصبحت قطعة من وجودهم .

ثم إن الإسلام قائم على الدعوة بالحسنى وعلى النصح والرشاد ، مع الاحتفاظ بالحرية الكاملة وعدم الاعتداء على أحد لا يعتدي على المسلمين ، وقالوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم وتتسلطوا عليهم إن الله يحب المقسطين .

لهذا كله كانت الدعوة للإسلام سلمية ، وبعد أن افتتح العرب وأسلموا الله ورسوله كان على النبي عليه الصلاة والسلام - ودين الله دين عالمي - أن يسعى إلى نشره في أنحاء العالم ، فكتب إلى ملوك البلاد المجاورة وحاكمها أن يدخلوا في دين الله ، فإذا أسلموا وشعوبهم ، بقيت لهم معاملتهم . فالتبى لم يكر فاتحاً ولا حاكماً ، ولا يبنى أن يكون ملكاً لاية أمة حتى لموطنه بلاد العرب ، فهو رسول ليس غير ، اختاره ربه لتبليغ رسالته لتكون دستوراً للعالم كله ، فرسول الله لا يريد سوى تطهير النفوس ، وجعل الناس أمة واحدة كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

ولكن هؤلاء الملوك الحاكين رفضوا ما عرضه عليهم رسول الله بأنفة وكبرياء بل وباستهزاء ، وأقاموا بين معاملتهم وبين الرسول ودينه ستاراً حديدياً

حتى يمنحوا تسرب العقيدة إلى شعوبهم ولم يكتفوا بذلك بل غاصموه وناوشوه وأخذوا في الاعتداء على بلاده حتى يخنقوا هذا الدين في مهده ، فكان لازماً على الرسول - ودينه دين عالمي كما أسلفنا - أن يمنع الأذى ، وأن يخبر غير المسلمين في أحد أمور ثلاثة : إما اعتناق الإسلام فتكون لهم الحرية الكاملة والاستقلال الكامل ، وإما دفع جزية مع بقائهم على دينهم فيصبحون في أمن وسلام ، والجزية ليست سوى نفقات تحمّل المسلمين الدفاع عنهم وصد أي عدوان على بلادهم ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك كانت الحرب ، وهي حرب لا مناص منها بسبب تعدد الحوادث والاعتداءات من دولتين كانتا متاخمتين لبلاد العرب ، وهما : دولة الرومان الشرقية المعبر عنها بدولة الروم ، ودولة الفرس ، وقد كانتا منغمستين في المظالم والاستبداد والاسترقاق والفوضى ، وكانتا مع ذلك تبغيان القضاء على العقيدة الإسلامية ، والشر لا يطيق بقاء الخير بجواره .

هكذا كانت أسباب الحروب الإسلامية الأولى في عهد تطبيق قواعد الإسلام تطبيقاً صحيحاً فلم تكن الحروب غزواً أو طمعاً في ملك أو سلطان ، وإنما هي رسالة لعقيدة يجب أن تسود العالم بالحسنى والموعظة الحسنة .



ولنرجع بعد ذلك إلى النقطة الثانية وهي الرق في الإسلام ، فنقول إن الدين الإسلامي يمنع بصفة قاطعة النخاسة والاسترقاق بالمعنى الذي يفهمه الناس سواء في العصور القديمة أو الحديثة ، الإسلام يمنع بتاتاً اصطیاد الزوج أو غيرهم على النحو الذي درج عليه الناس قديماً وحديثاً ، فلا يعمل ما عمله اليونان والرومان وغيرهم ، ولا يجيز ما عملته وتعمله الأمم الحديثة المستعمرة .

لا يجيز الإسلام استرقاق أي إنسان عن هذا الطريق ، مهما يكن لونه ومهما تكن عقيدته مسلماً كان أو غير مسلم ، فالحرية مكفولة للجميع ، وحرية الأديان للجميع . بشرط عدم محاربة الدعوة إلى الإسلام ، وإنما يبيح الإسلام الرق في حالة واحدة : في حالة حرب عدوانية من عدو بعد إنذاره بقيام الحرب ضده

فالإسلام لا يبدأ بالعدوان ، ولا يقوم به إلا بعد إنذار لمن بدأ به أو خان للعهد
أى خان المعاهدة المبرمة بينه وبين المسلمين .

هذا شأن المسلمين فى حروبهم ، والأسرى المحاربون هم الأرقاء ، ولا يوجد
فى الإسلام رق إلا بهذا السبب ، فلا نخاسة ولا غزو ولا نهب ولا اختطاف
لصغير أو كبير . ولا تسخير للاستعمار كما تفعل الأمم المتحضرة .

ولم يبح الإسلام مع ذلك للمسلمين أن يعاملوا أرقاءهم كما كان الأقدمون
والمحدثون يعاملونهم ، بل حض على حسن معاملتهم ، كما أوجد أسباباً عدة لعق
الأرقاء وما ذلك إلا لاعتباره الرق حالة مكروهة ، فهو يعمل على إزالتها .

فمن ذلك ما ورد فى القرآن الكريم : وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى
والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل
وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً . ومن ذلك قول
الرسول عليه السلام : « هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه
تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم
فإن كلفتموهم فاعينوهم عليه . » « فإحبيتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ولا
ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم أياهم ، ولو شاء للمكهم إياكم) ومن آخر
وصاياه : (الصلاة ، وما ملكت أيمانكم) .

ومن ذلك الحديث الشريف (من لطم مملوكاً أو ضربه فكفارته عتقه) ومن
ذلك رأى أبى حنيفة فى أن الحر يقتل فى العبد ، ومن ذلك الحديث الكريم
(لا يقتل أحدكم عبداً . أمتى ، وليقل فتاى وفتاى وغلانى) ومن ذلك أن علياً
كرم الله وجهه قال (إني لأخجل من نفسى إذا استعبدت رجلاً يقول ربى) .

* * *

الحض على عتق الأرقاء :

وسمى الإسلام فى تسهيل عتق الرقيق فمن ذلك الحديث السابق ذكره (من
لطم مملوكاً أو ضربه فكفارته عتقه) ومن ذلك حق المكاتبه وهو أن يكاتب الرقيق

سيده على مبلغ من المال يدفعه فوراً أو على أقساط فيشتري الرقيق بذلك حرته .
والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيما نكم فكانبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، .
ويتاح للبعد أن يجمع ما لا يشتري به حرته .

ومن ذلك أن النبي عليه السلام اتفق مع أسرى بدر على أن يشتري الرجل منهم حرته بتعليم القراءة والكتابة لعشرة من المسلمين .

ومن ذلك أن الأمة إذا ولدت من سيدها ولدا فليس له أن يتصرف فيها
بهبة أو بيع ، وبوفاته تصبح حرة بلا مقابل ولو كان المتوفى مديناً ، وولدها
منه يولد حراً .

ومن ذلك أنه يكفي في الإسلام لعنق الرقيق أن ينطق به السيد ولو كان
مازحاً أو مكرهاً أو فاقداً لرشده بفعل خمر أو غيرها .

ومن ذلك تخصيص سهم من مال الزكاة لمساعدة الرقيق في شراء حرته ،
« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب
والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » .

ومن ذلك أن كفارة القتل الخطأ عتق رقبة « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير
رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله » ، وكذلك كفارة الإفطار في رمضان وكفارة
الظهار ... الخ .

• • •

وقد علمت مما سبق أن الرق في الإسلام لم يكن إلا في أسرى الحروب التي
يشيرها المعتدون على المسلمين أو التي تسببها خيانة اليهود ومعاهدات الصلح ، وأن
الحرية مع ذلك كانت ذات أبواب كثيرة مفتوحة على مصاريحها حيث يسترد الأسير
حرته للأسباب الكثيرة التي ذكرناها ، فأين هذا من حالة الاسترقاق في
الازمنة الغابرة ، وأين هذا من الحالة الراهنة بين الأمم المتحضرة ، وكيف تعامل
هذه الأمم أسراها في الوقت الحاضر بالمعاملة السيئة من إهانات وحبس في
المعسكرات وأشغال شاقة وتعذيب وقتل بالغازات الحارقة وبغيرها . وبينما

الإسلام يقرر أن العبد متى استرد حريته أصبح مواطناً وأخاله كافة الحقوق الوطنية والأخوية ، وهذا صهيب المولى الفارسي يكلفه عمر بأن يؤم المسلمين في الصلاة وفيهم كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار . ولا تنس بلالا الحبشي مؤذن رسول الله وقد أصبح من كبار الصحابة وله منزلة بينهم ، ولا تنس أيضاً المولى زيد بن حارثة وهو الذي قاد جيشاً أيام رسول الله ، ثم خلفه ابنه أسامة ابن زيد الذي عينه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائداً للجيش ، وكان تحت إمرته كبار الصحابة .

ولقد وصل الأمر في شأن الموال إلى أن عمر بن الخطاب عند ما كلف عمرو ابن العاص فتح مصر بعث هذا وفداً إلى المقوقس برياسة الزنجي عبادة بن الصامت ولما رآهم المقوقس أنكر أن يرأسهم هذا الزنجي بسواد بشرته ، فأجابه الوفد بأنه « وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعاً وأفضلنا سابقة ورأياً وعدلاً ، وليس ينكر السواد فينا » .

هكذا كان شأن الإسلام في معاملة الموال والعبيد .

وبهذه المناسبة ولما قلناه من أن الإسلام ليس دين اعتداء وفتح وغزو ، نقول إن فتح مصر لم يكن اعتداء ، بل كان نتيجة اتفاق ومداولات بين قبط مصر وبين المسلمين لما حاق بالقبط من ظلم واضطهاد وقع عليهم من الحكام السابقين من دولة الرومان ، حتى رضى البطريق الأكبر وهو المقوقس أن يحل عدل الإسلام محل ظلم الرومان .

وكان فتح فلسطين من قبل باتفاق بين شعبها ضد المظالم الرومانية ، ولما دخل عمر نفاداً لرغبة البطريق « صوفريوس » ليقسم الخليفة بنفسه مفتاح بيت المقدس وكانت تسمى « إيلياء » ودخل كنيسة القيامة وحل وقت الصلاة وهو بداخلها هم بالخروج ليؤدي الصلاة خارجها ، وعند ما قال له البطريق إن دينكم لا يمنع الصلاة في الكنيسة أجابه عمر بأنه يخشى إن صلى في الكنيسة أن يعتقد الجهال من المسلمين أنها أصبحت مسجداً ، ثم غادرها وأدى الصلاة خارجها ، وأعطى أهل القدس عهداً هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمتها وبريئتها وسائر ملاتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكْرَهُونَ على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معمم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا ما منهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فأنتهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا ما منهم . ومن كان بها من أهل الأرض ، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله . وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصَد حصادهم . وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية » .

* * *

أما بعد : فهذه نظم الإسلام ، وتلك أحكامه ومبادئه ، فإن كان للديمقراطية الصحيحة نحر ، فقد استوفى الإسلام نحرها قبل أن يعرفها أهلها ، وإن كان لها عيوب فقد تبرأ الإسلام من عيوبها ، وأذهب عن الناس آصارها ٩

الطوائف الإسلامية في العراق

لمنيرة صامب السمامنة آية الله الخالصي
من كبار علماء العراق

لمعرفة الطوائف الإسلامية في العراق ينبغي استحضار أمرين في الذهن ،
ولو على سبيل الإجمال .
حوادث التاريخ الإسلامي :

الأول : الحوادث التي جرت فيه منذ الفتح الإسلامي إلى هذا اليوم كحرب
البصرة ، وصفين والهيروان وشهادة أمير المؤمنين علي عليه السلام في مسجد
الكوفة في اليوم الذي قصد فيه اغتيال عمرو بن العاص في مصر ومعاوية في الشام
وكحوادث خلح الحسن بن علي واستيلاء معاوية على الكوفة ، وإمارة زياد بن أبيه
والخيرة بن شعبة ، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية ، وحادثة كربلاء ، وشهادة الحسين
وما تعنتها من ثورة التوابين ، وقيام المختار باسم أخنذ ثار الحسين ،
واستيلاء مصعب بن الزبير على الكوفة وقتل المختار ، وتغلب عبد الملك بن مروان
وقتل مصعب ، وإمارة الحجاج بن يوسف الثقفي ، وفتنة الأزارقة والخوارج
ويزيد بن المهلب ، وقتله يوم العقر ، وقتل سعيد بن جبير ، وفتن البصرة والكوفة
التي سفكت فيها دماء عشرات الألوف من العراقيين ، ورواج سوق الأدب ،
وقيام الشعراء مثل السكيت والفرزدق والجرير ضد بني أمية ، وقتل موسى
ابن نصير وقيمية بن مسلم وزيد بن علي ويحيى بن زيد ، وانتهاء حكم بني أمية على
العراق ، وقيام الدولة العباسية ، وحروب الحسينيين والفتن المتوالية في العراق أيام
تلك الدولة إلى انقراضها في وزارة ابن العلقمي على يد هولاكو ومعاونة نصير الدين
الطوسي ، وتوالي الاضطرابات إلى زمن العثمانيين ، والفتن التي حدثت لهم مع
تيمورلوك والصفوية والقاجاريين إلى زمان الحرب العالمية الأولى .

هذه الحوادث التي دامت أكثر من ألف وثلاث مائة سنة ، وكانت الطائفية هي العامل الأساسي فيها ، وكان العراق يضطرم بنيرانها ، وهي التي أوجدت جواً مشحوناً بالعداوة والبغضاء بين طوائف المسلمين في العراق ، وإذا استحضرت في الذهن هذه الحوادث تعرف ما كان عليه العراق عند نشوب الحرب العالمية الأولى ، وتعرف الأسباب التي حدثت برؤساء المفكرين إلى توحيد كلة المسلمين في العراق ، وشن حرب على النزعات الطائفية حتى تبيد .

المراكز الدينية في العراق :

الأمر الثاني الذي ينبغي استحضاره لمعرفة الطوائف في العراق هو وضع المراكز الدينية في العراق . الذي نشأ من جراء تلك الحوادث المؤلمة ، ففي العراق قبر علي وولده الحسين ، وموسى بن جعفر ، ومحمد بن علي الرضا ، وعلي بن محمد الهادي ، والحسن بن علي العسكري ، وهؤلاء من أولاد الحسين ، ومن الأئمة الاثني عشر الذين يرجع إليهم الشيعة في الأحكام الدينية ويعتبرونهم رواة عن جدم الرسول ما استودعوه من علم الدين بواسطة جدم علي وجدتهم فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، ويزورهم في كل سنة ملايين من الشيعة من جميع أقطار العالم ، لما رووه من متواتر الأحاديث في استحباب زيارة قبورهم ومحال قبورهم من مدن العراق الكبرى ، وهي النجف و كربلاء والسكاظية ، ولا يسكن هذه البلاد الثلاثة غير الشيعة ، وسائرهم يغلب على سكنتها أهل السنة وجميعهم سادة قبري الإمامين علي الهادي والحسن العسكري ، وهم من السادة الكرام المتسبين إلى الحسين بن علي عليهما السلام ، وفي العراق قبور كثيرة لزعماء الشيعة تزار كقبر محمد بن علي الهادي وقبر عثمان بن سعيد العمري وابن محمد ابن عثمان الخلافي والحسين بن روح النوبختي وعلي السمری ومحمد بن يعقوب الكليني والشيخ المفيد محمد بن النعمان والسيد المرتضى وأخيه الرضى والشيخ الطوسي محمد ابن الحسن ، وغيرهم من أعلام الشيعة .

وفي العراق مدارس كثيرة لتحصيل العلوم الدينية يؤمها من جميع الأقطار - من الصين إلى سورية وما بينهما من بلاد الهند والأفغان وإيران والتبت وبرما -

خلق كثير يتراوح عددهم بين ستة آلاف وخمسة وعشرين ألفاً من الطلاب ، وقبل الانقلاب الشيوعي كان يؤمها من بلاد القوقاز والتركستان وغيرها من البلاد التي دار عليها السور الحديدي مئات من طلاب العلوم الدينية ، والآن لم يبق منهم أحد إلا من ترك وطنه واستوطن العراق من أهالي بادكويه وكنجة وإيران واسكران وعشق آباد ونجارا وسمرقند وغيرها ، وأكثر مجتهدى الشيعة يقيمون في العراق ولهم الكلمة في إيران والهند وباكستان وسورية ولبنان والبحرين ومسقط وغيرها .

المراكز الدينية لأهل السنة :

وفي العراق قبر الإمام أبي حنيفة وصاحبه الإمام أبي يوسف وقبر الإمام أحمد بن حنبل ، وكانت لهم مدارس دينية في عهد الدولة العثمانية في جميع بلاد العراق ولاسيما في بغداد ، أما الآن فقد انحصرت في كلية الشريعة في الأعظمية التي تقوم على نفقتها إدارة الأوقاف ، وتؤدي هذه الإدارة رواتب لمدرسين في المساجد .

مراكز الصوفية في العراق :

وفي العراق مراكز للصوفية كلها من مراكز أهل السنة ، إذ لا يوجد صوفي شيعي في العراق ، وهذه المراكز في المساجد والتكايا حول قبر الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وقبر بشر الحافي ، وقبر جنيد البغدادي ، وقبر معروف الكرخي ، وقبر الشبلي ، وقبر علي بن اسماعيل بن جعفر الصادق المعروف بسيدى السلطان علي ، وقبر محمد العضل بن اسماعيل المذكور ، وفي بغداد حتى يعرف باسمه (محلة الفضل) وقبر الشيخ عمر ، وقبر السيدة نفيسة ، وهي غير السيدة نفيسة المدفونة في القاهرة ، وقبر السيد أحمد الرفاعي ، وتكية النفسبندى في بيارة شمال العراق وتكايا القادرية في كركوك وأربيل ، وتكية البرزنجي في السليمانية ، وغيرها من تكايا ، وأغلب هذه المراكز تديرها مديرية الأوقاف ، وبما يجدر ذكره هنا أن المراكز الدينية الشيعية لا ترتبط بالحكومة ولا بإدارة الأوقاف ، فهي تنفق عما يصلها من التبرعات والحقوق الشرعية كالزكاة والاختاس والنذور .

نسبة الشيعة لأهل السنة في العراق :

لم تعرف بالضبط نسبة الشيعة إلى أهل السنة في العراق ، لأن إدارة النفوس لا تذكر أوراق الجنسية المذهب ، وتكتفي بذكر كلمة مسلم ، وهذا من المستحسن ولا حاجة إلى التفرقة بين المسلمين بذكر نسبة بعض الطوائف إلى بعض ، ولكن لما كان موضوع بحثنا هو التوحيد بين الطوائف ، فلا خير في ذكر عدد أفرادها ، وإنما لم تقم إدارة النفوس بذلك ، فيمكن الوقوف عليه ولو إجمالاً من طريق آخر وهو تعداد الأولوية الشيعية والسنية ، وإليك ذكرها : لواء كربلاء ، والديوانية ، والحلة ، والمنعك ، والعمارة ، والكويت شيعية محضة ، ولواء السليمانية واربيل سنية محضة على المذهب الشافعي ، ولواء الموصل يغلب عليه السنية على المذهبيين الشافعي والحنفي ، ولواء كركوك يكثر فيه أهل السنة على المذهب الشافعي والباقي من الشيعة . ولواء ديالى يغلب فيه الشيعة ، وأهل السنة فيه على المذهب الحنفي ، ولواء بغداد والبصرة يغلب فيه الشيعة ، وأهل السنة فيهما على المذاهب الأربعة ، ولواء الديلم سني محض والشيعة فيه قليلون ، وأهل السنة بين حنفيين وشافعيين . والقبائل المقيمة على دجلة والامرات في أواسط العراق وعلى البطائح في أدانيه كلها من الشيعة

الطوائف العراقية في زمن الدولة العثمانية :

وكان العداء شديداً بين أهل السنة والشيعة في زمن الدولة العثمانية ، وكانت الاعلالت بين الفريقين مقطوعة ، فلا معاشرة ولا مزاجاة ، ولا تعاون ولا تعارف بل كان ينكر بعضهم بعضاً ، ويقسو بعضهم على بعض ، وتكفر كل طائفة الأخرى ، وكانت الحكومة لا تتحرج من استئصال الشيعة وقتلهم تحت كل حجر ومدر ، وذكر في تاريخ السلطان سليم العثماني أنه كان لا يتم بشيء أكثر من اهتمامه باستئصال الشيعة وإبادتهم ، وأنه قتل بين سمرام وبغداد في العراق في يوم واحد خمسة وعشرين ألف رجل من غير ذنب سوى أنهم شيعة ، وذكرت مؤلمات تركيا الحديثة : أن من أقوى أسباب زوال الدولة العثمانية عداؤهم للشيعة وحرهم معهم . وصرح كتاب ألف حديثاً باسم (شيعيك أمادولده حركاتي) بأمور كانت خافية ، تبين أن عوامل التخريب في الدولة العثمانية كادت تكون

منحصرة في تعصب الدولة لأهل السنة ضد الشيعة ، حتى أنها لم تكن تعترف بأى حق لم كرواطين في البلاد . وكانت تقتل من تظهر له مربة عليية من الشيعة ، كالشهيد الأول محمد بن جمال الدين مكى ، والشهيد الثانى زين الدين وأمثالهما .

والعراق كان أشد البقاع العثمانية شقاء وأكثرها عناء ، حتى أن أحد من الشيعة أو أهل السنة إذا خلا بصاحبه وقوى عليه لم يؤمن عليه خطره ، وهذه الحوادث كانت وليدة الحوادث الكثيرة التاريخية التى أشرنا إليها فى الأمر الأول ومسية عن وضع المراكز الدينية التى ذكرناها فى الأمر الثانى ، والمستعمرون وجدوا فيها جوراً ملامتاً لبذر بذور النفاق ، والقاء التفرقة والشقاق بين الفريقين اتباعاً للسياسة العامة (فرق تسد) التى يتبعونها فى المستعمرات ، ودامت الحال على ذلك إلى زمن الانقلاب الأخير فى الدولة العثمانية ، والانتقال من الحكم الاستبدادى إلى الحكم الدستورى .

الوحدة الإسلامية والدعوة إليها :

ولما قام الأحرار فى وجه السلطان عبد الحميد وخلعوه وأوجدوا النظام الدستورى - واستيقظ المسلمون من سنة الغفلة ، وشعروا بالضعف ، وأن من أشد عوامله تفرق كلبة المسلمين وتشقت شملهم ، أخذ المفكرون منهم - ولا سيما علماء الدين - يسمون جهدهم فى نبذ الخلاف وترك الخصومات ، وتوحيد كلبة المسلمين ، ونجحوا نجاحاً باهراً فى العراق ، وصار الشيعى لا يفرق بين أخيه السنى وأخيه الشيعى ، وكذلك صار أهل السنة يرون الشيعة أخوة لهم ويسعون فى مصالحهم كما يسعون فى مصالح أهل السنة وتوثقت روابط الاخوة بين الفريقين ، ودامت الصلات ، وكثرت بينهم المناكحات حتى صار كل من السنى والشيعى يشعر بأن الآخر كف له فيزوجه ابنته ، وقلبا يوجد بيت فى بغداد وأطرافها لا تتشكل أفراداً من شيعيين سنين ، فكم من ولد أبوه شيعى وأمه سنية وبالعكس ، ولما حدثت حرب طرابلس الغرب مع إيطاليا وحرب البلقان والحرب العالمية الأولى كان الشيعة فيها - مع أن الدولة كانت سنية - أكثر جهاداً وبذلاً للفس وللمال من أهل السنة .

ولا ينسى العراقيون الحروب التي دارت من البصرة إلى بغداد بين العثمانيين والانجليز ، فقد كان مجاهد الشيعة يحملون السلاح في مقدمة المتطوعين من القبائل الشيعية التي كانت تعد بمئات الآلاف ، وقد قُتل في تلك الحروب الطاحنة كثير من شيوخ الشيعة وعلماؤها الذين باشرُوا الحروب بأنفسهم وخاضوا غمراتها في (السُعيية) حول البصرة و(مُزيرعة) حول القُسرنة و(أبي الدعاج) حول الناصرية والعمارة والكوت كراً وُفراً ، و(قصيبة) حول بغداد في الهجوم والدفاع ، وهكذا حتى انتهت الحرب وعلماء الشيعة على رأس المتطوعين من قبائلهم ، وكنت أماناً من حمل السلاح وخاض غمرات تلك الحروب بأسرها ، ولا يغيب عن ناظري اليوم عشرات من مجتهدى الشيعة رأيتهم مشحطين بدمائهم على التراب تحت المعجاج حتى زهقت أنفسهم في سبيل الله ودفنهم بثيابهم من غير غسل لأنهم شهداء والشهيد لا يغسل ولا يكفن بل يدفن بثيابه .

لم يُغلب المسلمون :

وكان مما يلاحظ في تلك الحروب أن المسلمين دائماً كانوا يهزمون أمام الجيوش الانكليزية ، وكان القواد العثمانيون يظنون أن الهزيمة من نتائج عدم تكافؤ القوى ، وكان علماء الشيعة يعتقدون أن الهزيمة نتيجة ضعف الإيمان ، وترك التعاليم الإسلامية ، فإن الجيش العثماني كانت له عقيدة ثابتة في الدين لم تحصل لقاداته ، لأنهم كانوا ممن أثرت عليهم الشبهات وغرتهم زخارف المدنية الأوروبية ، ولم تتحد عقيدة القادة مع عقيدة الجند ، وكم من قائد كان يذهب إلى ميدان الحرب في صبيحة ليلة فاجرة كان قد مضاهما بين الخير والنعوانى دون أن يردعه عن ذلك وازع من دين أو عقيدة فيزج بمجنوده في لهوات الحرب ، ولا شك أن عاقبة قتل هذا القائد هي الخذلان والهزيمة ، وكان النزاع بين علماء الشيعة الذين كانوا يقودون المتطوعين وبين قادة الجند دائماً بسبب ذلك ، وكانوا يذكرونهم بقوله تعالى : **« وَلْيَنْصُرْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ »** . وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . **« إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ »** . ووافوا بعهدي أوف بعهديكم ، وأمثال ذلك من الآيات الكريمة التي تصرح أن الله تعالى إنما ينصر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ،

وأن ضئف الإيمان وترك الأعمال الصالحة لا يؤدي إلا إلى الخذلان والذل والحزى ، وكاوا يجهرون دائماً بأن الهزيمة لم تصب المؤمنين والمسلمين ، وإنما أصابت أناساً سموا أنفسهم مسلمين ، وإيسوا من الإسلام في شيء ، انتهت تلك الحروب والعراق الذي كان مسلماً أصبح مستعمرة انكليزية .

الثورة العراقية والوحدة الإسلامية :

هنا عاض علماء السنة يد الندم وأسفوا على ذهاب الدولة الإسلامية والحرمان من كل ما كانوا يتمتعون فيها من حقوق ومتاصب ورواتب ، وأخذوا يفكرون في سلوك طريق تنقذهم بما وقعوا فيه ، وكان علماء الشيعة لايهمهم شيء إلا التخلص من الاستعمار عملاً بالواجب الشرعي ، وكان في مقدمة علماء الشيعة تومثد الميرزا الشيرازي المجتهد الشهير ووالدي رحمهما الله ، ولما عُدت من الأماضول بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وجدتهما في كربلاء ، وقد عقدتا حلفاً بين القبائل للأيام في وجه الانكليز ، فوكلا إلى إعلان الثورة للتخلص من يد الاستعمار الطاغية ، وأسرع إلينا علماء السنة بعد دعوتهم إلى الاشتراك في محاربة المستعمر ، واتحدت كلمة العراقيين اتحاداً حقيقياً ، وأنهبوا للقتال في سبيل الله صفأ واحداً كأهم بنيان مرصوص ، فخصات الوحدة العراقية الكاملة ، وأعلنت الثورة ليلة التاسع والعشرين من شهر رمضان المبارك في كربلاء في صحن العباس بحضر رؤساء قبائل العراق وعلمائها بأمر من المجتهدين الكبارين الشيرازي ووالدي ، وحوصرت الجيوش الانكليزية في أكثر أماكن العراق ، ونشب القتال في أغلب ربوعه ، وأهل السنة والشيعة يد واحدة يحاربون في سبيل الله بإيمان صادق وعقيدة راسخة ، وكانت لهم الغلبة ، إذ صدقت العقيدة ، وخلص الإيمان واتحدت الكلمة .

فشل محاولة الانكليز في تفريق الكلمة :

وحاول الانكليز تفريق كلمة المسلمين لأنه السلاح الوحيد الذي كانوا يستعملونه في إخضاع البلاد الإسلامية ، فأرسل المندوب السامي سكرتيره (محمد حسين الكابولي) فكلم والدي عما كان يجري للشيعة على أيدي العثمانيين من تضييع

الحقوق والاستهانة بهم ، وقال أنه ودولته مستعدان لاعطاء الشيعة حقوقهم كي ينتقموا من أهل السنة الذين كانوا قد ظلموهم ، كما أنه أرسل إلى المرحوم يوسف السويدي والشيخ أحمد داود والشيخ إبراهيم الراوى من علماء أهل السنة يحذروهم من عاقبة الثورة ، وأنها تنتهى بتسلط الشيعة على أهل السنة وإذلالهم والسيطرة عليهم ، وعلى أثر ذلك أصدر أبى بياما قال فيه (إن الإنكليز بصدد تفريق الكلمة ، وأنهم يطعموننا بتعيين ملك من الشيعة ليفرقوا بذلك بيننا وبين أهل السنة لذلك نعلن على الملأ ، أننا لا نطلب ملكاً شيعياً ، وإنما نريد جلاء الإنكليز وحكومة مسلمة ، ونستقبل الملك المسلم السنى) .

وانتشر هذا البيان انتشاراً هائلاً في جميع أنحاء العراق ، واطمأن أهل السنة وردّ كيد الكائدين في نحورهم ، ودامت الحرب في العراق حتى انتهت بقتوح فيصل الأول ملكاً على العراق ، وكان هذا الاتحاد الذى لم تزل له دسائس الإنكليز نتيجة لما جرّبه العراقيون من الحوادث المرّة التى سبّتها بفرقة الكلمة ، فلم يعودوا إلى الضرر الذى ذاقوا مرارته .

العراق اليوم :

والعراقيون اليوم متحدون ، لا فرق بين سنّى وشيعى وحنفى ومالكي وشافعى وحنبلّى وصوفى وغيرهم ، بل كل واحد منهم يشعر بأنه مسلم يوحد الله ، ويؤمن بخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، كتابه القرآن ، وقبلته الكعبة ، وأحكامه ما جاء في الكتاب والسنة ، لا فرق بينه وبين غيره من المسلمين إلا في فروع لم ينص عليها القرآن ، واختلفت الآراء في استخراجها من السنة ، وهى فروع لا تكاد تُعد شيئاً بالنسبة إلى الأصول والفروع المنفق عليها ، والجميع يتصنون بحقوق واحدة ، وهذا رئيس وزراء العراق اليوم وبعض وزرائه من الشيعة يتعاونون مع زملائهم الوزراء من أهل السنة لا يفرق عراقي بين أحد منهم وهم قه مسلون .

الدسائس الاستعمارية :

وإذ تكلمنا عن اتحاد المسلمين في العراق ، فينبغي أن لا ننسى الدسائس الاستعمارية ، فلا يظن جنان أن الانكليز يذسوا من العراق ، وكفوا عن دسائسهم المعروفة ، ورفعوا اليد عن تفريق كلمة المسلمين ، كلا فإنهم استأجروا أماناً يهاجون الشيعة باسم أهل السنة وأهل السنة منهم براء ، وأماناً يهاجون أهل السنة باسم الشيعة والشيعة يلغونهم ، ولأولئك المستأجرين صحف تهاجم الفريقين ، وكتب تؤلف بهذا الصدد ، وكلها ليس لها أثر على الرأي العام في العراق ، فإن الشيعة وأهل السنة جميعاً شعروا بهذه الدسائس وعرفوا المستأجرين وصحفهم واحتقروهم ونبذوهم ، ولما لم تكن لتلك الصحف قيمة في العراق ولا أثر ، استأجروا في مصر بعض المتمصرين كي يؤلفون الكتب وينشرون الصحف لإثارة الثورات الطائفية ومطبوعاتها في مصر ويرسلونها إلى العراق ، وكنت قبل أن أزور مصر أحسب فيمن يحسب أن لأولئك المستأجرين شأماً في مصر ولصحفهم وكتبهم أثراً ، فلما زرت هذه البلاد علت والله الحمد أن المصريين لا يعرفون شيئاً عن تلك الصحف والكتب ، وأنها تؤلف وتطبع سرّاً دون أن يعلم بها المصريون ، ونشر في العراق اللهم لإلحجة واحدة استغلت صلة محررها ببعض القائمين على مؤسسة دينية في مصر ، فنشرت باسم تلك المؤسسة أكاذيب على الشيعة يعلم الله أنها مختلفة عليهم ، منها ما قاله تلك المجلة عن الشيعة من أنهم يجيزون تكذيب النبي والعياذ بالله وأنهم يبيعون نسخ الأحكام الشرعية بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ولما انتشرت تلك المجلة في العراق ، حدثت ضجة عظيمة لا ضد أهل السنة بل ضد المجلة نفسها والمؤسسة التي تنسب إليها ، فأشفقت عليها ، وكتبت لها مقالا مسهباً ، لتخرج من غفلتها إن كان ما كتبتة عن غفلة ، وذكرت في ذلك المقال عدم وجود ما نقلته عن كتاب معين في ذلك الكتاب ، والموجود فيه هو : أن تكذيب النبي فيما ثبت عنه كفر وشرك ، ولو لم يكن ذلك في الأمور الدينية كإخباره مثلا عن كيفية خلق السموات ، وأمثال ذلك من الأمور التي لا تتعلق بالدين ، وكنت أظن أن الحرص على مصلحة الإسلام أو الإنصاف والوجدان ،

سيقضى على تلك المجلة بنشر ما كتبتة إليها ، ولكن خاب ظنى ، إذ لم تنشر ذلك ، بل حرّفت كلمات من المقال ونشرتها ، وما كنت أود أن أذكر فى هذا المقال شيئاً مما افترفته تلك المجلة حذراً من إثارة الخلاف ، ولكن وقوف إخوانى المسلمين فى مصر على ما يعمله المستعمرون فى بلادهم ، أهم من كل شيء . فذكرت هذا ليعرف المسلمون ما تحوكة السياسة بينهم من الدسائس ، وشجعت ما رأيته من علماء مصر وفقهائها وفطاحلها ومجامعها الدينية من المحبة التامة ، والولاء الصادق لجميع فرق المسلمين ، وليس أدل على ذلك من أن مصر مركز جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، تلك الجماعة المؤلفة من كبار العلماء والمفكرين من مصر وغيرها من البلاد الإسلامية ، ذلك زاد فى أملى باتحاد المسلمين ووقوفهم صفاً واحداً لرد عادية الملحدين واللادينيين والمستعمرين ، وسأقل إلى بلادى وما جاورها ما شاهدته فى مصر من التصلب فى الأمور الدينية ، وكفاح أعداء الدين .

وأسأل الله تعالى أن يربنى فى القريب العاجل وحدة إسلامية فى أقطار العالم ، لاتفرق بينها الدسائس الاستعمارية ، وإنى بعد أن طردت الغلاة من العراق ، وطاردتهم فى إيران ، يحق لى أن أعرف إخوانى من بقية طوائف المسلمين ، أن الشيعة مخلصون فى دينهم ، يقولون بالتوحيد الخالص الذى لا تشوبه شائبة غلو ولا تفويض ، وأنهم متمسكون بقوله تعالى : « فلا تدعوا مع الله أحداً » وأنهم يحترمون صحابة النبى الذين اتبعوه ونصروه وعزروه واتبعوا النور الذى أنزل معه كما يحترمون أهل بيته ولى فى زيارة مصر أكبر حظوة فى اتصالى بإخوانى من العلماء الاعلام .

وأسأل الله أن يبارك لمصر فى نهضتها ، ويبلنها أهلها فى حفظ بلادها وإعلاء شأنها ، ويمكنها من المعاونة القوية فى نجاة العالم الإسلامى أجمع ، والله غالب على أمره .

بحث عن الدولة العباسية

لمضرة صائب المعالي السيد محمد رضا الشبيبي
وزير المعارف السابق بالعراق

معالي الأستاذ الكبير محمد رضا الشبيبي باحث جليل معروف في الأوساط العلمية والأدبية وهو وثيق الصلة بمجلة (رسالة الإسلام) وقد نشرت من قبل بعض مجونه وأحاديثه ، ومعاليه معني الآن بإخراج سفر تاريخي عن « مؤرخ العراق ابن القوطي » هو بحث مبسوط عن عصر هذا المؤرخ الذي يقع بين منتصف القرن السابع وصدر القرن الثامن الهجري ، ألفه معاليه بعد دراسة عميقة استغرقت أكثر من عشرين عاماً ، ومهد له بحث طريف عن الدولة العباسية ، استبطن فيه كثيراً من أسرار التاريخ الإسلامي ، ويسرنا أن ننشر في هذا العدد وفيما يليه طرفاً من هذا التمهيد ، مبشرين أهل العلم والبحث بوشك صدور هذا السفر الجليل إن شاء الله ، شاكرين لمعاليه انه خص بذلك مجلة رسالة الإسلام ، وأعرب عن كبير إعجابه بمخطتها ، وشديد رغبته في مؤازرتها ، شـكـر الله له وحياء :

* * *

تمهيد :

مآخذ البحث في التاريخ . الأصول القديمة . أبحاث
المستشرقين الجديدة . فرق المستشرقين . ضرر التقليد

كانت مآخذ البحث في التاريخ الاسلامي حتى مستهل هذه المئة الرابعة عشرة - عندنا - قاصرة على القديم من كتب المؤلفين في السير والتواريخ والأنساب والطبقات وكتب الفتوح ، وما إلى ذلك ، ومن أقدمها وأشهرها تاريخ الطبري ،

وكتب الواقدي والبلاذري وابن قتيبة وطبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام ،
ويبلغها كتب المسعودي والجهشياري ومسكويه وابن طيفور والصولي والصافي
وتاريخ الخطيب البغدادي وتاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ ابن الأثير ،
وذيول هذه التواريخ لأشهر المؤرخين العراقيين والشاميين إلى مؤلفات الطبقات
الآخيرة من المؤرخين .

نذكر من بين المؤلفين أو الباحثين - عندنا - إلى ذلك الحين من وقف على أبحاث
علماء الغرب في علوم العرب والإسلام وما أخذها من الأصول النادرة حتى اتصل
الشرق بالغرب ، وزالت الحواجز التي كانت تحجز بيننا وبين البلاد الغربية ،
وألغيت المسافات بسبب أحدث وسائل الأسفار .

من ثم غنى من غنى من العرب بتحصيل لغات الغربيين وعلومهم في بلادهم
نفسها ، وطالعوا ما نشر لهم من أبحاث تاريخية وغير تاريخية عن الشرق والإسلام
واطلعوا على أساليبهم في التأليف ، فأصبحت هذه الكتب والدراسات الغربية
الحديثة من أهم مآخذ المؤرخين المحدثين في هذه البلاد .

لا غرو إذاً هذا المتعدون من أهل هذا الجيل حذو بعض الأساتذة الغربيين
ومالوا إلى مناهجهم في البحث والتأليف ، فإن للكتب التي يعنى الغربيون بتأليفها
ميزات تمتاز بها عن كتب المؤلفين من الشرقيين من حيث تنسيق موادها وتقريب
مطالبها علاوة على ما فيها من دقة النظر وعمق التفكير . ولكن لا بد لنا من القول
أن لمجراة الغربيين في هذا الباب حداً يبنى الوقوف عنده وإلا أصبحت مجاراتهم
وترسم خطائم ضرباً من ضروب التقليد المعيب ، كما يفعل ذلك الآن بعض المتعلمين
في البلاد الشرقية .

قد يكون لانكالا على حذق الغربيين في تنظيم بعض الشؤون المادية أو
الفنون الصناعية ، سبب من تخلف الشرق في هذا المضمار ، وإن كان الشرقيون
ملومين في هذا التقصير، بيد أننا لا نرى وجهاً لانكالا على الغربيين أو المستشرقين
منهم في درس ما يتعلق بتاريخنا أو تاريخ آداب لغتنا على الإطلاق ، ولا نجد سبباً
للتعويل على أبحاثهم في هذا الشأن على علانها وعلى ما فيها من الغث والسمين .

ويلاحظ أن بين المستشرقين فرقا وأحزابا ، ولا شك أن عدد الاعلام المنصفين والفحول المتضلعين منهم ليس بالقليل ، وفضل هذا الصنف لا ينكر في نشر جانب من تراث العرب وإثارة كنوزهم الدفينة ، وقد بلغ بعضهم في التحقيق والتنقيب غاية بعيدة ووجدنا في هذه الطبقة من المستشرقين من يترفع عن الدس والغش من حضارة الشرق والاسلام ، ولكن إلى جانب هؤلاء توجد طبقة أخرى عمدت في بعض ما يكتب وينشر لها إلى دس السم في الدسم وبذر بذور الشقاق ، بل وجدناهما قمالج البحث في تاريخنا الإسلامي على شكل يثير التفرقة ، وخاصة بين شبابنا الناشئ المتعلم في عصرهم أحوج ما يكونون فيه إلى الاتحاد ودفن الحزازات .

ما أكثر أوهام هذه الطبقة من المستشرقين وما أتفه بضاعتها من لغة العرب وتاريخهم ، وقد أبت العربية أن تبوح بأسرارها لكثير منهم فضلت أفهامهم في فهم ما قرأوه من النصوص فيها وراحوا يخبطون خبط عشواء وضل معهم من ضل من المقلدين ، ثم ألا ترى أن لكثير منهم في ناحية الشؤون الأخلاقية والسياسية وغير ذلك مقاييس تختلف عن مقاييس شعوب الشرق في كثير من الأحيان ، هذا وأنكى من ذلك أن يطرس على آثارهم بعض المتعلمين من الشرقيين وإننا عذرنا هذه الفئة من المستشرقين فيما يصدر عنهم من هذا القبيل طبقاً لأغراضهم أو أغراض دولهم وأطماعها فما عذر هذه الزمرة من أبناء الشرق في انتحال تلك الآراء الدخيلة ونقل ما كتب فيها إلى العربية ؟ وليس الغلو والشطط من أخلاق العرب في شيء وهما حجة قوية لمن يظعن في عروبة هؤلاء المقلدين وفي أنسابهم المنتحلة ، وكم جنى الغلو على حقائق العلم والتاريخ !

إذا رأينا بعض هؤلاء المتأخرين من المستشرقين يضامون مع بيت عريق من بيوت العرب أو يتحاملون على بيت آخر أو يتددون بنحلة من النحل أو يؤيدون نخلة أخرى أو يفرقون بين عرب الشام وعرب العراق في هذا العصر ، فاعلم أن لهم أو لبعض دولهم المسيطرة على ديار الإسلام ما لها من الأغراض السياسية

أو الدينية في ذلك ، هذا والمفرور من شباب العرب من اغترب هذا النمط من المستشرقين وجاراهم في شططهم ودسهم أو نسج على منوالهم فيما ينشرون ويكتبون .
هذه كلمة مهدنا بها لما نحن بصدده من البحث عن الدولة العباسية ، وهذا حين نتقدم اليك بالبحث المذكور .

دولة بني العباس

تمخض العالم الإسلامي في مستهل المئة الثانية عن حركة سياسية جديدة إلا أنها حركة قوية في بواعثها وتنظيمها ، وهي الدعوة إلى انتزاع الملك من بني مروان ، وكانت الدولة الأموية تتجاذ في مستهل المئة المذكورة الثلث الأخير من المئة التي عاشت فيها ؛ لأن جميع ملك بني أمية إحدى وتسعون سنة أو نحو ذلك ، كما كانت كثرة الشعوب في الدولة تشململ من الفتن وثن من الجور وتستغيث من العبت بالمصالح العامة ، بل كان كل شيء في العصر المذكور يهيء الأذهان لقبول الدعوة الجديدة .

نبتت الدعوة الهاشمية ووضعت أسسها وقواعدها في البلقاء من أصقاع الشام إلى الجنوب بينها وبين وادي القرى ، وكانت عمان وهي الحاضرة المعروفة الآن قصبة السكورة المذكورة ، ومنها أي من البلقاء خرج المبشرون بهذه الدعوة إلى الأمصار على يد محمد بن علي العباسي ربان هذه الحركة في مطلع القرن المذكور ، ثم انتقل الدعاة إلى العراق وخراسان ، ويلاحظ أن النقباء الذين اختيروا للقيام بنشر الدعوة وعددهم اثنا عشر نقيباً من آحاد الرجال في الدراية والكفاية ، ومع أن عمال الدولة الأموية في العراق وخراسان لم يألوا جهداً في مقارعة الدعاة وأخذهم بالشدة والتكيل خصوصاً في خراسان ، إلا أن ذلك زاد البقية الباقية منهم مضاء وإصراراً على نشر دعوتهم ، وفي سنة ١٣٢ هـ ، أي بعد مضي ثلاثين عاماً على الشروع بالدعوة الهاشمية أعلنت الثورة العامة في الشرق بأسره ، أي في خراسان وفارس والعراق إذا استثنينا بعض الجهات النائية .

مروان الجعدى :

وكان مروان بن محمد بن مروان المعروف بالجعدى على رأس جيش ضخم قدر عدده بمئة وعشرين ألفاً قوامه نخبة من أهل الشام وأشهر قبائلها (١) يحاول الزحف بهم على العراق من الجزيرة .

كان جيش الجعدى ضخماً حقاً من حيث العدد فقط ، ولكنه فى منتهى الضعف من حيث روحه ، ومن حيث معنوياته ، فقد كانت روح الهزيمة والتواكل فاشية فيه ، بل كان جنده يتحدى أوامره ويجاهر بعصيانته (٢) إلى غير ذلك من المساوىء الشائعة بين أفراد الجيش وقواده على حد سواء ، وهو من هذه الناحية يختلف عن جيش بنى العباس .

الوقعة الحاسمة وموضع العبدة فيها :

وكانت الواقعة الحاسمة بين الفريقين على الزاب الكبير أو الصغير فى قول (٣) وفيها اندحر مروان وظفر عبد الله بن على عم السفاح بالجيش الاموى كله ، ويلاحظ أن جل قواد الجيش العباسى الذى قاتل مروان الجعدى بقيادة عم السفاح المذكور من زعماء العرب المعروفين ، ولوحق مروان وهو هارب بعد واقعة الزاب حتى قتل فى مصر فى السنة المذكورة .

وموضع العبدة فى هزيمة مروان هو الخذلان العام ، فإنه - وهو يتنقل بين شواطئ دجلة إلى شواطئ النيل وبين أحياء العرب وحواضرهم فى هذه الرقعة الشاسعة - لم يجد كهفاً يأوى إليه أو أحداً يحميه ، ويلاحظ أن هذه الواقعة الحاسمة

(١) انظر عن أسماء القبائل التى كانت فى جيش مروان - ومنهم قضاة والسكاسك والسكون - السكامل لابن الأثير [٢٠٠ / ٥] .

(٢) انظر عن روح الهزيمة فى جيش مروان المصدر نفسه ، وانظر عن حالة هذا الجيش الآداب السلطانية لابن الطائى ١٠٦

(٣) كانت الوقعة المذكورة على أحد الزابين بلا شك ، والأغلب أنه الزاب الكبير . وفى بعض كتب التاريخ أنه الزاب الصغير انظر المروج [١٤٦ / ٢] .

التي أسفرت عن هزيمة مروان على الشكل الذي انهزم به لم تثر دهشة أو استغراباً في نفوس أهل الشام ، وقد استقبل هذا الحادث بشيء غير متوقع من رباطة الجأش في عاصمة الأمويين ، وأكثر من ذلك أما نجد أهل دمشق وحمص والاردن وفلسطين وثبوا على فلول الجيش المهزوم وأعملوا السيف فيمن يلبهم من عسكر مروان ، ونهبوا أمواله وذخائره ، ولا عجب فإن الديار الشامية كغيرها - في ذلك الحين - ستمت العتق والفوضى ، وزهدت في تأييد قوم انغمسوا بالتurf إلى الأذقان ، وشغلوا بالذات عن مصالح الناس ، وكان عدد المطعونين في ديانتهم من الأمويين غير قليل في العصر المذكور (١) .

علام الإِدبار :

كانت تجيش في نفس مروان بعد اشرافه على الهزيمة أمور غريبة تحل بمركزه في الدولة وتناى مصلحة الأمة ، ومن ذلك أنه فكر وهو على مقربة من الحدود بالخروج إلى بلاد الروم والالنجاء إليهم إلا أن بعض من استشارهم فندوا رأيهم في تحكيم أعداء الإسلام بنفسه وبأهل بيته ومن ينتهي إليه ، وما هؤلاء الأعداء إلا الروم الذين لا يعرف عنهم الوفاء ، فعدل عن ذلك (٢) ، وهذه من مروان الجعدي خواطر تدل على منتهى الحيرة والارتباك .

انقرضت بمقتل مروان الجعدي دولة الأمويين في الشرق ، وخلقتها الدولة العباسية ، وإذا استثنينا بعض الانتفاضات المتفرقة في الجزيرة ، وفي جيوب من بادية قنسرين ، وحوارن ، والبلقاء قام بها بعد واقعة الزاب بعض قواد مروان أو بعض الزعماء الذين تربطهم به رابطة مودة قديمة ، فلا نجد أثراً للمقاومة في البلاد الشامية وما إليها ، وليس في الانتفاضات المذكورة ما يعبر عن رغبة يمتد بها في

(١) انظر عن انقلاب القبائل بين الجزيرة ومصر على مروان : المروج [١٤٩/٢] والكمال [٢٠٢ / ٥ - ٢٠٣] .

(٢) انظر عن خواطر مروان الجعدي وتقنيده رأي في هذا الباب : مروج الذهب [١٤٨ / ٢ - ١٤٩] .

الانتصار لبني مروان ، كما قوم بعض الشرقيين أو المستشرقين ، وقد نشأ بعضها عن الشك في مقتل مروان ، فلما اتضحت لهم الحقيقة ألقوا السلاح ، ولا يستغرب حدوث مثل هذه الفلاقل في ذلك الحين (١) .

الجيش والسياسة :

وقد رأينا أثر السياسة والعصية القبلية معاً في خذلان مروان ، وفي ظفر العباسيين به ، فكيف تسرب الفساد إلى ذلك الجيش ؟ .

من رأى بعض المؤرخين أن مرد ذلك إلى أثر الدعوة الهاشمية ، وليس هذا الرأي بشيء ، وإن كنا لا ننكر بعض الأثر للدعوة المذكورة في جيش مروان .

إذا تأملنا تاريخ الدولة الأموية ، لاحظنا أنه طافح بأخبار التحزب والعصبيات فمن ذلك عصية قيس وكنب ، وعصية قيس وتعلب في أيام عبد الملك بن مروان وكانت كلب مروانية ، وقيس زبيرية ، وفي هذه الفترة انشق الأمراء من بني أمية على أنفسهم ، واختلفوا باختلاف أمهاتهم من كلبيات وقيسيات ، وكاد يكون بينهم شر (٢) . ومن أشهر هذه العصبيات ما حدث بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، أو بين المدنانية واليمانية ، في الشام وغير الشام وأينا وجدت القبائل المذكورة ، ولم نعلم منها الأقطار الأدلسية (٣) .

(١) انظر عن هذه الانتفاضات تاريخ الأمم والملوك للطبري [١٣٧ / ٩ - ١٣٩] والكامل لابن الأثير [٢٠٦ / ٥] وانظر عن أشهر قواد الجيش العباسي في واقعة الزاب المصدر المذكور [١٩٩] .

(٢) راجع عن الاختلاف بين القيسية واليمانية في الشام والحرب بينهم في مرج رameط للبيان والتبيين [١١٦ / ١] والقصد الفريد [١٤٥ - ١٤٨] وانظر عن الحرب المذكورة في مرج رameط بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس ، الاستيعاب لابن عبد البر [٢٧٢ / ١] و (٢٧٢ - ٣٣٥) .

(٣) من أوقى المراجع في ذكر هذه الأحداث والأيام أيام القبائل المذكورة وحروبها - وهي حروب طاحنة كثيرة - كتاب أنساب الأشراف قبلادري (٣١١ / ٥) ، وانظر =

حدث هذا الانشقاق في صدر الدولة الأموية ، واستمرت نار الفتن تضطرم طوال العصر الأموي ، وشطراً من عصر بني العباس ، وأدى ذلك إلى اعتزاز القبائل المذكورة ، من عدنانية وقحطانية وقيسية وكلبية وتغلبية بدعوة الجاهلية ، وكتب التاريخ الإسلامي طائفة بأخبار الفتن والحروب الناشئة عن هذه العصيات الذميمة ، ولا يبالغ من يقول : إنها من أهم العوامل في تقويض دعائم الدولة الأموية .

إلى هذه العصيات مرد ذلك الفساد والتخرب الذي رأيناه في جيش مروان فإن مروان تعصب لقومه من نزار على اليمن ، وكان حجابيه يقدمون الفيسية ويؤخرون القحطانية ، ويسمعونهم في مجلسه وعلى بابه كلمات نابية تشمر باحتقار اليمن واليمانية ، كما كان ابن هبيرة صاحب شرطة مروان ينقل لأهل اليمن أقوالاً يزعم قائلوها بأن اليمانيين تناسلوا من القروء إلى غير ذلك من المقتريات (١) . ولعل أصل هذه الخرافات ما جاء في بعض الروايات من أن أحد ملوك اليمن سبي قوما منكروى الوجوه تزعم اليمن أنهم النفساس (٢) . بيد أن اليمانيين أخموا ابن هبيرة ، ودافعوا عن محتهم دفاعاً مجيداً أثار إعجاب مروان ، وقد أضحكه هذا الجدل الغريب بين اليمانية والنزارية ، ولعل (دارون) صاحب مذهب النشوء والارتقاء كان عيالا على ابن هبيرة في مذهبه المذكور .

وبجمل القول : بلغ الجفاء بين هذين الحيين من العرب حداً بعيداً في العصر الأموي المشار إليه ، مع قرب العهد بدعوة الإسلام ، وهي دعوة تمكنت من

(٣٠٨ - ٣٣١) من الجزء المذكور - ط القدس ، ومهذب تاريخ دمشق لابن عساكر (٥ / ٧ و ٢٧٦) و (٧ / ٤ - ٩) ويراجع المصدر المذكور (١٧٦ - ١٩٣) عن زعيم قيس وفارسها في هذه الفتنة ، وهو أبو الهيثم المرى . وعن أخباره ومن قتل وافتنة المذكورة من زعماء العرب ، وانظر خزنة الأدب لابن عسك (٢ / ٢٢٥ - ٢٢٦) .

(١) انظر عن ذلك وعن كنيته استقبال ابن هبيرة لليمانية على باب مروان ، مهذب تاريخ دمشق لابن عساكر (٥ / ٤٠٤) .

(٢) براجع في هذا الشأن سيرة ذي الأذغار من ملوك اليمن القدماء .

صهر الثمرات القبلية الغالية ، وأذابتها في وحدة اجتماعية منقطعة النظير . ومهما كان منشأ هذه الشحنة بين القبائل العربية ، فلا شك أن لخرق فريق من الأمويين وسوء تصرف رهط من عاهلهم أثراً كبيراً في تأجيج نيران الضغائن المذكورة بعد الإسلام ، وهكذا انحرف عرب اليمن عن الأمويين ، وأصبحوا من أنصار الدعوة الهاشمية ، وقد هاجت هذه الفتن بعد ذلك مراراً ، وهي من أشهر الفتن في تاريخ الدول الإسلامية (١) .

السياسة الخرقاء :

وكانت ولاية نصر بن سيار على خراسان من قبل الأمويين شؤماً عليهم مع إخلاصه وتفانيه في سبيلهم ، ومع شدة وطأته على دعاة بني العباس ، وتنكيله بهم . وإلى هذه السياسة الخرقاء مرد تلك الفتن والخصومات العنيفة التي نجمت بين أحياء العرب في خراسان ، وفي أيام نصر هذه ، أي في سنة ١٢٦ هـ تفاقم الجفاء بين الزارية واليمانية في تلك البلاد ، إذ كان نصر يطلع مع الزارية على اليمانية ، وكان للأزد وغيرهم من اليمانية زعمائهم وفي مقدمتهم (جديع بن علي الأزدي المعنى) زعيم اليمانيين المعروف بـ (السكراني) ، وقد سفكت بسببه دماء غزيرة من عرب خراسان في هذا النزاع (٢) .

كانت هذه العصية القبلية وما شجر بسببها من الخلاف ، من أهم العوامل في اكتساح الدعوة العباسية للأقطار الخراسانية من أولها إلى آخرها ، وهي التي يسرت لصاحب الدعوة العباسية أبي مسلم الخراساني السيطرة التامة على تلك

(١) أنظر عن هياج هذه الفتنة بدمشق في أيام الرشيد الأخبار الطوال [٣٦٦] ، والكمال لابن الأثير [٥٤ / ٦] ، وراجع أيضاً المصدر نفسه [٧٥ / ٦ - ٧٦] ، ولاحظ ما جاء في كتبهم من الاختلاف في تاريخ وقوع الفتنة .

(٢) تجد ترجمة نصر بن سيار أمير خراسان في الدولة الأموية - وأول من وُلّاه هشام بن عبد الملك - في خزنة الأدب للبغدادى [١٩٣ / ٢] ، وفي جبهة الفسب .

البلاد (١) ، وقد تعددت المعارك الدامية بين القبيلين في مرو بزعامه الكرمانى من جهة ، وفرسان ربيعة وشيبان من جهة أخرى بزعامه نصر بن سيار ، وفي بعض هذه المعارك قتل الكرمانى زعيم اليمانيين (٢) .

أهواء متوارثة :

تذكرت قبائل العرب في هذا العصر ما وقع بينها من الحروب الطاحنة في القرون الجاهلية الخالصة ، وكانت هذه الحروب سجالاً طوراً للأنحطانيين على الزاريين ونارة بالعكس ، ومن أشهرها حروب تبع الأكبر والحروب الناجمة عن تفرق قبائل اليمن وهجرتها إلى الشمال (٣) ، فعادت هذه الذكريات بالعربي في العصر الأموى وبعض العصر العباسى إلى ضغائن مجهولة وأهواء متوارثة وأحفاد دنيئة ما أنزل الله بها من سلطان ، وما كادت تنطفىء النائرة بين هذه القبائل المحتربة لغير سبب معقول حتى تتضرم أخرى ، وكانت دعوتهم : يا لفلان ، وما إلى ذلك من نجوى الفتنة ودعوة الجاهلية التي نهى عنها الإسلام ، وتوعد أهلها بأشد العقوبة والنكال ، فقال الرسول الكريم : (من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بمن أبيه ولا تكنوا) ، إذ كان الفضل في تلك الجاهلية لمن طنى نفسك

(١) أنظر حكاية الخلاف بين اليمانية والزارية في خراسان وأسبابه ، تاريخ الطبرى [٣٧ / ٩] ، والكامل لابن الأثير [١٤٣ / ٥ - ١٤٥] .

(٢) راجع عن المعارك المذكورة بين الزارية واليمانية في مرو ، الكامل [١٧٢ / ٥ - ١٧٣] . وعن ظفر نصر بن سيار بالكرمانى وقته [١٧٢ / ٥ - ١٧٣] ، وانظر عن غلبة الأزدي بزعامه الكرمانى الأزدي على مرو قاعدة خراسان - المصدر المذكور [١٦٢ و ١٧٢] ، وعن ظفر نصر بن سيار بالكرمانى وقته المصدر عينه [١٧٣] ، وقد أجهز أبو مسلم الخراسانى على بقية آل الكرمانى من أولاده وأصحابه بعد ذلك ، أنظر الكامل [١٨٢ - ١٨٣ / ٥] .

(٣) راجع عن تحكم ملوك حمير بالقبائل الزارية وجبايتها وأخذ أموالها وتاريخ امتناعها عن ذلك في الجاهلية ، انعقد الفريد (٣ / ٣٦٥ وما يليها) ط الجالية . ومن أحسن المراجع في قصة تفرق قبائل اليمن كتاب الأمثال للبيدائى في شرحه للمثل المشهور : « تفرقوا أيدي سباً » وانظر عن الحرب بين أهل تهامة واليمن ، العقد الفريد (٣ / ٣٤٧ فما يليها) .

الدماء وسبي الحرم وقتل الذرية ، وكان الجاهلون لا يتناهون عن منكر فعلوه من هذا القبيل ، كانوا يتفاخرون ويتكاثرون بالأموال والأولاد ، وإوما إلى ذلك من شؤون الحياة المادية وبأشياء أخرى قد يترفع أهل العقول عن المفاخرة بها وحدها ، وكان جل نحر العرب بعد إسلامهم بالعقل والعلم والورع أى بالفضائل ومكارم الأخلاق .

حمة الأندال :

وكان حكماء العرب يسمون هذا النوع من النخوة الجاهلية (حمة الأندال) . قال الأحنف بن قيس حكيم العرب ، وقد سئل عما فيه حياة العرب ما نصه : « إذا تقلدوا السيوف ، وشدوا العائم ، وركبوا الخيل ، ولم تأخذهم حمة الأوغاد ، قيل له : « وما حمة الأوغاد ؟ » قال : (أن يعدوا التواهب فيما بينهم ضيما (١) .

ولقد أصاب الأحنف فيما قال ، فإن صلاح الأمم بالتعاطف والتواهب والتبازل والنحاب ، وفسادها بالتعاضد والتنافر والتواكل . وكانت دعوة الجاهلية أو حمة الأندال هذه ، مبدأ بوار الأمة العربية كما قال الأحنف بن قيس سيد أهل البصرة رحمه الله . والغالب أنه لاحظ بوادر هذه النعرات وسوء مغبة تلك الحوصومات الشنيعة بين عرب زمانه ، فأراد أن يصور ضررها وشاعتها وسقوط أهلها بهذه الكلمة القيمة . والحقيقة أن هذه العصية الجاهلية لم توصف بأحسن من قوله : « حمة الأوغاد » ، ومن أخلص بذلك من الأحنف في دينه المزين وقلبه الكبير ، وعقله العظيم ؟ فما أوجعها من كلمة ، وما أبلغها من عبارة !

وأبلغ دليل على ذلك هذا الضعف والفساد اللذان عصفا بحياة الأمة العربية بعد عصر الأحنف ، ولا منشأ لهما إلا الحروب التي دارت بين العدنانية والقحطانية

(١) البيان والتبيين (٢ / ١٨٣) ، وفي وفيات الأعيان (١ / ٢٣٠ - ٢٣٢) ، ترجمة ضافية للأحنف المذكور ، وتجد أوسع ترجمة له في تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٧ / ١٠ - ٢٤) وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر (١ / ٥٥ - ٥٦) ، ووردت له ترجمة أخرى في مادة (صخر) من المصدر المذكور .

فأفقدت العرب معينا لا ينضب ومادة لا تنقطع كانت قبائل الجزيرة تمتد بها
الأمصار والثغور رجالا أشداء ، وسواعد مفتولة ، وأخلاقا رضية كريمة ، وقد
ظهرت نتائج هذه الحروب الداخلية بعد ذلك في جرأة الروم والصليبيين على غزو
الدول الإسلامية ، واجتياح حدودها ، وتخلي الدولة المذكورة عن كثير من
الثغور والأقطاع ، بعد أن كانت فرائص الروم والفرنجة ترتعد لمجرد ذكر
العرب والمسلمين .

والواقع أن دعوة الإسلام جاءت رحمة للطبقة الدنيا من الناس ، فرفعت
أخلاقهم حسبا ، وأوضعهم نسا ، وسأوته بغيره في الحقوق والواجبات .

مساوىء الجاهلية ومحاسنها :

لعبت الجاهلية مساوىء ومحاسن ، ولبعض قبائلهم سير ذميمة في عقائدهم
وأنكحتم وتبرج نسائهم ووأد بنسائهم وعصلهن - أى منعن من الزواج حتى
الموت - وقتل أولادهم خشية الإملاق ، ولهم عادات أخرى بمقوثة ، حضرتها
الشريعة الإسلامية ، ولكن من حق أهل الوبر وسكان البادية من العرب على كل
حال أن يفخروا على غيرهم بشمائلم وبجايابهم ، ومن أشهرها الأنفة من العار ،
وحماية الذمار وقرى الضيف ، وأداء الحالات أو الغرامات ، ورعاية العهود والوفاء
بأوعود ، وقد اشتهروا ببذل المهبج والنفوس في هذا السبيل ، وكان أهل الجاهلية
لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال : السخاء ، والنجدة ، والصبر ،
والحلم ، والتواضع ، والبيان ، وقد أضيف إليها الإسلام بعد ذلك أى بعد الجاهلية
ويمتاز الجنس العربى على غيره كذلك بخصائص ومميزات ، في مقدمتها : حدة الذهن
والفطنة ، وصدق الفراسة ، وكانوا يستدلون باللحظة وباللفظة ، وهم إلى التحير
أقرب ، ومن غيرهم أحفظ ، بل هم أمراء البيان ، يفيض منطقهم بالحسكة وفصل
الخطاب ، وقد تأصلت فيهم هذه السجايا والأخلاق وتوارثتها أجيالهم في الجاهلية
وبعد الاسلام ؟
• يتبع •

السَّيَّاعُ الْمْتَرِدُ وَعَبْدُ الْخَزَاعِي

لفضرة صائب الفضيلة الأستاذ السَّيَّاحُ عبد الجواد رمضان

أستاذ الأدب العربي في كلية اللغة العربية

شاعر زاهر الحياة بالمغامرة ؛ بالغ الجرأة ؛ لا يبالي أَرَقَعَ على الموت ، أم وقع الموت عليه ، يصفه أبو الفرج فيقول : شاعر متقدم مطبوع هجاء خيث اللسان ، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ، ولا من الوزراء ، ولا من أولادهم ، ولا ذو نباهة ، أحسن إليه أو لم يحسن .

وكان للهجاء عنده فلسفة ومبدأ ؛ قال له أبو خالد الخزاعي مرة : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعاً ، فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كنفنت عن هذا ، وصرفت هذا الشر عن نفسك ! فقال : ويحك ! إنى تأملت ما تقول ، فوجدت أكثر الناس لا يُنتفع بهم إلا على الرهبة ؛ ولا يبالي بالشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يُخف شره ، ولَمَسْنِ يَتَقَبِّكْ على عرضه ، أكثر من يرغب إليك في تشريفه ؛ وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ؛ وليس كل من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ، ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك ، فإذا رآك قد أوجعت عرض غيره وفضحته ، اتفك على نفسه . ويحك - يا أبا خالد - إن الهجاء المقذع آخِذٌ بضبع الشاعر من المدح المضرع (١) .

وهجاء دعل الرشيد ، والمأمون ، وإبراهيم بن المهدي ، والمعتصم ، والمطلب
ابن مالك والى مصر ، وكلهم محسن إليه ، يُمنى له بيت في حضرة الرشيد ،
ويسأل عنه فيدل عليه ، فيجيزه ويحسن إليه ، فيكاشه بهجائه بعد موته ، بقوله
من قصيدة في مدح آل البيت :

وايس حى من الاحياء نعله	من ذى يمان ، ومن بكر ، ومن مصر
إلا وهم شركاء في دماهم	كما تشارك أيسار على جزو
قتل وأسر وتحريق ومنبهة	فعل الغزاة بأرض الروم والجزر
أرى أمية معذورين إن غدروا	ولا أرى لبنى العباس من عذر
أربع بطوس على قبر الزكى بها	إن كنت تربع من دين إلى وطر
قبران في طوس ، خير الناس كلهم	وقبر شرم ؛ هذا من العبر !
ما ينفع الرجس من قرب الزكى ، وما	على الزكى بقرب الرجس من وطر
مهايات كل امرئ رهن بما كسبت	له يده ، تلخذ ما شئت أو فذر

ويعنى بخير الناس على الرضا ، وبالأخر قبر الرشيد !

ويمدح المطلب والى مصر فيقول :

أَبْعَدَ مَصْرٍ ، وَبَعْدَ مَطْلَبٍ ترجو الغنى ، إن ذا من العجب
لَمْ كَاثَرُونَا جَنَّا بِأَسْرَتِهِ أو واحدونا ، جئنا بمطلب
فيؤليه مطلبٌ أسوان ؛ ثم يبلغه أنه هجاء ، فقال :

وعاديتَ قوماً فما ضرهم وشرفتَ قوماً فلم ينبلوا
فأنت إذا ما انتقموا آخر وأنت إذا انهزموا أول
فيرسل من يبلغه عزله وهو على المنبر ، ليكون أخزى له وأشقى لمطلب .

وهجو المعتصم - وقد بلّغه أنه يفضله ويريد اغتياله - فيقول :

بكى لشتات الدين مكثب صب وفاض بفرط الدمع من عينه غرب

وقام إمام لم يكن ذا هداية
وما كانت الأنبياء تأتي بمثله
ولكن كما قال الذين تابعوا
ملوك بني العباس في الكتب سبعة
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة
وإني لأعلى كلهم عنك رفعة
لقد ضاع ملك الناس إذ ساس ملكهم
ويقول بعد موته وقيام الواصل :

الحمد لله ! لا صبر ولا جلد
خليفة مات لم يحزن له أحد
ولا عزاء ، إذا أهل البلا رقدوا
وآخر قام لم يفرح به أحد

وهجا إبراهيم بن المهدي ، وهو خليفة ، وهجا بعد اختفائه بقوله :

فعرّ ابن شكلة بالعراق وأهله
إن كان إبراهيم مضطماً بها
ولتصلحن من بعد ذاك لزُلْ
أني يكون - وليس ذاك بكائن -
فهما إليه كل أطلس مائق
فلتصلحن من بعده لمخارق
ولتصلحن من بعده للبارق
يرث الخلافة فائق عن فاسق (١)

فيتنمز إبراهيم فرصة صلحه مع المأمون ، ويذهب يجره على دعبل ،
فيضحك المأمون ، ويقول : إنما تحرضني عليه لقوله فيك :

يا معشر الأجناد لا تقنطوا
فسوف تعطون حُسينية
والمعجديات لقوادكم
وهكذا يرزق قواده
وارضوا بما كان ولا تسخطوا
يلتذها الأمرد والاشمط
لا تدخل الكيس ولا تربط
خليفة ، مصحفه البربط

فيقول إبراهيم : فقد - والله - هجاك أنت يا أمير المؤمنين ، فيقول المأمون :

(١) شكلة : بنتح المين وكسرها - أم إبراهيم ؛ ومخارق بضم الميم ، وزلزل بضم الزاين
والمبارق : ممتنون ؛ وكان إبراهيم يعني .

دع هذا عنك ، فقد عفوت عنه في هجائه إياي لقوله هذا ، ثم دخل أبو عبيد
وزير المأمون ، فلما رآه من بعد ، قال لإبراهيم : دعبل يحسر على أبي عباد بالهجاء
ويحجم عن أحد ١٩ فقال له : كأن أبا عباد أبسط يداً منك يا أمير المؤمنين ! قال :
لا ، ولكنه حديد جاهل لا يؤمن ، وأنا أظلم وأصفر ، والله ما رأيت أبا عباد
مقبلاً ، إلا أضحكني قول دعبل فيه :

أولى الأمور يضيعة وفساد أمر يدبره أبو عبيد
وكانه من دير هرقل مُفلسك حرد ، بحر سلاسل الأقياد
فيقول إبراهيم : زادك الله حلاً يا أمير المؤمنين وعلاً ، فما ينطق أحدنا
إلا عن فضل عليك ، ولا يحلم إلا اتباعاً لحملك .

وأما جى دعبل أكثر وأشهر من أن يدل عليها ، وإصراره على هذا المنهج
في الهجاء يكشف عنه ما حکاه بعض الرواة من أنه سمعه يقول : أنا أحمل خشيتي
على كتفي منذ خمسين سنة ، لست أجد من يحملني عليها .

ونسب دعبل مختلف فيه ؛ فأبو الفرج يقول : هو دعبل بن رزين ... بن عامر
ابن عمرو بن مزريقا ويكنى أبو علي .

وينقل ياقوت هذا النسب عن أبي الفرج ، ثم يقول : كذا قال أبو الفرج
وقال آخرون : دعبل بن علي بن رزين بن عثمان بن عبد الله بن بُديل بن ورقاء ،
يتصل نسبه بمضر ؛ أبو علي الخزاعي ؛ وعلى هذا الأكثر . اهـ .

وأما أرجح ما ذهب إليه أبو الفرج ، لأن انحرافه عن نزار إلى اليمن ،
ومناقضته للكثير بن زيد ، ثم لأبي سعد الخزومي ، ثم على أنه يضرب في
القحطانية بعرق .

فقد انتقض دعبل مذهبه الكيت في هجاء اليمن التي مطلعها :

ألا حيت عنا يا مدينا وهل بأس بقول مسلمينا

بقصيدة له هجا فيها نزارا ومدح النين ، مطلعها :
أفيق من ملامك باظعينا كفاك اللوم مر الأربعينا

* * *

والتحم الهجاء بينه وبين أبي سعد الخزومي ، حتى رواه صبيان الكتاب ،
ومارة الطرق ، والسفل ؛ وحتى انتفى بنو مخزوم من أبي سعد ، فرقا من دعبل
أن يعمهم بهجائه ، وكتبوا بذلك كتاباً في دار المأمون وقد تظلموا إليه ، فقال
في ذلك دعبل :

غيران الصّيد منهم فنفوه بخراية
كتبوا البصك عليه فهو بين الناس آية
فإذا أقبل يوماً قيل : قد جاء النفاية

وكان هجاء أبي سعد أقوى ، ولكن هجاء دعبل أسير . وفي كليهما إقذاع
يميل بنا عن روايته .

* * *

وتلذذ دعبل على مسلم بن الوليد ؛ وقال : ما زلت أقول الشعر وأعرضه على
مسلم ، فيقول لي : أكنتم هذا . حتى قلت :

أين الشباب ، وأية سلكا لا أين يطلب ، صلّ ، بل هلكا
لا تعجبي يا مسلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

فلما أشدته هذه القصيدة ، قال : اذهب الآن فأظهر شعرك ، كيف شئت ،
لمن شئت ؛ وهذه القصيدة أيضاً هزله حبيب ، أبو تمام ، فقال : لمن سأله عن
نسب دعبل : هو دعبل بن علي الذي يقول : ضحك المشيب برأسه فبكى !

وما زال دعبل يعرف لأستاذه مسلم فضله عليه ، حتى ولي مسلم جرجان ،
ووفد عليه دعبل فجفاه ؛ فهجره دعبل ، وكتب إليه بهذه الايات التي تعتبر أبلغ
ما رثيت به صداقة : قال :

أبا نَحْلَد كُنَّا عَتِيدِي مُرْدَ هَوَانَا وَقَلْبَانَا جَمِيعَا مَعَا مَعَا
أَحْوُطُكَ بِالْغَيْبِ الَّذِي أَنْتَ حَاطِئِي وَأَنْجَعُ لِمُشْفَاقَا لَانَ تَتَوَجَّعَا
فَصِيرْتَنِي بَعْدَ انْتِحَانِكَ مُتَشِيمَا لَفْسِي عَلَيْهَا أَرْهَبُ الْخُلُقِ أَجْمَعَا
غَشَّشْتَ الْهَوَى حَتَّى تَدَاعَتْ أَصُولُهُ بَنَا ، وَابْتَذَلْتَ الْوَصْلَ حَتَّى تَقْطَعَا
وَأَزَلْتَ مِنْ بَيْنِ الْجَوَانِحِ وَالْحَشَا ذَخِيرَةَ وَدِّ طَالِمَا قَدْ تَنْمَعَا
فَلَا تَعْذِلْنِي لَيْسَ لِي فِيكَ مَطْمَعُ تَخَرَّقْتَ ، حَتَّى لَمْ أَجِدْ لَكَ مَرْقَعَا
فِيكَ يَمِينِي اسْتَأَكْتُ فَقَطَعْنَاهَا وَجَشَمْتُ قَلْبِي صَبْرَهُ فَتَشَجَعَا
وَلَا عَجَبٌ - بَعْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ الدَّامِيَةِ - أَنْ يَتَهَاجَرَا فَلَا يَلْقِيَا أَبَدًا (١)



وناريخ دعبل ، ومعدن نخره ، ليس شعره وحده ؛ ولكنه يتركز في ذلك الروح النائر ، والإيمان الراسخ ، الذي ينبع من إخلاصه لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إخلاصا تركه يرى كل من سوامم عدما على الإطلاق ، لا يجلب خيرا ، ولا يدفع ضرا ؛ ولا يستحق أن يخاف منه ، ولا أن يرغب فيه .

فلقد كان دعبل شيعياً كل الشيعي ، وكان تشيعه معتدلاً معقولاً ، لا غلو فيه ولا إسراف ؛ قرئت عليه مرة مناقضته للكيميت ، وجاء فيها :

مِنْ أَيْ ثَنِيَّةٍ طَلَعَتْ قَرِيشٌ وَكَانُوا مَعْشَرًا مُتَنَبِّطِينَ

فقال دعبل : معاذ الله أن يكون هذا البيت لي اثم قال : لعنه الله وانتقم منه !
يعني أبا سعد الخزومي ، دسه - والله - في هذا الشعر ، وضرب يده على سكين كانت معه ، فجرد البيت بحدها .

وآدعى عليه بعض الزبيريين مرة أنه شتم صفية رضي الله عنها ، واستعدوا عليه الفاضل عمرو بن حميد ؛ فأجابه : أرافضي أنا أشتم صفية بنت عبد المطلب تحت عينك ! وهل يقبل عقلك ذلك ؟ !

(١) كان البحري يرى أن دعبلا أشعر من مسلم ؛ فقبل له في ذلك ، فقال : لأن كلام دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم .

وهجا أعرابيا مرة، وهو لا يعرفه؛ فسأله الأعرابي: ممن أنت، فكره أن
يقول له من خزاعة فيهم جرحهم؛ فقال: أنا أتنمى إلى القوم الذين يقول فيهم الشاعر:
أناسٌ، على الخير منهم وجعفر وحزرة والسجاد ذو الثفنات
إذا نَحَرُوا يوما أتوا بمحمد وجبريل والفرقان ذى السُّورَات
فوثب الأعرابي وهو يقول:

مالى إلى محمد وجبريل والفرقان والسورَات مرتقى ١

والبيتان الأخيران من قصيدة في آل البيت، تلك القصيدة، بل الدرة الفريدة
التي لم يقل خير منها في آل محمد صلى الله عليه وسلم، في نظري. وقد أوردتها بأقوت
في خمسة وأربعين بيتا؛ قال: «وكان دعبل من مشاهير الشيعة، وقصيدته النائية
في آل البيت من أحسن الشعر، وأسنى المدامح... ونسخ هذه القصيدة مختلفة؛
في بعضها زيادات يظن أنها مصنوعة، ألحقها بها أناس من الشيعة؛ ولأنا موردون
هنا ما صنع منها:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى وبالركن والتعريف والجرات

ثم قال: وما يختار من شعر دعبل قصيدته العينية التي رثى بها الحسين
ابن علي رضي الله عنهما، قال:

رأس ابن بنت محمد ووصيه يا للرجال! على قناة ترفع
والمسلون بمنظر وبسمع لا جازع من ذا ولا متخشع
أيقظت أجفانا وكنت لها كرى وأنت عينا لم تكن بك تهجع
كحلت بمنظر العيون عماية وأصم نفيك كل أذن تسمع
ما روضة إلا تمت أنها لك مضجع ولحط قبرك موضع

وفي الحق ، لقد قال الكيت والسيد وابن الرومي وغيرهم في آل البيت ، فأجادوا ، ولكنهم مستورا جلال بمدوحهم بما شاب كلامهم من قذع لخصومهم ، فأما هذا الشاعر المتمرد المهجاء ، فقد طهر شعره من هذه اللوثة ، فجاء جامعا للحسن من أطرافه ، حاويا للجمال الخلقى ، والجمال الفنى ، نوراً على نور ؛ يهدى الله لنوره من يشاء .

وثانية دعبل الآنفه كأنها قطعة من كل قلب ، لذلك كان لها في نفس كل من يسمعها أثر لا يمحى ، يستوى في ذلك الشيعى وغير الشيعى ؛ وكذلك الكلام ، إذا خرج من القلب ، وصل إلى القلب ؛ وإذا خرج من اللسان لم يعد الآذان . روى بعض الكوفيين ، أنه سمع دعبل بن علي يقول : دخلت على عليّ ابن موسى الرضا عليهما السلام ، فقال لى أشدنى شيئاً مما أحدث ؛ فأشدته : مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات حتى انتهيت إلى قولى :

إذا وُتِرُوا مدوا إلى وانزهم أكفا عن الأوتار منقضات

قال : فسبى حتى أغمى عليه ؛ وأرمأ إلى خادم كان على رأسه أن اسكت ، فسكت ساعة ؛ ثم قال لى : أعد ، فأعدت حتى انتهيت إلى هذا البيت أيضاً ، فأصابه مثل الذى أصابه فى المرة الأولى ، وأرمأ الخادم أن اسكت فسكت ؛ فسكت ساعة أخرى ، ثم قال لى : أعد ، فأعدت حتى انتهيت إلى آخرها ؛ فقال لى : أحسنت ، ثلاث مرات ، ثم أسر لى بعشرة آلاف درهم مما ضرب باسمه ، ولم تكن وقعت إلى أحد بعد ؛ وأسرى من فى منزله بحلى كثير أخرجه إلى الخادم ؛ فقدمت العراق ، فبعت كل درهم منها بعشرة دراهم ، اشتراها منى الشيعة ، فحصل لى مائة ألف درهم ، فكان أول مال اعتقده ؛

وروى آخر أن دعبلأ قال له : إنه استوهم الرضا عليه السلام ثوباً قد لبسه ليجعله فى أكفانه ، فخلع جبة كانت عليه ، فأعطاه إياها ؛ وبلغ أهل قم خبرها ، فسألوه أن يبيعهم إياها بثلاثين ألف درهم ؛ فلم يفعل ؛ فخرجوا عليه فى طريقه

فأخذوها منه غصبا ، وقالوا له : إن شئت أن تأخذ المال فافعل ، وإلا فأنت أعلم ؛ فقال لهم : اتى - والله - لا أعطيك إياها طوعا ، ولا تنفعكم غصبا ؛ وأشكوكم إلى الرضا عليه السلام ؛ فصالحوه على أن أعطوه الثلاثين ألف الدرهم ، وفرّدكم من بطانتها ، فرضى بذلك !

وروى آخر عن دعل أنه قال : لما هربت من الخليفة ، بت ليلة بنيساپور وحدى ، وعزمت على أن أعمل قصيدة في عبد الله بن طاهر في تلك الليلة ؛ فأتى ذلك ، إذ سمعت - والباب مردود على - السلام عليكم ورحمة الله ، انج ، يرحمك الله ! فاقشعرّ بدنى من ذلك ، ونالنى أمر عظيم ؛ فقال لى : لا تُرْعَ ، عافاك الله ، فأتى رجل من إخوانك من الجن ، من ساكنى اليمن ، طرأ علينا طارىء من أهل العراق ، فأشدنا قصيدتك :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزول وحى مقفر العرصات

فأجبت أن أسمعها منك ؛ قال : فأشدته إياها ، فبكى حتى خرا ثم قال رحمك الله ، ألا أحدثك حديثاً يزيد فى نيتك ويعينك على التمسك بمذهبك ؟ قلت : بلى ، قال : مكثت حيناً أسمع بذكر جعفر بن محمد عليه السلام ، فصرت إلى المدينة فسمعت يقول : حدثنى أبى عن أبيه عن جده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : على وشيعته هم الفائزون ؟

قال شيخنا

حضرة الطائب الفاضل الاستاذ أحمد محمد بربري

قال شيخنا :

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلي مُتَعَزِّل
أديم مطال الجوع حتى أحنه وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل
واستف ترب الأرض كيلا يرى له على من الطَّوْل امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذم لم يبق مشرب يعاش به إلا لدى ومأكل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي على الضيم إلا ريثما أتحوّل

بماطل الجوع حتى يمته ، ولو قدر لك الله أن تجوع ولا تجد ما تسد به
خلك ، يعني تشحن معدتك ، لعلت أن بماطلة الجوع تقتله فلا تحس أنك جائع ،
وصاحبنا مارس هذه الحال غير مرة ، مارسها بطبيعة حياته ، حياة الصعلكة
والإملاق التي اختارها اختياراً ، أو قل اضطره إليها اضطراراً : الإباء والإنفة ..
فهو يستف ترب الأرض ولا يمكن لك أن تتناول عليه بما تن وتؤذى . ولو
كان من لا يضرهم المن والأذى ، ولا يتجنبون الذم ، لكان له ثراء ولتوافر لديه
ما شاء من ألوان المطعم والمشرب .. كلا وبعداً بعضالب البطن متى صحبها الهوان
فلن أقيم عليها أبداً أو بتعبير ما أحبه ، لا أصبر عليه إلا ريثما أتحوّل .. فهو في
اللحظة التي تبدو فيها بوادى الضيم من بعيد ينقل فلا تدمه . ولا تسأله أين
يذهب ، ففي الأرض منأى للكريم عن الأذى ، أو فيها مرآغم كثير وسعة ،
أو كما قال صعلوك آخر :

وسائله أين الرحيل وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذهب ؟
مذهبه : إن الفجاج عريضة إذا صَنَّ عنه بالنوال أقاربه

قلت : هذا الصعلوك الثاني بارد الطبع مرذول . . ألا تراه يمد عينيه إلى
موجود ذوى قرباء ويؤكد أن يمدوه بشيء أو يبعض الشيء . . إلا أنهم يضمنون بالشئ .
ويبعض الشيء . . فهو يواجه المسألة ، بل لعله يلحف فيها إلخافا ولا يصرفه
إلا اليأس . . لقد أقامت نفسه على الضيم ، ثم أقامت فسا تحولات ولا استقامت
على الطريقة - طريقة النفس الالية - إلا بعد أن صدمتها الدنية ودفعتها دفعا إلى
عرض الطريق فأين هذا من ذاك ؟

قال : لست أدري أبكون د أبو النشاش ، كما رأيته سائلا مرذولا لا يطرده
إلا القنوط من رحمة المسئول ، أم تكون تلك طريقة قولية ، وأنه لم يسأل ولم
يطرد وأنه استقل بأمره أمر الحزم الحازم ، لا سؤال الأقارب والإخوان
والاعتراض للحرمان والهوأن ؟ أقول لست أدري ، ولعل أنا أيضا مثله ، أنهج
نهجاً فولياً في حين أنى أدري ، فأبو النشاش يقول في هذا الشعر نفسه :

ودَوِّيَّة قفّر يحارُ بها القطا سرت بأبى النشاش فيها ركانه
ليدرك نأراً أو يطلب مغنا ألا إن هذا الدهر ترى عجائبه

إن إنسانا يدلج أو تسرى به ركانه في الفيا في التي يحار فيها القطا على خبرته
وعدم حيرته في العادة حتى يقال للرجل الدليل الخبير بالطرق د أدل من قطاة ،
إن إنسانا يركب هذا الوعر لينتهب عيشه انتهابا أو ليدرك نأره ، غير جدير أن
يكون ما تصورت .. كلا فأبو النشاش ضريب زميله الشنفري .

قلت : عبارة الشنفري أقوى ، فهي لا تحتل ما تحتله عبارة أبى النشاش ..
ثم كيف هو زميله أنتأتى زمالة بين جاهلي وإسلامي ، قال زميله باعتبارهما صعلوكين
إذ اعتبرت الصعاليك مذ كانت الصعلكة - جماعة بعينها ، وما أحسب اللغة تمنعني
هذا الاعتبار .

قلت : لقد بعثتم في مخيلتي أثراً قديماً للصعلوك والصعاليك : كنت أقرأ أخبارهم في كتب الأدب العربي وتاريخه ، فتكوّن لدى عنهم معنى عام يلهمهم أجمعين . ولم أكن أعنى بأن أفتش عن الكلمة في كتب اللغة ، ولكن المصادفة ، بعد زمن طويل ، جعلتني أعرّ عليها في معجم لغوي شرحها شرحاً لم أطمئن إليه ، فبغيتها في معجم آخر وثالث إلى آخر ما تيسر لي ، فرأيت أصحاب اللغة يجمعين أو كجمعهم على قالة معجمي الأول . . كنت إذن وإهما في تصوري القديم .

فالصعلوك - لغة - لا يعدو الرجل الفقير أو المسكين . وإذا كان ذلك كذلك فلماذا يعد أبو الفرج الأصفهاني الصعاليك طائفة معينة ، فإذا حدثنا عن أحدها قال : فلان من صعاليك العرب ، ثم ساق أخباراً وبسط معاني تتحقق في كل فرد من أفراد تلك الطائفة ، لقد كان أبو الفرج مسئولاً إلى حد كبير عن الخطأ اللغوي الذي أخطأته في باب الصعاليك . لقد كانوا جميعاً فقراء ، ولكن الفقر هو آخر ما يفك من صفاتهم ، بل لعله لم يكن صفة لازمة لهم ، وكان لهم عنه مندوحة لو أرادوا . فهاهو ذا « الشنفرى » يؤكد لنا أنه ، لولا اجتناب الزام ، لنعم بالطعام والشراب . لو قال أصحاب اللغة عن الصعلوك إنه الفانك أو اللص لكان ثمة صلة بين مفهوم والمعنى القائم عندى جرّاء أصحاب الأدب وتاريخه ، فقد كان الفتك أو اللصوصية رابطة تجمع صعاليكي جاهلية وإسلاماً ، نعم إنما لصوصية كريهة أو شريفة إن أسمحتم ، وإلا فلماذا - وأنا أبدأ أمقت غير الشرفاء - أجدني لا أمقت الشنفرى ولا تأبط شراً ولا السليك بن السلوك ؟ :

قال : قف فأنت تتجاوز ما أنت فيه من حد الصعلوك فيما تصورت من مجموع ما قرأت ، وفيما يقول صاحب « الصحاح » أو صاحب « القاموس » أو غيرهما من جامعي اللغة . فهل تستطيع أن تعرف الصعلوك تعريفاً جامعاً مانعاً بالنظر إلى ما كنت تراه قبل أن يعين لك أصحاب اللغة معناه .

قلت : لمنهم يقولون عن « عروة بن الورد » : « عروة الصعاليك » ، فلماذا لا أتخذ مثلاً أو المثل الأعلى للصعاليك ، فإذا أنا عرفته ، أو قلت مَن عروة ؟ قلت من الصعلوك ؟ بمعناه العام .

قال : كان عروة رجلاً ملأته المروءة وفكرة العدالة الاجتماعية ، لو فسقه هذا التعبير ، وما أحسبه إلا فاقه لو طرقت أذنه ، فكان يجمع الصعاليك والضعفاء والمستضعفين ، وما يزال يعنى بالمريض حتى يصح أو يستريح الراحة الكبرى . على أنه لم يؤثر عنه أنه قتل مريضاً ميتوساً من شفائه .

قلت : إذن لو كان عضواً فى جمعية تشريعية ، ووضعت هذه المسألة : أيجوز قتل صاحب المرض العضال فلا يعاقب قاتله ، أم لا يجوز لكاثن من كان أن يضع حداً لحياة إنسانية ولو حياته ، ويعاقب حتى من شرع فى الانتحار ؟ لكان من أصحاب الرأى الثانى .

قال : لست أدرى وإن كنت أعتقد أن الكليات لا تطرد اطراداً كلياً مع الجزئيات ، فقد تضع القاعدة العامة أو الحكم العام ، ثم لا تلبث أن تجد جزئية لا تستقيم على القاعدة العامة ، ومن أجل هذا أراهم متحيزاً لفكرة د القاضي الشارع ، وما استطاع قانون حديث أو قديم مهما تنبأ وأستقصى وأجل وفصل أن يطرح هذه الفكرة .

قلت : إنها فكرة شرعية إسلامية قرآنية أستطيع أن أبسطها ...

قال : هى فى غنى عن أن تبسطها أو تقبضها ، فقف عند حدك أو حد التوصية والصعلكة ، وعروة بن الورد الذى كان يلم شعث الفقراء ويقوم عليهم ، ويغمرهم على الأغنياء ... ليغضبوا حقهم من لدنهم . لم يكن حينذاك لإسلام ولا سلام بل كانت العرب تطبق حكم : د الحق للأقوى د ومقولة زهير :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

قلت : مفهوم كلامكم أن الصعاليك كانوا رواد إصلاح فى زمن عم فيه الفساد وطم ، واستشرى فى البلاد وعم . إنها اشتراكية اتجه إليها عروة الصعاليك بمحض الغريزة ، فما أظنه كان قد ألتقى فى عالم الأرواح د بكارل ماركس ، ومن إليه عن فكروا فى النظم الاجتماعية والاقتصادية وإنتاج الثروة وتوزيعها .

قال : أعود فأقول أن من أعظم البلاء الفكرى أن يعمم الخاص ، وأن يحاول

إسناد كل شيء إلى آخر . نعم إن كل الأشياء متسلسلة ، ولكن كثيراً من حلقات سلسلة التساند قد خفي علينا ، ونحن نظن ونتوهم ويشبه علينا ، وما دمنا لا نملك الدليل القاطع فليس أسلم من التحرز وتجنب الظن ، فبعضه إثم .
قلت : يقول عروة :

أليس عجيباً أن تسلم ملة وليس علينا في الحقوق معول
فهل من باب الخدس والظن أن أرعمه رجلاً أدرك آدميته ، وأن من شأن
الآدميين أن يتعاونوا فيؤدى كل ماعليه من الحقوق ، إنه لينكر أن تلم بالحقى ملة
ولا يعول عليه في دفعها ، عليهم مثلاً دية أو ثمن دم أريق ، فكيف لا يكون له
له بعير من جملة البعران التي يجب أن تساق إلى أهل القتل ؟
هل يستجدى هذا البعير أو كما قال أخ له :

وهل أسأل المراء اللثيم بعيره وبعران ربي في البلاد كثير
إن يسأله بعيره سؤالاً ، فذلك ذلة ، بل يغتصبه اغتصاباً ، فذلك عزة ، وإذا
رجع إلى أصل الحق ، فإن مال الرجل اللثيم من عند الله ، والله ليس رب اللثيم
وحده ، هو سبحانه رب الكريم واللثيم ، والمال ماله . ومتى كنت أنا وأنت سواء
فيما بين يدي ولؤمت فلم أعرف لك حقك فلا عليك أن تأخذه أخذ عزيز مقتدر
وأنتى راغم .

قال أخذه أخذ عزيز مقتدر إذا كفته ، أما إذا كنت أهم بأمر الحزم ولا
أستطيعه ، فذلك هي البلية أو أشد ما يبئلى به صاحب النفس الآية .

قلت : كان عروة مستطيعاً ، وكان عادلاً ، حتى لكانه قرأ (ولا والله ماقرأ)
قوله تعالى : ولا يجرمنكم شأن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ،
روى عنه أنه عني بجماعة من المرضى الجياع وأطعمهم حتى نشطوا للعمل ، فأغار
بهم على حى وساقوا ما شاء الله لهم أن يسوقوا ، وكان من جملة امرأه احتجزها
عروة لنفسه ، وافتسم وصحبه الغنيمة ، قالوا : والمرأة كيف تستأثر بها دوننا ؟
وكان عروة فيما يقوله الرواة قادراً على أن يقتل أولئك الناقمين الخارجين من

من إسار العلل وما كادوا . وسوات له نفسه أن يفعل ، فردها إلى مكروها قائلاً : هم صنيعة فكيف أوردتهم مورد الهلاك ، وقد كانوا على شفا حفرة منه فأنقذتهم لجعل المرأة قسماً من الأقسام ، وما زال يفاوض صعاليكه حتى رضوا أن تكون نصيبه ، ولست أدري أكان نظيرها في القسمة حملاً أم ناقة ؟ .

قال : لعلها (سلى) المشهورة في تاريخ عروة ، والتي ظلت معه ردحا من الزمن ، ثم رغبت إليه في أن تزور أهلها معه ، فكان لها ما أرادت . فسقوه الخمر واستوهبوه سلى فوهبها لهم . فلما أفاق واستعد للرحيل مع زوجه إلى ديارهم ذكروه بما فرط منه ، أما هي فقد أثنت عليه أطيب الثناء مبينة له أنها على حبا إياه ، كانت تمنى الموت كل يوم طوال المدة التي أقامتها معه ، إذ كان يقطع نياط قلبها أن تسمع نساء الحى يتحدثن عنها قائلات : ذهبت سبية عروة .. حامت سبية عروة . ويندم عروة ويعلم أنها كادت له كيداً ، وأنه ما كان من الحكمة أن يتبعها فيما أوحى إليه من زيارة أهلها ، وفيما فعله من شرب الخمر إلى آخر المأساة . ويتركها لذريها ويقول :

سقوني الخمر ثم تكنفوني فيالله للواشى المطاع
فأصبحت الغداة ألوم نفسي على أمر وليس بمستطاع

وتزوج سلى رجلاً من قومها ، ويريدها على أن تثني عليه كما أثنت على عروة في ندى قومه فتتضع مؤكدة له أنها لا تقول إلا الحق ، فيصر على مشيئته ، فتأتيه في الندى وهو مع عشيرته فينتفخ ويحسب أنه سامع شيئاً كالذى قالته في عروة ، وتحدثت به الركبان ، فتخيب ظنه ، وتقول عنه فيما قالت : إنه لا ينام إلا ليلة يخاف ، ولا يشبع إلا ليلة يضاف ، فيخجل أيما خجل ، وكان له عن الخجل غنى لو أنه استمع إليها حين قالت له : إنها لن تقول عنه غير الحق .

إن القصة بينة الصنعة والافتعال ، ويخيل لى أن شيئاً منها قد وقع وأن الرواة على حادتهم قد أضافوا إليها ما تقتضيه الحال ، وربما زادوا على مقتضى الحال ، وكأنهم أرادوا أن يعطونا قرينة الافتعال ، وأيا كانت الحال ، أفلا تراها قصة

صالحة للعرض ؟ إنها والله لقصة يقرها الذوق العربي الشرقي ، وأظن الذوق الأوربي يتقبلها قبولاً حسناً ، وإذا عدت بها إلى أمريكا فإن القوم هناك يجنون بها جنونا . . . سجل الفكرة إذاً لشيخك واحفظ حقّه في الوضع والطبع والنشر والعرض . وقد أعذر من أنذر .

ثم أراك قد حبستك كلمة صعلوك أو لص أو فأنك فسا عدت عن حبزها الضيق ، لقد كان عروة - أو هذا الإنسان الذي صورّه لنا الرواة إن صدقا وإن كذبا - رجلاً كريم النفس بعيد المهمة مصلحاً ودّاً لو قاد القطيع الآدى الذى عاش معه إلى سبيل الإصلاح ، واقتلاع جنور الفساد ، فلم يسمع نداءه حتى . فلما يئس أن يسمع الصم الدعاء ، قال : عليك نفسك ومن اتبعك ، ولا يضرّكم من ضل إذا اهتديتم . . . وهكذا سلك والقليلين الذين اتبعوه السلوك الذى لو استطاع لهدى الناس إليه جميعاً : يأخذ من الغنى للفقير ومن القوى للضعيف .

قلت : لعلنا إذا قسنا الصعاليك بمقياس الخلق الكريم ، وجدناهم كرام المجتمع الذى عاشوا فيه . . . كان في مال عروه - ولو منتهباً انتهاباً - حق معلوم للسائل والمحروم . .

قال : ولتصف إلى هذا أن كسب العيش إنتهاباً ، كان القاعدة العامة حتى لغير الصعاليك من سراة الناس ، والفرق بين الطائفتين أن طائفة تنتهت لنفسها وذويها ، وطائفة أخرى - طائفة الصعاليك - تأخذ لتعطي المستحقين .

قلت : أفليس عجيباً إن هذه الطائفة الكريمة في معيار الخلق ، كانت الطائفة المنبوذة ، ألا ترون خوارج الجاهلية أو صعاليكها فئة ممتازة .

قال : رويك ، فما زعمت أن المجتمع الجاهلي كان مجتمعاً صالحاً ، أو أن سادته كانوا على خلق عظيم ، فقيم كان الإسلام إذن ؟

قلت : إن هؤلاء اللصوص كانوا فيما أرى فلاسفة اجتماعيين ورواد إصلاح .

قال : إذا صح هذا في صعاليك الجاهلية ، فما قولك فيمن رَوَوْا سيرتهم في الإسلام .

قلت : أعلم أن وجوها طلعت على البلاد العربية أثناء قيام الدولة الإسلامية
نشب وجوه عروة وأضرابه الجاهليين ، وفى وسمى أن أقيم الدليل على أن طلوعها
كان نتيجة التواء سياسة الحكام . فالعلل هى العلل ، والتربة التى أنبتت أولئك
هى التى أنبتت هؤلاء ، وما كانت سياسة الحكم الإسلامى لتخرج هذه الفئسة
المتصلة لى لو سبست بها الأمة الإسلامية .

قال : هذا موضوع طويل عريض لا يتسع له حديثنا ، فلبقى فى دائرتنا ..
نبا الفكرة الغالبة فى لامبسة الشنفرى سواء أصحت له أم كانت من وضع
خلف الأحمر ؟

قلت : الفكرة الغالبة فيها هى الدعوة إلى الهجرة والتقل ، فهى تسهل :
أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطبات مطايا وأرحل
ولا تراه فيها إلا ضارباً فى لجاج الأرض آنا الليل وأطراف النهار .. أفليس
ذلك أصلاً إسلامياً اتبعه بحكم الفطرة معلوك جاهلى ؟

قال : هنا مربوط الفرس .. الأصول الفطرية فطرة الله التى فطر الناس عليها
ولن تجد لسنة الله تبديلاً . والإسلام لم يزد على أن أرشد الناس إلى هدى الفطرة
السليمة ، وما دام السكان الحى فرداً أو مجتمعاً مهتدياً بهذا الهدى ، فقد صح ،
وصحت حياته .

قلت : الإنسان مدنى أو اجتماعى بالطبع .

قال : تلك قاعدة فطرية أغفلتها العرب فى الجاهلية فلم تجتمع ، بل تفرقت
أيدى سبأ على حد تعبيرها .. جعلها الله شعوباً وقبائل لتعارف وتعاون فتناكرت
وتجادلت واحتربت . فلما جاء الإسلام ألغىها متبددة ومختلفة اختلافاً تعجز القوى
البشرية أن تؤلف شتاته .. كان محمد بن عبد الله عليه صلوات الله خير دعاة بنى
الإنسان ما فى ذلك أدنى ريب . إلا أنه بقوته ووسائله الآدمية ، ما كان بمسطيع
تأليف تلك القلوب التى أنت عليها الثارات والحزازات ، بل كان لا بد لأعظم

بنى الأرض من معجزة سماوية حتى يؤلف قلوب العرب ، ولو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، . أجل ، ألف بينهم أى ردم إلى سواء السبيل . سبيل الفطرة .. هؤلاء الأجلاف الذين كانوا يأكل بعضهم بعضاً على خلاف ما تفعل النمل والنحل وغيرهما من فصائل الحيوان الاجتماعى فكان دأب كل حى أن يغير على الذى يليه فإذا لم يجد غير أخيه فالرأى أن يأكله .

وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا هؤلاء الأجلاف أصبحوا بنعمة الله إخوانا أى إخوان يتعاونون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

قلت : ولكنها حال لم تلبث أن أتى عليها الزوال ، وسبحان مغير الأحوال . قال : زوال إلى أجل علمه عند علام الغيوب . وإلى لاعتقد اعتقادا جازما أن الإسلام أكرم على الله من أن يكون عمره على الأرض سنوات معدودات . وإنه لمقيض لهذه الأمة الواحدة من يجمع كنفها ويجلى وحدتها ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

قلت :

منىّ إن تكن يوماً تكن أحسن المنىّ وإلا فقد عشنا بها زمنا رغداً قال : منىّ وليس أمانىّ . حسبك أن ترجع الفقهري عشرين عاما . لقد رأيت ذوى الفكر والتوجيه فى الأمة الإسلامية أعقاب الحرب العالمية الأولى مفتونين ببرق خلب غربيّ خلب ألباهم غسبوا دينهم الذى ارتضى الله لهم ما حسبوا ، غير أنها كانت غمامة صيف تقشعت أسرع مما تجمعت ، وهأت ذالآن تجد المسلمين يقولون آمنا . يقولونها حتى أولئك الذين لما يدخل الإيمان فى قلوبهم ، أقول إن من بين المظاهرين بالغيرة على الوحدة الإسلامية متافقين ، ليسكن الأمر كذلك فتلك بشرى ، فأنت لا تتأفق ولا تصانع إلا من تحس خطورة شأنه . وازن بين هذه الظاهرة والآخرى نقيضتها ، فند سنين غير بعيدة كان من المسلمين عقيدة من يسترون إسلامهم ، فإذا رأيت غير المسلمين الآن ينافقون فيظهرون إيمانهم ، فأية دلالة هذه ؟

قلت : تالله إنها لمن كبريات الدلائل ، وإن كان كثير منا في غفلة منها .

قال : لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك .

قلت : صدق الله العظيم وأشهد أنكم جلوتهم بصيرتي . والله ما أعظم شيخنا المحنك .

قال : لست بمن يطيبهم الإطراء ، وإذا عديدتني شيخك المحنك فاكتمها ، وحدثني فيما يمكن أن يستدرك ، ولعلك وجدتني خرفت على أنه قد بقي مني أن أرجع إذا نهيتني فاقزع لي العضا ولا عليك .

لذي الحلم قبل اليوم ما تقزع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلم

قلت : لقد قرعها لكم شيخ آخر فهو الشيخ المستدرك بالقياس إليكم .

قال : أفيري غير ما أرى في وحدة المسلمين .

قلت : بل في إعراب إلياسين والأخين والآيين .

قال : إليك قبل ما يقوله صاحب (غريب القرآن) :

[إلياسين : يعني إلياس ، وأهل دينه جمعهم بغير إضافة بالياء والنون على العدد ، كأن كل واحد اسمه [إلياس] .

وقال : بعض العلماء يجوز أن يكون إلياس إلياسين بمعنى واحد ، كما يقال : ميكال وميكائيل ، ويقرأ على آل ياسين أي على آل محمد صلى الله عليه وسلم] .

رحم الله (السجستاني) ولست أدري لم أغفل احتمالات أخرى منها مثلا أن تكون (إلياسين) جاءت على صيغة جمع المذكر السالم . ولو كانت مرفوعة لكانت (الياسون) بواو ونون ، وإنما جمع إلياس تعظيما لشأنه فهو واحد ، ولكن كل ألف تعد بواحد ، فكأنه إلياس . وإلياس . وإلياس ... إلى الألف أو الألفين ، أو ألف ألف ، وأيا كان العدد فهو (الياسون) سلام على إلياسين هذا احتمال ، والثاني ...

قلت : على رسلكم فإن شيخنا المستدرك حدثنا في أمرين : رواية الشعر ، وإعراب الآخينا .

قال : وأنت على رسلك ، فهذا حديث طويل ، فإلى جلسة أخرى ٢

لَكِنْ قَالَ شَيْخِي

لمحاضرة صاحب الأنفيلة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوي
الأستاذ في كلية اللغة العربية

لقد يستحني إلى وصاتي الموثقة لك ببر الآب وموازرة الآخ ما روّ عني
الآن من عقوق للأب وخذلان للآخ ، لطفيان السيل العرم من الانحلال الخلق
في الشبان والشواب ، مما يتفرح منه كبد الآب ، ويفت في عضد الآخ ، فتخمد
منهما جذوة المناصرة وينأيان عن المكافئة ، حتى يؤذّن نذير الانهيار
الأسيرى بالعفاء .

وما حفظ كيان أسلافنا الاجاد إلا احتذاؤم المثل السّعيّا فيما توحى به الفطر
النفية ، وأكده دين الإسلام والسلام .

ومرحى للراجز العزلى ، إذ يقول على لسان الضب حيناً رأى تهدم جحر
ابنه الحِسل :

أهدّمو بيتك لا أباً لك وحسبوا أنك لا أخاك
وأنا أمشي الدّألى حوالكا

كيف اجتراً عليك الحاطثون . وخربوا بيتك ، وزعموا أنه لا أخاك ، ولا
أباك ، يمشى حولك يركاك . ألا ينار أخوك وأبوك لك .

قال أبو العباس المبرد : (حدثني أبو عمر الجرمي ، قال : سألت أبا عبيدة
عن قول الراجز :

أهدّمو بيتك لا أباً لك

قلت لمن هذا الشعر ؟ فقال هذا يقوله الضب للحِسل أيام كانت الاشياء تتكلم (١) .

وسواء أكان هذا الشعر يقوله العرب على ألسنة الحيوانات كما يقول سيدييه ، أم قاله الضب أيام أن كانت الاشياء تتكلم كما يقول أبو عبيدة ، فإنه ذو مغزى يأخذ بتلايب المأفونين الذين هم في طغيانهم يعمهون .

ترقف أجنحة القربى على الأصول لتضم لها الحواشى والفروع ، فقد الم أباء وابنه أخا وتبتس من كدّارة عقيل بن عُلقمة في سوء مجازاته بنى العم بمثل ما يصنعون ، ثم تستريح مغبطة لسامع نداء مسكين الدارمى رحمة الله عليه في قوله : وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه وهل ينقض البازى بغير جناح
ففى الصواب أن ما بين روحى عقيل ومسكين ما بين الخنظل والصندل ، أو الخيم والسلسيل .

قلت : قرأت مقداراً له بال من شعر العرب ومنورها ، وهم أرباب اللسن ، لانتخيفهم سطوة حاكمات ، ولا تردعهم قوانين مسنونة ، فإيالون مُجر القول وسلطة اللسان شفاء لما فى صدورهم الخائفة ، حسب تقديرهم الشخصى .

فقد هجا الأخ وأقذع فى السباب كالمغيرة بن حنينا التيمى ، وتهدد ابن العم وأرعد كذى الأصبع العدوانى وطرفة بن العبد ، وعنبرة العبسى ، وسفّه ابن الأخ وأخس كمعيل بن علفة المرى ، مما أوغر الصدور واستفزهم إلى التدابر فيما بينهم ، وجلب الأحداث الجسام التى انتابت الأقارب ومزقتهم بدّداً ، ذلك أن العدا ينشب بينهم لما يغتفر مثله من غيرهم ، فهنواتهم معدودة ، دقيقها جليل ، وتعملها ثقيل ، ويقول طرفة بعد سرد آلامه من ابن العم .

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام الممد
إن للعداوات بين ذوى القرابات أسباباً تخلقها ، يستعصى على الباحث عنها الوقوف على كنهها حتى يعرف المحق من المبطل ، وليس من الهين البين البت

(١) رغبة الأمل من كتاب الكامل ج ١ باب من تكاذيب الأعراب وهو طريف مستلح .

في القضاء على خارج ، فربما التقت حلقتا الشيطان ، فلم يُطبق المجروح الإغضاء
عن الحيف المتراكم عليه - إن المنطق المستقيم ليطرب لقول المغيرة بن حنبل :

إذا المرء أولاك الهوان فأوله هوانا وإن كانت قريبا لإواصره
فإن أنت لم تقدر على أن تهينه فذره إلى اليوم الذي أنت قادره
وقارب إذا لم تكن لك حيلة وصمم إذا أيقنت أنك عاقره

وإني لأستشف من خلال سطور نصيحتك المحمضة النقس على عقيل ، ورب ملوم
غير مُليم ، والظواهر قد تناقض البواطن والموازن القسط لعلام الغيوب ، فكثيراً
ما تمنع سجب التهمة ، وينكشف للقاضي الألعى عذر القاتل ، وأنه حر انتصر .
إن هذا مقام يطول فيه الحديث ، ولا يصل غاية يوقف عندها ، وبحسن
السكوت عليها .

قال : لا مرية في أحقية ما أبديت ، ولكن جاش في صدرى ما استهلكت به
الحديث من نصيحة غالية ، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

قلت : آمل أن تفتح لها القلوب الغُلف ، وتشرح لها الصدور المفتحة ،
ولا أجانف الواقع إذا ما عددت ميل المنصوح وسيلة لقبولها ، فكم من نصيحة
ضرب المنصوح عنها صفحا ، وقد لقي من جرائها حتفاً ، وقديماً زُج بالكبت
في سجن خالد بن عبد الله القسرى وإلى العراقيين لهشام بن عبد الملك . بعد إلحاح
معاذ الهراء الصرعى المشهور عليه في الخروج من العراق والبعاد عن وجه خالد -
لذا كان معاذ للكبت مخادنا وفيّاً ، لما بينهما من التشيع العلوى - لمّا لم يصح
لنصيحته فقال الهراء :

نصحتك والنصيحة إن تعدت هوى المنصوح عزّ لها القبول
نخالفت الذى لك فيه رشد فغالت دون ما أملت غول
وعاد خلاف ما تهوى خلافاً له عرض من البلوى وطول

ثم بعد هذا كله أرانا يامولاي قد انساق بنا الحديث إلى ما أبعدنا عن مبحثنا
فإننا بصدد لفظى الآب والآخر ، وجمعهما لا بشأن الواجب نحوهما ، فكم لهما من
واجبات حث عليها الدين وفصلتها الآداب الاجتماعية .

قال : أراك استأنيتنى فى التعليق على ما أسلفت من النصوص المؤيدة
أن الآخين لغة فى الآخ ، بما فيها من أمثال وأشباه .

وما كان لك أن تتمجل بعد عرضى لك شواهد عربية حاسمة فى جعل الآخين
والآبين جمعى أب وأخ ليقينى أنك مطمئن القلب بعدئذ ، على أنى موف لك
بعهدى ، إن العهد كان مستولاً .

نعم قد بدا لى اليوم قبل التعليق عليها أحاد أحاد - والتكرير للتأكيد لا التأسيس
على حد قوله صلى الله عليه وسلم : صلاة الليل مثنى مثنى - أن أوجه نظرك إلى أن
الآبين كان جمعاً متعارفاً دائماً فى الاستعمال العربى أوائل التدوين للعربية ، حتى
عد أساساً للتمرين عندهم على ما عرف عند الصرفيين فى باب التدريب ، إذ يتخذون
الكلمات المعروفة عماداً للنظائر من غيرها فى موافقتها تطبيقاً للقواعد واختباراً
فى العلم ، فيقولون : كيف تبنى من كذا على مثال كذا المعروف عندهم ، وذلك عند
للصرفيين نظير باب الإخبار بالذى ، والآلف واللام عند النحويين .

ولو ذكرتُ هذا قبلاً كنت فى غنى عن تلبس شواهد لجمعهما ، فى التنقيب
عن الشواهد عناء أى عناء ، مكتفياً بجعل علماء العربية (الآبين) أساساً يبنى على
مثاله ، وفى هذا غناء أى غناء .

إن سيويه استشرفت نفسه للحظوة عند الخلفاء والأمراء ببغداد ، وقد غمروا
الكسائى زعيم بغداد بعطاياهم الجزيلة وهو دونه عنده ، فشخص إليها أملاً فى
القسوق عليه ، ونزل عند يحيى بن خالد البرمكى وزير الدولة ليجمع بينهما ، وفى
اليوم الموعود سبق الكسائى تلميذاه : الفراء والآخر ، وجرت المناقشات العلمية
بينه وبينهما ، فكان مما قاله الفراء : (ما تقول فيمن قال هؤلاء أبون ومررت
بأبين؟ كيف تقول على مثال ذلك من وأيت أو أويت؟) (١) ، وقد أجاب سيويه
بما يوافق المذهب البصرى فى المفرد وخطأه الفراء تبعاً للمذهب الكوفى فيه ،
وليس لهذا الخلاف من أثر فى الجمع نفسه .

إن السائل فى البناء على مثال هذا الجمع رفعاً وجراً الفراء الكوفى ، والمستول

سيويه البصرى ، لجمعية مطبق عليها من المصرين : (البصرة والكوفة) فكيف بعدئذ تعرض فكرة الاخين لغة فى الآخ .

لم يعبا سيويه بالعت الذى حاق به من ملاحاة التليذين أنفة منه عن مسابرتها حتى حضر أستاذهما الكسائى وسأل سيويه السؤال المشهور بالمسألة الزنبورية ، وليس هنا مجالها ، فكان نصيبه فيها الخذلان أيضاً ، ويؤكد الثقات الأثبات أن لأصبح السياسة أثراً كبيراً فى تغليب أستاذ البصرة والتذرب ، فقفل راجعاً من هذه الرحلة المشتومة بالحزى والانكسار متورايأ من سوء ما لحق به تاركا البصرة مولياً وجهه شطر بلده بفارس فات بها غما فى ريعان شبابه . وقال قبل احتضاره :

يؤمل دنيا لثقى له فأت المؤمل قبل الأمل
حيثنا يُروى أصول التخيل فعاش الفسيل ومات الرجل

لانضجرت من استرسالى بعد سوق الحجة فى التتويه عن المناظرة المتعالمّة بين العلماء ، فما ذكرت مثار النزاع فيها ، ولا ما قيل من المتنازعين ، ولكنى ألححت إليها لتعلم أنه سبقها الحديث عما تتناقش فيه بما لا يدع رية تحوم حوله .

قلت : إن هذه الحجة بعد الشواهد الماضية الكافية طالت لا تنالها الشبهات زادتنى يقينا على يقينى ، وما بقى لى شاغلا ذهنى إلا تعقيقك على ما قدمت لك من نصوص تناهض ما تقدم ، طال تشوفى واستشرافى له ، فهذا بغيتى وطلبتى ، ولك منى بالغ العرفان بالعرف المسدى فى العلم - وأخشى ما أخشاه أن ينفلت لسانى بإنشاد قول ابن أبى ربيعة :

كلما قلت متى ميعادنا ضحكك هند وقالت بعد غد
قال : قدنى منك اليوم ، لو غيرك أنشده ، سأبين لك ما عنيت غدا لا بعد غد ، كما قال هدية بن خشرم العذرى .

فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غدا لناظره قريب
قلت : لك الطولى فى الأولى والأخرى ، وتفضل بقبول اعتذارى موفور
الشكر والثناء ، وسلام الله عليك ورحمته [للكلام صلة]

برالمخالفين في الإسلام

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعدي
الأستاذ بكلية اللغة العربية

- ١ -

تدعو جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية إلى أن تكون العلاقة بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم علاقة محبة ومبرة ، حتى لا يكون اختلافهم في المذاهب داعياً إلى قطع العلاقة بينهم ، وقيام الخصام بين فرقةهم ، وأنها لدعوة الإسلام التي تؤثر السلم على الحرب ، ولا تدعو إلى خصام المخالف في الدين ، بل لا نرى بأساً في حبه ومودته ، فيكون المسلمون أحق بقيام علاقة المحبة بينهم ، لأنه ليس بينهم من الخلاف ما بينهم وبين غيرهم ، وأنه ليدعوني الآن إلى الكتابة في هذا الموضوع - بر المخالفين في الإسلام - أن كثيراً منا يتأثر بظاهر آيات وردت في القرآن يفيد الحث على بغض المخالفين ، فيأخذ هذه قضية مطلقة غير مقيدة ، ويحمل الإسلام من هذا ما تأباه دعوته السلية البريئة ، وهي الدعوة التي جعلت من المسلمين الأولين بررة أطهارا ، لا تحمل قلوبهم للناس غير الحب لهم ، ولا تتطلع نفوسهم إلا لهدايتهم .

وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم أمثلة كثيرة في بر المخالفين ، منها ما كان منه حين قصد إلى الطائف ليمرض على أهلها أن يحموه من قومه ، فأرسلوا سفهاءهم وغلبانهم يقفون في وجهه في الطريق ، ويرمون به الحجارة حتى أدموا عقبه ، فاشتد به الكرب ، وقال : اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وهواني على الناس ، يأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي ، فأني جبريل عليه السلام برسالة من الله تعالى ، وقال : إن الله أمرني أن أطيعك في قومك لما صنعوه معك .

فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون . فقال جبريل عليه السلام : صدق من سماك الرؤوف الرحيم .

نعم صدق من سماه الرؤوف الرحيم ، لأن مثل هذا لا يكون إلا من قلب غمره البر بالناس كافة ، فليس فيه شيء من الحقد عليهم ، حتى يستعجل هلاكهم ، ويشفي حقدَه بما يراه من عذابهم ، وهكذا قال : اللهم اهد قومي ، فطلب الهداية لهم ، ولم يطلب هلاكهم ، وأضافهم إليه إضافة تقريب وحنان ، وهو في أشد حالات الكرب ، وقد طلب المعين فلم يجده ، بل وجده أقسى عليه ممن طلب إغاثة عليه ، ثم قال : فإنهم لا يعلمون ، فالتمس بعض العذر لهم ، وإن كانوا لا يعذرون إذا ماتوا وهم على كفرهم ، لأنه كان لا يزال يطمع في أن يؤثروا الإيمان في يوم من الأيام ، لأنهم لا يمنعهم من الإيمان به إلا الجهل الذي طال به الآمد ، فلا بد له من زمن يثابر فيه على علاجه ، ويأخذهم فيه بالدليل والإقناع ، فليس من يكفر عن جهل كمن يكفر عن عناد ، لأن من يكفر عن جهل يفيد فيه العلاج ، ومن يكفر عن عناد لا علاج له .

ثم ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً آخر لبر المخالفين ، وهذا بعد أن هاجر من أذى قومه ، وقامت الحرب بينه وبينهم ، وقد كال لهم فيها أكثر مما كالوا له ، ولكنه بعد انتصاره عليهم لم يشأ أن يمضى في حربهم ، لأنه لم يحمله عليها عداوة لهم وإرادة انتقام منهم ، وإنما كانت حرباً دفاعية لحماية الدعوة ، فلما ذهب فيها من ذهب من قومه أشفق عليهم من الفناء ، خنا عليهم مع عداوتهم له ، لأنه لم يكن يحمل لهم حقداً ولا ضغناً ، بل كان لا يزال طامعاً في هدايتهم ، مع ما قام من الحرب بينه وبينهم .

وقد كان هذا المثل في صلح الحديبية ، وكانت قد سار إلى مكة معتمراً لا يريد حرباً ، فعزم قومه على صده عن المسجد الحرام ، وأرسلوا خالد بن الوليد في مائتي فارس طليعة لهم ، فلما بلغ النبي ذلك قال : يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابوني كان ذلك

الذي أرادوا ، وإن أظهر الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله ، أو تفرد هذه السالفة .

فقوله صلى الله عليه وسلم : (يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب) يدل أكبر دلالة على أنه لم يكن يحاربهم عن عداوة لهم ، ولا عن إرادة انتقام منهم ، بل كان يحاربهم وهو كاره لهذه الحرب ، لأنه يقتل فيها أرحاما يعز عليه تقتيلها وإن كانت ظالمة ، ولا يضرهم لها إلا حب الخير ، ولا يريد لها إلا السعادة والهناء ، ولا تجتمع هذه النية لهم في قلب يضرهم عداوتهم ، لأن القلب العامر يحب الخير للمخالفين لا يعرف العداوة التي تمنعه من حب الخير لهم ، فلم يكن شأن النبي صلى الله عليه وسلم معهم إلا كما قال الشاعر :

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

وقد بر النبي صلى الله عليه وسلم بهم هنا أعظم بر ، وحنا عليهم أعظم حنو ، فلم يزل يلين لهم حتى رضوا بعقد صلح معه ، وكان صلحا فيه نفع كثير لهم ، وفيه غبن كثير للمسلمين ، ولكنه ضن عليهم بالقتل ، لأن قلبه عامر بحب الخير لهم ، ولا يزال يطمع في إيمانهم .

ثم ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثلا ثالثا في بر المخالفين ، وهذا مع المنافقين الذين كانوا يخفون الكفر ويظهرون الإسلام ، فكان يقبل منهم ظاهرهم ويتقاضى عما يحصل منهم من الكيد للمسلمين في السر ، فيقابله بالإغضاء والصفح ، ولا ينقطع عن برهم ومودتهم ، ليقطع من قلوبهم جذور النفاق بالحسنى ، لأن الصفح عن المسيء أقوى في إقلاعه عن إساءته من مقابله بمثلها ، وقد كان رئيسهم عبد الله بن أبي بن سلول أكثر إساءة للمسلمين ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقابل عقوقه بالبر ، ويقابل إساءته بالصفح ، ويقابل ما يضره من العداوة بإظهار المودة ، فلما مرض عبد الله عاده صلى الله عليه وسلم في مرضه ، فطلب منه أن يصلى عليه ويقوم على قبره ، ثم أرسل إليه يطلب منه قيضه ليكفن فيه ، فأرسله إليه ،

ولما مات صلى عليه صلاة لم يطل مثلها (١) ، وشيع جنازته حتى وقف على قبره ، وقد قال له عمر حين أعطى له قيصه : لم تعطى قيصك هذا الرجس النجس ؟ فقال : إن قيصى لن يغنى عنه من الله شيئاً ، فلمل الله يدخل به ألفاً في الإسلام ، وقد تحقق ما أمله النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن المنافقين كانوا لا يفارقون عبد الله في مرضه ، فلما رأوه يطلب هذا القييص ويرجو أن ينفعه أسلم خلق كثير منهم ، ولم يبق على النفاق إلا عدد قليل ، ثم اختفى النفاق بعد هذا بفضل ذلك البر الذي رعى به النبي صلى الله عليه وسلم أولئك المنافقين .

ومن هذا كله نستطيع أن نحكم بأن بر النبي صلى الله عليه وسلم بالمخالفين كان طاماً شاملاً ، فقد عامل به من خالفه وسالاه ، ثم عامل به من خالفه وعاداه قبل هجرته إلى المدينة ، ثم عامل به من خالفه وحاربه بعد هجرته إليها ، ثم عامل به من أظهر له الإسلام من المنافقين وكان بناوته في الخفاء ، ويدبر له الفتن والمؤامرات .

ولا غرو أن يكون هذا شأن النبي صلى الله عليه وسلم مع أولئك المخالفين ، فقد كانت رسالته رحمة للناس كافة ، كما قال تعالى في الآية - ١٠٧ - من سورة الأنبياء : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، فالعاملون هم الناس عامة من مؤمنين ومخالفين ، وقد بعث صلى الله عليه وسلم إلى الناس في جاهلية وضلالة ، وأهل الكتاب في حيرة من أمر دينهم ، أطول مكنتهم وانقطاع توازهم ، ووفوع الاختلاف في كتبهم ، فبعث حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب ، فدعاهم إلى الحق : وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام ، وميز الحلال من الحرام ، فسكان لهم رحمة في الدين ، وكذلك كان رحمة لهم في الدنيا ، لأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ، حين كان جبابرة الملوك يعاملونهم كما يعامل الأرقاء ، ويسوقونهم إلى حروب آثمة لا تقف عند حد ، ولا تنتهي إلى نهاية ، ولا يقصد منها إلا استرقاق الشعوب واستعبادهم ، فجاء الإسلام بإبطال هذه الحروب ، ودعاهم إلى الدخول فيه بالسلم ، كما قال تعالى

(١) قد منع من الصلاة عليهم بعد هذا لأنها خاصة بالمسلمين الصادقين .

في الآية - ١٢٥ - من سورة النحل : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

وهذا إلى أن كل نبي قبله كان إذا كذبه قومه دعا الله فأهلكهم بالخسف أو الفرق أو غيرهما من آيات العذاب التي أهلك بها الأولون ، أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد أضر عذاب من كذبه إلى الموت أو القيامة ، وقد كانوا يطلبون هذا العذاب فلا يجيبهم إليه ، كما قال تعالى في الآيتين - ٢٢ ، ٢٣ - من سورة الأنفال : « وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ، وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ، فوقاهم الله من العذاب الذي طلبوه في دنياهم لوجوده بينهم ، وكان بهذا أبر بهم من أنفسهم .

وقد قال أبو هريرة : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع على المشركين ، فقال : إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا .

وروى حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنما أنا بشر ، أغضب كما يغضب البشر ، فأبما رجل سيئته أو لعنته ، فاجعلها اللهم عليه صلاة يوم القيامة .

وهذا غاية ما يكون من البر وحسن الخلق ٩

[للكلام صلة]

أُنبَاءٌ وَأَرَاءُ

بهرنغلي :

نشرت جريدة « الجمهورية » الغراء في عددها الصادر يوم الثلاثاء ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٥٣ نبذة عن جريدة التيمز الانجليزية اللدنية هذا نصها :

« يتقدم الإسلام بخطى سريعة في غرب أفريقيا ، حتى أن يعنات التبشير والاوربيين على السواء لبيدون قلقاً شديداً مما قد يترتب على انتشار الإسلام في المنطقة كلها ، وكان الاعتقاد قديماً أن الإسلام هو دين شعوب الصحراء ، وقد يتجه نحو الحضرة ، وما كان أحد ليصدق أنه يستطيع اختراق المناطق الاستوائية ، وأن يصل إلى الجنوب كما حدث في « سبراليون » و « الساحل العاجي » و « ساحل الذهب » و « داهومي » .

ويخشى رجال الإدارة على الأخص من انتشار الإسلام في هذه البقاع ينبعه اتصالات بالقاهرة وبالعالم العربي ، ويختلف المفكرون الغربيون في اتجاههم الفكرى نحو مستقبل الإسلام في أفريقيا ، فن قائل أن تقدم الإسلام لن يضر بالمصالح الاستعمارية ما دام يسير في الخطوط التي رسمها له المستعمر ، بينما يرى آخرون ضرورة الحد من تقدم الإسلام عن طريق نشر البدع والخرافات حتى يكون هذا بمثابة حائل يقف أمام ضغط الإسلام المتزايد .

في مؤتمر برينستون :

في المؤتمر الذي عقد في جامعة برينستون بأميركا أثار أحد المتحدثين سؤالا كثيراً ما يثار في أوساط المستشرقين والمهتمين بالنواحي الإسلامية .

قال : « بأى التعاليم يتقدم المسلمون إلى العالم ليحددوا الإسلام الذي يدعون إليه ؟ أبتعاليم الإسلام كما يفهمها السنيون أم بالتعاليم التي يفهمها الشيعة من إمامية

أو زيدية ، ثم إن كلا من هؤلاء وأولئك يختلفون فيما بينهم . وقد يفكر فريق منهم في مسألة ما تفكيراً تقدماً مجدداً ، بينما يفكر آخرون تفكيراً قديماً متزمناً ، والخلاصة أن الداعين إلى الإسلام يتركون المدعويين إليه في حيرة لأنهم هم أنفسهم في حيرة .

وقد كان من حسن الحظ أن وجد في هذا المؤتمر بعض العارفين بفكرة التقريب ، فأوضح أن جميع الطوائف الإسلامية (من سنية وشيعية وإمامية وزيدية) متفقون في الأصول التي لا يكون المسلم مسلماً إلا بها ، وهم بعد ذلك متفقون أيضاً في كثير من الفروع يختلفون في غيرها ، والخلاف في الفروع ما هو إلا اختلاف الشراح في القوانين مع اتفاقهم على الأصول الرئيسية لها ، ولو أن المسلمين دعوا إلى دين كلهم فيه على كلمة سواء في الأصول والفروع ، لما كانوا بذلك مصورين للإسلام تصويراً صحيحاً ، ولما وجدوا مستجيباً لدعوتهم ، فإن الإسلام قسمان : أصول ثابتة لا يجوز الخروج عنها ، وفروع جعلها الله - رحمة منه بعباده - موضع الاجتهاد والنظر، فكما أنه يسوغ للمسلمين أن يجتهدوا في الأولى لا يسوغ لهم كذلك أن يحجروا ما وسعه الله في الأخرى .

وهذا تحديد جيد للإسلام .

صوت من اليونسكو ، بالهند :

في المؤتمر العام الذي عقده اليونسكو بالهند في هذا الشهر ، واشترك فيه مندوبو ثمان دول شرقية منها مصر ، ناشد أحد الإعضاء البارين المؤتمر أن يعمل على دعوة المسلمين في جميع الشعوب الإسلامية إلى تمحيص التاريخ الإسلامي على وجه عام ، وما يدرس منه للناشئة على وجه خاص ، لينفوا منه ما أضيف إليه من زيف ، وليعصموا الأذهان من التأثير بالمثيرات للأحقاد والضغائن صوتاً للوحدة الإسلامية ، ودراً لوساوس العصبية بين الطوائف .

ولا شك أن هذا اتجاه جمعي يتفق وما يدعو إليه التقريب من ائتلاف المسلمين في جميع طوائفهم ، والابتعاد بهم عما يؤدي إلى إثارة الضغائن بينهم ، وتقريب قلوبهم على ثقافة إسلامية خالصة .

من بحوث مجمع اللغة العربية^(١)

معجم ألفاظ القرآن الكريم

— ١١ —

ل ه ب

اللهب

اللهب اشتعال النار وتوقدها ، ويقول بعض اللغويين في اللهب : هو حر النار أو اشتعالها حين تخلص من الدخان ، ويقال فيه : التهب النار وألتهبها .

اللهب وجاء اللهب في قوله تعالى : لا ظليل ولا يغنى من اللهب ، ٣١ / المرسلات . سيصلى ناراً ذات لهب ، ٣ / المسد .

ل ه ث

يلهث

لهث الكلب يلهث لهناً ؛ أخرج لسانه من العطش أو التعب أو الإعياء . وقد جاء من هذا قوله تعالى : فله كئل الكلب إن تحتمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ١٧٦ / الاعراف .

ل ه م

ألهم

ألهمه الله كذا : أوقعه في قلبه ، وبصره به ، وعرفه إياه ، تقول : ألهمه الله

(١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد رئيس المجمع .

الخير ، وقد ألهم الله الإنسان سبل الهدى والضلال بما ركز في النفوس ووضع في بدائه العقول ، والإنسان إذا سلت فطرته ينكر المنكر ويعرف المعروف بهذا الإلهام .

وقد جاء هذا في قوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » .
 ٨ / الشمس

ل ه و

اللهو . لاهية . تلهى . الهى

١ — اللهو يحىء على وجهين :

(أ) فيكون مصدراً . يقال : لها يلهو لهواً : أمتع نفسه وروح عنها بما فيه لذتها وشهوتها . كسباح غناء ، ونظر إلى حسناء . ومثل هذا لا يعقب منفعة ، ولا يخلف ثمرة ، ويقال لمن لا يأتي بعمل نافع : إنما عمل فلان لهو ولعب .
 وقد جاء من هذا قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، ٣٢ / الأنعام .
 « اعدوا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ، ٢٠ / الحديد .

(ب) وبأى اللهو لما يلهى به ، كالغناء ، والحديث المبني على الخيال المتجافى عن الحقيقة ، ومن ذلك الأساطير ، وما يروى عن الفرس واليونان ، ومن ذلك المرأة يلهو بها الرجل ، والولد يلهو به الوالد .

وقد جاء من هذا قوله تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ٦ / لقمان .

ومن هذا قوله تعالى : « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ، ١٧ / الأنبياء . وقد قيل اللهو هنا الزوجة أو الولد .

٢ — لهى عن الشيء يلهى لهما ، فهو لاه وهى لاهية : غفل عنه وتركه .

وقد جاء من هذا قوله تعالى : « لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا ،
 ٣ / الأنبياء .

٣ — تلهي عن الشيء : لمي عنه .

تلهي وقد جاء من هذا قوله تعالى : « وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهي » ١٠ / عبس . تلهي أصله تلهي .

٤ — ألهاه الشيء : شغله وصرفه .

المهي وقد جاء من هذا قوله تعالى : « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » ١ / التكاثر . « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » ٣ / الحجر .

ل ا ت

لات حرف نفي ، يختص بالدخول على الزمن .

وقد جاء من هذا قوله تعالى : « ولات حين مناصر » ٣ / ص .

ل و ح

(لواحة . لوحة)

١ — لاح الإنسان السفر أو الحزن ، أو غيرها يلوحه لوحا : غيره ، يقال من هذا : لاحت النار فلانا : غيرت لونه من حرها فأسود ، والنار لائحة ، وقد يقال في مبالغة وصفها باللوح : لواحة .

لواحة وجاء لواحة وصفاً لجهنم في قوله تعالى : وما أدراك ما سقر لا تبق ولا تذر لواحة للبشر ، ٢٩ / المدثر .

٢ — اللوح يحى لما يأتي :

(١) فيقال : اللوح للقطعة المريضة من الخشب أو العظم وما أشبههما ، ويجمع على الواح ، ويقال للسفينة : ذات ألواح ودر ، والدر المسامير إذ كانت تتألف منها ، والألواح قد يكتب فيها كما هو معروف .

الواح وما جاء فيه الألواح قوله تعالى : « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة » ١٤٥ / الأعراف .

• وحملناه على ذات ألواح ودسر ، ١٣ / القمر .

وقد جاء اللوح اسماً لشيء استودع فيه كتاب الله ولا يعلم كنهه إلا هو ، لوح
قال تعالى : • بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ، ٢٢ / البروج .

ل و ز

لواذا

لاذ به يلوذ لوذا وليذا : لجأ إليه . يقال : لاذ الجيش بالحصن : ويقال :
لاذ الرجل بآخر أو بأمر من الأمور : استتر به واعتصم لدره ما يخشاه من أذى
يلحقه في نفسه أو كرامته .

ويقال من هذا : لاوذ القوم لواذا : لاذ بعضهم ببعض .

وقد جاء لواذا في قوله تعالى • قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، ٦٣ / النور
وهو تصوير لحال قوم من المنافقين كان ينصرف بعضهم من مجلس الرسول فيلوذ
الآخر به وينصرف مستتراً به .

ل و م

لام - يلوم - لومة - لائم - اللوامة - ملوم - مليم - يتلاوم .

١ - لومه يلومه لوما ولومة عنفه على ما لا ينبغي من قول أو عمل .
والوصف لائم .

وكثير اللوم يقال فيه لوام ، واللائى لوامة واسم المفعول ملوم .

وقد جاء من هذا قوله تعالى : • فذلكن الذي لمتنني فيه ، ٣٢ / يوسف .

لام يلوم - فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ٢٢ / إبراهيم .

لومة لائم - يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ٥٤ / المائدة .

اللوامة - لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ، ٢ / القيامة .

ملوم - وتول عنهم فإنت بمـلوم ، ٥٤ / الذاريات . • إلا على أزواجهم

أو ما ملكت أيمانهم قائم غير ملومين ، ٦ / المؤمنون .

- ٢ - الام الرجل فهو ملهم : أتى بما يلام عليه من قول أو فعل .
 وجاء ملهم في قوله تعالى : فالتقمه الحوت وهو ملهم ، ١٤٢ / الصافات .
 و فآخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو ملهم ، ٤٠ / الذاريات .
 ٣ - تلاوم الرجلان : لام كل واحد منهما صاحبه .
 وجاء يتلاومون في قوله تعالى : فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، ٣٠ / القلم .

ل و ن

لون - ألوان

- اللون صفة الجسم من البياض والسواد والحررة وغيرها . والنوع والصفة .
 ويجمع على ألوان .
 ١ - وقد جاء في الكتاب اللون بمعنى الصفة في قوله تعالى : قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ،
 ألوان ٦٩ / البقرة ، وفي قوله تعالى : يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، ٦٩ / النحل .
 وفي قوله تعالى : ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، ٢٨ / قاطر .
 ٢ - وجاء في الكتاب اللون محتملاً أن يفهم منه أحد المعنيين في قوله تعالى : وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ، ١٢ / النحل ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ٢٢ / الروم . فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ٢٧ / قاطر ، ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ، ٢١ / الزمر .

ل و ي

لوى - لوى - ليا

لوى الشيء يلويه ليا : ثناه وأماله يقال لوى العود أى ثناه ولوى رأسه

وبرأسه : أماله . ويستعمل لى الرأس بمعنى الاعراض والسخرية . ولى اللسان بالكلام بمعنى صرف الكلام عن المعنى المراد منه أو الكذب . ويقال : لوى على الشئ : توقف عنده .

وقد جاء في الكتاب لما يأتى :

- ١ — قال تعالى : « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم » ٥ / المنافقون . أى أعرضوا عما قيل لهم وسخروا منه .
- ٢ — وقال تعالى : « وإن منهم لفريقاً يلوّون ألسنتهم بالكتاب » ، يلوى ٧٨ / آل عمران . أى يميلون عن الحق إلى الباطل ويفترون على الكتاب بما ليس منه . وقال تعالى « ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم » ٤٦ / النساء . أى انحرفا وميلا عن اللفظ الذى يؤدى المعنى المستقيم بلا احتمال إلى لفظ يحتمل الذم الذى يقصدون .
- ٣ — وقال تعالى : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد » ١٥٣ / آل عمران تلوى أى لا تميلون بمنة ولا يسرة وهو كناية عن عدم التوقف في السير .
- ٤ — وقال تعالى « وإن تلّوا أو تعرضوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » ١٣٥ / النساء . أى تملّوا عن الحق في الشهادة بعدم الإتيان بها على وجهها .
- ٥ — لوّى رأسه : لواه وفي هذه الصيغة فضل مبالغة وتكثير . وقد جاء لوى هذا في قوله تعالى : « لولوا رؤوسهم » - في بعض القراءات .

السيد الصدر

تبادلت أسرة التقريب وأسرة المغفور له العالم الجليل آية الله السيد صدر الدين الصدر كتب التعزية والمواساة في فقد هذا الرجل العظيم الذى فقد المسلمون بفقده عضداً قوياً ، وتذاكروا ما كان رحمه الله يصدد القيام به من جمع الأحاديث النبوية التى اتفق عليها السنة والشيعة ، وهى خدمة عليية لو أنها تمت لكانت خطوة نافعة في سبيل توحيد كلمة المسلمين .

تغمده الله برحمته وأثابه بما قدم للإسلام والمسلمين خير الجزاء .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

١ - نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ - ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة في الكلام عن عقائدها ، وألا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ - ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتي هي أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يمهّدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للودعة بينهم وبين إخوانهم .

٤ - من المعروف أن سياسة الحكم والحكام ، كثيراً ما تدخلت قديماً في الشؤون الدينية ، فافسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشيء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتاً لأقدامهم ، وأنهم سخّروا - مع الأسف - بعض الأقلام في هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكم وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر في العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلياً أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيلة .

وعلى الجملة ، نرجو ألا يأخذ أحدُ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستتيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

- أ - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .
- ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .
- ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

خواطر من الذاكرة	لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ٣
تفسير القرآن الكريم	١٠
الديمقراطية الصحيحة	لحضرة الأستاذ الجليل محمد علي علوبه ٢٩
الطوائف الإسلامية في العراق	لحضرة صاحب السامحة آية الله الخالصي ٤١
بحث عن الدولة العباسية	لصاحب للمالي الشيخ محمد رضا الشيبلي ٦١
الشاعر المتمرد دعبيل الخزاعي	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضات ٧٣
قال شبيخي	لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بري ٨٧
لكن قال شبيخي	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوي ٩٢
بر الخالفين في الإسلام	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعدي ٩٧
أبناء وآراء	١٠٢
مجم ألفاظ القرآن الكريم	١٠٤
رجاء من التريب	١١٠
من القانون الأساسي لجامعة التريب	١١١

رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلد سادس عاشر
تتضمن دار التريب بين المذاهب الإسلامية بالقرآن

رئيس التحرير: محمد محمد المديني مدير الإدارة: عبد العزيز محمد عيسى
الإدارة: ١٩ شارع جشم باشا بالزمالك القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤
قمة الإستراك عن سكة في البلاد العربية خمسون قرشاً مصرية
وفي أمريكا أربعة دولارات وفي البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التبليغ بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة السادسة
العدد الثاني

شعبان ١٣٧٣ هـ
أبريل ١٩٥٤ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
”قرآن کریم“

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



قرأتُ فيما قرأتُ صَدْرَ شَبَابِي : أن أحد الدهماء العباقره من الملوك الاولين ،
أوصى ولدأ له كان قد وَجَّهه إلى طرف من أطراف مملكته لمقاومة عدو مغير ،
فكان من وصيته إياه ، أن قال له :

« ... واعلم أنك تواجه قوما أشدَّاء ذوى بأس ومدد ، فليكن حرصك
على أن تبلو أخبارهم ، وتعرف مارسمو الحربك ؛ أشد من حرصك على أن تفجأهم ،
وتغتر بأوليات النصر عليهم ، فإن ما أخذ بالعجاءه ، قمين أن يسترد بالرباطه ،
ولكن اخبر خبرهم ، واعرف ما بيتوا ، ثم استقبل أمرك على بصيرة من ذلك ،
وأفسد عليهم ، وادرا عن بلادك وقومك . »

ذكرتُ هذه الوصية الحكيمة حين قرأت ما كتبه الصحيفة الانجليزية
الكبرى (التايمز) وهى تتحدث عن تقدم الإسلام بخطوات واسعة فى غرب
أفريقيا ، وما يخشاه المستعمرون من هذا التقدم ، وما يوحون به إلى أولياتهم من
« وجوب محاربة الإسلام ، والحد من تقدمه ، بنشر البدع والخرافات حتى يكون
هذا بمثابة حائل يقف أمام ضغطه المتزايد . »

والعبرة التى يجب أن نفيدها من ذلك ، أن أعداء الإسلام قوم أولو بأس
شديد ، ومدد كثير ، ودهاء عظيم ، كهؤلاء الذين يفهم ذلك الاب الناصح ، فن
أول ما يجب أن نتواصى به ، ألا يكون همنا التظاهر بما نزعجه انتصاراً عليهم ،
ومفاجأة لهم ، فإن أمرهم أجل من أن نتخادع فيه بمثل ذلك ، ولندرس خطتهم
التي رسموها لقهرنا ، وبيتوها لكيدنا ، لنعمل على إفسادها ، وتقويت مقاصدهم فيها .

وهذه الخطة التي أوجزتها صحيفة الاستعمار ليست جديدة ، ولا هي من مبتكرات العصور التي أمر فيها أمر الغرب ، وإنما هي خطة قديمة معروفة في القدم ، لا يرجع تاريخها إلى نشأة الإسلام بحسب ، وإنما يرجع إلى عهود الرسائل الإلهية القديمة ، بيد أن نصيب الإسلام فيها كان أوفى نصيب ، لأن أعداءه لمسوا فيه القوة والوضوح ومجاعة الفطر السليمة ، والعقول المستقيمة ، فعدلوا أنه دين الحياة ، وشرعة الصلاح ، فكان أكبر مهم أن يناصبوه هذه الحرب الدنيئة : حرب الإسفاف والإرجاف والكذب والاختراع ، ليغرقوا عامة أهله في لجج الأوهام والخرافات ، ويحيروا خاصته بالشكوك والشبهات ، ويوقعوا بينهم جميعاً الخلافات والعداوات ، ويصرفوا بهذا كله عن دين الإسلام أرباب العقول ، ورواد العلوم ، وطلاب الحقائق . وهذا سر ما نجده منبئاً في كتب التفسير والآثار من الروايات التي تعرف بالإسرائيليات .

وقد حذرنا الله تعالى من هذه الحرب ، وعرفنا مصدرها لتقيه ، فقال مخاطباً رسوله الكريم : قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ، كما أوماً إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : جشتم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها ، يرشدنا بذلك إلى أعظم خواص هذه الشريعة ، وهي كونها صافية من الشوائب التي تنافي الفطر ، أو تحاكي العقول ، واضحة المعالم ، لا سر فيها ، ولا خفاء في شيء من مقاصدها ، وذلك سر عظمها ، ومناط عزتها ومنعتها .

فليفهم المسلمون ذلك حق الفهم ، وليحرصوا على أن تبقى شريعتهم بيضاء كما أنزلها الله ، وليفقهوا نداء ربهم الذي ناداهم به تحذيراً لهم من كيد أعدائهم : يا أيها الذين آمنوا إن طيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ،

محمد حيدر

فَسِّرِ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

— ٧ —

آيات التفسير — خلاصة ماسبق في اتخاذ الأولياء من الأعداء — أسباب النهي عن هذا الاتحاد : الاختلاف بين الفريقين أساسى — الأعداء دائبون على الفتنة — مرضى القلوب ومسارعهم فى أهل الباطل — تحطيم قوائم المعنوية وتمحصين المؤمنين من فتنهم .

النداء الثامن : الارتداد لا يضر إلا صاحبه — صفات المؤمنين الثابتين — المحبة فى الله أقوى الروابط — محبة العباد لله — محبة الله للعباد : القرآن لا يثبتها إلا لدوى التضائل العليا — أمثلة — لم ينف الله حبه إلا عن المقتربين كباثر الإثم — الدلة على المؤمنين والعزة على الكافرين — أصحاب الشخصيات المتعددة بتعدد الأحوال صنف ممتاز — الجهاد فى سبيل الله شأن المؤمن الصادق — عدم المبالاة بالأمم شأن الواثق بفكرته — صفات متلازمة متكافلة .

النداء التاسع : سر النهى عن موالاة الكفار وبعض أهل الكتاب — مثل من الماضى — مثل من الحاضر — عزة المسلمين فى العمل بالإسلام .

آيات التفسير :

نعيد ذكر الآيات التى هى موضوع الحديث فى العدد الماضى وفى هذا العدد ، لئلييسر للقراء متابعة البحث والنظر فيها ، وهذه هى :

١ — « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منهم فإنه منكم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فىهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن

يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم ناديين ، ويقول
الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئنهم لمعكم ؟ حبطت أعمالهم
فأصبحوا خاسرين .

٢ — يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم
يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله
ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ، إنما
وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون
ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون .

٣ — يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين
أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا
ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .



خلاصة ما سبق فى اتخاذ الأولياء من الأعداء :

وقد تحدثنا فى العدد السابق عن بعض الجوانب التى عرضت لها هذه الآيات
التي نهى الله فيها المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء ، فبينما الفرق بين « الولاية »
التي هي النصرة والمعاونة على تحقيق غرض مشترك ، بحيث يؤمن كل من « الوليين »
أن لصاحبه عليه حقاً هو مطالب بأدائه عن باعث قلبى ، وبين البر والقسط اللذين
يجب أن يسودا المجتمع وتقوم عليهما العلاقة بين أبناء الوطن ، وإن لم تجمعهما
فكرة ، أو تواخ بينهما عقيدة ، وأن القرآن الكريم يقف من كل واحدة من
هاتين العلاقتين موقفاً يناسبها ، فهو لا يرضى بأن يتخذ المؤمن مخالفه فى الدين
ولياً ومناصراً ، ولكنه مع ذلك يعطى هذا المخالف حقه فى علاقات المعاشرة
والمواطنة التي تقوم على البر والرحمة والقسط ، ولفتنا إلى ما فى ذلك من عبرة
يجب أن ينتفع بها أهل الإسلام فى علاقة بعضهم ببعض ، حيث وصلت سماحة
دينهم إلى هذا الحد فى معاملة مخالفينهم ، فهم أولى فيما بينهم بهذه السماحة ، وأجدر

أن يبنيوا علاقاتهم على أساس البر والقسط والرحمة ، فلا تحملهم النزعات الطائفية أو المذهبية على تناسي ما بينهم من أخوة الإسلام ، والتراحم الذي لم يحرم القرآن منه أحداً حتى أعداء الإسلام .

وبيّنا أنه لا ولاية بين الحق والباطل ، وأن الولاية إنما تتصور بين مؤمن ومؤمن ، أو بين كافر وكافر ، ولا يمكن أن تقوم على حقيقتها بين كافر ومؤمن ، ولا بين منافق ومنافق .

وبيّنا ما يفيد التعبير بلفظ « الانتخاذ » الذي ورد في هذه الآيات ، وبيننا بواعث اتخاذ الكافرين أولياء ، من ملاحظة المصالح الخاصة ، ومصانعة الأعداء لاحتمال تغلبهم ، وابتغاء العزة والسلطان عندهم ، وإتقاء شرهم ، وبيننا وجه الاستثناء في قوله تعالى « إلا أن تتقوا منهم تقاة » ، ولفتنا إلى وجوه العبرة في ذلك كله بقدر ما اتسع له المجال :

* * *

والآن نتابع الحديث فيما تضمنته هذه الآيات :—

أسباب النهي عن هذا الانتخاذ :

كما بين لنا القرآن الكريم ، البواعث التي تبعث مرضى القلوب على اتخاذ الكافرين أولياء ؛ بين لنا الأسباب التي من أجلها نهيناً عن ذلك ، فكان منها :

الاختلاف بين الفريقين أساسى :

١ — فقط الخلاف بيننا وبينهم أساسية جوهرية ، فنحن قد آمنّا بما جاءنا من الحق ، وهم قد كفروا به ، ولا يمكن لاثنيين مختلفين في أمر أساسى أن يتعاونوا تعاوناً صادقا ، نعم قد تتلاقى مصالحهما في شيء فيتفقان عليه ، ويتحالفان في سبيله ، لكن هذه العلاقة بينهما ليست بسبيل من الولاية بمعنى نصره أحدهما للآخر ، لأنه في الحقيقة إنما ينصر نفسه ، ويتخذ ذلك سبيلاً لتحقيق مصلحته ، وشتان بين هذا ومن ينصرك ناظراً إلى أنك تستحق نصرته ، وإن لم يفد منها لنفسه خيراً ، أو يدفع بها عن نفسه ضرراً ، وقد استفيد هذا من قوله تعالى

في سورة الممتحنة : « وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، ومن قوله تعالى في سورة المائدة ، في آية من آيات موضوعنا هذا : « يأبى الذين آمنوا لا يتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ، فآية الممتحنة تصرح بالاختلاف الأساسى الجوهرى بين المؤمنين والكافرين ، حيث آمن بالحق فريق ، وكفر فريق ، وآية المائدة تشير إلى مظهر من مظاهر هذا الاختلاف الأساسى فى الدين وشعيرته الأولى وهى الصلاة ، حيث ينظر إليهما فريق نظرة الجد والاحترام ، وهم المؤمنين ، وينظر إليهما فريق آخر نظرة الاستهزاء واللعب وهم الكافرون ، فلا يمكن أن تتحقق ولاية ونصرة جادة صادقة بين فريقين على طرفى نقيض .

الاعداء دائبون على الفتنة :

٢ — أن هؤلاء الأعداء لا يزالون يعملون على فتنتنا عن الحق الذى آمننا به ، فهم أخرجوا الرسول وأخرجونا أو ظاهروا على إخراجنا من ديارنا لا شئ إلا لأننا آمنّا بالله ربنا ، وهم لا يدعون فرصة يتمكنون فيها من إيدائنا إلا انتهزوها أو عاونوا عليها ، وهم يتمنون من صميم قلوبهم أن نخرج من ديننا فنعود إليهم ، يدل على هذا كله كثير من الآيات الكريمة من مثل قوله تعالى : « إن ينفقواكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا ، « يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، ، « وكثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ، .

هذا هو شأن المختلفين فى العقيدة ، لا يمكن أن تقوم بينهم ولاية أو شبه ولاية ، ولهذا دلالة لمن شاء أن يعتبر بما جاء فى الكتاب الكريم ، ويفيد من إيجاباته وإرشاداته ، فما أجدر أصحاب الدعوات الحقّة أن يكونوا على حذر من الذين لا يؤمنون بدعواتهم ، ولهم تاريخ فى إيذائهم والتحريض عليهم وودادة فتنتهم وانقلابهم . إنهم يطلبون محالاً إذا ظنوا أن ملابسة هؤلاء على باطلهم تجلب

ولادهم ، أو تكفكف من غلوائهم ، فقد قست منهم القلوب ، وفسدت النفوس والتوت العقول ، وما أدق ما وصفهم به القرآن الكريم ، وما صور به حفيظتهم على المؤمنين حيث يقول « لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر » ، « تحبونهم ولا يحبونكم ، وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

مرضى القلوب ومسارعهم في أهل الباطل :

وقد عقب النداء الأول الذى نهى فيه المؤمنون عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، بتوجيه الانظار إلى فريق المنافقين الذين فى قلوبهم مرض ، وما مروا عليه من المسارعة فى أهل الباطل ، مع الانحياز فى الظاهر لأهل الحق ، انقاء للدوائر ، واحتياطا للتوازل . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة .

والتعبير عن المنافقين بهذه العبارة : « فى قلوبهم مرض » ، تعبير قوى رائع جاء فى غير هذا الموضع من القرآن كما جاء هنا : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » . « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم » . فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الخشعي عليه من الموت ، فإنه لما كانت قوة القلب تضرب مثلا للثبات والتماسك والقوة النفسية ، كان ضعف القلب الذى عبر عنه بالمرض مثلا للخور والتردد والتزلزل وانهايار النفس ، وهذه شغشة المنافق ، لا يمكن أن يكون صريحا واضحا منحازا إلى ناحية معينة ، فهو يتردد بين الناحيتين ، ويلتمس الخطوة فى الجانبين ، ولا يهيم إلا أن يطمئن على نفسه فى يومه وغده ، لذلك يأتى هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ، ويتخذ عند كل منهما بدا ، والآية تقول : « يسارعون فيهم » ، ولا تقول : « يسارعون إليهم » ، لأن المنافق فى العادة يحرص على أن ينحاز فى الظاهر إلى أهل الحق ، ولا يظهر لهم أنه مع الآخرين ، والآخرون يكتفون منه بما يبطنه من ولائهم والميل إليهم ، فهو لا يسارع إليهم فيفسد خطته ، ولكن يسارع فيهم ، أى فى قضاء

لبائتهم ، وبث فتنهم ، وتنفيذ خطتهم ، دون أن تبدر منه أية بادرة تدل على ذلك فنفضحه ونكشف أمره ، وقوله تعالى : « يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، ليس معناه أنهم يقولون ذلك للثومنين بالسنتهم معذرين عن تقريبهم إلى أعدائهم ، وإلا لكانوا يقولون ما يفضحهم ويفسد تدبيرهم ، ولكن معناه أنهم يعتذرون بذلك إلى أنفسهم ، ويررون به ضديعهم وخيانتهم ، فهو قول نفسى لا لفظى .

تحطيم قواهم المعنوية وتحصين المؤمنين من فتنهم :

وقد رد الله تعالى عليهم هذا المعنى الذى يدور بنفوسهم ، ويحملهم على النفاق ومصانعة أهل الباطل ، فبين أن الأمور بيده ، وأن الفتح والفصل بين المؤمنين والكافرين مرجو قريب ، فإن لم يكن فتح قريب ، فأمر من عنده يترتب عليه أن يصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ، وذلك الأمر المذكور فى الآية يحتمل أن يكون فضح المنافقين ، وتبيين ما فى قلوبهم ، وقد ورد ذلك صراحة فى قوله تعالى : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، ويحتمل أن يكون الإيقاع بهم ، وإغراءه صلى الله عليه وسلم بتشقيتهم وعقوبتهم ، وقد ورد ذلك صريحاً فى قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجعون فى المدينة لنگرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، وقوله تعالى : « ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ، إلخ . هو من تمام تبيين عاقبتهم المرجوة يوم تنهار آملهم بهزيمة الذين يصنعونهم أو بحلول أمر الله عليهم أنفسهم ، يومئذ ينفضح أمرهم ويتسائل الناس عنهم ، ويعجبون لحالهم ، ويقارنون بين حقيقتهم التى كانوا يخفونها وما كانوا يزعمونه من أنهم مع المؤمنين حالفين عليه جهد أيمانهم ، كما قال تعالى فى سورة التوبة : « ويخلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ، لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون ، ويومئذ لا يبق عند أحد شك فى أنهم الآخسرون ، الذين أرادوا بنفاقهم كسب الفريدين ، فكان عاقبة أمرهم أن خسروهما جميعاً » حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين .

والفائدة التي يفيدها المؤمنون من ذكر ذلك ، وبيان أنه متوقع الحصول للنافقين ، هي تقويتهم وثبتيتهم ، وصرفهم عن الاتجاه إلى موالاة أعدائهم التماساً لهذه المعاني التي لا يلتصق بها إلا مرضى القلوب ، والتي لا تؤدي بحسب سنة الله إلا إلى عكس المقصود منها ، وفي ذلك أيضاً إرهاب للنافقين ، وزلزلة عليهم ، فإن المنافق إذا علم أن أمره سينكشف ، وأن عاقبته السوأى مهما احتال ، أدركته الرهبة ، وأخذته الحيرة ، فاضطرب ، وضعف تدبيره ، وقل خطره .

هذا إلى ما في ذلك من تحذير المؤمنين من المنافقين ، والإيحاء إليهم بأن يفتشوا صفوفهم ، ويطهروا جماعتهم من دنسهم ، ويعلموا أن وجودهم بينهم لا يفيدهم . إلا الضرر ، ولا يزيدهم إلا الخبال ، لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلاصكم ، بل إن مصانعتهم لأعداء المؤمنين هي أيضاً مصانعة كاذبة ، وانهم حين يجد الجدين يكسون عنها ، ويفرون منها ، فإنهم لا إيمان لهم ولا أمانة ولا وفاء ، فضررهم على الفريقين شديد ، وفي ذلك تقول سورة الحشر ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليؤان الأدبار ثم لا ينصرون ، لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون .

وهذا شأن النفاق والمنافقين في كل زمان ومكان ، وإننا لنجد في كثير من بلاد المسلمين فريقاً حذق التزلف إلى أعداء الأمة ، ومرن على اتخاذ الأيادي عندهم على حساب الوطن والدين ، وهم يفعلون ذلك خشية الدوائر ، وبحسبونه حصافة ولباقة وبعد نظر ، وإنما هو خيانة ونذالة وتجارة خامرة ، لا ينجح الله أصحابها ، ولا يبارك فيها ، بل يفضحها ويخسرُها ويجعل عاقبتها البوار ، ولو عقل الناس لفهموا مما يرون كل يوم ، وبما يشاهدون من أحداث أن ليس الأمر كله أمر تدبير بشري ، وأنه لا يكفي أن يعتمد المرء على أساليب الخائلة والمخادعة لكي ينجح في حياته ، ويحصل على مأربه ، فإن الخداع قد زائف إن راج بعض

الزمن ، فصوره إلى الانكشاف ثم البوار ، أما الاستقامة والسير على الطريق السوي فربما يكلف صاحبه صعباً ومشاقاً ، ولكنه في النهاية إلى خير وصلاح ورضا من الله والناس .

النداء الثامن : الارتداد لا يضر إلا صاحبه :

يأتي بعد ذلك النداء الثاني من هذه النداءات الثلاثة - وهو الثامن كما قلنا من نداءات السورة - واتصاله بالنداء الذي قبله واضح ، فإنه تعالى نهي أولاً عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، وقرر أن من يتولاهم من المؤمنين لا يمكن أن يحتفظ مع هذا التولي بإيمانه ، بل يصبح بمجرد منهم ، وأن المنافقين هم الذين يسارعون فيهم خشية الدوائر ، فبان من ذلك أن تولى اليهود والنصارى إنما هو ارتداد عن الإيمان ، فجاءت الآية التالية تتحدث عن خطورة الارتداد على صاحبه ومقترفه ، وتشير إلى أن الله مستغن عنه لا يضره ارتداده شيئاً ، وسوف يأتي بدل من يرتد يقوم بتحقيق فيهم صفات الإيمان الصحيح ، والجهاد الصادق ، ثم جاء بعدها آيتان أخريان تبيان أن المؤمنين ليس لهم من ولي يتولاهم ويتولونه إذ أن الله ورسوله وإخوانهم في الإيمان وال التزام أحكامه ، وأن عاقبة المؤمنين إذا عرفوا ذلك واستمسكوا به هي الفلاح والغلب ، لأنهم حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون .

صفات المؤمنين الثابتين :

وصف الله جل شأنه هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين أنبأنا بأنه سوف يأتي بهم مكان المرتدين عن دينه بأوصاف ستة :

أولها وثانيها : د يحبهم ويحبونه ، ، والمحبة هي أسمى العلاقات التي يعرفها أهل الحياة ، ويجدر بنا أن نبسط الحديث عنها شيئاً من البسط لنعرف قيمة هذا الوصف الذي وصف الله به عباده المؤمنين ، فنقول :

المحبة في الله أقوى الروابط :

إن العلاقات التي يعرفها الناس كثيرة : علاقة الأخ بأخيه ، علاقة الزوج

بزوجه ، علاقة الزميل بزميله ، علاقة الشريك بشريكه ، علاقة الجار بجاره .. الخ وهذه العلاقات كلها إنما تبقى وتثمر وتكون مصدر سعادة لأصحابها ؛ إذا استندت إلى المحبة ، أما إذا تجردت منها فلا قيمة لها ، ولا فائدة ترجى من ورائها ، فالأخوة بدون المحبة ما هي إلا مجرد قرابة ، والزوجية بدون المحبة ما هي إلا مجرد معاينة ، والزمانة التي لا توطدها المحبة ما هي إلا مجرد مصاحبة .. وهكذا .

والمجتمع أحوج إلى علاقة « المحبة » منه إلى أية علاقة سواها ، فيها تكون الطمأنينة والاستقرار ، وبها يكون اليسر والتساع ، وبها يكون التراحم والتعاون وبها - من أجل هذا كله - تكون السعادة والهناء .

ولذلك يصف لنا القرآن الكريم المجتمع السعيد ، وهو مجتمع أهل الإيمان بأوصاف ترجع إلى المحبة فيقول : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، « رحما بينهم » ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ، يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا » .

ويظهر عظيم المنة على المؤمنين بنعمة المحبة والالفة بينهم فيقول : « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » ، « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » ، أى بالمحبة والالفة « وكنتم على شفا حفرة من النار ، أى بالتعاضد والتفرق » ، فأنفذكم منها ، كما يصف لنا حال أهل النعيم في دار الخلد فيقول : « ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » .

هذه هي المحبة في الله بين العباد والعباد ، وقد أنبأنا الصادق الأمين ، صلوات الله وسلامه عليه وآله ، أنها من صفات المؤمنين ، وأنه لا خير فيمن حرمها ، فقال : « المؤمن ألفٌ مألوف ، ولا خير فيمن لا يآلف ولا يؤلف » ، كما أنبأنا بعظم منزلة المتحابين يوم القيامة ، إذ يقول — وهو يعد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله — : « ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا على ذلك ، وتفرقا عليه » .

ولنتظر في نوعين آخرين من المحبة يحدثنا عنهما القرآن الكريم ، وهما موضوع الوصف الأول في آيتنا التي نحن فيها : محبة العباد لله ، ومحبة الله للعباد .

محبة العباد لله :

فأما محبة العباد لله فهي لازم من لوازم الإيمان الحق ، وليس الإيمان الحق هو مجرد المعرفة وإذعان النفس ، ليس هو ذلك الشعور القلبي الصامت الذي لا يتعدى الباطن إلى الظاهر ، ولا يبدو شيء من آثاره العملية التي تدل على انفعال صاحبه به ، إنما المؤمن الحق هو من أدرك جمال الله وجلاله ، وأدرك لطفه وإحسانه ، وعلم اليقين أنه المنعم المفيض الذي لا إنعام إلا به ، ولا فيض إلا منه ، ثم انفعل بهذا الإدراك فأحبه ، فأصبح قلبه مشغولاً به ، وعمله موجهاً إليه ، ولذته وارتياحه في طاعته وعدم المخالفة عن أمره .

ذلك هو المحب ، وذلك هو المؤمن ، وآية ذلك أن الله تعالى ذكر الكافرين والمؤمنين فجعل حبه هو العلامة المميزة بين هؤلاء وهؤلاء إذ يقول : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أدداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، وذكر الذين يتبدلون بدين الحق ماسواً - في آيتنا هذه - فقال : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » فوضع الحب في موضع الإيمان ، ثم وصف هؤلاء الذين يحبهم ويحبونه بأوصاف هي أمارات هذه العلامة السامية القائمة بينهم وبينه ، فقال : « أدلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » .

وقد نعى الله على الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، فوصفهم بأنهم « يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ، أى أنهم أحبوا الحياة الدنيا فآثروها ، ولو أحبوا الله لآثروه ، ومثل ذلك قوله تعالى : « كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » .

وقد نعى الله الإيمان عن يوادون أعداء الله ، أى يبادلونهم الحب ، ولو كان بينهم من علاقات القرى ، أدناها وأقواها ، فقال : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم

الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، وذلك أن المؤمن الحق هو من يحب ربه ، والمحبة الصادقة لا يحب عدو حبيبه ، ومثل ذلك ما جاء في قوله تعالى نداء للمؤمنين في سورة التوبة :
 • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَجَبُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فترفصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين . .

وكما نهى الله المؤمنين عن محبة أعدائه وإيثار أى شيء من الدنيا عليه جل شأنه أوجب على المؤمنين أن يحبوا رسوله ، ويحبوا أوليائه ، أى المواليين له ، الذين ينصرونه بنصر دينه وإعلاء كلمته ، وذلك لأن محبوب المحبوب محبوب ، ورسول المحبوب محبوب ، وفى ذلك يقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » .

محبة الله للعباد : [القرآن لا يشبهها إلا لذوى الفضائل العليا] : أمثلة :

وأما حب الله للعباد ، فلم يشبهه القرآن الكريم إلا لذوى الأعمال العظيمة التى تقوى فى قيمتها ومنزلة العاملين بها ما سواها من جنسها ، ولم ينفع إلا عن ذوى الصفات السيئة الموهلة فى السوء التى من شأنها أن تشيع الضرر والفساد .

فالذين يحبهم الله هم المتصفون بأمهات الأخلاق الكريمة ، ومنافع الفضائل النفسية ، يقول الله تعالى : « إن الله يحب المحسنين » ، والإحسان إرادته الإتمام على الفقراء فهو منزلة فوق الأعطاء ، لأن الإعطاء قد تشوبه شائبة من المن أو الأذى ، أو اختيار الأذى تخلصا منه ، ولا يكون الإعطاء إحسانا حتى ينزه عن ذلك كله ، ويسمو صاحبه فيه إلى الدرجة التى يصفها الله ورسوله فى مثل :
 • لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ، • لا تبطلوا صدقاتكم بالمال والأذى ،
 • ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، من كل ما يبدل

على تحرى الحالة الفضلى ، وإن أريد بالإحسان إتقان العمل وتجويده ، فليس كل من أدى عملاً يكون محسناً بمجرد أدائه ، فالأداء قد يكون مجرد تخفف وإبراء ذمة ، أما إحسان العمل وأدائه كاملاً متقناً ، فذلك منزلة أسمى ، وإنهم يقولون : إن الإحسان فوق العدل ، إذ العدل هو التسوية ، والإحسان معنى زائد عليها ، فمن أدى الحق وأخذ الحق ، فهو عادل ، ومن تجاوز عن بعض حقه ، مساحة منه وكرماً ، وأعطى أكثر مما عليه تفضلاً ، أو تلطف في إعطائه ، فهو محسن .

وكما يقال هذا في الإحسان ، يقال في الصبر ، إذ الصبر منزلة فوق الاحتمال ، لأنه مجاهدة وحبس للنفس عن كل ضجر أو تبرم ، مع اطراد العمل والسعى وعدم الانكماش والانكسار ، ولذلك كان الصبر ينبوعاً لكثير من الفضائل ، وإن اختلفت أسماؤها : فالشجاعة هي الصبر على مكاره الجهاد ، والجلود هو الصبر على بذل المال والمعروف ، والسكران هو الصبر على شهوة الإفاضة والكلام ، ورحابة الصدر هي الصبر على المثيرات والمحفظات .. وهكذا ، ولهذا أثبت الله حبه للصابرين كما أثبت له المحسنين فقال : « والله يحب الصابرين » .

ومثل هذا بقية المواضع التي أثبت الله فيها حبه لعباده ، « إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، و « يحب المتقين ، و « يحب المتوكلين ، و « يحب المقسطين ، و « يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، .. الخ .

لم ينف الله حبه إلا عن المقترفين كبار الإثم :

بقي بعد هذا ، الآيات التي نفي الله فيها حبه عن بعض عباده مثل قوله تعالى : « إن الله لا يحب المفسدين ، ولا شك أن الفساد إجرام فوق العادة ، وأن المفسدين أعداء المجتمع ، العاملون على تقويض بنيانه ، وزعزعة أمنه واطمئنانه ، فإن الذي يذنب ذنباً شخصياً يكون جرمه على نفسه ، أما الذي يعيث في الأرض الفساد ، فجرمه على المجتمع كله ، وحسبنا أن الله عز وجل يذكر الفساد والمفسدين في أخطر المناسبات ، إذ يقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، « « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، » .

ونتيجة هذا المقت للفساد والمفسدين هي ما ذكره الله عز وجل في مثل قوله
 « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » ، « زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون »
 « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » .

ومثل هذا في بقية المواضع التي نفي الله فيها حبه عن بعض عباده « إن الله
 لا يحب الكافرين » ، و « لا يحب الفرحين » ، و « لا يحب من كان خواناً أثمياً » ،
 و « لا يحب من كان مختالاً غفورا » .

ولهذا كله كان رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء
 الذي يبين لنا منزلة الحب بين العبد وربّه : « اللهم ارزقني حبك ، وحب من أحبك ،
 وحب ما يقربني إلى حبك » .

ولعلنا نعرف بهذا قيمة الوصف الذي وصف الله به عباده المؤمنين في قوله
 « يحبهم ويحبونه » ، ودلالة هذا الوصف على المعنى المقابل الذي بام به المرتدون
 عن دينه وشريعته ، المتعردون على أمره ونهيه ، الذين يطوّعون لأنفسهم موالاة
 أعداء الله ، ويؤثرونها على الله ورسوله وأوليائه .

الوصفان الثالث والرابع : « أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين » .

الذلة على المؤمنين ، والعزة على الكافرين :

المراد بالذلة التي وصفهم بها : اللينة واليسر والسماحة في المعاشرة والمعاملة ،
 والمراد بالعزة . قوة البأس وشدة الشكيمة ، وقد يتصف المرء بوصفين متباينين
 يتوجه كل منهما إلى جهة معينة في حياته ، ويعبر عن هذا المعنى في عصرنا الحاضر
 بتعدد الشخصية ، أي أن الرجل الواحد قد تكون له شخصيتان مختلفتان باختلاف
 حالتيه ، فهو أحياناً هادئ ودبّيع لين الجانب سمح متسامح ، وأحياناً ثائر غضوب
 شديد البأس صعب المراس ، وإنما يحسن في المرء ذلك إذا كانت كل شخصية من
 الشخصيتين تبرز في وقتها المناسب ، وتتجلى في موضعها الملائم ، وشبهه بما جاء
 في هذه الآية قوله تعالى « أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

أصحاب الشخصيات المتعددة بتعدد الأحوال صنف ممتاز :

وأصحاب الشخصيات المختلفة التي تبرز في مواضعها الملائمة هم الصنف الممتاز

من بنى الإنسان ، فلا خير في امرىء خاضع ذليل طول حياته ، ولا في امرىء
عنيف مستكبر في جميع حالاته ، وفي القرآن الكريم دلالة على أن الاختيال
والفخر لا يذمان في كل حال ، فالله تعالى يقول : « إن الله لا يحب كل مختال فخور »
وقضية هذا التعبير أن بعض الاختيال والفخر محبوب ، ولا بأس من حمل ذلك
على الاختيال والفخر في حالة الحرب ومنازلة الأقران فإن ذلك مما يثير الحماسة ،
ويرهب الأعداء ، ويوهن عزائمهم ، أو كما يقولون بلغة العصر : يحطم الروح
المعنوى فيهم ، وقد رأينا أمم الحضارات تهتم بالدعاية ، وترصد لها الأموال ،
فتتملاً ماضئها فخرأ بتاريخها وأبطالها ، وتذكر ما أعدت لأعدائها ، وتقوم
(بالمناورات) البرية والبحرية لتظهر أمام الناس بمظهر القوة والمنعة ، ويشمخ
سفراؤها ويملأها اظهارة لعظمتها وسمو مكانتها ، وكل ذلك فخر وخيلاء وليكن
ليس بمذموم ولا مكروه .

كما أن في القرآن الكريم ما يدل على أن خفض الجناح والتذلل يحسنان من
المؤمن إذا وضعوا موضعهما ، قال تعالى موصياً الولد بوالديه : « واخفض لهما جناح
الذل من الرحمة » وقال فيما أدب به رسوله الكريم من أدب السياسة والحكم
« واخفض جناحك للمؤمنين » ، « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ
القلب لانفضوا من حولك » فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، وكل
ذلك لين وتواضع في الموضع المناسب ، بينما يقول له في موضع آخر « يأيها النبي
جاهد الكفار والمنافقين واغْلظ عليهم » .

ومن هذا يتبين أن الذلة والعزة اللتين وُصف بهما المؤمنون في الموضعين
المناسبين لهما ، هما وصفان سمو وفضل ، وأن ما يدل عليه ذلك مما يقابلهما من
التواضع لا يعداء الله باتخاذ الوسائل والأيدى عندهم ، والتخايف على المؤمنين
بخيانتهم وتضييع أمانتهم ونحو ذلك هي أوصاف خسة ودناءة ، جدير بالمؤمنين
أن يحرصوا على التخلص من أصحابها ، وأن يلجأوا إلى الله في تحقيق وعده
بأيدهم منهم ، والإتيان بأعوان للحق ثابتين غير متقلبين .

الوصفان الخامس والسادس : ويجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

الجهاد في سبيل الله شأن المؤمن الصادق :

والجهاد في سبيل الله ، هو الجهاد لإعلاء كلمته ، ونصر دينه ، وسيادة شريعته ، وإنما يكون ذلك من قوم ذاقوا حلاوة الإيمان حقاً ، وأدركوا بثاقب نظرهم أنهم جنود مخلصون لربهم ، وأن شكر نعمته التي أنعمها عليهم بإيجادهم وأمدادهم يقتضى أن يبذلوا في سبيله مهجهم وأموالهم وكل عزيز لديهم ، وألا يؤثروا على ذلك شيئاً مهما علا أو غلا ، وأن يستعذبوا كل ما يصيبهم من المصائب والآلام غير ناكسين ولا متوانين ، ذلك بأهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يبطأون موطناً يغيط الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون .

عدم المبالاة باللوم شأن الواصل بفكرته :

وهم كما لا يهابون خطراً يهددهم ، لا يخافون لوما يوجه إليهم ، والمؤمن بعقيدته قوى فيها ، صبور عليها ، لا يأبه فيها بنقص الناقدين ، ولوم اللاتمين ، وتثبيط المنبطين ، وقد دأب الناس على أن يستفظموا الإقدام ويعتبروه في أول الأمر طيشاً وجنونا ونزقا ، ويوجهوا اللوم إلى أصحابه في صورة الخوف عليهم ، أو الشك فيهم ، أو النصح لهم ، وإنما هو الخور والجن ، أو الحسد والحقد ، وإن يجدى ذلك فتيلاً مع المقتنع بفكرته ، المؤمن بعقيدته .

صفات متلازمة متكافلة :

هذه هي الصفات التي وصف الله بها عباده المؤمنين الذين تأذن لبيدلتهم من المنافقين والمتردين ، وهي صفات ست إذا لاحظنا كل واحدة منها بمفردها ، ثلاث إذا عرفنا أن كل صفتين متابعتين منها متكافئتان متلازمتان تكمل إحداها الأخرى ، ويصوران معاً خلقنا واحداً متميزاً ، غلب الله للعباد ، وحب العباد لله ، وصفان في العدد ، ولكنهما متلازمان ، فلا يحب الله إلا من يحبه ، ولا تحب الله

إلا أحببك ، وكذلك القول في الذلة على المؤمنين ، والعزة على الكافرين ، فإن من ذل للمؤمنين اقتضاه ذله لهم أن يترفع على أعدائهم ، ويتنكر لخصومهم ، ويبذل جميع عواطفه وقواه لتحقيق ذله لمن أحبه وأخلص لهم ، والجهاد في سبيل الله إيثار لما عند الله ، فلا يمكن أن يجامعه الخوف من لومة لائم ، ومن لا يخاف لوماً في الله ، لا يقصر عن بذل روحه وماله في سبيل الله .

ولهذا المعنى جمعنا الكلام على كل صنفين في نسق واحد .

وقد بين الله بعد ذلك لعباده المؤمنين أن وليهم الحقيقي هو الله ورسوله والمؤمنون العاملون بدينهم ، الخاشعون لربهم ، فالإلهم فليتهجروا ، فإنهم حزب الله ومن يتولاهم تولاه الله بالنجاح والفلاح ، ونصره على أعدائه نصراً مؤزراً ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

* * *

النداء التاسع :

يأتى بعد ذلك النداء الثالث - وهو التاسع من نداءات السورة - وهو متصل في المعنى والغرض بما قبله من النهى عن اتخاذ أعداء الله أولياء ، وبيان عاقبة من يرتكب هذا الوزر العظيم .

سر النهى عن موالاته الكفار وبعض أهل الكتاب هو اتخاذهم الدين هزواً ولعباً :

يبين الله للمؤمنين في هذا النداء أنه لا ينهاهم عما نهاهم عنه من مصانعة أعدائهم تحكماً أو اعتباطاً ، ولكن نهاهم لأن هؤلاء الأعداء ينظرون إلى دينهم الذي هو مصدر قوتهم وعزتهم ، ومشكاة صلاحهم وهدايتهم ، نظرة الهازي العايب ، يستوى في تلك النظرة الكفار الذين أشركوا بالله ، وطائفة من أهل الكتاب ، التوت عقولهم ، وفسدت قلوبهم ، ومن مظاهر هذا الاستهزاء واللعب أنهم كانوا إذا رأوا المؤمنين ينادون إلى الصلاة ، ويقومون إليها أخذوا يسخرون منهم ، ويقلدونهم في حركاتهم ، ويخرجون هذا التقليد في صور مضحكة ، تنفيراً منها ، وصرفاً عنها .

مثل من الماضي :

وقد بقي هذا المعنى في أعداء الإسلام حتى قال شاعر نصراني في عهد بني أمية
.. وملوكُ الإسلام ملوك بزعمهم كما يقول ابن رشيق في كتابه العمدة - :

ولست بصائم رمضان طوعاً ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بزاجر عنسا بكوراً إلى بطحاء مكة للنجاح
ولست منادياً أبداً بليلاً كئيل العَيْر: حتى على الفلاح
ولكني نأشربها شجولاً وأبجد قبل منبج الصباح

فهو يسخر من صوم رمضان ، ومن لحم الأضاحي ومن الحج ، ومن المؤذن
للفجر ، ويصوره بأنه يصبح كما يصبح العير ، ومع هذا كان أحد الخلفاء يتخذه
شاعراً له ، ويغدق عليه من أموال المسلمين ، ويؤاده ، وهو يحاد الله ورسوله .

مثل من الحاضر :

ثم امتد الضعف والتساهل بالمسلمين إلى ما بعد ذلك من عصور ، فكان
منهم من يحالف أعداءهم ، ويحارب إخوانه في صفوفهم ، ويفضي بأسرار أمته
إليهم ، يتخذ بذلك الأيادي عندهم ، ويتقى الدوائر أن تصيبه ، ويؤمن حاضره
ومستقبله كما يزعم ، وقد وجدنا في عصرنا الحاضر من يقف مع فرنسا على أهل
وطنه وملكه في مراكش الجريحة ، ومن يستحل سفك دماء عشيرته وقومه في
سبيل إرضاء المستعمر ، ولا يخاف في ذلك لومة لائم .

عزة المسلمين في العمل بالإسلام :

أما والله لو حفظ المسلمون على الإسلام عزته ، وصانوا كرامته ، وعملوا
بما أرشدهم إليه ربهم ، لما ساءت حالهم ، ولما ضاعت هيبتهم ، وينبغي ألا نياس ،
وأن نعمل على تطهير أنفسنا ، وتقوية روحنا ، والتطلع إلى مثل ما وعد به سلفنا
« فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ،
يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء
والله واسع عليم .

خُواطِر من الزِكاة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم
وكيل جامعة التقريب

لفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الإسلام الشيخ
عبد المجيد سليم ، مجالس حافله يحضرها خاصة أهل العلم
والرأى ، والحديثُ فيها ذو شجون ، فإذا عرّضتُ مسألة
من مسائل الشريعة ، في الفقه ، أو الكلام ، أو الأصول ،
أو التفسير ، أو غير ذلك ، لمعتُ من الشيخ الأكبر عيان
تَشعان ذكاءً وألمية ، وبدت على جبهته أسارير إنما هي
مَوْجات تنقل العلم الصحيح والرأى السديد عن قلب قوى
له حماسة الشباب ، وعمق الشيخوخة ، ونفاذ البصيرة ،
وغزارة التحصيل ، فما يلبث الخفي من وجوه المسألة
أن يسفر واضحاً مبيناً يملأ القلوب كما يملأ الأسماع .

وهذا طرف من حديث لفضيلته ، وعيّنهُ عنه
في مجلس من مجالسه ، ورأيت أن أنقله لقراء
(رسالة الإسلام) لما فيه من الفوائد التي تهتم أهل العلم
عامة ، ولا سيما المشتغلين بتحقيق فكرة « التقريب » ،
وقد عرضت عليه ما كتبت فوافق عليه ، وأذن بنشره :

[رئيس التحرير]

قال - بارك الله للمسلمين في حياته :

من المعروف أن الشريعة الإسلامية ، جاءت بنوعين من الأحكام :
(١) نوع قطعي ليس موضع اجتهاد ، ولا محل خلاف ، ولا ينسوغ للمسلمين

أن يتفرقوا فيه ، وذلك كالعقائد الواجبة ، وما ثبت من الأحكام العملية بالتواتر ، وما دلت عليه النصوص دلالة ظاهرة بحيث لا يحتمل النص غيرها .

فالعقائد مثل اتصاف الله بكل كمال ، وتنزهه عن كل نقص ، وأنه تعالى أرسل رسلا ، وأنزل كتباً ، وأن البعث حق ، والحساب يوم القيامة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، إلى غير ذلك .

والأحكام العملية مثل الصلوات الخمس في اليوم والليلة ، وعدد الركعات فيها ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام .. الخ

(ب) ونوع ظني هو موضع النظر والاجتهاد واختلاف الفقهاء أو المتكلمين ، من كل ما لم يرد فيه من الشرع دليل يفيد اليقين ، وليس للعقل فيه حكم واجب حتم ، وذلك كاختلاف الصحابة وغيرهم في مثل العول والكلالة وسكنى المبتوتة ، وعدة الحامل المتوفى عنها زوجها ، وكالاختلاف في المسح بالرأس المجزئ في الوضوء وفي قراءة المؤتم ، وفي وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثاً أو واحدة ، ونحو ذلك ، وكاختلاف المتكلمين في وجوب شيء على الله أو عدم وجوب شيء ، وفي جواز تعذيب المطيع والعفو عن المسيء أو عدم جواز ذلك في حقه تعالى ، وفي أن صفات الله جل شأنه هي عين ذاته أو غيرها .. الخ

* * *

ومما يتصل بالنوع الثاني من الأحكام اختلافهم في المسألة الأصولية المعروفة : هل كل مجتهد مصيب ؟ فن العلماء من يجيب على هذا السؤال بنعم ، على معنى أن حكم الله في المسألة المجتهد فيها هو ما يصل إليه المجتهد بعد است فراغ الوسع في طلب معرفته ، أو بعبارة أخرى : أن المجتهد مكلف العمل بما وصل إليه بعد اجتاده ، وهو حكم الله في حقه وحق من قلده ، وهذا معنى اتصافهم جميعاً بالإصابة ، كأن الله تعالى لم يعين حكماً بذاته في المسألة المجتهد فيها ، وإنما الحكم هو ما يؤدي إليه اجتهد المجتهد .

هذا رأى لبعض العلماء ، ولا أراه سديداً ، إنما رأى السديد ما عليه جمهور العلماء من أن الحق واحد ، وحكم الله في كل مسألة معين ، وقد نصب الله الدليل الذى يدل عليه ، فن المجتهدين من يصل إليه ويصيبه ، فهو الذى يوصف بأنه مصيب ، ومنهم من لا يصل إليه ، بل يظن غيره ، فهو مخطئ . ولكنه معذور في خطئه ، مغفور له هذا الخطأ ما دام قد بذل جهده في تعرف الحق غير متبع هواه ولا مقتصر في استكمال وسائل النظر والحكم ، بل ورد الخبر الصحيح بأن المخطئ مثاب كالمصيب ، غير أن المخطئ له أجر واحد على اجتاده وبذله الوسع ، والمصيب له أجران ، أجر على اجتاده ، وأجر لإصابته .

ثم نظر فضيلة الاستاذ الأكبر إلى وقال :

وليس المقام الآن مقام تحقيق ذلك ، وبيان ما استدل به كل فريق على ما صار إليه ، ومعرفة الراجح منهما ، لكن يمكن أن نستخلص من هذا العرض الوجيز بعض الفوائد التى لعلها تناسب فكرة التقريب :

أولاً : أن كل فريق من هذين الفريقين ، يرى المجتهد مأجوراً فضلاً عن أن يكون خطؤه مغفواً عنه ، فإذا علم أتباع المذاهب الفقهية أو الكلامية ذلك ، لم يكن لهم بدٌّ من احترام بعضهم بعضاً ، والترفع عن الاحتفاظ بالضغائن والاحقاد التى تكون عادة بين المختلفين الذين لا يعذر بعضهم بعضاً ، ولا يقدر بعضهم إخلاص بعض ورغبته في الوصول إلى الحق ، وهذه السباحة هى الخلق الذى كان يتصف به الأئمة أنفسهم ، فلم يعرف عن أحد منهم أنه طعن صاحبه ، أو أئمنه ، أو نقضه حقه ، أو حاول أن يقطع ما بينه وبينه من صلة الأخوة في الدين والعلم .

ثانياً : إن كل واحد من الفريقين يفتح المجال للنظر والاجتهاد وبذل الوسع في معرفة الحق ، والاعتماد على الدليل والحجة وما يولد العلم أو الظن الراجح ، فليس المرجع في حكم من الأحكام ، أو رأى من الآراء ، إلى أنه مذهب فلان

أو فلان ، ولكن إلى حظه من الدليل والبرهان ، أما أهل التقليد ، فليس لأحد أن يلزمهم بمذهب إمام معين لا يحيدون عنه ، فالشكل في حقهم سواء .

ثالثاً : قد علمنا من استقراء أحكام المذاهب الفقهية ، وآراء الفرق الكلامية ، أن في كل منها خطأ وصواباً ، ولم نعلم مذهباً من المذاهب الإسلامية المعتبرة خطأ كله أو صواباً كله ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلا ينبغي أن تطفئ العصبية المذهبية على المسلمين ، ولا ينبغي أن يكون همُّ الحنفي مثلاً هو الانتصار لكل ما جاء في مذهب الحنفية ، ولا أن يكون همُّ الإمامي أو الزيدي هو الانتصار والتعصب لكل ما جاء به الإمامية أو الزيدية . . وهكذا .

بل الواجب على المسلمين أن يأخذوا بما ظهر بالبرهان صوابه ، وأن يكون قصارهم الرغبة الصادقة في الوصول إلى الحق دون أن يقيموا وزناً لما سوى الحق ، بذلك يصبحون فعلاً أمة واحدة ، ويصبح الخلاف الفقهي والكلامي والنظري في محيطهم وسيلة من وسائل القوة العلمية والسعة الفكرية ، ويتفرغون لما هو أولى بهم من التعاون على نصرة الدين ، وإصلاح حال المسلمين ، وتبليغ كلمة الله واضحة قوية إلى الناس أجمعين .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ؟

بحث عن الدولة العباسية

لحضره صاحب المعالي السيد محمد رضا الشيباني

وزير المعارف السابق بالعراق

— ٢ —

العصبيات القبلية - أسبابها ونتائجها :

تناول المؤرخون من قدماء ومحدثين موضوع هذا التنافر العنيف والجفاء القديم بين القحطانيين واليمانيين ، وعنوا بالبحث في بواعثه وأسبابه ، وللدورخ المسعودي رأى حاول فيه رد هذه المنافرات إلى أثر الشعر والشعراء في حماية الأعراض والذب عن الأحساب وتخليد المآثر ، كما فعل السكيت في قصيدته التي يذكر فيها مناقب قومه في مضر وربيعه وإياد وأنمار ، ويكثر من تفضيلهم ، ويطنب في نعوتهم ، وأنهم أفضل من أبناء قحطان . وكان لأقوال السكيت أثرها في إحداث العصبية ، أو الجفاء بين اليمنية والزارية ، ولم يحدد شعراء اليمنية بدءاً من الرد على السكيت كما فعل دعبل الخزاعي ، فذكر في قصيدة له عارض بها قصيدة السكيت : مناقب اليمن ومحاسنها ، وافتخر بملوكها ، وعرض بغيرهم . وكما فعل زياد الأعجم في الدفاع عن قبيلته حتى أحجم الفرزدق عن هجائها ، ولهم في هذا الباب أخبار كثيرة ، كما كان لسلك قبيلة شاعرها وخطيبها في المشاهد والمواسم والأيام وفي المنافرات والمفاخرات .

شاعت هذه المنافرات بين قبائل العرب من قحطانيين وعدنانيين ، ففخر بعضها على بعض ، وأدلى كل فريق بما له من المناقب ، وتحزب الناس ، وثارَت العصبية في البدو والحضر ، حتى أن مروان بن محمد الجعدي لم يكتفِ تعصبه لقومه

من نزار على اليمن ، فاضطر هؤلاء إلى تأييد الدعوة العباسية ، ثم تلا ذلك ما تلاه من قصة معن بن زائدة في اليمن وقتله أهلها تمصّباً لقومه من ربيعة ، ونقض الحلف القديم المبرم بين القبيلتين ، وما فعله عقبة بن سالم بعمان والبحرين ، وقتله من قتل من أحياء ربيعة كياداً لمعن بن زائدة ، وتمصّباً لقومه من قحطان ، إلى غير ذلك من الأحداث الدامية (١) .

وللمحدثين من المؤرخين آراؤهم في منشأ هذه العصبية القبلية المذكورة ، ففردها - فيما يراه بعضهم - إلى تباين المنشأ والبيئة واختلاف الاخلاق والطباع ، فالقبائل العدنانية تميل غالباً إلى الحياة البدوية خلافاً للقحطانية ، فإن منشأها في بلاد عريقة في الحضارة وفي تأسيس الدول وإنشاء الحكومات .

ويميل بعض المتحاملين على العروبة والإسلام من المستشرقين إلى القول بأن هذه الخصومة مظهر من مظاهر الخلاف بين المهاجرين والأنصار (٢) ، ويزعم فريق آخر منهم أن هذه المنافرات قامت على أساس من اختلاف الجنس ، فالعدنانيون في الشمال عرب خلص لا تشوب دماءهم شائبة ، والقحطانيون في الجنوب تشوب دماءهم شائبة من دماء شعوب أخرى : إما حامية ، وإما آرية . وليس هذا الرأي بشيء ، فإن القحطانيين بعد هجرتهم إلى الشمال توغلوا في البداوة كالعدنانيين أو أكثر من ذلك ، بل كانت اليمن تسود ساداتها على

(١) انظر مروج الذهب (٢/ ١٣٩ : ١٤١) عن رأى السعوى في منشأ هذه العصبية .
 (٢) المعروف أن الخلاف وقع بين الأوس والخزرج في الجاهلية - وهم الأنصار بعد ذلك - بسبب التفاخر والمنافرات ، وقد تناولت الحروب بين الحيين عشرات من السنين إلى أن أشرفوا على الفناء ، ولكن الشجاء ارتفعت من بينهم بدعوة الإسلام ، فأصبحوا يداً واحدة ، أنظر عن الحرب بين الأوس والخزرج قبل الإسلام ، خزنة الادب للبغدادى (٢٠٨ - ٢١١) طبعة السلفية .

أنظر ما أورده الجاحظ في كتاب : « شرائع المروءة » .
 أنظر عن أشهر منافراتهم في الجاهلية شرح المقامات للشريفي والاغانى . وقد وضعت كتب في منافرات الجاهلية منها كتاب منافرات العرب لأبي عبيدة .

النسب كما كانت مضر تسودهم على أصالة الرأي ، وربيعه على تعجيل القرى وإطعام الطعام .

هذه آراء رهط من المؤرخين المحدثين أو المستعربين ، وهي كما ترى آراء مدخولة على الأكثر ، والحقيقة أن الفخر بالأحساب ، والاعتزاز بالأنساب أو الطعن فيها ، من السجايا التي جبل عليها العرب ولم يفارقوها حتى اليوم ، ولن يفارقوها إلى ما شاء الله ، مع أن الغلو في هذا الضرب من التفاخر منهى عنه في الإسلام ، ولكن هذا الإنسان قد يصبو إلى دين غير دينه ، أو ينتحل عقيدة غير عقيدته ، ثم تبقى كثير من سجاياه وأخلاقه الفطرية كما هي في كثير من الأحيان .

أضف إلى ما تقدم أن هجرة القبائل من الجنوب إلى الشمال في سبيل العيش وحيازة الأراضي والمراعى الحصية - كهجرة القبائل اليمانية ونزوحهم إلى الجهات الشمالية ، ومجاورتهم للقبائل العدنانية - من أهم الأسباب في تكوين تلك الضغائن المتوارثة ، وانتقالها من جيل إلى جيل .

المنافرات بعد الإسلام :

هذا ما كانت في الجاهلية . ولما جاء الإسلام ، اعتز العدنانيون به على القحطانيين ، فالرسول الكريم سيد ولد عدنان ، ولكن القحطانيين حتى بعد إسلامهم ظلوا - كما هو شأن العرب - يفخرون بمآثرهم في الجاهلية ، ولم يستأصل الدين عاطفتهم المذكورة ، أو ينتزع ما نأصل في نفوسهم أو خالط دماهم من هذا القبيل ، فكانت لهم في مجالس الأمويين والعباسيين مواقف معروفة في المفاحرات والمناظرات .

كانت منازل الأمويين والعباسيين وأعيان هاتين الدولتين ملئقي السراة من رجال القبائل يمنية ومضرية ، ومجتمع العلماء من مختلف المنازع والمشارب ، وكانت في بعض أصحاب تلك المجالس نزعة ملحة إلى التعرف والاستزادة من العلم والاطلاع فكانوا يغفرون بين زوارهم ورواد مجالسهم ويدفعونهم إلى المناظرات والمماتات في هذا الشأن ، وهي مماتات بريئة فيها مادة أدبية أو تاريخية غزيرة ، وفيها بلاغة

وبيان عربي حر ، ولا يوجد لهذا الأدب نظير في تاريخ آداب الأمم غير الآداب العربية .

وكانت لتلك المجالس قوائدها وعوائدها المهمة في تحريك المواهب وإثارة البحث في أصول القبائل وفروعها وأيامها وأخبارها ، وفي مثالبها ومناقبها وحكمها وأمثالها ، وفي عاداتها وأوابدها (١) .

الجاهلية لليمن والإسلام لمضر :

وهذه المفازات في العصور المذكورة كثيرة ، وأحسن مثال لها ما وقع في بعض مجالس العباسيين والأمويين ، ويلاحظ أن الدائرة تدور على اليمن في هذه المناظرات غالباً ، لوقوعها في بلاد جل زعمائها من مضر ، وفي عصره وعصر المضربة وحسبنا أن مثالب اليمن كلها جمعت في كلمة موجزة قذف بها في وجوه زعمائهم خالد بن صفوان الأهمشي التيمي (٢) خطيب البصرة وعالمها بالأنساب والأخبار

(١) انظر عن بعض هذه المفازات بين مضر واليمن مهذب تاريخ ابن عساكر [٥٨/٥ - ٥٩] وقد يكون شطر من هذه المفازات من وضع الاخباريين ، وانظر البيان والتبيين [١٠٣/١] ومروج الذهب ، [٢٣٨/١] والعقد الفريد [٢١٣/٢] ، وانظر ما كان يجري من هذا القبيل في مجالس عبد الله بن عامر في البصرة ، البيان والتبيين [١٢٢/١] . وعبد الله بن عامر هذا : من أشهر ولاة البصرة ، وله ترجمة في كتاب الاستيعاب [٣٨٧/١ - ٣٨٨] ، وعن مجالس البصريين في التفاز بأيام العرب في الجاهلية انظر العقد الفريد [٣٦٥/٣] .

(٢) قال خالد بن صفوان ، وهو يذكر فيما يزعم مثالب اليمن في مجلس السفاح : « ما ذا أقول لقوم كانوا بين «سج بر» ودافع جلد ، وسائس قرد ، وراكب عرد ، دل عليهم هدهد ، وأغرقتهم فأرة » ، وملكتمهم امرأة ؟ » رويت هذه الكلمة - مع بعض الاختلاف في روايتها - في كثير من كتب الادب والتاريخ ، ومن رواها الجاحظ في البيان والتبيين (١٠٣/١) وابن عبد ربه في العقد الفريد (٢١٣ / ٢) والمسعودي في مروج الذهب (٢٨٣/١) . وهذه الكلمة في الذروة من البلاغة عند القوم ، ولا يتكلم الجاحظ إلا به بخالد ولم يكابر له ، ويعنى بنقل أقواله وكلماته في كتبه ، وقد علق على =

في عصره ، ولبعض علماء النسب من العرب كلمة قيمة أجمل فيها المفاخرة بين العدنانيين والقحطانيين فقال : « الجاهلية لليمن والإسلام لمضر » . وقد أصاب هذا النسابة ، وهو دغفل بن حنظلة (١) فيما قال ، فن الملاحظ أن جل مفاخر اليمن تعود إلى عصر الجاهلية ، وحق لليمن أن يفخروا بماضيهم المجيد في الحضارة والصناعة والفنون ، فاهم أنشأوا مدناً عظيمة وشيدوا قصوراً ضخمة كقصر غمدان مقر التبابعة ، وبنوا سد مأرب ومصانع المياه ، وكان لهم ملوك وأقيال دوخوا الأرض واستولوا على كثير من الأقطار ، وهكذا نجدهم في سائر مفاخرهم يرجعون إلى أبعاد عصور الجاهلية ، ففي الجود يذكر حاتم الطائي ، وفي الشعر امرأ القيس ، وفي الحروب والفتوح الأذواء (٢) وأقيال حمير ، وملوك غسان ، والمناذرة والضجاعة ، وفي الفتوة والشجاعة : فرسان الأزدي ، وهمدان أحلاس الخيل ، وكل هؤلاء جاهليون عريقون في الجاهلية .

والواقع : أن نصيب اليمن من المآثر بعد الإسلام غير قليل ، فإن منهم الانتصار وهم الأوس والخزرج أعز الناس نفساً وأشرفهم همماً ، لم يؤدوا لثأرة

== كتيبه المذكورة بقوله : « لئن كان خالد قد فكر وتدبر هذا الكلام لأنه للراوية الحافظ والمؤلف الحيد ، ولئن كان شيئاً حضره فسا له في الدنيا نظير » إلى أن قال : « وللكلام خالد كتاب في أيدي الوراقين » . انظر عن خالد بن صفوان وعن أخباره وأقواله البيان والتبيين « ٧/٢ ، ٧٢ ، ١١٤ ، ١٢٩ ، ١٣١ » و « ١٨٤/٢ » وتجد أوسع ترجمة له في تاريخ دمشق لابن عساكر « ٥٣/٥ - ٦٣ » .

(١) دغفل بن حنظلة السدوسي الشيباني ، قيل : له صحيفة ، وقتلته الأزارقة ، وفي أمثالهم : « أنسب من دغفل » . ولقيه عند الجاحظ : « العلامة » وعده من رؤساء النسابين . انظر عن كلامه ورأى الجاحظ فيه البيان والتبيين « ١٠٨/١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ » وعن كلمة دغفل المذكورة العقدي الفريد « ٢١٣/٢ » ولدغفل ترجمة مطولة في مذهب تاريخ ابن عساكر « ٥ / ٢٤٢ - ٢٤٧ » وله ذكر في فهرست ابن النديم ، كما أن له ترجمة في الاستيعاب لابن عبد البر « ١٧٣/١ » .

(٢) انظر عن أذواء اليمن خزانة الأدب للبغدادي « ٢ / ٢٥٢ - ٢٥٤ » ، وكتاب : الاشتقاق لابن دريد .

إلى أحد من الملوك ، وقد حاربهم تبع الأكبر فامتنعوا عليه ، ومن الذين عدد غير قليل من أشهر مشاهير الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، وقد روى في فضل الذين ما روى من الأحاديث (١)

العباسيون والحزب العباسي :

أجمع المؤرخون على أن جل شيعة بنى العباس من أهل خراسان^١، وذلك هي الحقيقة ، ولكن هذا الإجماع يوهم في ظاهره أن هؤلاء الخراسانيين برمتهم أطاعهم ، وقد بالغ بذلك رهط من المشتشرقين المتأخرين وقوم قلدوهم من الشرقيين ، ولا غرض لهم إلا التعريض ببنى العباس وأن دولتهم صنيعه الموالي والاعاجم ، وفي هذه الأقوال ما فيها من الغلو والإغراق .

إن التأمل الجيد في نصوص التاريخ كفيل بإزالة هذا الوهم ، فإن قدماء المؤرخين وثقاتهم إذا قالوا : « أهل خراسان ، لم يقصدوا الاعاجم وحدهم ، وإنما كانوا يقصدون بهذه العبارة - في كثير من المواضع - القبائل العربية المقيمة في خراسان ، ولا تنكر مساهمة هذه القبائل في خدمة الدعوة العباسية ، فأهل خراسان معناه أصحاب خراسان من العرب غالبا ، وإنك لتجد مدلول هذه العبارات على هذا الوجه واضحا في خطب الولاة والأمراء وفي أقوال المؤرخين ، تجدها كذلك في خطب نصر بن سيار عامل الأمويين (٢) وفي خطب قتيبة بن مسلم وغيرهما

(١) انظر عن آراء علماء النسب في بيوتات الذين وبيوتات مضر والمفاخرة بينها ، العقد الفريد [٢١١/٢ - ٢٥٤] وانظر أساليبهم في معرفة الأنساب وأقوالهم في القبائل العقد الفريد [١٣/٢] ويستحسنون في ترتيب طبقات الأنساب العربية ما أورده الماوردي في الأحكام السلطانية [١٨٠] طبعة الاتحاد ، وانظر عن خبرتهم بهذا الفن نهاية الارب للقلقشندي [٢٦٦] طبعة بغداد .

(٢) انظر خطب نصر بن سيار عامل خراسان في أيام مروان الجعدي ، وفي بعضها يقول : « يا أهل خراسان ، إنكم غمطتم الجماعة ، وركنتم إلى الفرقة ، السلطان المجهول تريدون وتنتظرون ؟ إن فيه لهلاكم معشر العرب » ألا ترى أنهم لا يعنون بأهل -

من الأسراء ، وكانوا ينسبون إلى المدن الخراسانية والفارسية فيقولون : رازي ، وأصفهاني ، ومروزي ، وكرماني ؛ لأنهم ولدوا أو أقاموا فيها لا غير ، وهم عرب صرحاء ، والأمثلة على ذلك كثيرة . وهذا (الكرماني) وهو من أشهر رؤساء خراسان في أواخر عصر بني أمية ، وأخباره كثيرة في هذه الفترة من التاريخ - وقد مر ذكر بعضها - قد نسب إلى كرماني ؛ لأنه ولد فيها وما هو إلا عربي قح ، وكان يقال له : (شيخ خراسان وفارسها) في العصر المذكور .

وقد ألف العرب هذا النوع من الانتساب إلى حيث يولدون أو يقيمون من بعض البلاد الفارسية أو التركية ، ألفوا ذلك حتى أواسط عصور الدولة العباسية أو بعد ذلك ، فهذا أبو الفرج الأصفهاني قد اشتهر بنسبته إلى أصفهان وهو كما لا يخفى من أرومة أموية ، بل كان نزيل بغداد .

وفي كتب الفتوح ذكر لخطط العرب ومنازلهم في البلاد المذكورة (١) ، وقد أشار غير واحد من الكتاب والمؤلفين إلى فعل البيئات الأجنبية من تركية وخراسانية وغيرها وأثرها فيمن نزل بها من القبائل العربية ، فمن نزل من العرب (فرغانة) لا تستطيع تمييزه عن أهل (فرغانة) في السحنة واللون والهيئة ، ومثلهم في ذلك من نزلوا في غير (فرغانة) من الخطط والأقاليم التركية والخراسانية . وقد وصف الجاحظ تأثر بعض هذه القبائل العربية بتلك البيئات (٢) ، ورأينا

== خراسان إلا العرب في هذه الكلمة ؟ ومثل ذلك كثير . وانظر وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد حين استخلفه على « جرجان » فقد أوصاه بأجباء العرب فيها من اليمن وريمة وقيس ، مع الإشارة إلى أسباب ذلك . انظر تاريخ الأمم والملوك [٣٧ / ٩ - ٣٨] والكامل لأن الأثير [٥ / ١٤٢ ، ١٦٢ ، ١٧٢] . ولاحظ الاختلاف في سرد نسب نصر بن سيار نقلا عن الطبري .

(١) انظر عن خطط العرب ومنازلهم وأسماء قبائلهم في آذربيجان — فتوح البلدان للبلاذري [٣٣٦ - ٣٣٧] .

(٢) مناقب الأتراك للجاحظ [٣٩] .

بعض المؤرخين يقولون « فلان عربي خراساني » ، أو « عربي من أهل خراسان » (١) والمكتشفات الحديثة تؤيد أقوال الجاحظ ، فقد عثر الباحثون في تركستان ، أو فيما وراء النهر على قبائل رحل تعيش في عزلة عن غيرها ، أو لها لغة أو لهجة تقارب اللهجات العربية ، ومن رأيهم أنها من بقايا العرب الأولين في تلك البلاد .

عروبة نقباء الدعوة :

كان عدد مقاتلة العرب من أهل المصريين : الكوفة والبصرة كبيراً في خراسان من عهد الفتوح الأولى ، وهم من مختلف القبائل الزارية واليمانية ، بل كان جل نقباء الدعوة الهاشمية من زعماء العرب المتمين إلى أشهر قبائلهم ، فمنهم خمسة من خزاعة ، وثلاثة من تميم ، وبعضهم من طيء وربيعه ومزينة وغيرها من القبائل المشهورة (٢)

وقد كتب الجاحظ فصلاً ممتعاً في هذا الموضوع لم يسبقه إليه أحد في رسالته المسماة (مناقب الأتراك) (٣) ، ومن هذا الفصل تعرف ان جل هؤلاء النقباء

(١) لاحظ العبارات التي يستعملها الجاحظ من هذا القبيل في رسالته المسماة : « مناقب الأتراك » [٣٤] .

(٢) انظر عن عروبة رجال الدعوة تاريخ الطبري [٧٦ / ٩] وتاريخ البعقوني [٧٢ / ٣] ومروج الذهب [١٤٤ / ٢] والكمال [٩٠ / ٦] . وعن عروبة زعماء خراسان المصدر نفسه [١٩١ / ٥] . وعن القبائل العربية المقيمة في خراسان من تميم وربيعه واليمن — كتاب : الوزراء للجهشياري [٢٦٩] . وعن أحياء العرب في خراسان كلمة لقتيبة بن مسلم في البيان والتبيين [١٩٩ / ١] . وعن بني تميم في خراسان كلمة خاطب الأحنف بن قيس قبيلته فيها البيان والتبيين [١٨٤ / ١] . وعن ضعائن العرب تخرج من مرو إلى سمرقند بدوت جواز في خطبة لقتيبة بن مسلم . العقد الفريد [٣٨٥ / ٢] .

(٣) مناقب الأتراك (١٢ / ٨) .

من العرب وإن كان فيهم عدد من الموالي (١) ، وله في هذا الباب فصل آخر ، أشار فيه إلى وقائع حاسمة في خراسان والعراق تفانى فيها أنصار الفريقين ، وقد جاء فيه ما نصه : « وهل أكثر الدعاة إلا من صميم العرب ومن صليب هذا النسب ، كآبي عبد الحميد قحطبة (٢) بن شبيب الطائي ، وآبي محمد سليمان بن كثير الخزاعي ، وآبي نصر مالك بن الميثم الخزاعي ، وآبي داود خالد بن إبراهيم الذهلي ، وكآبي عمرو لاهز بن طريز المزني (٣) ، وآبي عيينة موسى بن كعب المرائي ، وآبي سهل القاسم بن مجاشع المزني ، ومن كان يجرى مجرى النقباء ولم يدخل فيهم مثل مالك بن الطواف المزني . وبعد ، فمن هو الذي باشر قتل مروان ، ومن هزم ابن هبيرة (٤) وقتل ابن ضبارة (٥) ومن قتل نباتة بن حنظلة (٦) الأعراب الدعوة والصميم من أهل الدولة ؟ » .

(١) راجع فيما يتعلق برؤوس النقباء من الموالي - وفي مقدمتهم أبو مسلم الخراساني صاحب الدولة ، وأبو سلمة حفص بن سليمان ، وبكير بن ماهان - « مناقب الأتراك » لجاجط (١٤) والكمال لابن الأثير (٥ / ٤٥ ، ٥٩) وعن التذكيل بهؤلاء الدعاة في خراسان والكمال (٥ / ٦٤ ، ٨٨ ، ٨٩) وعن شجاعتهم وصلابتهم المصدر المذكور (٦٧) (٢) كان قحطبة يقارن بأبي مسلم صاحب الدولة ، ولآل قحطبة دالة كبيرة على العباسيين الأول ، ولما وقع أحد المأوئين للمنصور من آل قحطبة أسيراً في يده لم ينتقم منه وقال : « لست أقتل أحداً من آل قحطبة ، بل أحب مسيئهم إلى محسنهم ، وغادرهم لوفيقهم » . البيان والتبيين (٢ / ١٥٦) .

(٣) المشهور ابن قريظ لا ابن طريز .

(٤) انظر عن هزيمته في خراسان الكمال (١٩٢/٥) وعن مقتله في حرب واسط المصدر نفسه (٢٠٩ - ٢١١) .

(٥) قتله قحطبة سنة ١٣١ ، وما رؤى عسكر يجمع شتى المؤن والآلات والذخائر كمسكر ابن ضبارة ، وكان يسمى : « عسكر المساكر » حتى كلفه مدينة ، انظر عن ذلك الكمال (١٨٩/٥ - ١٩٠) وتاريخ الطبري (٩ / ٩٤ - ٩٥) ونجد لعاصم بن ضبارة النطعماني المرى المقار إليه - وهو من أهل حوران - ترجمة في تاريخ دمشق لابن عساكر (٧ / ١٥٥ - ١٥٦)

(٦) انظر عن مقتل نباتة بن حنظلة ومن معه من أهل الشام على يد قحطبة تاريخ =

يحتجون بكلام الجاحظ :

هذا وللجاحظ كلمة كثيراً ما رأينا شدة التاريخ الإسلامي من عرب ومستعربين يحتجون بها في هذا الباب ، وهي قوله : « دولة ولد العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بنى مروان عربية أعرابية » (١) ، ومن رأينا أنها كلمة لاتصلح للاحتجاج فيما نحن فيه ؛ لأن صاحبها قالها في معرض المقارنة بين الدولتين من حيث استخدام الشعر والكلام العربي البليغ لحفظ الوقائع ، وتقييد المسأثر وتخليد المحاسن . ومن رأى الجاحظ أن العصر الأموي امتاز بهذا الضرب من الأدب البدوي العربي ، والعرب وهم أميون أحفظ وأوعى لما يسمعون ، وأكثر عناية بالإشاد وضرب الأمثال . ومن رأيه كذلك أن أنصار بنى العباس قصروا عن الأمويين في حفظ وقائعهم وتدابير ملوكهم وسياسات كبرائهم في أهل الشام وما جرى لهم في هذا السبيل من حرر الكلام وشريف المعاني في الدولة العباسية ، إلى أن قال : « كان فيما قال المنصور وما فعل في أيامه وما أسس لمن بعده ما يفي بجماعة ملوك بنى مروان » (٢) .

أولع الجاحظ بتكرار هذا المعنى في كتبه (٣) على وجه يؤكد لنا أنه لم يقصد بالكلمة المذكورة إلا الناحية الأدبية العربية دون السياسية ، وقد عقد في رسالته التي سماها (مناقب الأنراك) فصلاً قارن فيه بين العرب والعجم من حيث استخدام

٢ = الطبرى « ١٠٥/٩ - ١٠٦ » وهذه الواقعة بين قحطبة وابن ضبارة كسابقتها من الوقائع الحاسمة في هذا النزاع . ولا شك أن الكشف كان مبرراً جداً في خراسان والعراق بين عمال الأمويين وبين أنصار الدعوة العباسية في هذه المرحلة من مراحل النزاع ، أنظر الكامل لابن الأثير « ١٨٤/٥ » ويراجع عن أخبار قحطبة « ١٨٣ ، ١٨٨ - ١٩٢ » من المصدر المذكور ، وتاريخ الطبرى « ٩ / ١٠٤ ، ١١٤ ، ١١٦ - ١١٧ » وعن مكانة القحطبة في الدولة العباسية وحرمتهم ودالتهم على المنصور البيان والتبيين « ٢ / ١٥٦ » .

(١) و (٢) البيان والتبيين ، المطبعة العلمية « ٢ / ١٥٤ » .

(٣) البيان والتبيين « ١ / ٧٨ ، ١٤٥ ، ١٥٤ - ١٥٧ » و « ٢ / ١٦٩ ، ١٧١ » .

صناعة السلام لحفظ الوقائع وتسجيل المنال والمناقب ، فالشعر ديوان العرب ، وهم أميون لا يتكلمون على الكتب المدونة ، والخطوط المطرسة ، ولبعض هذه العمل صارت نفوسهم أكبر ، وهمهم أرفع ، وهم من جميع الأمم آخر ، ولا يأمهم أذكر ، (١)

وخلاصة القول : يريد الجاحظ أن بنى العباس اقتبسوا ما اقتبسوه من قواعد الدواوين ورسوم الدول الأعجمية البائدة ، فنقلوه إلى دار خلافتهم ، فأصبحت رسوم دواوينهم والقواعد المتبعة فيها شبيهة بتلك العادات والرسوم من بعض الوجوه ، فليس في قوله ما يشين دولة بنى العباس ، وكيف يفعل ذلك وهو أشهر كتاب العصر الأول من عصور الدولة ؟ عاصر المأمون والمعتصم والوائق والمتوكل أى أنه عاش في أزهى عصور العباسيين أثيراً عند خلفائهم وأعيان دولتهم ، ولهم ألف جملة من أحسن كتبه ورسائله ، ومنها كتابه الذى سماه د إمامة ولد العباس ، (٢) ، ويعد الجاحظ فيما يراه بعضهم من الغلاة في تعظيم العباسيين ، فقد زعم أن الطوائع الجارفة زالت عن بنى آدم ببركة بنى العباس ، ولم ير الناس من هذه الطوائع ما رأوه في دولة بنى أمية .

هذا ما عناه فريق من قدماء المؤرخين والكتاب بقولهم عن الدولة العباسية : إنها دولة فارسية ، وعن دولة بنى مروان . إنها دولة عربية أو أعرابية . وقد أسى فهم هذه الأقوال من قبل بعض المعنيين بالتاريخ شرقاً وغرباً ، وعلى هذا الوجه الذى بيناه آنفاً فهمت أقوال الجاحظ في عصره ، وعلى هذا الوجه ينبغي أن تفهم في كل العصور . ومن الخطأ الشنيع ، بل من الظلم الفاحش ، أن تفسر هذه الأقوال بأن الدولة العباسية دولة فارسية في روحها ونزعتها ، وأن دعوة أنصارها من الموالي والخراسانيين وغيرهم كانت موجهة إلى الكيد من الأمة العربية ، أو إلى بعث المجد الساساني البائد ، وأن النزاع بين الدولتين إنما هو

(١) مناقب الأتراك للجاحظ [١٢] وانظر أيضاً [٤٢ - ٤٣] من هذه الرسالة .

(٢) مروج الذهب [١٤٣ / ٢] .

نزاع بين الفرس والعرب ، وأن الموالي حاولوا في تأييدهم للدعوة الهاشمية استرداد مجدهم القديم ، وأن يكونوا أصحاب الكلمة العليا والسلطان في الدولة الجديدة ، إلى أمثال ذلك من أقوال واهية ومزاعم مردودة .

كان أقبال الفرس وأبناء خراسان على الدين الاسلامي منقطع النظير حتى استأصل تلك النعرات القديمة من نفوس الشعوب الإيرانية والطورانية ، وإن لم ينزع كل ما تأصل في الطباع ، أو جرى في الدماء ، أو امتزج بالأرواح بالمرة ، فلا يصح أن يقال اطلاقاً : إن الفرس حاولوا انتهاز الفرصة في العصر العباسي المذكور للرجوع إلى عوائدهم وأوابدهم القديمة ، وكل حكم يبنى على هذا الأساس ظاهر البطلان . وما أغناها عن إثارة الخواطر ، ونبش الدفائن ، بمثل هذه الأقوال جرياً على طريقة بعض المستعربين من الغربيين ! اننا لا ننكر أن تبقى في العصر العباسي المذكورة بقية من نحل فارسية ، أو عادات وثنية ، خصوصاً في بعض الأصقاع النائية من الشرق ، بيد أن ذلك لم يكن له أثر يعتد به في حياة الشعوب المذكورة .

والواقع أن الدعوة الهاشمية قديمة ، بدأت في عصر معاوية بن أبي سفيان بعد صلح الإمام الحسن ، ثم في عصر يزيد بن معاوية بعد مقتل الإمام الحسين . بدأ بها الهاشميون وأنصارهم في الحجاز واليمن والعراق ، ثم انتقلت إلى خراسان في تكتم شديد (١) م [يتبع]

(١) أنظر كتاب الامامة والسياسة [٢ / ١١٧ - ١١٨] .

بَيْتُ قُحْطَانٍ وَعَدْنَانٍ

لمحاضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

يطبق المؤرخون ، على أن الجزيرة العربية . كانت موطناً لقحطان ، التي كانت تنزل اليمن أصلاً ؛ ولعدنان ، التي كانت منازلها في الشمال ؛ ولم يكن الشعبان على حظ واحد من الحياة ، بل كانت اليمن ذات حضارة تعقد لها دائماً لواء الفخر على عدنان كلها ، وتبسط سلطانها السياسي - مع ذلك - على بعض قبائلها ؛ مما جعل الجزيرة مسرحاً لأحداث سياسية بين الجذمين ، أشعلت جذوة الأدب ، وأطلقت السنة الشعراء ، وتركت آثارها في الشعر ، إلى أوائل القرن الخامس الهجري ؛ وما تزال ماثلة فيه إلى اليوم .

وأبرز هذه الأحداث ، انفصال عدنان عن قحطان ، في القرن الخامس الميلادي على يد كليب بن ربيعة : لما ولي صاحب اليمن زهير بن جناب الكلابي على ربيعة ، فأرهمهم وسامهم الحُسف ؛ فدسوا عليه رجلاً فانسكا من بني تميم الله ؛ يسمى زِيَابَة ، طعنه وهونائهم ، طعنه ظنّها قاتلة ولكنها لم تصب منه مقتلاً ، فاحتال زهير حتى نجا ؛ ثم جمع لهم اليمن وهزمهم ؛ وأسّر كليب ومهلبل ، وآخرون من وجوه ربيعة ؛ وفي ذلك يقول زِيَابَة :

طعنة ما ، طعنت في غسق الليلى — ل ، زهيراً ، وقد توافى الخوصوم
حين يحمى له المواسم بـ كـ رُ — أين بكر ، وأين منها الحلوم ؟ (١)
خانتني السيف إذ طعنت زهيراً وهو سيف مضال مشثوم

بيد أن ربيعة تجمعت ، تحت راية ربيعة أبي كليب ، وحملت حملة استردت بها الأسرى ، ثم التقوا على صلح لم يلبث بعده زهير أن عاد إلى ظلمهم . ولما خلف كليب أباه على ربيعة بعد موته ، جمع معداً كلها تحت لوائه : ربيعة ، وقضاعة ، ومضرة ، وإياد ، ونزار ؛ وحارب اليمن في موقعة عرفت بيوم خزاز ، أو : خُزَازي ، وهو جبل بين مكة والبصرة ؛ وهي التي يقول فيها عمرو بن كلثوم :

ونحن غداة أوقد في خزازي رفدنا فوق رفد الرافدين
وكنا اليمينين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أئينا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالهbab وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفديا

وفيها انتصفت عدنان من قحطان ، واستقلوا عنهم ؛ ونشأ من ذلك أن طغى كليب فقتله جساس ، وانبعثت الحرب بين بكر وتغلب ، وكانت مبعثاً لفيض من الشعر الربعيّ : فقصدت القصائد ، ونشطت المناقضات ، والمرائي ؛ وكان المجليّ في الميدانين المهلهل ؛ ففضى - لذلك - بأنه أول من هلهل الشعر .

وانفصلت كذلك أسد وغطفان عن كندة ، وكندة بطن من كهلان ، وكانوا يلون المناصب لليمن ، فملكوا أحدهم ، وهو حجر الجدة الثاني لامرئ القيس على أسد وغطفان وبعض قبائل ربيعة في نجد ؛ ولما ضعف شأن اليمن ، انحاز الحرث الكندي إلى كسرى ، فأقر ولايته عليهم ؛ ثم قتل الحرث ، فقبولى حجر أبو امرئ القيس ، وكان عبيد بن الأبرص الاسدي نديماً لحجر ، وهو الذي يقول له : غبّ ثورة من أسد عليه كان نصيبها الفشل :

ومنعهم نجدا فقد حلوا - على وجل - تهامة
برمت بنو أسد كما برمت يبيضتها الحمامة
مهما تركت ، تركت عفا وا ، أوقنتك ، فلا ملامة
ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الحزامه
أنت المليك عليهم وهمو العبيد إلى القيامة

ولكنهم لم يبقوا عبيداً إلى القيامة - كما زعم عبيد - بل انتقضوا مرة أخرى وقتلوا ربهم، وشردوا امرأ القيس وعلوه البكاء؛ وتغير بإزائه موقف عبيد.

وانتصرت تميم على النين، في يوم الكُلاب الثاني، ومدح شعراء النين تيمناً، وأشادوا بشجاعتهما، وأسر عبدُ يغوث قائد النين، ورتى نفسه قبل أن يموت بقصيدته المشهورة :

ألا ، لا تلوماني ، كفى اللوم مايا فإلما في اللوم خير ولا ليا
وتضحك مني شيخخة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيا

* * *

وشهد الإسلام لبان مشرقه، فصلا من فصول الصراع، بين يمن وعدنان، يمثل الأولى آبننا قبيلة: أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويمثل الأخرى قريش؛ تقارعت فيه السيوف، بيدرو واحد وغيرهما، وتقارعت الألسن، بين شعراء الرسول من الأنصار: سادتنا حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب ابن مالك؛ وشعراء قريش: عبد الله بن الزبيري، وأبي سفيان بن الحرث، وعمرو بن العاص. على أن ذلك كان يستره حجاب من الجهاد في سبيل الدين، ينأى به عن الشهوات الجاهلية، والعصبيات القبلية؛ حتى إذا لحق الرسول بالرفيق الأعلى، تحرك رأس الأفعى يوم السقيفة، فسمع المسلمون من يصيح: نحن الخلفاء لأننا آوينا ونصرنا؛ أو: منا أمير ومنكم أمير. ومن يقول: إن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش؛ ولكن: نحن الأمراء وأنتم الوزراء.

فإذا انتقلنا إلى د الشورى، سمعنا مروان بن الحكم يقول لعبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه: إنك إن تول عثمان لا يختلف عليك قرشى؛ فيقول عمار بن ياسر: إنك إن تول علياً لا يختلف عليك مسلم.

حتى إذا بلغت صفين، رأيت أبا تراب - كرم الله وجهه ورضى عنه - يقول:

ناديت همدانَ والابواب مغلقة ومثل همدانَ ثنى فتحة الباب (١)

(١) ثنى فتحة الباب: جعلها فتحتين اثنتين.

كالهُنْدُ وَاِنِ لَمْ تُقْتَلْ مُضَارِبُهُ وَجْهَ جَمِيلٍ ، وَقَلْبَ غَيْرِ وَجَّابِ

* * *

وَلَوْ كُنْتُ بَوَابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ لَقُلْتُ لَهْمَدَانَ : ادْخُلِي بِسَلَامٍ
وَهْمَدَانَ قَبِيلَةَ يَمْنِيَّةٍ .

وكان إبراهيم بن الأشتر النخعي أشجع قواده وأخلصهم ، ومن قواده الأشعث
الكندي ، وهو الذي أكرمه على قبول التحكيم ، وشغب على ابنه الحسن رضى
الله عنهما ، لما ملح ميله إلى صلح معاوية ، وألب عليه الجيش حتى وطىء بساطه ،
وانتهب فسطاطه .

والأشتر والأشعث من يمن .

وهجاء الأخطل للأنصار ، واحتجاج النعمان بن بشير على معاوية بقصيدته
التي مطلعها :

مَعَاوِي إِنْ لَا تَعْطِنَا الْحَقَّ تَعْتَرِفْ . لَحَى الْأَزْدَ مَشْدُودًا عَلَيْهَا الْعَامِمُ
أَيْشْتَمْنَا عَبْدَ الْأَرَاقِمِ ؟ ضَلَّةٌ وَمَاذَا الَّذِي تَغْنِيهِ عَكَ الْأَرَاقِمِ
مِنَ الْمُتَعَالَمِ الْمَشْهُورِ .

ويتهاجى عبد الرحمن بن الحكم ، وعبد الرحمن بن حسان ، ويستشرى بينهما
الشر ، ويطول الصيال ؛ ويقول عبد الرحمن بن الحكم :

أَزْجَرَ كَلَابِكَ ، إِنَّهَا قَلَّطِيَّةٌ بُقْعٌ ، وَمِثْلُ كَلَابِكُمْ لَمْ تَصْطَدْ
فِي جَبِيهِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَانَ :

مَنْ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ فَرِيصَةِ صَيْدِهِ فَالْتَمِزْ يَغْنِينَا عَنْ الْمُتَصَيِّدِ
لِمَا أَمَّاسَ رِيَّافُونَ ، وَأَمَّكُمْ كَلَابِكُمْ ، فِي الْوَلُغِ وَالْمُتَرَدِّدِ
حَزَنَانَكُمْ لِلضَّبِّ تَحْتَرِشُونَهُ وَالرِّيفِ يَمْنَعُكُمْ بِكُلِّ مُهْنَدٍ

فترى في شعر ابن حسان ، صورة لما كان يفخر به قحطان على عدنان

في الجاهلية ، من أن الأولين أهل حضارة واستقرار ، وأن الآخرين رعاة رحّل
لا وطن لهم ولا قرار ! (١)

« يقول النويري في نهاية الأرب : « ومن الكبر المستهجن ما روى : أن
وائل بن حجر ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقطعته أرضاً ، وقال لمعاوية :
« اعرض هذه الأرض عليه ، واكتبها له ، فخرج مع وائل في هاجرة شامية ؛
ومشى خلف ناقته ، وقال له : اردفني على عجز راحلتك ؛ فقال : لست من أرداف
الملوك ؛ قال : فأعطني نعليك ؛ فقال : ما يُحِلُّ يمنعني ، يا ابن أبي سفيان ، ولكن
أكره أن يبلغ أقبال اليمين أنك لبست نعلي . ولكن ، لا مِسَّ في ظل ناقتي ، فحسبك
به شرفاً . » وقيل : لأن وائلاً أدرك زمن معاوية ، ودخل عليه ، فأقعدته معه على
السرير وحده ، ا هـ .

وهجا الكميث بن زيد اليميني بمذهبه :

الاحييت عينا يا مدينا ، فقضها دعبل بن علي الخزاعي بقصيدة هجا بها نزاراً :
نقضها أبو سعد الخزومي بقصيدة هجا بها اليميني .

واعترك الإسلام في موقعة مرج راحط فكانت اليمين تحت راية مروان ،
وقيس تحت راية الضحاك بن قيس .

وانتقل الصراع بين الجذمين إلى الأندلس ؛ فكان حيناً ، ثم تراخت أيدي
أمية في الشرق عن ضبط السلطان في أطراف الخلافة ، فصرح الشر بينهما ،
وتخاطبوا بالسن الاسنة والقواضب ؛ ثم توادعوا على توزّع الإمارة بينهما ،
لمضرنة ، ولليمن سنة ؛ ومضوا على ذلك مدة ؛ ثم خاست مضر بالعهد ، وغدرت
باليمين بيانا ؛ فبقى هؤلاء مغلوبين على أمرهم ، إلى أن حازهم عبد الرحمن الداخل

« ١ » القلطي : انقصير جداً من الناس والسنانير والكلاب . والبقع : تخالف اللون ،
يريد أنها غير أصيلة ، أو خبيثة . والريف الحصب والسعة في المسآكل ، وما قارب المساء
من أرض العرب . وريقون ، لعله أراد : أشراف ؛ فأق ريق كل شيء أفضله ، من رافقي
الشيء يروقي : أعجبي .

سنة ١٣٨ هـ ؛ فذله حزمه على أن ينضم لأضعف المعسكرين : اليمن ؛ وينازل بهم مضرت تحت راية يوسف بن عبد الرحمن الفهري ؛ ولما التقى الجيشان ، كان مما قال الداخل ، يشجع جيشه : المتزاحقان ، أموى ، وفهري ؛ والجندان : قيس ، ويمن ؛ قد تقابل الاشكال جدأ ؛ وأرجو أنه أخو يوم مرج راهط ؛ فأبشروا وجحدوا .

وقد تم النصر للداخل بعد كفاح مرير ؛ واستقرت ولاية أمية في الغرب ، بعد انهيارها في الشرق ؛ فاخفتت العصبيات تحت سلطانهم ؛ حتى أواخر القرن الرابع الهجرى ؛ عند ما تولى السلطة عبد الملك بن محمد بن أبي عامر ، بطريق الوصاية على هشام المؤيد بن الحكم المستنصر ؛ ولم يكن عبد الملك هذا من الحزم وبعد النظر ، على ما كان عليه أخوه وأبوه قبله ، من الاكتفاء بالسلطة الفعلية ، باسم الحاجب ؛ لجعل لنفسه ولاية عهد هشام ؛ ولما كان الحاجب المنصور محمد ابن أبي عامر ، قحطانيا ؛ فقد استمد الأمويون من ضعفهم وتفرقهم يومئذ ، قوة ، وثأروا بعبد الملك فقتلوه ، حتى لا تنتقل الخلافة من عدنان إلى قحطان ، لأول مرة في التاريخ ؛ وبذلك عاد الأمر إلى أمية ، وتولى الخلافة المستعين سليمان ؛ وانتهت بذلك أيضاً ، أبرز الانتفاضات بين يمن وعدنان .

وعلى الرغم ، من أن رجال البحث الحديث ، قد شككوا في الدلالات التاريخية ، للحوادث ، والأنساب ، والشعر الجاهلى ؛ في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام ؛ ونصبوا على ذلك دلائل ، منها القاطع ، ومنها المعقول الأشبه بالصواب ؛ ومنها الخصائص الفنية التي لا تشبهه ، إلى غير ذلك ، مما يعد رفضه مكابرة أو حسداً لمن وجهه الله سبحانه وتعالى أذهانهم إلى إثباته والسبق إليه .

أقول : إنه على الرغم من هذا التشكيك ، الذي لا يدفع ؛ تبرز حقيقة واضحة ماثلة ؛ وهي أن المسلمين : سادتهم وقادتهم ، علماءهم وأدباءهم في صدر الإسلام ، وفيما تلاه من عصوره ؛ إلى يومنا هذا قد درجوا على احترام هذا التاريخ في جملته

واتخاذها إماماً مرجحاً وهادياً في الحوادث ، والأنساب ؛ وسنداً قاطعاً في اللغة والادب ؛ احتراماً لا سبيل إلى دفعه ، ولا إلى الشك فيه .

يروى المفسرون ، كالزحشرى ، والبيضاوى : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قرأ على المنبر مرة ، قوله تعالى : « أدامن الذين مكروا السيئات إلى قوله : أو يأخذهم على تخوف ؛ ثم قال للصحابة : ما تقولون فيها ؟ أى فى معنى هذه الآية ، وغرضه السؤال عن معنى التخوف ؛ فسكتوا ؛ فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا : التخوف : التنقص . فقال عمر : وهل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ فقال : نعم ؛ قال شاعرنا أبو كبير ، يصف ناقته .

تخوف الرجل منها تامكاً قرداً كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر : عليكم بديوانكم ، لا تضلوا ؛ قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ، ومعانى كلامكم « ١ »

ومعنى البيت : أثر الرجل فى سنام الناقة ، فأكله وتنقصه كما يتنقص السفن أى المبرد أو القدوم عود النبعة الذى يعمل منه القوس .

فالامر الذى لاشك فيه ، أن الادب الجاهلى ، وبخاصة الشعر ، حجة فى اللغة ، وحجة فى أسلوب اللغة ، فى نظر الإسلام ؛ فحطائياً كان ذلك الشعر أو عدنائياً ؛

« ١ » انظر البيضاوى فى تفسير سورة النحل .

والذى فى اللسان ج ١٧ ص ٧٢ : « السفن والسفن والشفر أيضاً : فدموم تقشر به الأجذاع ؛ وقال ذو الرمة يصف ناقة أنصاها السير :

تخوف الرجل منها تامكاً قرداً كما تخوف عود النبعة السفن

يعنى : تنقص . والسفن : ما ينحت به انشىء ... الخ .

وتلك السنام يتمك ، تمـوكا وتمـكا : اكثرت وتر ، أو طال وارتنع ، وناقة تامك : عظيمة السنام . وقرد الشعر والصوف « بالكسر » يقرد قرداً ، بالفتح فيهما فهو قرد : تجعد . اهـ أقول : والاستمهاد صحيح قائم ، سواء أكان القائل أبا ذؤيب أم ذا الرمة .

صحت دلالته التاريخية على الأحداث والأنساب وما يتصل بها ، أم لم تصح ؛ ومن حق الباحثين أن يتكلموا على التاريخ وعلى الأنساب ، على مبلغ ما تهديم لإليه دراساتهم وبحوثهم ودلائلهم ، وأن ينقدوا الأدب الجاهلي نثره وشعره ؛ على مناهجهم الخاصة أو العامة ، ما شاءوا ؛ والمثقفين على اختلاف مدارسهم ، أن يفيدوا من كل نقد ، ومن كل بحث ، ما يكشف عن فكرة سديدة أو رأى جديد .

على أن يدعوا للدراسات الإسلامية العربية منجها في النقد ، لارتباطه بأصول الإسلام ، وفروعه ارتباطاً لا يقبل الانفصال بحال .

* * *

ولقد نشطت حركة النقد الأدبي في هذه الأيام نشاطاً بارزاً ؛ واستفاضت فيه البحوث ، واتسع مجال النشر في المؤلفات والمجلات والصحف اليومية ؛ وأخذ اتجاهه في الأعم الأغلب على ضوء من الثقافات الغربية ، وآدابها وأدبائها ، وبأقلام جديدة ثائرة في أغلب الأحيان ، وهي حركة نلفاها - نحن المحافظين - كما تعودنا أن نلقى كل علم وفن : بصدر رحب ، وتعطش إلى المعرفة ، وشوق إلى الاستفادة .

بيد أن كل أولئك ، لا يلهينا عن أدبنا الخالد ما خلد القرآن الكريم ، والذي بلغ غاية فضجه على يد الباحثين من رجاله قديماً وحديثاً :

ولكن تأخذ الأبواب منه على قدر القرائح والفهوم

ولا نرضى أن ندفع من التسكر له ، أو الانحراف عن سنته ومنهجه ، ثمناً لما نغتمه من مذاهب النقد الحديث ، فنسكت على هضمته ، أو ننام معه على ضمير .

الإسلام وفكرة الزهد

لمنيرة صابغ النضيلة الأستاذ الشيخ محمد مواد مغنبة

رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

تعرضت كتب التاريخ والتراجم لسيرة الملوك والأمراء ، وقادة الجيش ، ولم تعرض بالذات لحياة الفقراء السكادحين ، ومع ذلك فباستنارة الباحث أن يتعرف على حياة الجماهير من خلال دراسته لحياة القادة والحكام ، لأن حياة هؤلاء وتاريخهم يرتبط ارتباطاً تاماً بالحياة الاجتماعية ، وتاريخ المجتمع على أن المؤرخين وأصحاب السير قد ترجوا لعدد كبير من الشعراء ورجال الدين وعلماء اللغة الذين عانوا آلام البؤس والشقاء ، ترجوا لهم لأنهم من أهل الدكاء والمعرفة ، لا لأنهم من ذوى الفقر والفاقة ، فمن هؤلاء :

عبد الوهاب بن علي المالكي كان بقية ذوى الفضل ، وقد ضاق به العيش في بغداد فهجرا ، ولدى خروجه شيعه خلق كثير من سائر الطوائف ، فقال لهم : لو وجدت بين ظهرائكم رغيفين في كل غداة ما عدلت بيلدكم بلوغ أمنية . ومنهم الأخفش الصغير على بن سليمان النحوي عاش أياماً على الفت النبي حتى انتهت به الحال إلى أن مات جوعاً ، ومنهم الخليل بن أحمد النحوي العروضي الشهير كان يقيم في خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين ، والخص خيمة من القصب ، ومنهم أبو الطيب الطبري طاهر بن عبد الله كان شيخ الشافعية في عصره وبلغ من العمر مئة وستين سنة صحيح العقل والفهم والأعضاء ، يفتي ويقضى ويدرس ، كان له ولاخيه عمامة وقبص ، إذا لبسها هذا جلس الآخر في البيت وإذا أرادوا غسلها جلسا فيه معاً ، وفي ذلك قال الشاعر :

قوم إذا غسلوا ثياب جملهم لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل

ومنهم السيرافي النحوي الحسن بن عبد الله كان ينسج ويأكل من كسب يده ،
ومنهم الشيخ أبو حامد الاسفرايني ، قيل في سيرته : إنه إمام المذهب على الإطلاق
وشيخ الإسلام والمسلمين قاطبة ، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة متفقه ، كان هذا
الشيخ يشغل حارساً في الليل لبيوت الناس ، ويقراً ويطلع على ضوء فانوس
الحرس ، ومنهم الزبيدي محمد بن يحيى تزيد مصنفاته على مئة تصنيف في شتى العلوم
والفنون ، وقد بلغ به الفقر والجوع أنه كان يضع نواة في حلقه يلوكها ليتعمل بها .
ومنهم عبد القادر السهروردي كان يبقى اليوم واليومين لا يذوق الزاد ، وكان
ينقل الماء بالقرية بأجر زهيد . وكان الشهيد الثاني زين الدين العاملي على علمه
ومكانته ينقل الخطب على ظهره إلى أهله لعجزه عن أجرة الخادم ، وباع الشيخ
عبد المحسن الصوري عمامته ليشتري بثمنها قوت يومه ، ويكفي هذا العدد اليسير
مثالا لحياة قادة الفكر وأئمة الدين واللغة البائسين ، وتمهيداً لبيان فكرة
الزهد وأسبابها .

عاش الخليل في شخص من القصب لا يملك فلسين ، واشتغل شيخ الإسلام
والمسلمين حارساً ، ومات الاخفش من الجوع ، عاش هؤلاء وأمثالهم في الحرمان
وهم يرون إلى الأموال تجي من العامل والفلاح وغيرهما في شرق الأرض وغربها
ليبذرها الخونة والمقامرون على الحرام والفسوق ، ويمتلكون بها الدور الشاهقة
والضياع الواسعة ، وكان من نتيجة هذا الوضع الشاذ أن تراكم السخط والاستياء
في نفوس الشيوخ المحرومين من الذين قدمنا ذكرهم ، والذين لم نأت لهم على ذكر
وعوضاً عن أن يحملهم هذا الاستياء على النضال وجهاد القائمين على الظلم ، فقد
انقلب في نفوس الكثير إلى يأس من الإصلاح وتبدل الحال ، وتولد من هذا
اليأس فكرة الزهد في الحياة الدنيا ، والنهوين من شأنها ، وكان لهذه الفكرة
خطورتها وتأثيرها في الحياة الاجتماعية بين المسلمين ، فكتب علماءهم في الزهد
وأطالوا ، ودعوا إليه في المساجد والمحافل ، وألبسوه ثوب الدين والقداسة ،

والزهد بمعنى الإعراض عن طيبات الحياة ليس له مصدر في الكتاب الكريم ، ولا في السنة النبوية ، وإنما انعكس في أذهان البائسين من فقرهم وفاقهم ، أن أفكار الإنسان ورغباته لا تأتيه عفواً ، ولا تهبط عليه من السماء ، وإنما تتولد من واقع حياته ، والظروف التي تحيط به .

ولولا وجود الفقراء المعذبين في الأرض ، لولا الطمع وظلم الإنسان للإنسان ، لو طبق مبدأ التعاون الأخوي ، والمساواة دون اعتبار لطبقة أو فرد ، لما عرّف الناس معنى الزهد ، ولما كان للفظه في قواميس اللغة عين ولا أثر ، ويمكن للدلالة على هذه الحقيقة زهد الإمام على عليه السلام ، وأبي ذر ، وغيرهما من أنصار الحق ، ودعاة العدالة ، قال الإمام : هيات أن يغلبني هواي ، وبقرودني جشعي إلى تخير الأطعمة ، ولعل في الحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ، ولا عهد له في الشبع ، وقال أبو ذر : عندما خصه عثمان بمبلغ من المال لا أقبل عطاء لا يعم كل معوز .

أعرض الهداة المتقون من الزهاد من متاع الحياة وطيباتها لا رغبة عنها ، بل احتجاجاً على من استأثر بها ، واحتكرها لنفسه دون سواه . أرادوا أن تكون الحياة وخيراتها للجميع ، أرادوا اجتماعية عامة لا فردية خاصة ، أرادوا القضاء على الفوارق والامتيازات ليعيش الجميع في أمن وسلام ، فلا تكالب ولا تطاحن على أرزاق الشعوب ، ولا حقد ولا حسد على الرغيف .

زهد الإمام في لذائذ العيش ، وهو الحاكم المطلق ليفهم الأجيال أنه ليس لمن يتولى أمور الناس أن يشبع وفيهم جائع واحد . إن الإعراض عن متاع الحياة مواساة لمن حرم منها ، كما فعل الإمام إن دل على شيء فإنما يدل على قيمة الحياة وأهميتها لا على احتقارها وازدراءها ، وقد ثبت في الحديث الشريف أن حرمة الأموال كحرمة الدماء ، فالاعتداء على قوت إنسان اعتداء على دمه وحياته ، فكيف بالفاصلين المحتكرين أقوات الشعب وموارد ثرواتهم .

أما الآيات والروايات التي استدلت بها بعض الزهاد ، فلا تدل على الترغيب

في التششف والإعراض عن اللذائذ ، وإنما تدل على وحب الزهد في المحرمات ، والكف عن السلب والنهب ، والخيانة والكذب ، على أن يضحي الإنسان بنفسه والمال في سبيل الحق ، ولا يؤثر الخبيث على الطيب . قال الله سبحانه وتعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ، لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . »

المُحَرَّم هو اعتداء الإنسان على حق أخيه ، وتهاونه بنصيبه من هذا الحق . وقد جاء في الحديث الشريف (ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه - المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) .

ولا ريب أن الإنسان يقوى بالمادة ، وما تقدمت الإنسانية إلا بعد أن كشف العلم عن حقيقتها ، وسلك بها سبيل الخير والعمار ، لاسبيل الشر والدمار . وبعد فإن الإسلام دين القوة والعمل ، لا دين الرهبانية والسكسل .

قال شيخنا

لحضرة الطائفة الفاضلة الأستاذ أحمد محمد بري

قال شيخنا :

تقول ألا تهجو فوارس هاشم ومالي وإهداء الحنا ثم مالي
أبي الهجو أنى قد أصابوا كريمتى وأن ليس لإهداء الحنا من شمالي
إذا ما امرؤ أهدى لميت تحية خياك رب الناس غنى معاويا
لنعم الفتى أدى ابن صرمة بزه إذا راح لخل الشول أحذب عاريا
وطيب نفسى أتى لم أقل له كذبت ولم أبخل عليه بماليا

يروح الفحل أحذب عارياً إذا جف المرعى ، فلم يجد ما يحفظ عليه سنامه
وسائر لحمه وشحمه ... إنه لهزيل ، فهى سنة جدباء ، ومع هذا كان المقول فى رثائه
هذا الشعر جواداً منيعاً ، فما بالك به إذا كان العام رخاء ؟ وابن صرمة هو
الذى أدى سلاح الفارس القتيلى إلى ذويه ، والشعر لصخر يقول له حين رُغِبَ إليه
فى أن يهجو قاتلى أخيه د فوارس هاشم ، فلم يرض مبيتاً أن المقام أعظم من أن
يتقارض فيه السباب ، فذلك شئ ياباه - أن القوم أصابوا أعز الناس لديه
وآثرهم عنده ، وهو من عبر عنه د بكرىمتى ، فلا تحسبها تاء تأنيث ، وإنما كل
أثير لديك فهو كريمك . ويأباه أيضاً أن إهداء الهجاء ليس من خصاله .

قلت : أفهو أخو الحنساء الذى قالت فيه :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

قال علم فى رأسه نار ، فليس هو الذى تعرفه بأخته أو بعِرسه .

قلت : عرسه ، سليمى ، التى قال فيها وفى أمه :

أرى أم صخر لا تمل عيادتى وملك سليمى مضجعى ومكانى

وما كنت أخشى أن أكون جنازة عليك ومن يغتر بالحدثان

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العبر والنزوان

ذلك بأن علته من طعنة أصابته فى جنبه طالت ، فكانت أمه إذا سئلت عن حاله قالت « بخير » ، فأما سليمى فكانت تقول : لا هو حى فيرجى ، ولا ميت فينمى . ويرعمون أنه رآها تغازل قريباً لها أو يغازلها ، فقال لها هذا القريب : متى يستباح هذا ؟ مشيراً إلى كفها ؛ وقد كان يريد أن يبنى بها ، فتقول : عما قريب . حينئذ أراد العليل أن يقتلها فقال : إلى بسيفى ، فلما أتى به أراد أن يستله من غمده فعجز . وماذا يجديه أن يهم بأمر الحزم ما دام غير مستطيع .

قلت : لله ما أشقها حياة تلك التى كان القوم يحيونها . فهم قتل ومنتظر أن يقضى نحبها ، ولا ثالث إلا أن يكون من سقط المتاع . لا فى العير ولا فى الفير ، أو من الطبقة الثالثة على حد تعبير الفرنجة .

قال : أو كما قال دريد ابن الصمة :

يَنفَارُ عَلَيْنَا وَأَتْرِبْنَ فَيُشْتَقَى بنا إن أصبنا أو نُخْيرَ على وتر

بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة فما ينقضى إلا ونحن على شطر

يقتلون عدوهم أو يقتلهم وتلك غاية عيشهم .

قلت : عيش الجاهلية الأولى التى أراح الله الدنيا منها برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال : بل عيش السادة السكرام ، ولا واقه ما أنكره الإسلام ، بل أبقاء فيما أبقي من حسنات الجاهليين .

قلت : فإنى لأعلم أن الإسلام يريد الناس على أن يقاتلوا أبداً فيقتلوا ويقتلوا .

قال : فأما أنا فوقن بأن الإسلام أراد المسلمين على أن يقاتلوا فيقتلوا ويقتلوا ، أو يغبروا أو يغار عليهم .

قلت : أى أنه يطبق حكم دريد بن الصمة .

قال : ولم لا ؟ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيُقتلون ويُقتَلون ، وإنما الفرق بين الحالين أن القوم في جاهليتهم كانوا يقاتلون في سبيل الشيطان ، على خلاف المسلمين الذين يقاتلون في سبيل الرحمن .

قلت : العجيب أن قاعدة القتال هذه قاعدة آدمية شاملة ، فكذلك كانت الفرنجة أيام فروسيتهما ، كان القتال شأن السادة . وكان على العبيد كل شيء إلا القتال فهم مغفون منه ، وقد يقتل السيد فلا يصيب العبد أكثر من أن يستبدل بسيدده القليل سيداً آخر هو القاتل .

قال : فتعلم أن دلالة فساد النوع هي أن ينحرف السيد عن سبيله هذه التي سلكه فيها الطبع قبل أن يقره عليها الوضع .

قلت : أفودى هذا أنا أصبنا بما يسمونه « فساد النوع » وأنه لا دليل على البره من هذا الداء إلا أن نعود سيرتنا الأولى مقاتلين في سبيل الله ؟ أهى إذن دعوة إلى الجهاد والاستشهاد ؟

قال : لا تفتري على شيخك ، فإكنت داعية جهاد . وإنما أقول : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ولست أشك في أن لكل زمان « ضرباً » من المصلحة ونوعاً من العبادة ، كما يقول أبو عثمان : بيد أنى أعمل مع العاملين على نشر دعوة أخرى محلها وحدة المسلمين التي تبذرت ، ولله ما أصدق القاتل الذي رآها تتبدد .

ما كان أغنى رجلاً ضل سعيه هو عن الجدال وأغناهم عن الخطب

كنا أناساً على دين ففرقنا فرع الكلام وخلط الجدل بالعب

أنحس هذه اللوعة : لوعة رجل يدرك مدى أفاعيل « فرع الكلام » ، وأصحاب

الخطب وفرسان الجدل من شغلهم هذا الفرع أو شغلوا أنفسهم والناس بالفروع فغنسوا الأصول وأنسوها ؟ .

قلت : يقول : « كئنا أناساً على دين ، أفيعنى أنهم لم يصبحوا على دين ؟ » .

قال : أزعم أنا أن الوحدة هي أصل هذه الشريعة المحمدية ، فأين أنت منها إذا عملت على أن تبعثها شيعاً وأحزاباً ؟ إنه لمن حقك - إذا شئت - أن تحتج « بمفهوم المخالفة » ، في قوله : « كئنا على دين » ، وإنى لادعو شيوخ الإسلام إلى أن يعطوا هذه المسألة ما هي حقيقة به من جد التفكير ، وما يترتب عليه من صدق التقدير وسلامة التدبير .

قلت : أولاً يتدبرون القرآن ؟ .

قال : من تدبر القرآن لم يمسه « فرع الكلام » ، ولم يله تحبير الخطب عن جليل الخطب النازل جراء جدل ما كان أغنانا عنه لولا الاستجابة إلى نزغ الشياطين .

قلت : إنه لمن اليسير أن تسمعوا الخاصة وهي لا شك باذلة قصارى جهدها في جمع الشتات وتدارك ما فات . ولكن البلية في أن العامة ليست لها أذن واعية إن المقدمات لمؤديات إلى نتائجها ضرورة ، وليس في وسع عاقل أن يجادل ذلك إذا أنت بينت له أن الفروع ما كانت لتطغى على الأصول . وأن من شأن المسلمين أن يذهبوا مذاهب شتى في تلك على وحدة المذهب في هذه .

قال : رويدك بعض الثثرة . فإن عامة المسلمين براء مما تحاول أن ترميها به . وإن لها لغريزة واعية أوعى من عقول أصحاب المقدمات والنتائج . لقد ينسى الرجل الألى أنه شافى أو ما لىكى ، ولكنه لا ينسى أبداً الوحدة الإسلامية . لو قلت : لو أن للخاصة أذناً واعية لما عدوت الحقيقة الواقعة .

قلت : فإنى أرى الخاصة قد استجابت إلى دعوة التقريب ، ففى نرى العامة تدخل فيها أفواجا ؟ .

قال : وهل خرجت منها حتى تريدها على أن تدخل فيها ؟ لقد عمل أهل القطيعة داخل البلاد الإسلامية وخارجها على أن تصبح « الطائفة » ، أو « المذهبية » ،

أديانا مختلفة ، فلا يذكر الرجل إلا أنه حنفي أو حنبلي أو إمامي أو زيدي ،
خبطت أعمال هؤلاء العاملين المفسدين ، عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ،
وسلمت عامة المسلمين ، فلم يلتو بها قصد . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر
ولو شاء لهداكم أجمعين .

قلت : لو شاء لهدانا أجمعين . فما الحكمة في أنه - جل جلاله - هدى بعضنا
وأضل آخرين ؟

قال : الحكمة هي أنه - عكس حكمته - حق القول منه لبلأن جهنم من الجنة
والناس أجمعين . وليس شيخك ممن يقفون ما ليس لهم به علم . ولقد أمرنا مالك
الملك أن تتفكر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء . أفليس في
علوم الحياة ، وقد كلفتها ، ما يصرفك عن قضايا جدلية لا تجدنا إلا أن نلقى
بأيدينا إلى التهلكة ؟

قلت : فعاذ الله أن نلقى بأيدينا إلى التهلكة ، وما قصدت إلى أكثر مما يقصد
إليه أصحاب الكلام حين يتناولون مسائل القضاء والقدر والاختيار والاضطرار
ومرد التبعة والجزاء .

قال : فخير أن تقصد إلى مقصود أصحاب الفعال ، وكفانا ما لقينا من أصحاب
الكلام والمقال .

قلت : لقد يجرنا المقال إلى حديثنا الماضي عن إلياسين والابيين والآخرين .

قال : ويل للشجي من الخئي ، فلو أنك كنت في غمرة الحى التى تعالج شيخك
أو يعالجها لكان لك شغل عن الابيين والآخرين والنحو والنحوين ؟

الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية

لمحاضرة الطائيف الفاضل الدكتور محمد البهري
أستاذ الفلسفة في كلية اللغة العربية

١ - الإسلام في المؤتمر الثقافي الإسلامي بجامعة
برينستون (الذي انعقد في شهر سبتمبر سنة ١٩٥٣):

لا أود أن أنقل هنا صورة كاملة عما دار بين المؤتمرين في المؤتمر الثقافي الإسلامي الذي انعقد في شهر سبتمبر سنة ١٩٥٣ في جامعة برينستون ثم في مكتبة الكونجرس الأمريكي بواشنطن . لا أود ذلك لأن ما دار فيه يمثل في واقع الأمر اختلاف المسلمين اليوم في الشرق في تقدير الإسلام ومدى الاستفادة منه ، ولكن على أرض أمريكية : فالاختلاف الرئيسي في وجهات النظر إلى الإسلام كان بين المسلمين أنفسهم هناك ، وليس بينهم وبين العلماء الأمريكيين ، أو بينهم وبين العلماء الأوروبيين ، وخاصة الإنجليز الذين حضروا إلى المؤتمر وساهموا فيه مع غيرهم من المستشرقين الأمريكيين .

والاختلاف هنا في مصرفي فهم الإسلام وفي تحديد دائرته في الحياة الإنسانية ، وكذا الاختلاف في ذلك الذي نسمع عنه في إيران أو الباكستان أو إندونيسيا ، هو بعينه الذي كوّن من المؤتمرين المسلمين في جامعة برينستون جهات متقابلة :

فالبعض كان يرى أن الإسلام دين يحدد علاقة الفرد بربه فقط ، ولا شأن له

بالجماعة الإنسانية في جوانبها المختلفة ، أو هو يجب أن يقصر على ذلك حتى لا يتخلف ركب المسلمين في الحضارة الصناعية والمدنية الحديثة عن غيرهم ، والبعض الآخر كان يحتفظ بالرأى الذى يقدر الإسلام على أنه جملة من التعاليم والمبادئ جاءت بها رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لمعالجة جوانب الحياة الإنسانية المختلفة : فهى كما تناول الفرد فى سلوكه نحو نفسه وفى عبادته لخالفه تتناوله فى سلوكه مع غيره فى أسرته ، أو جماعته ، وأمه . وكما تناولته كقائد وراع تناولته كتابع ومرعى ، وفى السلم والحرب ، وفى علاقته بأخيه المسلم أو بشريكه فى الوطن أو العالم كله .

ولهذا أرجع هذا البعض تخلف المسلمين فى الآونة الحاضرة أو قبل ذلك فى القرن التاسع عشر على الاختصاص إلى الاستعمار الغربى وليس إلى مبدأ أو مبادئ فى الإسلام ، وأرجعه كذلك إلى تنسكب المسلمين عن طريق الإسلام ، لا إلى تمسكهم به .

ولكن أود أن أنقل إليكم خاتمة المطاف فى الجدل بين المؤتمرين فى هذا المؤتمر فيما يتعلق بقيمة الثقافة الإسلامية فى حياة المسلمين وفى صلاتهم بغيرهم : المؤتمر وصل إلى النتيجة التالية : وهى أن الغالبية من العلماء فى المؤتمر ترى أن الثقافة الإسلامية الأصلية لها قيمتها الفعلية فى توجيه المسلمين وربط صلاتهم بغيرهم ، وأنها ثقافة إيجابية بنائية لمجتمع إنسانى فاضل حديث ، وأنها فقط يجب أن تعرض فى صورة توافق العقلية المعاصرة حتى تكون الإفادة منها فى نطاق واسع ، وحتى يتيسر للإنسان المسلم فى الوقت الحاضر أن يلائم بينها وبين الحضارة الحديثة فى حياته الخاصة والعامة . فالذى طلبه المؤتمرون العلماء المشتغلين بالثقافة الإسلامية فى العالم كله جِدَّة العرض ، وليس وضع هذه الثقافة فى ميزان التقدير .

ويقدر حرص علماء المسلمين أنفسهم وجدهم فى عرض الإسلام ومبادئه فى جوانب الحياة الإنسانية المتعددة فى صور توافق عقلية الإنسان المعاصر - بقدر ما يقيمون من أدلة عملية على جدارة الإسلام كنظام عام شامل فى معالجة المشاكل الإنسانية :

السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وكتوجيه سليم لتهديب الفرد وإشعاره بكرامته الإنسانية ، وقيمته الذاتية في مجتمعه الصغير والمجتمع العالمي الكبير .

٢ - الإسلام في الجامعات الأمريكية :

أتيت لي الفرصة - بفضل المعونة القيمة التي قدمها معهد دراسات الشرق الأوسط بواشنطن - للعلماء الذين حضروا المؤتمر : أن أزور جامعات برينستون بنيوجرسي : ماري لند ، وهوبكنز بواشنطن ، وكولومبيا بنيويورك ، وهارفارد ببوسطن ، ووين بدتريت ، وميتشجن في آن آربر ، وشيكاغو بمدينة شيكاغو ، وكلية برينسيبيا بالزا ، وأنديانا بيلومن تون ، وأوكلاهوما بنورما أوكلاهوما ، وكلية رولينس يونيتربارك بفلوريدا ، كلية ماكاليستر في سان پول ، لوس انجليس بلوس انجليس ، استان فورد ببالو ألتو ، كاليفورنيا بسان فرانسيسكو وغيرها ...

وبعض هذه الجامعات يقع في شرق أو شمال الولايات المتحدة الأمريكية بالقرب من المحيط الاطلسي ، وبعضها في غرب هذه الولايات على المحيط الهادى ، وبعض آخر في الولايات الوسطى ، وبعض رابع في الولايات الجنوبية بالقرب من خليج المكسيك .

كما أتيت لي الفرصة في أثناء زيارة هذه الجامعات والكليات أن أتصل اتصالاً وثيقاً بالأساتذة ، وخاصة أساتذة الدراسات العربية والإسلامية والاسيوية والفلسفية ، وأتصل بالطلاب والطالبات في هذه الجامعات عن طريق المحاضرة ، أو تبادل الحديث الشفوى في المناقشات العامة ، أو الإجابة على أسئلة بعض الطلاب والأساتذة . فقد ألفتيت :

١ - في معهد العلاقات السياسية بجامعة كولومبيا محاضرة : عما يجب أن يعرفه الدبلوماسى الأمريكى في الشرق الإسلامى وفي مصر خاصة ، عن الاتجاهات الفكرية السائدة في الوقت الحاضر .

- « نصيب الفكر الإسلامى فى توجيه الحياة الحديثة فى البلاد الإسلامية ، .
- ٣ — ومحاضرة ثالثة فى جامعة أوكلاهوما فى قسم الدراسات الفلسفية عن :
- ٢ — ومحاضرة أخرى فى كلية « برينسيبيا » ، عن :
- « بين الفلسفة الإسلامية والفكر الإغريقى القديم ، وأثر هذه الفلسفة فى الفكر الأوروبى منذ عصر النهضة الأوربية ، .

واشتركت فى مناقشات عامة أخرى دارت فى ندوات بينى وبين الطلاب والاسانذة فى جامعة شيكاغو ، وفى كلية رولينس ، وجامعة استان فورد ، ومعهد العلاقات السياسية الخارجية بسان فرانسيسكو ، وجامعة أوكلاهوما .

ولست بصدد الحديث عن النصيب الذى قمت به فى رحلتى هذه كعالم أزهري فى الجامعات الأمريكية أو فى المجتمعات الإسلامية هناك ، وإنما أنا بصدد بيان الصورة التى التقيت فيها بالعقلية الأكاديمية الأمريكية ؛ عقلية الطلاب والاسانذة . وهو التقاء كان حتماً حول الإسلام نفسه ، والدراسات الإسلامية ، والعقلية الإسلامية فى ماضىها وحاضرها ، لأن زائراً أجنبياً هو عالم من علماء الأزهر ومدعو للمساهمة فى مؤتمر إسلامى عقد فى أمريكا ، وقد ضم إلى ثقافته الإسلامية الشرقية ثقافة الجامعة الحديثة فى أوربا ، وفى ألمانيا على وجه الخصوص - . ينتظر منه الطالب الأمريكى والأستاذ الأمريكى أن يطلعه على صورة الإسلام والعقلية الإسلامية بأسلوب الباحثين المحدثين فى الجامعات الأمريكية والأوربية ، ولا ينتظر أن منه شيئاً آخر يتعلق بمواد الثقافة الحديثة أو الآثار الفرعونية القديمة .

وجدت عقلية الطالب الأمريكى تعيش فى الآونة الحاضرة أكثر مما تعيش فى الماضى . فما يوجهه من أسئلة أو استفسامات تتعلق بمشاكل الحاضر وحضارة الوقت ، والمدنية السائدة . ولعل سبب هذه الظاهرة أن الحياة الأمريكية ليس لها ماضٍ طويل ، ثم ليس فيها كذلك فراغ تشغله بما يتصل بماضىها أو بماضى حياة أخرى . فالطابع العملى يسود هذه الحياة ، والغد قبل اليوم يجذب العقل

الأمريكي لاستغلال الثروة الفسيحة في رقعة هذه البلاد والانتفاع بها في رفع مستواه الصحي والاجتماعي .

ولهذا يهم الطالب الأمريكي - إن سأل عن الإسلام - أن يعرف : إلى أي مدى يستطيع المسلم أن يتفاهم مع الغربي أو الأمريكي ، وإلى أي مدى يمكن للإسلام أن يساهم في الحياة الحديثة وفي حضارتها الصناعية ، وإلى أي مدى تستطيع الشعوب الإسلامية مع احتفاظها بالإسلام كعقيدة أن تسير ركب الحياة اليوم وتأخذ بمقوماتها في حياتها ؟ .

ولذا كانت عقلية الطالب الأمريكي تحدد له نوعاً خاصاً من الأسئلة عن الإسلام ، فرغبته في معرفة أجوبتها تلفت نظر مشارك في الحديث والمناقشة من أصحاب الثقافة الإسلامية . يسأل في شوق ، ويسترسل في السؤال لا ليجادل وإنما ليقتنع . إذ الجدل لذات الجدل ظاهرة من ظواهر العقلية النظرية . أما العقلية العملية فرغبتها في الجدل لذات الجدل محدودة .

وكما يُستشف من عقلية الطالب الجامعي الأمريكي الرغبة الشديدة في معرفة رأى الإسلام في مشاكل الوقت ، وفي تحديد مظاهر الحياة الإسلامية الحاضرة ، فإنه يُستشف منها أيضاً جهله بالإسلام وبالصورة الصحيحة لحياة الشعوب الإسلامية الحاضرة ، أو سوء فهمه للإسلام ولحياة المسلمين . وقد ينحرف في فهمه للإسلام إلى أنه دين يعادي الإنسانية ، كما قد ينحرف فهمه لحياة الشعوب الإسلامية الحاضرة إلى أن المسلمين بحكم مبادئ دينهم يعادون الحضارة الصناعية ، وينظرون إلى غيرهم بروح العداة البغيض .

ولهذا لا يلقى المتحدث عن اضطهاد الأقليات في البلاد الإسلامية ، أو عن تشويه الإسلام إذا ما أراد أن يصور المسلمين بغير صورتهم الصحيحة ، أو يسعى إلى الإسلام - عناءً من عقلية الطالب الأمريكي في تصديقه ومد يد المساعدة إليه كذلك . والدعاية اليهودية المغرضة تلقى رواجا هناك . لأن العلماء اليهود في الجامعات الأمريكية - وهم كثيرون - يشجعونها ، أو لأن الصحافة ودور الإعلان تعتمد

على الرأسمالية اليهودية ؛ بل لأنه مع ذلك يوجد هذا الاستعداد لسماع الروايات المشوهة عن الإسلام والمسلمين .

ولو فتشنا في العوامل التي كونت هذا الاستعداد لدى طلاب الجامعات الأمريكية لوجدناها قبل كل شيء في « كتاب المكتبة الجامعية » .

فكتب الدراسات الإسلامية والعربية :

- ١ — إما أنها من تأليف المستشرقين الأوروبيين الذين بقوا في أوربا .
 - ٢ — أو من وضع المهاجرين المسيحيين أو اليهود الذين أصبحوا أساتذة هذه الدراسات في الجامعات الأمريكية .
 - ٣ — أو أنها مترجمة عن العربية وغيرها من لغات العالم الإسلامي اليوم .
- والاستشراق في أساسه محاولة باسم العلم لتصوير الشرقيين والمسلمين في حياتهم وعقيدتهم تصويراً يتيح للمستعمر الأوروبي أن يتمكن بسلطانه المادى وتوجيهه العقلى الخاص من استغلال ثروة البلاد الإسلامية بأيدي المسلمين أنفسهم وبرضاً من رؤسائهم وزعمائهم . فالاستشراق بحث ، ولكن ليس هدفه المعرفة من حيث إنها معرفة تعين على الفهم الصحيح وخلق جو من التفاهم الإنسانى ، بل هو معرفة موصلة إلى نتيجة معينة ومحددة قبل القيام بالبحث والتفتيش . هذه النتيجة هي :

لفهم المسلمين أنفسهم أن ليس لهم « أصالة » في تاريخ الحركات الفكرية ،

وليس لهم « إيجابية » في حياتهم أو الحياة الإنسانية العامة .

وكذلك لفهم الأوروبيين المستعمرين أن خصائص « السيادة » في الحياة من مقومات العقلية الأوروبية ، وأن الأوروبيين هم الأجدر بالحياة الرفيعة ، وبالبقاء في الجماعة الإنسانية .

ولذا نرى الدول الأوروبية العريقة في الاستعمار - وهي التي تقوم حياتها على المستعمرات - تبذل الكثير في تقوية حركات الاستشراق ، وبالتالي تبرز في اتجاهها الاستشراق هذه النتيجة المحددة السالفة الذكر .

كما نرى علماء الدول الأخرى التي لها صلة ضعيفة بالاستعمار يحاولون الحيدة في استشرافهم ، ولكن قلما يتأثرون فيه بثقافتهم الدينية الخاصة .

والأمريكان اقرب عهدهم بالعالم القديم - وبالأخص بالشرقين الأوسط والأدنى - اعتمدوا في جامعاتهم عند ما انجسوا لبحث الثقافة الإسلامية كمصدر أصيل في توجيه شعوب الشرق الأوسط والأدنى - إلى علماء الاستشراق في أوروبا وساروا في نفس اتجاههم بعد أن تلمذوا عليهم ، كما كونوا نواة مكتباتهم في مصادر التراث الإسلامي الروحي والعقلي من تأليف هؤلاء بجانب الدراسات المتعلقة بالإنجيل والتوراة ، وهي دراسات العهدين القديم والجديد .

وعند ما هاجر بعض الشرقيين من العرب المسيحيين ، وبعض اليهود من العلماء الأوروبيين ، واستوطنوا جميعاً الولايات المتحدة الأمريكية ، واتصلوا بجامعاتها ومعاهدها ، وطلب منهم أن يساهموا في الدراسات الشرقية الأكاديمية ، احتلوا بعد فترة وجيزة من الزمن رئاسة الأقسام الدراسية في الثقافة الإسلامية والعربية . وأصبح لهم توجيه ملحوظ في دراسة هذه الثقافة ، وأصبح لهم تلاميذ تولوا فيما بعد مباشرة النشاط الأمريكي الخارجي في البلاد العربية والإسلامية ، وتولوا مساعدتهم في تصوير الإسلام والمسلمين للطلاب الأمريكي .

فالمسيحيون واليهود من هؤلاء المهاجرين المستوطنين أضافوا في المكتبات الجامعية في أمريكا إلى كتب المستشرقين الأوروبيين كتبهم الخاصة . وفيها توجيهاتهم إلى قد تختلف عن توجيهات هؤلاء الأوروبيين . ولكنها تشاركها كثيراً في تصوير الدعوة الإسلامية ، وحياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وصحابته رضوان الله عليهم الذين قاموا بعبء الخلافة الإسلامية بعده ، وبيان كيف أن الإسلام اعتمد في انتشاره على الدفع المادي : بالسيف مرة ، وبفرض الجزية مرة أخرى ... إلى غير ذلك من الموضوعات التي يبعث سوء القصد في تصويرها التشكك في قيمة الإسلام ، والريب في نظرة غير المسلمين إلى المسلمين .

وبالإضافة إلى جهود المستشرقين الأوروبيين ، والمهاجرين المستوطنين من

المسيحيين واليهود في تكوين مكتبة الدراسات الإسلامية والعربية بالجامعات الأمريكية - يذكر أيضاً ذلك المجهود الذي تقوم به بعض المؤسسات العلمية والتعليمية الأمريكية في نقل بعض المؤلفات المعاصرة من اللغة العربية وغيرها من لغات العالم الإسلامي اليوم إلى اللغة الانجليزية .

وهذه المؤسسات تعتمد في اختيار ما يعد للنقل من مؤلفات المعاصرين المصريين أو العرب أو غيرهم في رقعة العالم الإسلامي - إما على شهرة المؤلف نفسه أو على مشورة بعض الدوائر الرسمية أو الشخصيات المعروفة في بلاد هذا العالم . ولا أستطيع هنا أن أقول : إن سوء القصد هو الباعث على عملية النقل هذه ؛ بل ربما أقول ، العكس هو واقع الأمر . فإذا وجدنا لهذا في مكتبات الجامعات الأمريكية ترجمات لبعض كتب المعاصرين في العالم الإسلامي كان أجدر أن لا تترجم لسبب أو لآخر - فالخطأ في ذلك راجع لمشورة الجهة الرسمية . أو بعض الشخصيات المعروفة ، أو لأن شهرة المؤلف نفسه قد تجاوزت بالارغب في الترجمة دائرة المشورة أو القراءة الذاتية للكتاب .

فتلا كتاب : « من هنا نبدأ » لمحمد خالد ، وكتاب : « مستقبل الثقافة في مصر » لطف حسين من الكتب المترجمة ، وبجانب هذا نجد كتاب : « العدالة الاجتماعية » في الإسلام لسيد قطب في عداد هذه الكتب المترجمة التي زودت بها مصادر البحث عن الثقافة الإسلامية .

وقد أتيت لي الفرصة وأنا مشرف على مراقبة البحوث والثقافة بالأزهر أن أبدى الرأي في كثير من الكتب المعاصرة . وأخذ برأيي إيجاباً أو سلباً في بعض ما عرض علي ، وفي البعض الآخر منها تعذر تنفيذ الرأي ، لأن الترجمة بالفعل كانت أخذت طريقها إلى الظهور .

وهناك عامل آخر غير الكتاب له أهميته في توجيه الطالب الأمريكي توجيهاً خاصاً في فهم الإسلام ، والحضارة الإسلامية ، وعقلية الشعوب الإسلامية المعاصرة - هو اتصال العلماء والطلاب المصريين والعرب به في الجامعة الأمريكية عن طريق المحاضرات والاشتراك في المناقشات .

فبعد هذه الحرب العالمية الثانية ازداد سفر العلماء المصريين والعرب إلى أمريكا عن طريق التبادل الثقافي لإلقاء سلسلة من المحاضرات في فترة محدودة ، كما ازداد التحاق الطلاب المصريين والعرب بالجامعات الأمريكية كبعوثين حكوميين ، أو على مشروعات خاصة كمشروع فول بريت أو مشروع النقطة الرابعة . وقليل من هؤلاء الطلاب من هو على حسابه الخاص .

الطالب الأمريكي ، كما ذكرت سابقا ، تحمله الرغبة القوية إذا ما التقى بطالب أو بعالم من البلاد الإسلامية - في أن يعرف منه شيئا عن الإسلام وعن الحياة الإسلامية ، لأن ذلك هو الشيء المجهول له في حياته هناك .

وهذه الرغبة تبدو من الطالب الأمريكي ، ولو كان المحاضر يحاضر في شيء فني آخر لاصلة له بالتعبير عن التعاليم الإسلامية . فطالما المحاضر أو الطالب الغريب من بلد إسلامي فركز الاستفهام والسؤال في نظر الطالب الأمريكي هو :
الاسلام والمحمود .

وقد لمست ذلك في وعروض وغير مرة : فقد كان الاستاذ محمد خلف الله أحد وقد صبحني في زيارة الجامعات الأمريكية التي زرتها يلتقي بعض محاضرات عن الأدب العربي ، ويتحدث في الأدب العربي المعاصر عن فن المسرحيات وعن الكتاب المحدثين . فالأسئلة - التي أعقبت المحاضرة وقد استغرق وقتها ضعف وقت المحاضرة اتجهت من جميع السائلين فجأة إلى مقاييس الإسلام الخلقية ، ومبادئه في السياسية الدولية ، وتنظيمه للأسرة ، وعلاجه للفجوة بين الطبقات ، ومعالم العدالة الاجتماعية في نظره ... وهلم جرا ؛ اتجهت إلى الموضوعات التي تبعد كل البعد من الوجهة العلمية البحتة عن موضوع المحاضرة .

وكثير من هؤلاء العلماء والطلاب ذهب إلى أمريكا ومعه صورة مهوشة عن الإسلام ، وربما كانت حياة المسلمين الحاضرة في البلاد الإسلامية هي مصدر معرفته بالتعاليم الإسلامية . فيستوحى من حياة المسلمين ليرسم للطالب الأمريكي صورة هي أبعد ما تكون عن الإسلام ، ولكنه يقدمها إليه على أنها تعبير صادق للبادئ الإسلامية .

وبعض هؤلاء العلماء والطلاب يحمل في رحلته إلى الجامعات الأمريكية شعور البغض والكراهية للإسلام ، أو شعور الاستخفاف بتعاليمه ومقاييسه في الحياة . وهناك المجال الفسيح لابرار هذا الشعور ، مستعيناً في تأكيده بالقصص المختلفة والتفسيرات المفرضة للأحداث التاريخية وظواهر علاقات المسلمين بغيرهم في تاريخ الجماعة الإسلامية الطويل .

فقد سمعت في غير جامعة من الجامعات التي زرتها أن بعض العلماء المصريين حيث له الفرصة لالقاء بعض المحاضرات عن الإسلام في مصر ، - فكان العود أنفقى لهذه المحاضرات هو : أن الإسلام استعان بالسيف وبفرض الجزية على حمل الناس على اعتناق الإسلام ، وعلى طمس الحضارة القبطية العريقة ، وعلى أنه حiril المجتمع المصرى المتحضر إلى مجتمع يسوده الاضطهاد والارهاب .

كما سمعت أن واحداً آخر من العلماء المصريين حاضر عن الفلسفة الإسلامية في بعض الجامعات الأمريكية فذكر : أن المسلمين بتفكيرهم الدينى المحدود أسسوا إلى الفكر الاغريق القديم ، وأن هذا الفكر لم يشع إلا بعد أن عاد إلى خلفاء الاغريق الأوربيين من جديد ، ولما بعد أن أبعد عنه الأوربيون الصور المحرفة التي أضافها المسلمون إليه . وأرجع عمل المسلمين إزاء الفكر الاغريق إلى سطحيته وعدم قدرتهم على الانتاج العقلى ، كى يخلص من ذلك إلى أن النهضة في الشرق مرهونة بالإفادة من الثقافة الغربية ، والفكر العلمى الطبيعى الغربى .

ويقول بين العلماء والطلاب من البلاد الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية من له معرفة حسنة وفهم واضح للإسلام .

كما يوجد بينهم من يتحول عملياً إلى إنسان صاحب تفكير مسيحى في صورة مسلم موفد من مصر أو غيرها إلى الجامعات الأمريكية ، وذلك بحكم العادة القائمة في هذه الجامعات وقت الاحتفالات الجامعية وفي المناسبات الدينية .

فمع كثرة الجامعات الأمريكية التي زرتها لم أر جامعة واحدة خلت من كنيسة احتلت مكان الصدارة في أبنيتها الجامعية . لا على أنها رمز فحسب ، بل على أنها

مصدر التهذيب للطلاب والطالبات ، وكثيراً ما يقرأ الزائر هذه العبارة :
« الدين والمعرفة ، على واجهة البناء الرئيسى من أبنية الجامعة كشعار
لهذه الجامعة .

وقد أضيفت إلى حديث طالب مصرى هو ابنٌ لتاجر غلال فى مصر عن مدى
مشاركته لزملائه وزميلاته فى الطقوس الدينية المسيحية التى يفتح ويحتتم بها
اليوم الجامعى فى كلية رولينس بفلوريدا . وأنه لم يجد بداً من المشاركة فى القيام
بهذه الطقوس نظراً لحداثة سنه ، ولعدم معرفته بالاسلام فى بيئته المصرية والإلاف
والعادة فى هذه الكلية .

فالتالى الأمريكى إنه قلما يجد مصرراً محابراً يتحدث عن الاسلام
وعنه الثقافة الاسلامية .

فالكاتب الجامعى لدراسة هذه الثقافة على نحو ما شرحت . والزائر من بلد
إسلامى للجامعات الأمريكية تعوزه صحة المعلومات أو دقتها عن الاسلام ،
أو يعوزه القصد العلمى السليم فى عرضه للثقافة الاسلامية .

ومن مميزات الطالب الأمريكى أنه لا يصبر على رأى بأن له خطؤه ، فالعقلية
الرياضية والعقل العلمى فى الحياة يسيطران على توجيهه فى جدله أو سلوكه .

وقد يكون من العوامل فى ذلك - وإن كان عاملاً سلبياً - عدم رسم سياسة
مصرية ثقافية خارجية . ففي سنة ١٩٥١ طلبت الأكاديمية الأمريكية للدراسات
الآسيوية بسان فرانسيسكو علماء الأزهر ممن يجيدون لغة أوروبية حديثة
ودرسوا فى إحدى الجامعات الأوروبية ليشراف على قسم الدراسات الاسلامية
المنشأ حديثاً فى هذه الأكاديمية .

فحرصت وأنا فى مراقبة البحوث والثقافة بالأزهر على أن تجيب المشيخة هذا
الطلب . ووقع الاختيار على عالم من علماء الأزهر ممن سافروا إلى ألمانيا للدراسة
وهو يجيد اللغة الانجليزية ويقوم بالتدريس الآن فى جامعة القاهرة ، وكتبت المشيخة
إلى وزارة المعارف والجامعة تطلب إليهما الموافقة على إعارة هذا الأستاذ للأزهر

مدة سنتين . والأزهر بدوره يوجهه إلى الاشراف على العمل بسان فرنسكو . فطلبت المعارف من الأزهر نظير ذلك أن توافق على إعارة مدرس بإحدى كلياته لها كي توجهه هي أيضاً في مهمة إلى الخارج . وبعد أن وافق الأزهر على طلب المعارف أجابت المعارف - وكان وزيرها الدكتور طه حسين - بأنها لا تستطيع التدخل في شئون الجامعة لأنها مستقلة . وحاولت الاتصال شخصياً ببعض زملائها هناك بكلية الآداب لتوافق الكلية على طلب الأزهر . ولكن كان ذلك بدون جدوى . واستقر في ذهني من الأحاديث التي دارت حول هذه المسألة : أن العامل الطائفي في الثقافة كان سبباً خفياً في ذلك ، فكيف يسافر أزهرى إلى أمريكا في مثل هذه المهمة ؟

وبجانب هذا المثل أذكر أن السفارة المصرية بواشنطن عن طريق الملحق الثقافي هناك ، وكذا عن طريق الادارة الثقافية هنا بوزارة المعارف - لو عرضت بعض الجامعات أو المعاهد الأمريكية شغل بعض وظائف التدريس بقسم الدراسات الإسلامية أو العربية ببعض العلماء المصريين - تنجبه الرغبة أولاً وبالذات إلى الجامعات المصرية الحديثة دون الأزهر . وربما يكون لهذا الاتجاه بعض العذر لأن دائرة الاختيار من بين علماء الأزهر ضيقة نظراً لعدم شيوع تمكنهم في اللغات الأوروبية الحديثة . ولكن مع ذلك يمكن للأزهر أن يساهم وأن تجدى مساهمته لصالح الثقافة الإسلامية ولصالح مصر .

وعن طريق تقدمت بعض الجامعات وقت زيارتي لإياها أو بعد عودتي مباشرة فطلب مني أن أدلها على بعض العلماء ممن يجيدون اللغة الأجنبية ، ولهم دراسات عليية حديثة في الثقافة الإسلامية .

فلو أن لمصر - عن طريق الأزهر أو غيره من الجامعات - سياسة ثقافية خارجية مرسومة لاستطاعت - كما استطاع اليهود مثلاً هناك - أن تساهم في عرض الثقافة الإسلامية بالجامعات الأمريكية عرضاً صحيحاً تفيد منه ، ويفيد منه العلم كذلك .

٣ - الإسلام بين المسلمين المقيمين في الولايات المتحدة :

الغالبية العظمى من المسلمين في الولايات الأمريكية المتحدة من المهاجرين العرب من سوريا وفلسطين وشرق الأردن ولبنان .

وهؤلاء يعيشون في ولايات : أيوه - ميتشجن (ديتريت) - أوهايو - شيكاغو - نيوجرسي - فيلاديلفيا - نيو مكسيكو - كولورادو - تكساس - وفي مدن : سيوسيتي - سان پول - ميتشجان سيتي - نيويورك سيتي - لوس أنجلوس . وفي هذه المدينة الأخيرة وفي ولاية كاليفورنيا على العموم ، ينتسب المسلمون هناك إلى بلاد الشرق الأقصى كإندونيسيا والملايو ، أو الشرق الأوسط كبلاد الهند والباكستان .

وقد زرت أكثر هذه الجاليات الإسلامية وعشت في مجامعهم فترة من الوقت . وقد سهل لي هذه الزيارة وطاوتي على الاتصال بالمجموعات الإسلامية في الولايات المتحدة عامة ، معهد دراسات الشرق الأوسط ، بواشنطن أيضاً وهو مشكور لذلك .

يعيش هؤلاء المسلمون كنجار أو كعمال صناعيين . وقليل منهم من ينتسب إلى بيئة الفن أو العلم ، لأنهم هاجروا من أجل الكسب المادى ، وبينهم عدد غير قليل من الأميين أو أنصاف المثقفين .

وأكبر جالية عربية إسلامية تسكن مدينة ديتريت في ولاية ميتشجن . وربما يصل عددها إلى ما فوق العشرة الآلاف ، ولها في هذه المدينة ثلاثة مساجد : واحد للجالية الألبانية ، وآخر للمسلمين العرب من السنين ، والثالث للشيعة من الإيرانيين والعراقيين .

والذى لاحظته بين الجاليات الإسلامية عامة قلة تمسكهم من اللغة العربية ، مع أن معظمهم من العرب ، وضآلة حظهم من الثقافة الإسلامية إلى درجة أنهم لا يعرفون السنة الصحيحة في تغسيل الموتى والصلاة عليهم ، وتشيع جنازتهم ، ثم جهل ناشئهم ذكوراً وإناثاً جهلاً مطبقاً بتعاليم الإسلام وباللغة العربية . ولأنهم يجهلون الإسلام ، يخفون بين زملائهم أو زميلاتهم في الدراسة أو المصنع أنهم مسلمون ، كما أنهم يطلقون على أنفسهم في خارج المنزل أسماء تعتبر مسيحية ، على

أن ينادوا بأسمائهم الإسلامية في منازلهم بين أهلهم فقط : فسعيد يسمى بـ « جون » وفارس يطلق عليه « ألبير » وحسين ينادى بـ « سام » وشريفة تسمى « نيف » ... وهكذا .

وهذا التبديل في الأسماء إن دل على شيء فإنما يدل على ضعف الشخصية - وهي الشخصية الإسلامية هنا - وعلى تمكن مركب النقص في نفوس هؤلاء المغتربين .

ومع جهل الناشئة بالإسلام وباللغة العربية ، يلاحظ الزائر رغبة دفيئة في نفوس هذه الناشئة : وهي أن تبقى مسلمة . ولكن كيف ، وأنتى لها أن تصبح مسلمة في حقيقة الأمر . ثم تحرص على أن تبقى مسلمة ؟ لاحظت ذلك في اجتماعين كبيرين : أحدهما في ديتريت ، والآخر في سوسيتي . وكانت هذه الرغبة الدفيئة تتجلى بين الإثبات أكثر منها عند الذكور .

وإذا كان جهل الناشئة هناك بالإسلام أوحى اليها بتغيير الأسماء ، فإنه أيضا دفعها إلى الزواج بغير المسلم من المسيحيين واليهود . وتقلص بالتدرج لهذا عدد المسلمين المهاجرين إلى الولايات المتحدة . وحكى لى من بعض المسلمين في « سانت پول » وفي غير هذه المدينة أن عدد المسلمين الذين استوطنوا أمريكا من البلاد العربية ، والبلاد الإسلامية الأخرى في الشرق الأدنى والأوسط ، كان قبل خمسين سنة مضت ، يقرب من المائة والخمسين ألفا ، وأصبح الآن لا يتجاوز الخمسين ألفا .

وربما كان ذلك يطابق الواقع : لأن الجيل الأول وهو جيل المهاجرين قل عدده بالموت ، والأجيال الناشئة عنه تقلص عددها بالفناء الأدبي واضمحلال عوامل البقاء المميزة لهم وهي إسلامهم ولغتهم وعاداتهم الأصلية .

وكما تبدو عند هؤلاء المسلمين النازحين الرغبة في تعرف الإسلام ، يدرك زائرهم من أحاديثهم صلتهم الوطنية بوطنهم الأصلي ، رغم أن القانون الأمريكي يعتبرهم أمريكيين ، وقد يعبرون عن وطنهم بالإسلام ، وقد يجعلون الإسلام الشعار المميز لهم .

ولهذا التعلق بالوطن وبالإسلام يعلن زعمائهم ورجال الأعمال منهم عن كبير استعدادهم المادى وحمائهم الأدبية لمن يأتي إليهم من علماء الأزهر خاصة

يفقه أولادهم في الدين ويعلمهم العربية . ومنطقهم في ذلك - كما شرحه غير واحد منهم - أنهم حضروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية للإثراء ، ولكنهم بعد أن أثروا وجدوا أنهم فقدوا ثروتهم الحقيقية وهي تنشئة أولادهم تنشئة إسلامية ، وأن ثراهم المادى لا يقيهم من آلامهم النفسية عند ما يرون بناتهم تتزوج مسيحيين أو يهود ، وتساهم في إفناء عنصرهم وشخصيتهم هناك ، وهى الشخصية الإسلامية .

وقد حدثنى في مدينة سوسيتى أب لأربع بنات وابن واحد بأنه أخذ يصفى متجره - مع ربحه الطائل - منذ العام الماضى على أن يعود إلى دمشق هرباً من المصير المنتظر لهؤلاء البنات والابن . وهذا الأب من الشخصيات الإسلامية المحترمة في المجتمع الأمريكى هناك ، كما لاحظت في الاجتماع الذى أعده احتفاءً بنا أن كان من شهود هذا الاجتماع رئيس الولاية وعمدة المدينة والممثلون الولاية في الكونجرس الأمريكى بواشنطن ، عدا كبار رجال التعليم ورجال المال والتجارة . إن هذا الوالد ذكر لى : إنه كان على استعداد تام لأن يرسل بجميع أولاده إلى واشنطن في أشهر الصيف لتعلم الدين واللغة العربية في المركز الثقافى الإسلامى هناك ، وذكر لى مثل هذا رأى مالى لإيرانى كبير يعيدش فى لوس أنجلوس بكاليفورنيا وآخرون فى شيكاغو ، وسيدارابس فى ولاية أيوه . لو أن المركز هياً لهم مثل هذه الدراسة .

٤ - الإسلام بين الملونين في الولايات المتحدة الأمريكية :

لو انتقلنا عما لاحظناه على حال المسلمين المهاجرين هناك من الرغبة الشديدة في تعلم الإسلام مع عدم استطاعتهم تحقيق هذه الرغبة - إلى حال الأمريكان الملونين لوجدنا أن رغبة هؤلاء في اعتناق الإسلام وفهم مبادئه لا تقل عن رغبة أولئكم ، ولوجدنا السبب عند هؤلاء يشبه السبب عند أولئكم ، وإن اختلف تعبير الطرفين عنه .

هذا السبب هو : حفظ البقاء ، والكفاح ضد الفناء الأدبى : زرت المسلمين الملونين فى نيويورك ، وفى كليفلند ، ورأيت بعد ذلك الملونين فى الولايات الوسطى والجنوبية ، رأيهم فى أطلانتا وفى جورجيا وفلوريدا وتكساس ، واستطعت

أن أفهم : لماذا يقبل الملونون على اعتناق الإسلام ؟. إن الملونين لا ينقون في الكنيسة ، ولا يرون في المسيحية أنها دين الحياة . لأن أى دين يبنى أن يسيطر على التوجيه في الحياة يجب أن يكون متضمنا للبادئ الإنسانية الطبيعة التى يقوم عليها السير الطبيعى للحياة .

كثير من الملونين في أمريكا - وبالأخص في الولايات الوسطى والجنوبية - يعامل من بقية الأمريكان البيض معاملة الإنسان صاحب الدرجة الثانية . وهذه المعاملة ترجت في تشريعات هذه الولايات وقوانينها . والمظهر الدال عليها هو الفصل ، بين البيض والسود في الحياة العملية ، والفرق في العقوبة بين النوعين في قوانين المخالفات والجنح والجنايات .

المطعم في محطات السكك الحديدية يقسم إلى قسمين ، ودورات المياه العامة بها تقسم إلى قسمين ، وقطارات السكك الحديدية وعربات النقل المشترك تقسم إلى قسمين ، وكثير من الفنادق لا يسمح بدخول الملونين كنزلاء فيها . ويخصص في التعليم في مراحل المتعددة بعض المدارس للونين . وللملونين جامعة خاصة في ضواحي واشنطن ، ولكنها من أحدث الجامعات الأمريكية نظاماً ومنهجاً وأسلوباً في التربية .

هذا الفصل في الحياة العملية ، وهذه التفرقة القانونية في العقوبات أوحيا للملونين بالشك في الكنيسة كهيئة مشرفة على التهذيب الروحى . لأن التهذيب الروحى لا يفاضل بين إنسان وآخر ، وبالشك في صلاحية المسيحية للحياة ، لأن الصالح للحياة يجب أن يكون له طابع المبادئ العامة ، وفي صلاحيتها كدين لأنها لم تنل من نفوس معتققيها في السلوك والمعاملة ما يدل على أنها عقيدة تستوجب تصرفات خاصة ، ونمطا معيناً في المعاملة .

وإذا شكوا في الكنيسة وقيمة المسيحية ، لم يؤمنوا كذلك بالأديان السالبة كالبودية . لأن الحياة الأمريكية تعتبر النموذج العمل للحياة الإيجابية ، وهم خاضعون لقوانين الإيجابية فيها ، ووجدوا في الإسلام العقيدة الدينية التى تجمع بين دعوة

المساواة في المعاملة ، والدعوة إلى العمل الإيجابي في الحياة ، وكان الإسلام في نظرهم مركز التوفيق بين شعورهم النفسى الداخلى ، وما تفرضه سنة الحياة الأمريكية من وجوب السعى فيها والانتاج المثمر المستمر .

يحدثني أحد الملونين في كليفلاند وهو إمام الجالية الإسلامية الملونة فيها : أنه لا يجد عناء في إقناع الملونين بالإسلام رغم أن معرفته بالإسلام قليلة ، وقد أخذه عن أحد أصوله من الصوماليين ، ويبدى أن السبب في يسر إقناع الملونين بالإسلام بساطته في تأدية أنواع العبادة ، وفي صلة الانسان بخالقه ، وفي تسويته في الحقوق والواجبات بين الناس جميعاً ، وفي دفعه الناس إلى العمل ، وفي عدم وجود سلطة دينية فيه قد يساء استعمالها وقد يستجر بها القائمون عليها ، ويستطرد في حديثه فيذكر من العقبات عدم تفقهه في الدين النفقة السكا في حتى يستطيع حاجة المبشرين الذين يشككون المسلمين من فريقه في الاسلام وقيمه ويضلونهم بقصص بعيدة عن الواقع وعن هدف الرسالة الاسلامية . وذكر لى بعض هذه القصص ، فذكر د الحريم والجوارى ، وحث الاسلام على العرى ، كما يصور الحج ، وتحريم الاستمتاع بمظاهر الحضارة الحديثة كركوب السيارات والاستماع إلى الراديو والتليفزيون ، على نحو ما يحكى هناك عن المملكة العربية السعودية ... وغير ذلك مما يعتمد فيه المبشرون على قول غير متفقه ، أو على ظاهرة في جماعة إسلامية معاصرة أو شرح عبارة على غير وجهها الصحيح .

وعرفت من المسلمين الملونين في نيويورك أن طريقهم إلى معرفة الاسلام هي أقوال المهاجرين العرب الذين يشاركونهم العمل في المصنع أو الخدمة في المطاعم والفنادق ، أو الذين يتصلون بهم في الأعمال التجارية الصغيرة .

ولما أرشدتهم إلى ترجمة د معاني القرآن العظيم ، لمحمد بتكتال (انجليزى أسلم) المطبوعة في نيويورك ، أجاوبنى كما أجابنى غيرهم من المسلمين العرب في مدن أخرى أنهم سمعوا : أن شيخ الاسلام في القاهرة يحرم الترجمة .

واعتقد أن شيخ الأزهر الحالى لو عرف حال المسلمين فى الخارج ، وعرف

أن هناك ٢٨ ترجمة للقرآن الكريم من اللغة اليابانية إلى اللغة الانجليزية - كما رأيتها في مكتبة كليفلند - وأن معظم هذه الترجمات تنطوى على أخطاء جسيمة في تصوير رسالة الاسلام أو تصوير حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنها منتشرة بين المسلمين الاجاب ، أعتقد أنه لو عرف ذلك لما أدلى بما ذكره في حديثه إلى جريدة الاهرام بتاريخ ١٤/٢/١٩٥٤ لإجابة عن أهمية ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الحية : من قوله : « إني أرى أنه من الخير لنا ولمن نريد أن ندعوهم إلى الاسلام أن نترجم لهم مبادئ الإسلام وأحكامه في رسالة موجزة ، ولبادر إلى إقرار مثل هذه الترجمة التي تعد أصح وأوضح ترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة الانجليزية .

٥ - الاسلام في المركز الثقافي الاسلامي بواشنطن :

هذه هي حال المسلمين المهاجرين والمولدين في الولايات المتحدة الأمريكية . وقبل ذلك وقفنا على حال الاسلام وعلى الصورة التي يُعرض فيها بالجامعات الأمريكية ، وبخاصة في المعاهد القائمة على شئون الدراسات الاسلامية بينها . المركز الثقافي الاسلامي بواشنطن عبارة عن مسجد لم يكتمل بناؤه بعد ، وإن اكتملت مئذنته ، كما لم يكتمل الجناحان الملحقان به في رسمه . وتحت هذا المسجد طابق أرضي اتخذ منه الآن صالة للمحاضرات ولإقامة الصلاة في المناسبات الدينية . وفي زاوية من هذه الصالة أقيم جداران يفتح في أحدهما باب لتكوين حجرة خصصت لمدير هذا المركز وإمام مسجده . وهو من الزملاء الأفاضل الذين درسوا في لندن بعد الأزهر الشريف ، وأوفد في بعثة واحدة مع شيخ الأزهر الحالي : هذا إلى باريس وذلك إلى لندن ، وهي بعثة فؤاد الاول التي أرسلها الأزهر في سنة ١٩٣٥ ، بعد ما أرسل مجلس مديرية البحيرة بعثة تخليد ذكرى الإمام الشيخ محمد عبده في سنة ١٩٣١ . التي أشرف بالانتساب إليها .

موقع بناء المركز من أحسن المواقع في عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية . وارتفاع مئذنة الجامع يُرى من بعيد ، ويدل الناظر على مظهر إسلامي واضح .

ولكن عند ما يزوره الزائر يدرك أن عدم إتمام بناء هذا المركز ومسجده يشبه إلى حد كبير خيبة الأمل في إنقاذ فلسطين : فن أجل المركز الثقافي الإسلامي اشترك في تنفيذه جميع حكومات البلاد الإسلامية حتى تركيا ، ومع ذلك لم يتم ، وفي حرب فلسطين اشتركت جميع حكومات البلاد العربية ، ومع ذلك لم تنقذ فلسطين . وهذا المظهر في عدم إتمام المركز الثقافي بواشنطن يدل مرة أخرى على أن تسكتل المسلمين إن اتجه إلى الإرهاب لا يهرب ، وإن اتجه إلى الانتاج والإثمار لا ينتج ولا يثمر .

الدكتور محمود حب الله يعيش في هذا البناء وحده ، يدرك كما أدرك أنا ، أنه كان يمكن أن يكون لهذا المركز نشاط أكاديمي في الاتصال بالجامعات الأمريكية ومعاهد الدراسات الإسلامية فيها : يكون حلقة الاتصال بينها وبين علماء البلاد الإسلامية إذا ما رغبت إحدى هذه الجامعات في استقدام عالم أو أكثر من العلماء المشتغلين بالدراسات الأجنبية ، يكون المعقب والناقد لما تخرجه هذه الجامعات من كتب عن الثقافة الإسلامية .

وكان يمكن أن يكون لهذا المركز نشاط تعليمي إسلامي وعربي لأبناء المسلمين إما عن طريق المدارس المتنقلة ، أو عن طريق فصل دراسي وقت عطلة المدارس الأمريكية يقام في المركز نفسه لأبناء المسلمين في أنحاء الولايات المتحدة .

وكان يمكن أن يكون لهذا المركز نشاط توجيهي لطلاب البعثات الحكومية وغير الحكومية من العرب وغيرهم من المسلمين ممن يفدون على الولايات المتحدة - يتعلق بالثقافة الإسلامية وبآراء الإسلام في الحياة ، والحضارة ، والأسرة ، والمجتمع ، والعلاقات الخارجية . وغير ذلك من الموضوعات التي تتعلق بها الطالب الأمريكي ، والمجتمع الأمريكي ، والتي كان توضيحها يخلق جواً لمصر والبلاد الإسلامية في هذه الولايات ، لا تستطيع الدبلوماسية للدول الإسلامية هناك أن تكونه .

كنت أفهم أن مصر يمكنها عن طريق المركز الثقافي الإسلامي بواشنطن أن تلغي وظيفة الملاحق الثقافي بالسفارة المصرية ، ووظيفة مدير إدارة البعثة المصرية من الطلاب في السفارة المصرية أيضاً ، حتى يتركز التوجيه في إشراف واحد ،

وحق يمكن أن يكون للدبلوماسية المصرية في أمريكا اتجاه محدد واضح هو كسب جانب كبير من رأى العام الأمريكى سواء فى الجامعة أو المصنع أو الحياة العامة لمصر والبلاد الإسلامية .

المركز الثقافى الإسلامى فى واشنطن كما أفهمه ليس داراً للتبشير، وإنما هو معهد لتيسير أمر المسلمين عليهم فيما يعتقدونه ويؤمنون به ، ولتوضيح التعاليم الإسلامية وأنها كفيلة ببناء مجتمع قوى فى خلقه وفى توجيهه ، وفى إفادته من الحياة وفى نفعه للحياة والمجتمع البشرى كله ، وأنها كفيلة بدعم صلاة الأخوة فى الإنسانية بين الشعوب ، وأنها تهدف فى النهاية إلى طمأنينة الناس ، وتأمينهم من الخوف فى جميع مظاهره . وهذه الرسالة يؤدبها المركز الثقافى ، لا الملحق الثقافى ، ولا مدير البعثة التعليمية المصرية .

هذا ما أدركه فى وظيفة المركز الثقافى بواشنطن ، وإن خالفنى فيما أدركه شيخ الأزهر الحالى كما جاء فى حديثه فى أهرام ١٤/٥/١٩٥٤ من أن الفائدة التى تحصل من هذا المركز ومن المركز الآخر فى لندن لا تساوى عشرة جنيهات ، رغم أنه يصرف عليهما عشرة آلاف من الجنيهات ،

ولكن ماذا يصنع مدير المركز الإسلامى فى واشنطن ، وليس لممثلى الحكومات الإسلامية هناك أى عون مادى أو أدبى ؟ ماذا يصنع وهو وحده وعمل المركز - كما ينبغى - يتطلب عدداً من العلماء الباحثين والمعلمين والموجهين ؟ ويتطلب مالا للإنفاق على البحث والنشر والاتصال ؟

٦ - الأزهر ورسالة فى الخارج :

إن الحديث عن « الإسلام فى أمريكا » أو عن الإسلام فى أى بلد خارجى يدفع صاحب الحديث وسامعه إلى الأزهر . إذ أصبح هناك تلازم فى عصرنا الحاضر بين الأزهر وأداء رسالة الإسلام . وليس هذا التلازم فى ذهنى لأنى أزهري ، ولكنه أيضاً فى أذهان الأجانب ديناً أو بلداً . ما زرت جامعة إلأوستل عن الأزهر ، وما زرت مجتمعاً إسلامياً إلا وأبدت رغبة أو رغبات فى تقديمها للأزهر ، وما زرت مكتبة من المكتبات الجامعية أو العامة فى أمريكا ، إلا طلب

إلى تبادل الكتب والمجلات العلمىة ، ومقالات العلماء الأزهرىين . وما حضرت
جلسة من جلسات المؤتمر الإسلامى فى جامعة برىنستون إلا ونظر إلى على أنى
المقدم من علماء البلاد الإسلامىة لآنى أزهرى النشأة والثقافة .

الأزهر الذى يعىش فى رمال المقطم الآن ، ويعىش أبناؤه فى قبور الأحياء
وبالقرب من مساكن الأموات مصدر فخار ومجد لمصر فى الخارج .

الأزهر الذى أصبحت كلياته الثلاث معبداً لتخريج المدرس العربى فى
مدارس وزارة المعارف ، يعرف عنه الأمريكىون والأورىيون أنه الجامعة
الإسلامىة الوحىة التى حفظت التراث الإسلامى قرابة ألف عام ، والتى ساهمت
فى الحركات الإسلامىة وبالتالى فى الحركات القومىة فى الشرق الإسلامى .

لمصلحة مصر أولاً ، ولمصلحة العالم الإسلامى ثانياً : يجب أن يعمل أولوا
الأمر فىنا على أن يؤدى الأزهر رسالته كجامعة ومركز دولى للإسلام ولرسالته .

إن مصر فى سياستها الخارجىة الواقعىة فى حاجة ماسة إلى كسب شعور
المسلمىين فى الخارج ، وفى حاجة ماسة إلى توضىح مصر الإسلامىة بين غير المسلمىين
فى البلاد الأخرى . والأزهر وحده لا غىره . هو الكفىل بالمساهمة الفعالة
فى تحقىق نصىب كبرى من السىاسة الخارجىة لمصر .

لمصر أن تعرض من التحف القدىة ما تشاء فى أوربا وأمريكا ، وأن تعرض
من صور المنشآت الحدىثة فى القاهرة والاسكندرىة وعلى النيل ما تشاء فى أوربا
 وأمريكا ، وللمصرىين أن يتزىوا نساءً ورجالا بزى الأورىيين والأمريكىين .
ولكن الأورىيين والأمريكىين لا يفهمون المصرىين والمصرىيات على حقىقتهن
إلا إذا زال من تصوراتهن تلك الصور المشىئة البغىضة عن الإسلام التى رسمها
الاستعمار فى الشرق الإسلامى منذ أجيال طويلة .

الاستعمار الذى نحارب الأزهر والثقافة الإسلامىة ونال منهما فى فترات
متعددة . والىوم الذى يحثو الأزهر فىه على قدمىه - لا قدر الله - هو الیوم الذى
ینقطع فىه الشرق الإسلامى عن ماضىه الثقافى ، وهو الیوم الذى یفقد فىه هذا الشرق
أخص مقوماته ، وهو الیوم الذى تفقد فىه مصر مصدر القوة الروحىة فىها .

لَكِنْ قَالَ شَيْخِي

محاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوى
الأستاذ فى كلية اللغة العربية

حان لنا أن نعيد إلى ما خطه قلم النبىء اليلعى فى حكمه على (الأخين)
فى قول عَقِيل بن علفة المرى :

وكان بنو فزارة شر عم وكنت لهم كشر بنى الأخينا
أنه (الأخ) ولم تحدث فيه زيادة الياء المتولدة عن الكسرة المشبعة والنون
المجوبة بعدها معنى جديداً ، فما زال مفرداً ، وما هى إلا زيادة لفظاً ملغاة معنى .
وهذا الاستعمال ليس بيدع اختص به الأخين فى البيت ، فهو معهود فى اللغة
العربى ، وطريقة مسلوكة فى الفصحى : شعرها ونثرها ، مما جاء على نهجه ووفاقه
فما اعتمد عليه من شواهد .

ولإزاء هذا البيان قسمت حديثى معك اليوم قسمين : الأول فى مدلول
(الأخين) - والثانى فى التعليق على النظر والمثيل مما استند إليه فى الاعتزاز
بصحة حكمه .

أما حقيقة الأخين فغير حقيقة الأخ ، فإن الأخين جمع مذكر سالم ، وفيما
أسلفت من شواهد ناطقة بجمعيتها مقنع أى مقنع فى المقال الأول (١) .

وأبدأت وأعدت القول عن جمعيتها ، وأنها صارت بينهم سلفاً فى العصور
الأولى للندوس مثالا يحتذى للبناء على نمطها فى باب التمرين عند الصرفيين ، كما حدث
بن الفراء وسيبويه فى المقال الثالث (٢) .

(١) راجع العدد الثالث من السنة الخامسة لمجلة رسالة الإسلام .

(٢) راجع العدد الأول من السنة السادسة للمجلة .

وأما التعليق على النظائر والمسوغات التى دعم بها رأيه فى حسابانه (الآخين) مفردا ، فكما تعهدت لك أمس الدابر ، سنتناولها موحداً لأن الكلام على كل مسوغ باعتباره وحدة كافية فى الاستدلال أجدى فى الفائدة وأجزل فى العائدة ، فهات أولها .

قلت : هذا حقاً منهج تربوى تهفو نفسى إليه ، لأنه وسيلة الإيضاح فى تثبيت المعلومات .

أشيخى - أول هذه المسوغات أن اللغة لرحابة بهوها وانفساح ساحها أباحت فى الاختيار - وهو مثنة الانصياع لتعاليمها ، وعدم الخيود عن سنتها ، ولا سيما (آيات الكتاب الكريم) - ما هو أبعد من (الآخين) فى البيت ، فقد ورد فى المحكم فى سورة الصفات : د سلام على إلياسين ، فى ختام قصة إلياس عليه الصلاة والسلام المبدومة بقوله عز من قائل : د وإن إلياس لمن المرسلين ، والمحدث عنه فى القصة واحد هو الرسول إلياس .

على أننا إذا وازنا بين الأخ الذى استحال فى البيت (الآخين) وبين إلياس الذى تحول فى نهاية القصة القرآنية (إلياسين) رأينا البون شاسعاً ، ففى الأخ أشبعت الكسرة الأصلية للإضافة فنشأت الياء وردفتها النون ، ثم ألف لإطلاق الشعر ، وأما إلياس فقد عمد فيه إلى إزالة الفتحة الأصلية وجيء مكانها وبدلها بالكسرة ، وجرى على هذه الكسرة الطارئة ما يجرى على الأصلية فأشبعت هذه الكسرة العارضة فتولدت الياء ثم ذيلت بالنون ، فالكسرة المحدثه للياء فى الأخ أصلية ، وفى إلياس مجلوبة لتساير كسرة الأخ حتى يلتقى اللفظان : الآخين وإلياسين فى النهاية على سمت واحد وهو معنى المفرد الذى دلا عليه قبل عروض الزيادة .

فكيف بعدئذ يحوم الشك ويجرى فى الوهم التفرقة فى المعنى بين الأخ والآخين ؟ وخصوصاً فى الشعر مع الاتحاد بين إلياس وإلياسين ، كما تنطق به الآى الشريفة .

فمن ناحيتين لامندوحة من التسليم في تفرع الأخين من الأخ: أصالة الكسرة والضرورة، والضرورات تبیح المحظورات .

وهذا توجيه تغفل تأثيره في ذهنی ، وأراني مأخوذاً بالإذعان له لوجاهته وبدوّ قیاسه الأولوی .

قال - علی رسالك ، قرب عجلة تهب ريثما ، لقد عرضت أول دليل يستنتج منه مطاوعة اللغة في زیادتی الأخین علی الأخ ، ألا وهو القیاس علی إلیاسین فی إلیاس : وهذا لعمری فی القیاس بدیع .

إن المقيس علیه دائماً يكون مسلم الحكم ليتجه إليه القائس في حمل غيره عليه مما خفي حكمه بالنسبة الجامعة بينهما ، ولا أعرف في السكّات الدائرة في الأساليب العربية لإحلال كسرة محل فتحة في (الاختیار) ثم التعويل عليها ومدها لتولد ياء الإشباع منها كما في (إلیاسین) .

أصبح بعدئذ أن نعتبر هذا العمل الذي لا عهد لنا به أصلاً لتجاربه ونحمل عليه غيره مما فيه الكسرة أصلية ومع ذلك في (النظم) ؟ .

ولو عكست القضية وعُدّ العمل المظنون في إلیاسین مستنداً إلى مسایرته للأخین علی أى ملاحظة دارت في الخلد ، لكان ذلك في ميدان النقاش محتماً ، وإن أباه واقعية الأمر لأول وهلة

منشأ هذا المبحث :

إن منشأ كل ما سلف من هذا الحديث الطويل الذي كثر فيه الأخذ والرد ، والافتراض والنقض : هو الزعم أن الفتحة في إلیاس حارت كسرة تولدت عنها الياء فزبدت بعدها نون ، وتمخض عن ذلك : إلیاسین ، وأن هذا العمل مسنون متبع في العربية ، فلا نكران علی الأخ أن يؤول إلى الأخین .

وسترى قريباً أن ذلك لم يخطر غلي بال لحالاتها ، وإنما كان حديثهم يدور عنها في اتجاه آخر هو : هل إلیاسین لغة أخرى في إلیاس دون نظر إلى أبتنائها عليها ؟ ذاك رأى كثيرين ، لأن القليل جنح إلى جعلها جمعاً لإلیاس .

وفى يأتى قريباً التفصيل عن بيئة للقولين مع الموازنة بينهما .
والمقصود أولاً وآخرأ الإنكار على جعلها مفرعة عن إلياس بواسطة الإتيان
بكسرة بدل الفتحة .. إلخ ما مضى .

ذلك هو مشار هذا الحديث المسهب الذى يبدو لى بعده أن اتجه اتجاهها آخر
اختصر فيه الطريق ، فأفطر لى أساس الموضوع ، إذ أنه طال حبل ، الدلو والمستقى
قريب من يد المتناول ، لأن المسلك السابق مبنى على التسليم ، والجواب بالمنع
أولى وأقرب .

ذلك أنه لا صلة بين الأخين وإلياسين ، فالأولى عربية والثانية عجمية ، ففى
اللسان مادة (ألس) : وإلياس اسم أعجمى ، و(ليس) : وإلياس اسم قال ابن سيده
أراه عبرانياً ، وفى القاموس (ألس) : إلياس علم أعجمى ، وفى الإتيان للسيوطى :
وإلياس بهمزة قطع اسم عبرانى .
فلا مراء أنهما متباينان منبتاً ولا يتماثلان استعمالاً .

إن العربية لا ترنو لى العجمية ، لأنها ليست من فصيلها ، والعربى التُّح
لا يومض للهرزية ومن يحاكيها من العجاوات ، وقد دهش من استلاب فؤاده
وهيئ شوقه عند هديل الحمام مع عجمته ، حميد بن ثور الهلالى :

وما هاج هذا الشوقَ إلا حمامةٌ دعت ساقُ حرٍ فى حمام ترنما
عجبت لها أننى يكون غناؤها فصيحاً ولم تَفْغَرِ بمنطقها فها
فلم أر مثلى شاقه صوت مثلها ولا عربياً شاقه صوت أعجا (١)

غرى أن يذهب ما تمكن من قلبك ياصنى ، بل لا يبقى رسيه فى خلدك ،
بعد ما اهديت لى الحق ، وأن الأخين جمع مذكر سالم لأخ بفضل علامتى الجمع
المعتبرتين لا الملماتين ، وهى عربية ، وأن إلياسين مفرد على أنه لغة أخرى

(١) ساق حر : ذكر القمارى أو لحن الحمامة ، وترنما : صوت بما لا يفهم ، وتغفر : تفتح ،
والأيات من قصيدة بلغت تسعة عشر بيتاً بعد المائة . راجع ديوان حميد طبع دار الكتب .

أو جمع مذكر سالم بالعلامتين المعروفتين أجمية ، والالتفات إليها لا يحدى في اعتبار الآخرين مفرداً ، مزيداً فيه للضرورة .

لقد لبثنا طويلاً في الحديث العلى ، واستدامة التفكير فيه مَجْهُدَةٌ للذهن ، وقد قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة ، فيجمل أن يتخلل المجلس ما يستريح به القلب ، وتستجم به النفس ، حتى يعود لها نشاطها ، وفي ثنايا الأدب العربى طرائف تنفك بواحدة منها . وما أطف أن تشابه ما نحن فيه ، وتدور حول نقد يعود على ملاحظة مناطها عدم اتساق أو انسجام أو اتصال أو تقارب فيما قيل فى أى شأن من الشؤون ، والشئ بالشئ يذكر ، فقد حضرني ملححة :

ملححة :

روى الأصهباني فى الأغاني بعده سنده : (حدثني بعض أصحابنا عن أبى نواس أنه قال شاعران قالا بيتين : وضعا التشبيه فيهما فى غير موضعه ، فلو أخذ البيت الثانى من شعر أحدهما فجعل مع بيت الآخر ، وأخذ بيت ذاك ، فجعل مع هذا لصار متفقاً معنى وتشبيهاً ، فقلت له أتى ذلك ؟ فقال : قول الفرزدق لجرير :

فإنك إذ تمجوا تميماً وترشى تباين قيس أو مسحوق العنائم
كهريق ماءٍ بالفلاة وغره سراب أذاعته رياح السهائم (١)
وقول ابن هرمة :

ولانى وتركى ندى الأكرمين وقد حى بكفى زنداً شحاحاً
كتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحاً (٢)

(١) تباين : جمع تباين وهو سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط يكون للملاحين . والمسحوق : جمع سحق وهو الخلق البالى ، وإضافته إلى العنائم من إضافة الصفة إلى الموصوف ، وفيه التأويل المعروف عند النحاة فى قول العربى سحق عمامة . والسهائم : جمع سموم وهى الريح الحارة .

(٢) زند شحاح : لا يورى . والعراء : الفضاء لا ستر به .

فلو قال الفرزدق :

فإنك إذ تهجو تيمًا وترثى تبابين قيس أو سحق العائم
كبتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحا
لكان أشبه منه ببيته ، ولو قال ابن هرمة مع بيته .

ولمى وتركى ندى الأكرمين وقد حى بكفى زندا شحاحا
كهريق ماء بالفلاة وغره سراب أذاعته رياح السمائم
كان أشبه به (١)

نقد الحاذق الحكيم الشاعرين في تشبيههما لعدم الاستحكام في التجانس بين المشبه والمشب به عندهما ، ذلك أن الفرزدق يوبخ جريراً على ذمه قبيلته مع ارتشائه قيساً فلا يناسبه أن يكون كهريق الماء المخدوع بالسراب ، وأن إبراهيم ابن هرمة يؤنب نفسه على صدوفه عن الكرماء وطموحه إلى الأشقاء ، فلا يحاكي التاركة بيضها بالفلاة المحتضنة بيض غيرها . ثم استحسن التقارض بينهما في المشبه به ، حتى يستقيم لهما تشبيههما . وإنه لحق لا وهم فيه .

إن تمنى الحكيم في التعاكس بين التشبيهين قن بالتقدير .

قلت : لأنها للملحة ، فيها للروح متعة ، لأن النقد فيها من طراز يعز مثله ، فعمدى بالنقد أن يثرب الناقد على الشاعر مستحسننا أنه لو قدم ، أو بدل ، أو حذف ، أو تأمل ، إلى آخر ما يعن له ، أما أن يهجنه مع شاعر آخر ، ثم يرأب ما أنأت غفلتهما باستعارة صنيع الأول للثاني والثاني الأول ، فذاك ما لم اسمع به من قبل ، ولكن ابن هاني باقعة يقع على ما لم يبصره غيره .

بقى لي بعد هذا استفهام في هذا النقد عن أمر لا يتعلق بجوهر الموضوع ، إنما يتعلق بقتال البيتين الأولين ، من هو؟ فينأيدنا الأغاني وقد نسب فيه البيتين الأولين لجرير على لسان أبي نواس مرتين : في النقد وفي التمى لتلافيه مع أنك

(١) الأغاني أخبار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ص ٤١ - ٤٢ - ٩ طبع الدار .

نسبتهما للفرزدق فيهما - والارتباط بين الشعر وقائله وثيق ، لأنه من أقوى العوامل المعينة على فهم الشعر والإحاطة بما يرى إليه . فهل ما في الأغاني خطأ ؟
ما في الأغاني خطأ :

قال : ما في الأغاني خطأ ما في ذلك من شك ، ومنار السالك لليقين يرشد إليه أمران : الأول نزعة كل من الشعارين في اتجاهاته مدحاً وهجاء طوطاً لوضعه الطبيعي ، الثاني رواية القصيدة التي منها هذان البيتان ، فيم ومتى ولم قيلت ؟

الأول : يلتقي الشعاران نسباً في حنظلة الذي ينتهي نسبه إلى تميم ، فإذا تفرق أحدهما الآخر من ناحية الأجداد متعرضاً لمنازلهم منقبا عن سوءاتهم لا يتجاوز حنظلة بجمعهما ، فمن فوقه من باب أولى إلى تميم فمن علاه إلى إلياس بن مضر ، ويفترقان في خؤولتهما ، فخؤولة جرير تجتمع مع عمومته في كليب بن يربوع ، وخؤولة الفرزدق في بني ضبة ، فكان تهارشهما وملاحاتهما في خؤولتهما ، وفي الآباء إلى حنظلة فيا واناها الشعر المسف والهجاء المقذع .

ولقد خلف هذا التهارش ثروة ضخمة في الأدب العربي ، استبقت له أحداثه الجلي ، محيطة بالتعريف عنها زماناً ومكاناً وصيماً ، كما حافظت على أعلام الأناشي والأيام والأماكن في سجلها ، ولولاها لعراها المسخ والتغيير والتحريف .

ولذا فإن الأدباء جد حريصين على النقائض بين جرير والفرزدق كنز أدب ونقد وتاريخ .

أرث التنافس في الخطوة المسادية والأدبية نار الملاحاة والتهاجي بين الشعارين ومن ورائهما عشائرهما تغريهما بكل حافز حتى ألقيا بأنفسهما في تنزور الاضطراب الذي أقض مضاجعهما فلم يألوا جهداً في السباب ، وكان الغلب بينهما سجلاً .

كان جرير يعوزه المال ، فلم يجد بداً أن يشيم كل برق يعقبه المطر الهطال ولا ينخرج أن يستجدي بعد الخلفاء والأمراء سادة قيس ، فيتغنى بمواقف قيس المشهورة ، ويدون انتصاراتهم الرائعة ، بينما كان يحط من شأن أجداد الفرزدق ، الذين لإلهم آلت مكانة الجد الأعلى تميم ، فالغرض منهم غرض من تميم ،

فيثور الفرزدق على جرير في قلبه الوضع وركوبه رأسه لهجائه تيمما ومدحه
قيساً لارتشائه منهم تلك الثياب التي لا تستر ، والعائث البالية ، فهو كالسائر في
الصحراء معه المساء يلقيه من يده مخدوعا بالسراب المذاع من الرياح اللافة الذي
يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجه الشبه كما ترى .

واستغراب الفرزدق عقوق جرير تيمما ردهه كثيراً ، فمن ذلك قوله .

أسكرانَ كان ابن المراغة إذ هجا تيمما بجوف الشام أم متساكر (١)

وفي هذا البيت نزه بقلب لأمه امتهاناً له وإخاشاً في أمه ، وشاع هذا النثر
وعلق بجرير طوال أيامه .

أما الفرزدق فكان أكثر منه مالا وأعز نفراً ، فلم يكدح في الكد على عيشه
ويطرح نفسه كل مطرح ، ويمتدح أحداً إلا في فترات حملته ظروفها وملابساتها
عليه ، كما لم يدع الافتخار بأسلافه والمباهاة بعشيرته في أخرج المواقف وأدعاها
إلى التظامن والخنوع ، ففي ذات يوم مثل بين يدي الخليفة سليمان بن عبد الملك
فاستنشدته شعراً ، وأضمر أنه لا بد مادحه ، فأنشدته شعراً يشيد فيه بأبيه غالب ،
من ذلك :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب
سرواً يخبطون الريح وهي تلفهم إلى شعب الأكواز ذات الحقائق
إذا أبصروا ناراً يقولون ليها - وقد خصرت أيديهم - نار غالب (٢)

فتمتعر وجه سليمان وأعرض عنه كالمغضب ، ولم يباله الفرزدق انكاه على
عصبته أولى القوة . ولما حج هشام في عهد أبيه عبد الملك أعياه الوصول إلى
الحجر الأسود في الطواف حول الكعبة لكثرة الزحام ، فلما أقبل على

(١) المراغة الأتان التي لا تمتنع عن الفحول ، والبيت من شواهد الكتاب ص ٢٣ ج ١

(٢) ترة : نأراً ، والعصائب : جمع عصابة وهي الهامة تعصب على الرأس ، والأكواز :

الرحال ، والحقائب : جمع حقيبة ، والمراد بها هنا كساء على عجز البعير ، وخصرت اشتد
عليها البرد .

زين العابدين ، وطاف ففتحى الناس له عن الحجر واستله ، قال شاعراً مشدوها :
 مَنْ هذا ؟ فقال هشام : لا أعرفه ، فأشدد الفرزدق على البديهة القصيدة المشهورة .
 راداً عليه ، فزجه فى السجن ، فشفى غيظه وقال مستهزئاً وعائباً بما لا ينبغي التفوه
 به ، وهشام ابن الخليفة ، ومرشح أن يصير خليفة :

أحبسنى بين المدينسة والى إليها قلوب النامس يهوى منيها
 يقطب رأساً لم يكن رأس سيد وعينا له حواء باد عيوبها
 بما حمله على إطلاقه على الرغم منه .

رجل تلك شفتته لا يقبل الذوق أن يوجه له الببتان ، بلى يوجهان لجرير
 المنهات على نوال قيس الزارى على تميم .

الثانى : أن البتين من قصيدة طويلة للفرزدق معدودة من روائع شعره قالها
 شامتاً حين قُتِل وكيع بن أبى سود التميمى قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى لخروجه
 عن طاعة الخليفة سليمان بن عبد الملك فى يوم اضطرب فيه جبل الأمن فى خراسان
 سنة ست وتسعين ومنها يخاطب جريراً :

تغيرنا أيام قيس ولم ندع لعَيْلان أنفاً مستقيم الحياشم
 وما أنت من قيس فتنبح دونها ولا من تميم فى الرؤوس الأعظم
 فلم ين جرير فى الرد على الفرزدق بنقيضة تناهض قصيدته .

ومنها على سبيل التمثيل :

تُحَضِّضُ يابن القين قيساً ليجملوا لقومك يوماً مثل يوم الأراقم

* * *

ولانى وقيساً يابن قين مجاشع كريمٌ أصنى مدحى الأكارم

* * *

إذا عُدَّتْ الأيامُ أخزين دارما وتخزيك يابن القين أيام دارم (١)

(١) القين : الحداد ، والأراقم : قبائل من تغلب سموأ بذلك لأن عيونهم تشبه عيون الأراقم
 (الحيات) ، ويوم الأراقم كان لقيس عليهم وهو من الأيام المشهورة .

ففى البيت الأول يحذر الفرزدق فى تحديه قيساً بسوء العاقبة ، وفى الثانى يخطئه فى زعمه السكاذب فى ارتشائه لأنه كريم يخص الأكرمين بثنائه ، وفى الثالث يكشف له مخازى دارم ، فليس لهم يوم خالد فى صفحات الماضى ، وفى الأبيات الثلاثة نبزه بلقب لاييه ، إذ جعله قينا ، وتلبس جرير هذا النبز من نزول قيون عند جده الأدنى صمصمة وإقامتهم معه ، وسحب هذا النبز من جده الأدنى على جده الأعلى مجاشع ، ثم اعتبر هذه المهنة الحقيرة صناعة مجاشع وفروعه ، فالفرزدق قين ابن قين الخ ، وحلا لجرير هذا النبز كما ترى فى الأبيات الثلاثة ، وهكذا كل هجاء منه لا يخلو عنه ، بل لقد أسرف فى الأكثار منه أحيانا إغلا فى التنكيل ، من ذلك مثلاً قوله :

هو القين وابن القين لا قين مثله لفظح المساحى أو لجدل الأدام (١)

واند اتخذ بعض الشعراء هذا البيت فسكاهة يتندر بها على الفرزدق .

دعابة :

لقبه يوما خلف بن خليفة وهو شاعر ظريف دّعاب راوية ، إلا أنه (أقطع) - له أصابع من جلود ، فقال له يا أبا فراس ، من الذى يقول :

هو القين وابن القين لا قين مثله لفظح المساحى أو لجدل الأدام

فأجابه على البديهة بما أخجله واستخذى منه ، قال : هو الذى يقول :

هو اللص وابن اللص لا لص مثله لنقب جدار أو لطرّ الدراهم (٢)

فلم يحرف جواباً وأختم (حذو القذّة بالقذّة) (٣) وموطن التعجب هنا براعة الفرزدق وسرعة خاطره ومواناة قريحته فى قرضه بيتاً على وزن ، وروى بيت جرير لم يتخلف عنه فى هجر اللفظ وفاحش المعنى . ولنعُد إلى ما نحن بسبيله .

(١) المساحى : جمع مسحاة : الآلة التى يحرف بها الطين وتقشر بها الأرض ، وفتحها :

تعريضها وتسويتها ، والإدّام : القيود ، وجدها : لإحكام صنعها .

(٢) طر الدراهم : خلسها ، ونقب الجدار وطر الدراهم يزاوهما اللص .

(٣) القذّة فعله بمعنى منعه : الربشة المقذوذة (المقطوعة) على قدر صاحبها فى التسوية

وهذا مثل فى الميدانى (الحاء) يضرب فى التسوية بين الشيئين .

لقد تبادل الشاعران : جرير والفرزدق الشتائم والسباب بكل قارصة من القول في قاموس الشتائم ، يعثران عليها طيلة أيامهما حتى توفي الفرزدق .

ولما علم جرير بوفاته بكى ، فقليل له يا أبا حذرة ما أبكاك ؟

قال : بكيت لنفسي ، إنه والله قل ما كان اثنان مثلنا ، أو مصطحبان أو زوجان ، إلا كان أمد ما بينهما قريبا ، وكذلك كان ، فإنه مات بعده بنحو ستة أشهر .

قلت : ما كنت أتوقع عند سؤالى عن نسبة البيتین لجرير كما فى الأغاني ، بعد سماعى منك نسبتهما للفرزدق - أن تفيض فى البيان بما لا يدع خلجة شك فى نسبتهما للفرزدق كما قلت ، لا من ناحية المعنى ، لأنه يخالف الواقع المعروف ، ولا من ناحية القصيدة التى منها البيتان ، وظنى أن النسبة فى الأغاني عرضت سهواً ، ومرجع السهو إلى المشابهة بين الشاعرین فى جزالة شعرهما ، وتقارب هدفهما فى المعانى .

إلى لأحتسب لك الجزاء عند الله فيما تقدم من معارف يرجع الاستلقات لها إلى ماتوحى به : إن فى مقام البحث العلمى ، وإن فى مستطرف الملح للترويح ، فإن الملحة التى تنفست بها مع ما تلاها ، أعادت إلى النفس نشاطها فى الإقبال والإصاخة والانتباه ، وهى مع ما بعدها تعتبر فى التقنين العلمى بمشابة الجملة المعترضة تقع بين كلامین متصلین معنى ، واعتراض الجملة إعراباً لا ينافى حسن موقعها ، فقد تذهب طلاوة القول وجمال روائه بذهابها ، وفن المعانى فى إطنابه كقيل بماثرها . كنت قبل الملحة وعيت منك ما جلوته عن بيئة فى الآخين وإلياسين ، وأنهما لا يلتقيان ، فانجذاب عن القلب الغين ، وانبلج الصباح لذى عينين .

وحبذا لو تطولت بشرح التفصيل الذى وعدت به فيما فرط من حديثك من قولى العلماء فى إلیاسین ، فإنك الذى استرعت انتباهى إليه ، كما تطولت فى مقالک الماضى ، ومنهوم العلم لا يشجع فذلته فوق لذات الحياة ومتعها .

إلباس - الياسين :

على أنى أصارحك أننى طالما جال فى نفسى سؤالك استمئنافا عن إلباسين ، ولكن قد انساق إليها القول عفواً .

ذلك أنه كثر ما نشب الحوار بين الإخوان فى ندواتهم العلمية حول إلباس وإلباسين ، وتعاطوا فيها كتب التفسير ومعاجم العربيات ، وموسوعات اللغة العربية ، وما حمدت مغبة هذا الحوار مرة لأن ثمرته على الدوام الوقوف عند مختلف الآراء التى لا نكاد نركن إلى أحدها ، وهى ثمرة غير شبيهة .

لانى شيق إلى كلمة فهما معقولة المدرك صحيحة التوجيه أستبقها ذخيرة علمية مضافة إلى الذخائر التى منحتها .

فإنك جدير بما يؤمل فيه ولا يحول رفته اليوم عن رفته غداً ، وقبل أبو تمام حبيب بن أوس الطائى جاء أحمد بن أبى دواد الإيادى بالملن الغر ، فاستزاده أن يوالها بأخرى حتى يكون كمن أسرج بعد أن ألبم فقال :

إعلم - وأنت المرء - غير معلم	وافهم - جعلت فداك - غير مفهوم
أن اصطناع العرف ما لم توله	مستكملاً كالكثوب ما لم يعلم
والشكر ما لم يستثر بصنيعه	كالخط تقرؤه وليس بمعجم
ويفوتنى فى القول لكثار وقد	أسرجت فى كرم الفسعال فألبم (١)

قال : حب شئ إلى أن أفيد وأفيد ، وسأنجز لك ما وعدت ، وعساك تكتفى بإجابة سؤالك اليوم ، فلست أدري ما تفاجأنى به غداً ، لأنه تكشف لى أنك (أسرحسوا فى ارتقاء) (٢) .

(١) اصطناع العرف : اتخاذ المعروف عند الناس ، ولم يعلم الثوب : توضع عليه علامة ورسم ، الفعال : الفعل الحسن ، والايات من شواهد الإيضاح [التشبيه] .

(٢) مثل أصله أن الرجل يوتى باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة فيهربها وهو فى ذلك ينال من اللبن ، يضرب لمن يريك أنه يعينك ، وإنما يحجر النفع إل نفسه .
نهاية العرب ص ٦٠ ج ٣

وأين أنا من ابن أبي دواد الذي قال فيه أحمد بن عبد الرحمن الكلبي :
(ابن أبي دواد روح كله من قرنه إلى قدمه) . لقد استجاب لنداء حبيب حتى
امتلأ لسانه فاخصه بكثير من مدائمه ، وآية ذلك :

لقد أنست مساوى كل دهر محاسن أحمد بن أبي دواد
وما سافرت في الآفاق إلا ومن جدواك راحلتى وزادى

ففي البيت الأول أذهبت محاسنه مساوى الدهور ، ومن هذا ؟ وفي الثاني
عتاده في أسفاره عطاؤه . لقد جاوز الحد في الاطراء (واللها تفتح اللها) (٣) .
يا صني انتصف النهار فأذن الزوال بالمقيل ، فألى يوم آخر تلاقانى فيه ،
قلت : في كنف الله عشت سالماً من الآفات والعلل ؟

[للكلام صلة]

(٣) الله : جمع لهوة وهى العطية ، واللها : اسم جنس جمع واحده اللهاة ، وهى
الهنة المطبقة فى أقصى سقف الفم .

البدعة العربية

وقضية الإعجاز

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد العمري
المدرس بالأزهر

سأل إبراهيم بن إسماعيل من كتاب الوزير الفضل بن الربيع ومن جلسائه ،
سأل أبا عبيدة معمر بن المثنى عن قول الله تعالى : « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » ،
كيف وقع هذا التشبيه والمشبّه به غير معروف ؟ وإنما يقع الوعد والإيعاد بما
عرف مثله ، فقال أبو عبيدة : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت
قول امرئ القيس :

أيقنتني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال
وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به ...
وعزم أبو عبيدة منذ ذلك الحين أن يضع كتاباً في القرآن ، في أشباه هذا ، وما
يحتاج إليه من علمه ، ثم وضع كتاباً (المجاز) ، فكان أول كتاب ألف في
فن البلاغة .

يبدو واضحاً من هذه القصة التي سقناها باختصار ، أن التأليف في جواليان ،
ولد في جو القرآن الكريم ، ولو تتبعنا تاريخ البيان العربي لوجدنا أنه - كذلك -
نشأ وأيقع واكتهل في جو القرآن ، يدلنا على ذلك أن العلماء منذ عهد أبي عبيدة ،
كانوا يضعون نصب أعينهم - حين يؤلفون في البيان - قضية الإعجاز ، وإن كانوا
يضعون بجانب ذلك أغراضاً أخرى ، كعرفة التفسيرى والمتخلف من الكلام ،
وكالقدرة على إنشاء الجيد من الشعر والنثر ، واختيار الجيد منهما ، فإن المتعلم إذا

(فاته هذا العلم ، مزج الصفو بالسدر ، وخلط الغرر بالعرر ... وساء اختياره ، ودل على قصور فهمه) (١)

ويرى السكاكي أن من أهم البواعث على دراسة البلاغة ، طلب الاستعانة على فهم كتاب الله ، فهو يذكر في مقدمة كتابه (المفتاح) أنه إذا كان المراد من علم الأدب مجرد الوقوف على بعض الأوضاع ، فذلك أمر ميسور (أما إذا خضت فيه لهمة تبعثك على الاحتراز عن الخطأ في العربية ، وسلوك جادة الصواب فيها ، اعترض دونك منه أنواع تلقى لأذناها عرق القرية ، ولا سيما إذا انضم إلى همتك الشغف بالتلقى لمراد الله تعالى من كلامه ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) .

ثم يعود في مقدمة علم المعاني والبيان ، فيقول : (وفيما ذكرنا ما ينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقدس من كلامه ، مفتقر إلى هذين العليين ، كل الافتقار ، فالويل كل الويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيهما راجل) .

وهذا كلام سبق به عبد القاهر حين قسا بقلبه على بعض المفسرين ، ثم اجم بالجهل ، ووسمهم بالفغلة ، وجعل مرد ذلك إلى أنهم لا يحسنون فهم الدقائق والأسرار ، وردده الزخشري في مقدمة كتابه (الكشف) ، حيث نقل قول الجاحظ (وليس كل ذى علم يستطيع أن يغوص على أسرار التفسير ، وأن يدرك لطائف الآيات) ثم جعل القدرة على ذلك وقفاً على من برع في علمي المعاني والبيان .

ومن العلماء من جعل الغاية الوحيدة من دراسة علوم البيان ، معرفة سر الإعجاز ، ويبدو ذلك واضحاً في كلام عبد القاهر في دلائل الإعجاز ، وابن خلدون في المقدمة (واعلم أن ثمرة هذا الفن - يريد البيان - إنما هوفى فهم إعجاز القرآن) .

ويرى القائلون بالصرقة ، أن دراسة البلاغة أيضاً ضرورة لفهم إعجاز القرآن فإن هذه الدراسة تحقق للدارس معنى الفصاحة ، فهو في حاجة ماسة إلى دراسة فصاحة القرآن (ليقطع أنها كانت في مقدورهم من جنس فصاحتهم) .

(١) من مقدمة كتاب الصناعتين للسكري .

هذه هي جماع الأغراض التي ذكرها القدامى والمحدثون من دراسة البلاغة ،
فهل استطاعت أو تستطيع هذه الدراسة أن توصلنا إليها ؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نحب أن نفصل القول في الطرق التي سلكها
العلماء في هذه الدراسة ، ويبدو لنا واضحاً أن الدراسة في علوم البيان اتخذت
مناهج ثلاثة :

الأول : الطريقة النقدية ، وهي طريقة تعنى بالشواهد وتحليلها ؛ ويمثلها
عندى كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري .
الثاني : الطريقة التعقيدية ، وهي طريقة تعنى بوضع الضوابط ، والتسديق
في تحديدها ، ويمثلها عمل السطّاكي ومن تابعه .

الثالث : الطريقة الوسطى ، وهي طريقة تجمع بين الطريقتين السابقتين ، فهي
تعنى بالشواهد ، كما تعنى بالقواعد ، وإن كانت لا تدقق في الضبط كطريقة
السطّاكي ، ويمثلها كتاب « الصنائع » وما أشبهه ، ثم نعود إلى السؤال ، فنقول
في الجواب عنه : إن الأغراض الأخرى غير الإعجاز قد تحقّقها الطرق الثلاثة ،
وإن كان بعضها أكثر إعانة على هذه الأغراض من بعض ، غير أن بعض الباحثين
من المحدثين لا يرون للطريقة السكاكية جدوى ، بل يراها بعضهم تؤدي إلى عكس
المقصود ، وفي ذلك يقول الشيخ عبد العزيز البشري ، بصراحته المعهودة ، وبخبرته
اللاذعة : (فوق التعقيد الشديد في عبارات هذه الكتب ، والمبالغة في إيهامها
وغموضها ، فإن ملاك البحث فيها إنما هو الجدل اللفظي ، والاعتساف في بحوث
فلسفية لا غناء لها في صنعه البيان ، بل إنني لأزعم أنه لو كان هناك من يريد التخلص
من فصاحة اللسان وفصاحة البيان ، فليس عليه أكثر من أن يدرس هذه الكتب
حق درسها ويدرس النظر فيها ، ويقرب في عباراتها لسانه وفكره ، ليكون له كل
ما يحب إن شاء الله ! .

أما الإعجاز ، هل تمكن معرفته أو لا تمكن ؟ فهذا فتق

يرى الشيخ عبد القاهر أن معرفة أسرار الإعجاز ممكنة ، وأن دراسة البيان هي الوسيلة لهذه المعرفة (فإذا كنت لا تشك في أن لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا أن الوصف الذي له كان معجزاً قائم فيه أبداً وأن الطريق إلى العلم به موجود ، والوصول إليه ممكن ، فانظر أى رجل تكون إذا أنت زهدت في أن تعرف حجة الله تعالى ، وآثرت فيها الجهل على العلم ، وعدم الاستبانة على وجودها ، وكان التقليد فيها أحب إليك ، والتعويل على علم غيرك أثر لديك) (١) .

ويرى السكاكي أن معرفة أوجه الإعجاز عن طريق الدراسة أمر غير ممكن (نعم للبلاغة وجوه متلزمة ربما تيسرت اماطة اللثام عنها ، لتجلى عليك ، أما نفس وجه الإعجاز فلا) ولكل من هذين العالمين الجليلين أنصار ومشايعون .

المعرفة والإدراك :

لقد طال القول في إمكان معرفة الإعجاز ، وعدم إمكانه ، وأطال الشيخ عبد القاهر ، وفصل القول تفصيلاً في رأيه ، وأصر السكاكي في أكثر من مناسبة على أن هذه القواعد ليست الطريق لمعرفة أسرار الإعجاز ، ثم رأيتُ كلاماً عجيباً للعلامة ابن خلدون ، وهو كلام جديد ، لعله كذلك وسط بين الرأيين ، رأيته يفرق بين المعرفة وبين الإدراك ، ويرى أن معرفة الإعجاز ممكنة عن طريق دراسة البلاغة ، أما إدراكه فغير ممكن عن طريق هذه الدراسة : « واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هو في فهم إعجاز القرآن . . . وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه ، وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي ، وحصول ملكة ، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه » .

ويمكن بسهولة أن نفرق بين المعرفة والإدراك ، ونضرب لذلك مثلاً بدراسة العروض ، فبعض الناس يعرف سلامة البيت واعتلاله عن طريق هذه الدراسة ،

(١) دلائل الإعجاز - فاتحة المصنف في مكانة علم البيان ، ص ٨ ط دار المنار

فهو ينظر إلى البيت يعرضه على ما عرفه من البحور وقواعدها ، ويتبين ما فيه من زحاف وعلة ، ويحكم بما يجوز من ذلك وما لا يجوز ، فهذا عارف ، وبعض آخر له أذن موسيقية تحسُّ نُبو الوتر - كما يقول حافظ إبراهيم - يحكم على البيت بالصحة أو بالاعتلال بمجرد سماعه ، وهذا هو الإدراك .

الذوق هو الحكم :

إذن ما هي الوسيلة التي نعرف بها الإعجاز - على ما يرى السكاكي - أو ندركه على ما ذكر ابن خلدون ؟ الوسيلة هي الذوق ، وقد ظهر ذلك واضحاً من كلام ابن خلدون ، وليس هذا الأمر بأقل وضوحاً في كلام السكاكي ، بل إنه ذكره وأكدّه ، وأصر عليه وكرره في كتابه ، فمرة يقول بعد أن ذكر أوجها أربعة للإعجاز : (يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أوجه الإعجاز ... ولا استبعاد في إنكار هذا الوجه من ليس معه ما يطلع عليه ، فكم سبحانه الذيل في إنكاره ، ثم ضمنا الذيل ما إن تنسرد) ويقول في موضع آخر : (ومدرّك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا) .

وينسب الإمام الخطائي هذا الرأي إلى الأكثرين من علماء النظر ، فيقول : « ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز في القرآن من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصفوا فيه إلى حكم الذوق » .

ويرى ابن سنان الخفاجي ، أن العلة في المفاضلة بين الكلمات كثيراً ما نخفي ، ولا مدرّك لها إلا الذوق ، ويسوق هذا المثال « وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصناً أو فتنناً أحسن من تسميته عسلوجاً ، وأن أغصان البان أحسن من عسلج الشوخط في السمع ... كل ذلك لما قدمته من وقوعه على صفة يسبق العلم بقبحها أو حسننها من غير معرفة بعلمتها أو بسببها » .

هذا ، وما أظننا نحتاج إلى كثير من الجدل لنثبت أن كل روائع الجمال سواء كانت في الطبيعة أو في المنون لا يمكن إدراكها إدراكاً حقيقياً بواسطة الابانة

عن أوصافها ، لجمال الزهرة ، والجمال الانساني ، وجمال النحت والتصوير ، والموسيقى ، والكلام ، كل ذلك يدرك على حقيقته عن طريق الذوق ، وقديما قال بعض الخلفاء العباسيين لإسحق الموصلي : صف لي جيد الغناء ، فقال : يأمر المؤمنين إن من الاشياء أشياء تصيها المعرفة ، وتعجز عن أدائها الصفة ، وما قاله إسحق في جيد الغناء هو نفسه الذي يقال في جيد الكلام ، والجيد من الفنون بعامة ، وقد كنت قرأت قصة قديمة وقفت عندها طويلا : كانت عائشة بنت طلحة تنافس بالحسن سكينه بنت الحسين ، فقالت لها سكينه يوماً : أنا أجمل منك ، قالت عائشة : بل أنا ، فاخترصمنا إلى عمر بن أبي ربيعة فقال لأقسين بينكما ، أما أنت يا سكينه فأملح منها ، وأما أنت يا عائشة فأجل ، فقالت سكينه : قضيت لي ورب الكعبة ، فهم إذن كانوا يفضلون الملاحة على الجمال ، وفرق بينهما ، إنك تستطيع أن تصف الجمال وتبين حدوده وقواعده ، ولستك لا تستطيع أن تصف الملاحة ، وإنما تدرك الملاحة بالذوق ، وبالذوق فقط .

والسكاكي قد ربط بين بلاغة الكلام وبين الملاحة حيث يقول : « واعلم أن شأن الإعجاز عجيب ، يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، والملاحة . »

وقد اعترف الجاحظ بالعجز عن وصف الجيد من الكلام ، فقد تذاكر الناس يوماً شعر أبي العتاهية بحضرته إلى أن جرى ذكر أرجوزته المزدوجة التي سماها ذات الامثال ، فأخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب

فقال الجاحظ للنشد : قف . ثم قال : انظروا إلى قوله : روائح الجنة في الشباب ، فإن له معنى كعنى انطرب الذي لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الالسة إلا بعد التطويل وإدامة النظر .

قلت : ووم الجاحظ حيث ظن أن الالسة تستطيع أن تصف معنى هذا الكلام ، أو معنى انطرب بعد التطويل ، وإدامة النظر ، فهما بالغ الجاحظ

في الوصف ، ومهما استعان بقدرته البيانية ، فإنه لن يستطيع أن ينقل إلى القلوب بواسطة بيانه ، هذا الذي أدركه .

ما فائدة علوم البلاغة - إذن - ؟ :

إن الشيخ عبد القاهر يؤكد أن دراسة هذه العلوم ضرورية جداً لمعرفة الإعجاز ، وأنها الوسيلة لها ، ولذلك يرى الصادق عنها كالصادق عن سبيل الله ، ويدق عبد القاهر حين يذكر أن مجرد هذه الدراسة لا يُغني في هذه الغاية ، بل لابد عنده من أن يكون الدارس ذا ذوق يساعده على الإدراك ، لاسيما أنه حاول أن يفاضل في كتابه بين بعض الكلمات وبعض ، ولم يستطع أن يهتدى إلى علة صحيحة ، فهو مثلاً يوجه نظرك إلى أن كلمة « شيء » قد تحسن في موضع وتقع في موضع ، ولكنه لا يذكر لماذا حسنت هنا وقبحت هناك .

والسكاكي وإن جعل الوسيلة لإدراك الإعجاز الذوق ، إلا أنه يرى أنه لا سبيل لتكوين هذا الذوق إلا بطول خدمة علمي المعنى والبيان ، وما دام الذوق الفطري الذي كان عند العرب الذين أدركوا إعجاز القرآن بسلاقتهم ليس موجوداً فلا مندوحة لنا عن أن نُسكِّون أذواقاً جديدة ، ودراسة علوم البيان هي سبيلنا إلى ذلك .

وما من شك في أن دراسة البلاغة على الطريقة النقدية ، وعلى الطريقة الوسطى ، تساعدنا كل المساعدة على الوصول إلى هذه الغاية ، وربما أعانتنا على ذلك الطريقة السكاكية ، إذا استطعنا أن نعرضها في معارض أخرى ، أنصع بياناً ، وأقشرب ثوباً ؟

من محوت مجمع اللغة العربية^(١)

مجمع ألفاظ القرآن الكريم

— ١٢ —

ت و ب

تاب يتوب توباً - من باب قال - : رجع عن ذنبه وأقلع فهو تائب ، ومن مصادره أيضاً : التوبة و المتاب : وتاب الله عليه ، قبل توبته وغفر له .
وفي كليهما معنى الرجوع ، فالعبد يرجع عن ذنبه ، والله يرجع إليه برحمته وغفرانه .
والتواب : الكثير التوبة - يقال لباذلها وقابلها ، فالعبد تواب لكثرة توبته .
والله تواب لكثرة قبوله توبة العباد .

* * *

جاءت هذه المادة في الكتاب الكريم في ثمانية وثمانين موضعاً بلفظ الماضي والمضارع والأمر والمصدر واسم الفاعل وصيغة المبالغة .

* * *

جاء الماضي وهو « تاب » في أربعة وثلاثين موضعاً ، منها ما أسند فيه الفعل إلى الله عز وجل كقوله تعالى : « فتلقي آدم من ربه كلمات فتاب عليه » ، ٢٧/ البقرة والمعنى قبل توبته وغفر له ذنبه .

تاب

(١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد رئيس المجمع .

ومنها ما أسند فيه الفعل إلى العباد على معنى الإقلاع عن الذنب . كقوله تعالى :
 « أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده ، وأصلح فإنه غفور رحيم »
 ٥٤ / الأنعام

يتوب المضارع وهو « يتوب » وفروعه في واحد وعشرين موضعاً ، وهو
 كالماضى في اسناده تارة إلى الله ، وتارة إلى العباد ، وقد أجمعنا في قوله تعالى :
 « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك
 يتوب الله عليهم » ١٧ / النساء .

وجاء الأمر في ثمان مواضع - منها :

١ - قوله تعالى حكاية لدعوة إبراهيم وإسماعيل إذ يرفعان القواعد من
 البيت : « وأرنا مناسكنا وتب علينا » ١٢٨ / البقرة .

٢ - وقوله تعالى : « وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون »
 ٣١ / النور

ولم تجيء كلمة « التوب » إلا في موضع واحد هو قوله تعالى : « غافر الذنب
 وقابل التوب شديد العقاب » ٣ / غافر .

وهي إما بمعنى المصدر ، أى قابل التوبة من عباده ، وإما جمع لتوبة - كلوز
 ولوزة - أى قابل كل توبة .

وجاءت كلمة « توبة » معرفة ومنكرة في سبعة مواضع ، منها قوله تعالى :

١ - « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة » ١٧ / النساء .

يصح أن يكون المراد التوبة التي يتوبها الله على عباده ، والمراد صدور القول
 عنه ، وكلمة « على » أفادت التحقق حتى كأنه واجب لإنجازاً لوعده به - جل علاه -
 وهذا مراد من قال : كلمة على بمعنى من .

ويصح أن يكون المراد توبة العباد ، والمعنى : إنما التوبة التي أوجب الله
 على نفسه قبولها ، وهذا مراد من قال : إن كلمة على بمعنى عند ، وكذلك معنى التوبة
 في الآية التي تلي هذه : ١٨١ / النساء .

٢ — « فصيام شهرين متتابعين توبة من الله » ، ٩٢ / النساء .

المصدر في موضع المفعول له - أى ابتغاء توبة من الله ، أى قبول وغفران .

٣ — « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده » ، ١٠٤ / التوبة . عدى الفعل بكلمة « عن » ، لتضمنه معنى الصفح والتجاوز ، ومثلهما في ٢٥ / الشورى .

وجاء اسم الفاعل من « تاب » في موضعين .

ثابتات

(أ) مرة مجموعاً جمع مؤنث سالماً ، وذلك في قوله تعالى : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منك من مسلمات ومؤمنات قانتات ثابتات » ، ٥ / التحريم .

(ب) ومرة مجموعاً جمع مذكر سالماً . وذلك في قوله تعالى : « التائبون العابدون الحامدون » ، ١١٢ / التوبة .

وحاءت كلمة « ثواب » مفردة وبمجموعة جمع مذكر سالماً :

ثواب

(أ) فالمفردة لم تجيء إلا وصفاً لله عز وجل ، وذلك في إثني عشر موضعاً منها قوله تعالى : « وأنا الثواب الرحيم » ، ١٦٠ / البقرة .

(ب) والمجموعة في موضع واحد هو قوله تعالى : « إن الله يحب للتوابين ويحب المتطهرين » ، ٢٢٢ / البقرة .

وجاءت كلمة « متاب » وهى المصدر من تاب في موضعين :

متاب

أحدهما قوله تعالى : « قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب » ،

٣٠ / الرعد - أى توبتي - وكذا هي في ٧١ / الفرقان .

ت و ر

(أ) تارة .

(ب) التوراة .

(أ) التارة : المرة والكرة ، يقال : فعل ذلك تارة بعد تارة ، أى مرة بعد مرة ، وعاد إلى هذا الأمر تارة أخرى ، أى كرة أخرى .

تارة

وألها منقلبة عن الواو والياء ، وقيل أصلها الهمزة وخففت لكثرة الاستعمال .

وقد جاءت هذه الكلمة في الكتاب الكريم بهذا المعنى في موضعين ، أحدهما قوله تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » ٥٥ / طه ومثله ما في ٦٩ / الاسراء .

(ب) التوراة : كلمة لم تثبت عربيتها ، وهي في عرف القرآن الكريم ما أنزله الله تعالى على موسى من الوحي ليبلغه قومه لعلمهم يهتدون . وقد جاء ذكرها في القرآن العظيم في ثمانية عشر موضعاً ، منها قوله تعالى : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » ٤٤ / المائدة .

ت ي ن

التين : اسم فاكهة معروفة ، وقد سمي به بعض الجبال وغيرها . وجاء ذكره في الكتاب الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : « والتين والزيتون » ١ / التين . يقسم الله بما شاء ، قال ابن عباس : هو تينكم وزيتونكم هذا ، وقيل : هما جبلان أو بلدان ، والله أعلم .

ت ي هـ

تاه في الأرض يتيه تيهاً - من باب ضرب - : ضل الطريق وتحير . ومنه يستعار لمن رام أمراً فلم يصادف الصواب فيقال : إنه تائه . لم يأت من هذه المادة في الكتاب الكريم إلا المضارع ، وهو : « يتيه » وذلك في موضع واحد هو قوله تعالى : « قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض » ٢٦ / المائدة .

الكلام عن الأرض المقدسة التي أمر بنو إسرائيل أن يدخلوها ، فخافوا وأبوا وقالوا : « إن فيها قوماً جبارين » ، ود إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فعاقبهم الله بتحريمها عليهم أربعين سنة هي فترة ضعفهم ومهانتهم كما هي سنة الله في الأمم . والتعبير بقوله : « يتيهون في الأرض » تصوير لحيرتهم واضطرابهم في هذه الفترة .

ث ب ت

ثبت يثبت ثبوتاً - من باب دخل - : دام واستقر ؛ ضد زال ، فهو ثابت ، يقال ذلك للدرك بالبصر أو البصيرة ، فالجبل ثابت في مكانه أى مستقر لا يتزلزل والإيمان ثابت في القلوب أى راسخ لا يتزعزع .

ويتولد من ذلك تعبيرات شتى عن معانٍ متقاربة ، فمن ذلك :

١ - فلان ثابت القدم عند النزال ، أو ذو ثبات في الحرب ، تعبيراً عن قوته وعدم نكوصه .

٢ - وفلان ثابت العزم أى مستقر على ما يرى .

٣ - وفلان ثابت الإيمان ، أو ثابت القلب على الإيمان ، أى قوى في إيمانه لا يعرف الشك .

ويتعدى هذا الفعل بالتضعيف والهمز ، يقال : ثَبَّتَهُ تثبيتاً ، وأثبتته إثباتاً . وأكثر ما يكون المضعف حيث يراد معنى التقوية ودفع أسباب الوهن والتزعزع ، نحو : ثبتك الله ، وثبت بالحق فؤادك . ويأتى من المعدى بالهمز .

١ - أثبت الشيء بمعنى أخرجه من العدم إلى الوجود ، ضد حجب .

٢ - وأثبت فلاناً سقمه ، أو أثبتته جراحته ، إذا اشتد به ذلك فلم يتحرك . ورد من هذه المادة في الكتاب الكريم :

١ - الأمر والمصدر وإسم الفاعل من ثبت اللازم : « اثبتوا - ثبوت - ثابت » .

٢ - الأفعال الثلاثة والمصدر من المضعف : « ثبت - يثبت - ثبت - تثبتاً » .

٣ - المضارع فقط من المعدى بالهمز « يثبت » .

جاء الأمر من ثبت اللازم وهو (اثبتوا) في موضع واحد هو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا » ، ٤٥ / الانفال . أمرهم بالثبات في القتال وعدم الفرار .

وجاء « ثبت » ، الماضى المعدى بالتضعيف فى موضع واحد هو قوله تعالى ثبتَ مخاطبا رسوله عليه الصلاة والسلام : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » ٧٤ / الإسراء . كانوا يسمعون فى إبطال أمره عليه الصلاة والسلام ، وقتلته عن دينه ، وإزالته عن منهجه القويم ، وكم عرضوا عليه من الأموال والمتاع والملك ، وكم فتنوه وأصحابه بألوان الإيذاء والتعذيب ، ولكن الله - جلّت قدرته - ثبته وعصمه أمام تلك المغريات والمخرجات ، فلم يزد إلا قوة ، ولم يستطيعوا له تحويلا .

وجاء المضارع منه وهو « يثبت » ، فى ستة مواضع هو فيها بمعنى التقوية والتسكين - منها قوله تعالى :

١ - « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » ١٢٠ / هود أى ما نظمئن به قلبك ، وتسكن به نفسك حتى تتحمل أعباء الدعوة وتصاب على ما تلاقى فى سبيلها .

٢ - « قل نزل روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا » ١٠٢ / النحل أى ليقويمهم به ويديمهم على حجة الحق .

ثبتَ وجاء الأمر منه وهو « ثبت » ، فى ثلاثة مواضع ، منها قوله تعالى حكاية عن قوم طالوت المؤمنين : « فلما برزوا للجالت وحنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » ٢٥٠ / البقرة . سألوا ربهم الصبر والثبوت فى القتال والنصر على الأعداء .

يثبت وجاء المضارع من المعدى بالهمز وهو « يُثبت » ، فى موضعين :

١ - قوله تعالى : « يحو الله ما يشاء ويثبت » ٣٩ / الرعد . والظاهر أن المعنى فيه : يزيل ما يشاء ، ويوجد ما يشاء ، فإليه الإيجاد والإعدام ، والإحياء والإماتة ، والإغناء والإفقار ، وغير ذلك من أحوال الخلق .

٢ - وقوله تعالى فى تذكيره صلى الله عليه وسلم بما كان من تأمر المشركين عليه قبيل الهجرة : « ولأذيمكركم الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » ٣ / الأنفال .

يثبتوك : أى يحبسوك بالوثاق أو الجراحة الممنعة التى تعجز معها فلا تستطيع حراكا ، وذلك أن بعضهم أشار بشد وثاقه أو جراحته جراحة لا يقوم بعدها .

ثبوت وجاء لفظ « ثبوت » وهو المصدر من ثبت اللازم فى موضع واحد ، هو قوله تعالى : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها » ، ٩٤ / النحل وذلك تعبير عن الضعف والاحلال بعد القوة والتمسك .

ثابت وجاء لفظ « ثابت » وهو اسم الفاعل من اللازم فى موضعين :
 ١ — أحدهما قوله تعالى : « ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت » ، ٢٤ / إبراهيم . أى متمكن من الأرض ضارب بعروقه فيها .
 ٢ — والآخر قوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت » ، ٢٧ / إبراهيم القول الثابت ، هو المطابق للحق الواقع الذى ليس فى لوح الوجود ، سواء يستقر فى قلب الإنسان فيعتقدده ويطمئن إليه .

تثبيت وجاء « تثبيت » وهو المصدر من ثبت المضعف فى موضعين :
 ١ — قوله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة » ، ٢٦٥ / البقرة .
 أى يطلبون بإنفاقها رضوان الله وتمكين أنفسهم فى منازل الإيمان والإحسان حتى تألفها ، فلا يزلزلها بعد ذلك زلزال البخل ، ولا اضطراب الحرص .
 ٢ — وقوله تعالى : « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتاً » ، ٦٦ / النساء .
 أى أشد تقوية وتمكيناً لهم فى أمر دينهم ، لأن الأعمال هى التى تطيع المملكات وتمكن الأخلاق .

المجمع واللغة العامّة

لحضرته الأستاذ الكبير أحمد محمد الزيات

عضو مجمع اللغة العربية

... وهذا نوع آخر من ثمرات مجمع اللغة العربية ،
إذ يتقدم أعضاؤه الأجلاء في جلسات مؤتمره السنوى العام
ببحوث قيمة طريقة تهم أهل اللغة والادب ، وتتضمن
كثيراً من الفوائد النادرة ، وقد استطاعت رسالة الإسلام ،
أن تحصل لقراءتها على بعض هذه البحوث ورأت أن تنشر
منها بين حين وآخر ما يتيسر لها ، توطيداً للصلة العلمية
بين علماء المجمع وأنصار التقريب ، وإن من التقريب
لخدمة اللغة التي نزل بها الكتاب الكريم ، ونطق بها
الرسول الأمين .

وهذا أول بحث نبدأ به ، وهو للكتاب العلامة الأستاذ
أحمد حسن الزيات ، عضو المجمع :

[التحرير]

منذ أربعة عشر عاماً كتبت إلى المغفور له رئيس المجمع السابق كتاب دعابة
قلت فيه : حضر الأصمى يوماً مجلس الفضل بن الربيع وقبّالته فرسٌ مُطَمِّمٌ ،
فتذاكر المجلسُ كتاب أبي عبيدة في الخيل ، فأراد الوزير أن يعلم ما عند الأصمى
من ذلك ، فقال له : « قم يا أصمى وأمسك كل عضو من أعضاء هذا الفرس
وسمّه ، فإذا سميتها فخذ ، فقام وأمسك بناصية الفرس وجعل يسميه عضواً عضواً
وينشد ما قالت العرب فيه إلى أن فرغ منه فأعطاه إياه .

فهب يا سيدى الرئيس أن الجود والرق لم يرفعا من الأرض ، وأنى دخلت يوماً على أمير من الأمراء البهايل ، وبين يديه جارية من الغيد الحسان ، ترفل فى حرير شيكوريل ، ودهسمعان ، وقال لى هذا الأمير الأريب : إذا سميت ما على هذه الجارية من اللباس ، ووصفت ما فى هذه الدار من الرياش والأثاث ، نزلت لك عن الجارية والدار ، وزدتك عليهما ألف دينار . فإذا ترانى يا رئيس المجمع اللغوى قائلاً وأما من الذين أفنوا أعمارهم فى تحصيل مادة اللغة واكتساب ملكة الكتابة ؟ ماذا أسمى هذا المسائل على القوود الأيمن ، أو هذا المسائل على الجبين الزاهر ؟ وماذا أقول فى هذا المزرر على الصدر المشرق ، وهذا المئدار تحت الندى الباقى ، وهذا المُرسل على الكشّح المضم ، وهذا المِفصّل على القدم اللطيفة ؟

أما لا أعرف من غطاء الرأس إلا القناع والخمار ، ولا من كساء الجسم إلا الملاة والإزار ، ولا من وقاء الرّجُل ، غير الحذاء والنعل . فهل تنطبق هذه الأسماء ، على هذه الأشياء ، أم هل تكون دلالتها عليها كدلالة الرياش والأثاث على كل (موبيليات) البيت ، والورد والريحان على جميع أزهار الحديقة ، والجهل والعجمة على كل أدوات السيارة ؟ لا جرم أنى سأعجز على كل حال ، وسأطالب رفعت (باشا) بالجارية والدار والمسأل !

* * *

كان ذلك منذ أربعة عشر عاماً ، كما قلت ، ولا تزال الحال هى الحال ، والمشكلة هى المشكلة . فلو أننى حضرت اليوم مِعْرَضاً من معارض التجارة أو الصناعة أو الزراعة ، فيه ما أبدعت العلوم ونوّعت الحضارة من مختلف الآلات والأدوات والسلع والزهور ، ثم طُلِبَ لى أن أسمى كل معروض فيه لما صنعت أكثر مما صنع ذلك البدوى الذى حضر ولّجة عرس فى بغداد ، فوصف لقومه ألوانها وصحافها بصفاتها لا بأسمائها وبأثرها فى حلقة ، لا بعينها فى يده . وليس معنى ذلك أن المجمع لم يعمل طول هذه المدة ، لانه عمل بإخلاص ، وسعى يبعده ، وأنتج

بوفرة، وإنما معناه أن المجمع قضى ثمانى عشرة دورةً في خدمة اللغة الخاصة،
وهى لغة الفلاسفة والعلماء والرياضيين والأطباء والفقهاء والفنانين وغيرهم من رجال
الثقافة العليا. وهؤلاء جديرون - إذا ما أبضا المجمع عن إسعافهم - أن يضعوا
مصطلحاتهم بأنفسهم بحكم عملهم في التعليم والتأليف، وهم إذا وضعوها أو نقلوها
قاربوا السكال، فلا يكون عمل المجمع معهم إلا التسجيل أو التعديل.

أما اللغة العامة، وهى لغة البيت والشارع والسوق والمصنع والورشة والحقل
فلم يولها المجمع عنايته بعد. والكتّاب والمترجمون والصحفيون ومأثر من يتصلون
بحياة الناس، لا يعينهم كثيراً تلك اللغة العلمية. والناس متى رأوا الشيء سمّوه.
والمسمّون في الغالب من سواد الأمة الذين لا يبالون أن ينطقوا على أى صورة
ما داموا يقضون حاجتهم من الفهم والإفهام. ويجيء بعد ذلك الكتّاب
والصحفيون فيجدون اللفظ قد شاع، فإما أن يستعملوه على علته فيكون الفساد
وإما أن يضع كل كاتب لمعناه لفظاً فتكون البلبلة. والصحافة والعامة متنافسان
في الوضع والنقل والتعريب، لا تهانن إحداهما الأخرى، فأيتهما سبقت
إلى الشيء الجديد يوم وروده الميناء سمته وفرضت تسميتها على الالسنه،
فده التّشكّس، مثلاً أدركها الصحفيون وهى لا تزال في الميادين الأوربية،
فوضعوا لها لفظاً الدبابه، وأذاعوه في البرقيات والأخبار حتى عرفه كل قارئ
ورددّه كل سامع. فلما رآها الناس بعد ذلك في مصر لم ينكروا الاسم ولا المسمى.

وأما الأوتوموبيل، فقد ورد مصر قبل أن يسمع الناس له إسماع عربياً
من قبل، فنطقوا اللفظه الأعجمى بملغات عشر كما كان ينطق العرب لفظ (إصبع)،
ووضع الكتّاب له بعد ذلك لفظ السيارة، وحاولوا أن يعمموه فما استطاعوا،
وظلت الكلمتان دائرتين في لغة الناس: العربية للكتابة، والأعجمية للكلام.
وهيات أن تسلم أحدهما للأخرى. وهناك نوع من الالفاظ تخلى عنه الكتّاب
للعامه فاستأثروا به، كلفظ (أباجق) مثلاً. فالناس لا بد أن يسموا هذا الشيء
لأنه من أثاث بيوتهم، فسمّوه (أباجورة). وأما الكتّاب فلم يجدوا ضرورة

لتسميته لقله دورانه على الاسن في خارج المنزل ، فعمّت الاباجورة كما عمت الدبابة في الكلام والكتابة . فلو أن الكتاب عادوا اليوم فأطلقوا عليها دلامة ، أو دضامة ، لأنها تلم الضوء المتفرق وتضمه ؛ لما فهم الناس ما عبروا عنه ، ولا اتبعوهم فيما عبروا به .

فالمسألة إذن مسألة سياق بين الفصحى والعامية ، من تسبق منهما إلى الوارد والجديد سمته وفرضته على الأخرى كما قلت وأن ثمانى عشرة دورة أو سنة قضاهما المجمع محابداً في هذه المعركة جعلت الأمل في تغلب الفصحى أبعد مما نظن فلم يبق إلا أن نصلح بين اللغتين على وجه من التساهل المتبادل ، ولقد عنيت منذ تشرفت بعضوية المجمع أن أسعى مع الساعين لعقد هذا الصلح ، وتحديد هذا التساهل ، فقدمت إلى المجمع اقتراحين ، أحدهما : قبول الوضع من المحدثين ، والآخر : قبول السماع منهم أسوة بالمتقدمين ، وتفضل المجمع فقبل الاقتراحين ، ولكنهما ظيلا معطلين لانصرافه إلى وضع المصطلحات المختلفة للغة الخاصة ، وتقدمت منذ طويل إلى مجلس المجمع بطائفة من الكلمات التي جرى للمحدثين فيها سماع يخالف المسموع من العرب الأقدمين ، في المدلول أو في الصيغة ، فأقرها المجلس ثم اعتمدها المؤتمر ، ولعلها تأخذ السبيل إلى المعجمين : الكبير والوسيط .

والحق الذى لا أرتاب فيه أن المجمع بقبوله الوضع والسماع من المحدثين قد وضع الأساس القوى الثابت لنهضة اللغة لقبول التجدد المستمر في أسماء الذوات والمعانى ، فبالوضع نصل ما بين اللغة والحياة ، وبالسماع نقرب ما بين العامية والفصحى ، والفائدة من قبول السماع منا ، لانقف عند حد التجديد والتكميل والتقريب ، وإنما تتعدى ذلك إلى تسجيل مدلولات جديدة قد نسخت مدلولات قديمة لبعض الألفاظ ، مثال ذلك لفظ الغداء ولفظ الفطور : فقد أجمع اللغويون على أن الغداء أكلة للغدوة ، وهى ما بين طلوع الفجر إلى بزوغ الشمس ، وهو خلاف العشاء ، وبه فسر قوله تعالى : « آتينا غداءنا » وأن الفطور

أكل الصائم حين تغرب الشمس ، وكان هذان المدلولان صادقين أيام كان الناس يكتبون بأكثر من كلمتين : أكلة الغدوة ، وأكلة العشيّة ، فلما اقتضى حال العيش ونظام العمل أن يأكلوا ثلاث أكالات نقلوا الغداء من الغدوة إلى الظهر ، واستعاروا الفطور من وجبة الصائم إذا أمسى إلى وجبة المفطر إذا أصبح ، ووجه الشبه بين الاكنتين ، أنهما نجبان بعد إمساك ، إمساك نهار للصائم ، وإمساك ليل للمفطر وقد فعل الفرنسيون كما فعلنا ، ونحن فعلنا كما فعلوا ، فإن فعل (Diner) في لغتهم لاتيني الأصل ، وكان معناه في اللاتينة الإفطار أو قطع الصوم بالاكل ، ولا يكون ذلك إلا صباحاً ، فلما جعلوا طعامهم في اليوم ثلاث وجبات نقلوا (Diner) من أول النهار إلى نصفه . ثم وضعوا لوجبة الصبح لفظاً آخر بمعناه وهو . . . (Déjeuner) . ثم اضطرتهم المدنية إلى أن يأكلوا أربع أكالات ، فوضعوا الفطور الصغير للصبح ، والفطور للظهر ، والغداء للغشاء ، والعشاء لنصف الليل ، فهل يجوز أن تبقى كلمتا الفطور والغداء وأمثالها في المعجمين الكبير والوسيط على هذا الوضع ، والناس في جميع الأقطار العربية يستعملونهما اليوم في غير ما كان يشتملهما العرب ؟ وبأى سند نضعهما في المعجم إذا لم يكن المجمع قد قرر حجّية السماع المؤكّد أسوة بالسماع القديم ؟ .

من أجل ذلك نطمع في أن يوجه المجمع الموقر عنايته الكريمة إلى الانتفاع بقراريه في الوضع والسماع على صورة أشمل وأسرع ليعوض اللغة العامة عما نالها من طول انصرافه عنها إلى اللغة الخاصة ، وذلك بقبوله هذه المقترحات الثلاثة :

المقترح الأول : أن يعبى قواه أو أكثرها بجمع ألفاظ الحضارة الموضوعية والمسموعة والمنقولة من البيئات المصرية والأقطار العربية ، فيكلف محريه بما كان يصنعه رواة اللغة الأولون من الخروج إلى الوادى ، ومشافهة الأعراب ، والنقل عنهم ، فيخرج المحررون كل يوم إلى المتاجر والمصانع والمزارع ، فيسألون كل ذى سلامة ، وكل ذى صنعة ، وكل ذى آلة عن اسمها العام واسم كل جزء من

أجزائها، وكل نوع من أنواعها، ثم يدونون كل ذلك بأوصافه وصوره، ويصنع مثل ذلك في الأقطار العربية، فيوفد المحررين إلى الشام والعراق وتونس فيعملون فيها ما عملوا في مصر تحت إشراف عضو المجمع هناك وتوجيهه، حتى إذا عادوا ضموا ما جمعوا إلى ما جُمع غيرهم، ثم قدم كل أولئك إلى اللجان المختصة فتصفه وتغريبه وتعرفه، ثم تعرضه على مجلس المجمع.

المقترح الثاني: أن ينحصر المجمع دورتين أو ثلاثا لهذا العمل لا يسكاد يشتغل في غيره.

المقترح الثالث: أن ترتب هذه الألفاظ بعد أن يقرها المجلس ويعتمدها المؤتمر، ثم تفرغ بتعاريفها وصورها في معجم خاص يسمى معجم ألفاظ الحضارة مثلا ينشر مستقلا أول الأمر، ثم يذبح بعد ذلك في الطبعة الأولى للمعجم الكبير ثم في الطبعة الثانية للمعجم الوسيط.

هذه أيها السادة أقرب السبل في رأبي إلى اتصال المجمع بالحياة، وآتية المجمعين للناس، وإعانة الكتاب على مكآره الكتابة، ورفع القصور عن اللغة، ودحض التهم عن المجمع.

ولعل أقوى ما أستند إليه في تأييد هذه المقترحات بعد الحاجة الماسة والضرورة القاضية أن المعجم الوسيط سيحيى على غير ما ينتظر الناس، فإن جمهرة المثقفين ينتظرون من معجم ينشره المجمع بعد ثمانى عشرة سنة قضاها في الوضع والتعريب أن يكون فيه لكل معنى اسم، ولكل مصطلح لفظ، ولكلهم سيجدونه أقرب إلى المعاجم المنشورة في الاقتصار على المواد القديمة، والنفور من الألفاظ الجديدة، فإذا نشر معه أو عقبه المعجم المقترح انفسحت التهم عن مجمعا الخالد، وانحسرت الشكوك عن عمله العظيم.

ولحضرانكم بعد ذلك النظر الأعلى والرأى الموفق ؟

أُنْبَاءٌ وَآرَاءُ

جاءنا من فضيلة الأستاذ الشيخ محمد حسين شمس الدين
من علماء البازورية بلبنان كتاب يقول فيه :

في الوقت الذي يشذ فيه بعض المسلمين ، ويتعالى عن نور مبادئ الدين
الإسلامي ، وقدسية قانونه ، وصلاحيته للحياة الإنسانية المثل في جميع المرافق
ومختلف الاطوار .

في هذا الوقت ذاته ، نرى في الغرب علماء كباراً وفلاسفة كثيرين يعلنون
بين فينة وأخرى تأييدهم للدين الإسلامي ، وضرورة التمسك بأهدابه القيمة ،
لأنهم وجدوا فيه خير ضمانة للمجتمعات البشرية من العبث والفوضى والفساد ،
وأكبر وسيلة لاستتباب الأمن والحرية والسلام . فهذا الفيلسوف لامرتين
يقول : (... فأى رجل - لعمركم - قيس بجميع المقاييس التي وضعت لوزن
العظمة الإنسانية أعظم من محمد) وهذا المستر دي فنبرت الانجليزى يقول :
(فإن الشك في بعثة محمد إنما هو شك في القدرة الإلهية التي تشمل الكائنات
جمعاء) وهذا أرنست رينان العلامة الشهير يقول : (... أما الأمة العربية التي
أكرمها الله ورفع شأنها باصطفاء عبده الأكرم من بين أشرف أشرافها ليسكون
خاتم النبيين ، فقد جعل آلة تحمل شريعته التي ستدوم مادامت الأفلاك ، إذ لا نبي
بعده ، ولا دين بعد هذا الدين .

على أن هنالك من الفلاسفة من تنبأ للقانون الإسلامي بالانتشار في العالم أجمع
لأنه أصلح القوانين ، وأضمنها نجاحاً ، وأحسنها ملائمة لكل الأزمنة والأمكنة .
فقد قال الأب لامانس : (إن القرآن لم يدخل العرب في الإسلام خصب ،

بل أدخل معظم الشعوب ، وإن ظلالة لينبسط يوماً فيوماً على أفريقيا وآسيا ، بينما المبشرون لغيره ينظرون ولا يستطيعون شيئاً) وقال عبد الرحمن روسلر الألماني يصف حيرة شبابه واضطرابه في ألمانيا ما نصه : (فترى الشباب في شك وريب ، وعامة الناس بين أمرين ، إما أن يرجعوا إلى الآراء والتقاليد المهجورة التي تمجها طباعهم ولا يعتقدونها أو يبتعدوا عنها ، وليس باستطاعة هؤلاء إيجاد نظريات جديدة موافقة لمقتضيات العصر الحاضر إلا أن يتوسلوا بالنظم والقوانين الإسلامية .

وقال الكاتب الفيلسوف برنارد شو : (لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامى ، لسبب حيويته المدهشة ، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائزٌ أهلية المضم لاطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل جيل فى الناس ، ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوروبا غداً ، بل قد بدأ يكون مقبولا لديها منذ اليوم) .

ولقد أدرك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال (كارليل) و (جون) و (جيبون) القيمة الذاتية لدين محمد صلى الله عليه وسلم ، وهكذا وجد تحولٌ حسن فى موقف أوروبا فى القرن الراهن ، تقدمت فى هذا السبيل كثيراً ، فبدأت تعشق عقيدة محمد ، وفى القرن التالى ذهبت إلى أبعد من ذلك ، فاعترفت بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها ، فهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى ، وفى الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومتى ومن أهل أوروبا قد دخلوا فى دين محمد حتى يمكن أن يقال إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ .

استعرضت بعض شهادات فلاسفة الغرب المخلصين الذين أدركوا أن لا مناص عن التمسك بأهداب الدين الإسلامى ما دام يكفل لهم حياة هادئة ملؤها النور والخير والجمال ، راجياً من وراء ذلك أن يتفهم شبابنا المنقف جوهر الدين ، ويطمئن باللباب ، ويعزف عن بهرجة المظاهر الخداعة ، وعن الأساليب الملتوية التي لا تجدى نفعا ، والله الموفق .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

١١٥	كلية التحرير
١١٧	تفسير القرآن الكريم
١٣٤	خواطر من الذاكرة
١٣٨	بحث عن الدولة العباسية
١٥٠	بين قحطات وعدنان
١٥٨	الإسلام وفكرة الزهد
١٦٢	قال شيخى
١٦٧	الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية
١٨٨	لكن قال شيخى
٢٠١	البلاغة العربية وقضية الإعجاز
٢٠٨	معجم ألفاظ القرآن الكريم
٢١٥	المجمع والفئة العامة
٢٢١	أبناء وآراء
٢٢٣	من القانون الأساسى لجامعة التقريب

رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلد اسلامیہ عالمیت
تصدّر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالعمارة

رئيس التحرير: محمد محمد الدنف مدير الإدارة: عبد العزيز محمد عيسى
الإدارة: ١٩ شارع حشم باشا بالرمالك القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤
قيمة الاشتراك عن سنة في البلاد العربية خمسون قرشاً مصرية
وفي أمريكا أربعة دولارات وفي البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار البقريّة بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

ذو القعدة ١٣٧٣ هـ

يوليو ١٩٥٤ م

السنة السادسة

العدد الثالث

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونُ
”قرآن کریم“

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مجلة النخيل

كنت كتبتُ مقالا في أحد أجزاء رسالة الإسلام ، عنوانه (لولا القدماء) * فاستقبله كثير من أهل العلم بالترحيب ، ولا سيما أخواننا أهل الأزهر ، كأنهم وجدوا فيه دفاعا حاراً عن هؤلاء الأولين الذين أفنوا حياتهم ، وبذلوا أكرم جهودهم ، حتى ورثونا هذا التراث الثمين في مختلف العلوم وثمرات الأفكار ، وكنت معتماً أن أعود إلى هذا الموضوع كرة أخرى لأضيف إليه جديداً حدثني به نفسي ، توفية له ، ووفاء لقراء رسالة الإسلام ، الذين يحبونها ، ويتبعون ما ينشر على صفحاتها في دقة بالغة ، واهتمام شديد ، ولعل في هذه الكلمة الموجزة تحقيقاً لما اعتزمت :

* * *

والسلام يرجع إلى نقطتين :

أولاهما : أننا مع اعترافنا بعظمة القدماء ، وبما بذلوا من جهود صادقة مثابرة في سبيل خدمة العلم والدين والنصح للأمة والأئمة ، يجب أن نذكر دائماً أن الإسلام دعوة تقدسية لا يصلح معها أن نحصر همنا فيما وراءنا ، وأن تشغل أكبر جانب من اتجاهنا وتفكيرنا فيما كان قبلنا ، وأن نجعل هذه العبودية الماضية كأنها مُثلنا ، ومبلغ آمالنا ، وغاية ما يمكننا أن نصل إليه من عظمة في العلم والعمل ، وأن يشغلنا استحسان ما فعلوا عن أن نفعل ، وإكبار ما بذلوا عن أن نبذل .

إن هذا التفكير المالح في ما ضينا ، له أثر يجب أن نحذره وألا ندعه يفسد علينا حاضرنا ، فهو ليس تفكيراً حافزاً باعثاً منشطاً في كل حال كما ألفنا أن نصفه في أحاديثنا وخطبنا وما نكتبه عن الذكريات التاريخية ، والمناسبات القومية ، وإنما هو في واقع أمره دواء منوّم مخدر يخدعنا عن أنفسنا إذا تعاطيناه بإفراط ، واسترحنا إلى ما يحدثه من د تسكين ، وقتي لآلامنا ، وإرضاء وهمي لحيلتنا .

إن الذين يعيشون على الماضي خصب هم العَجَزَة وأهل الضعف والقصور ، لأنهم لا يجدون في حاضرهم ما يبررون به استحقاقهم للبقاء في الحياة ، والانتساب إلى البشرية العاملة المثمرة التي ما خلقت إلا للإصلاح والتعمير ، والابتكار والتميز ، فهم يجترئون مفاخر من الماضي فعلها آباؤهم وأجدادهم ، ولو أنهم كانوا هم الذين فعلوها لما كان لهم أن يظلوا متعلقين بها ، حرصاء على ذكرها والإصغاء إلى حديثها ، كما يصغي الشيخ المحرم إلى ذكريات شبابه ، ويستبج في خيال فتوتته يوم كان وكان .

إن الإسلام لا يرضى بهذا للدسلين ، فهو لم يرضه لأهل الكتاب الذين كانوا يتباهون بتاريخهم ، ويلوكون بالسنتهم مفاخر السابقين من الأنبياء والمرسلين ، ويحاولون أن ينتسبوا إليهم بالأقوال لا بالأفعال ، إذ يقول القرآن الكريم : تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون ، فالشأن في الكتاب الحق الذي يهدي للنبي أقوم ، إنما هو لعمل العامل ، وكسب الكاسب ، أما التشدق بما كان ، والتشبث بما خلا ، والغيوبة فيما غاب ، فذلك تعيلات الضعفاء ، ومعاذير العاجزين ، وأساليب الفارين الناكسين .

والنقطة الثانية ذات صلة وثيقة بهذه النقطة الأولى ، فلا ينبغي أن يفوتنا أن العلم في تطور ، وأن الفكر الإنساني في تحول ، وأن العالم كل يوم في استقبال جديد من النظريات والعمليات والمذاهب العقلية والاجتماعية ، فما كان يشغل

الماضين لا ينبغي أن يكون كله مُشغلاً لنا بغته وسميته ، ولكن علينا أن نختار ونغربل ونصفي ونُعنَى عناية كاملة جادة بما ينفع ولا يضر ، ونضرب صفحاً عما يضر ولا ينفع ، وعما لا يضر فيه ولا نفع ، بذلك نستطيع أن نتخفف ثم نتطلع إلى آفاق من العلم جديدة احتكرها الناس في الغرب من دوننا ، وأفادوا منها سيادة وقوة حيث غبنا عنها .

إن القرآن الكريم يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، ويقول : « وقل رب زدني علما » ، ومن هاتين الآيتين نستنبط أن الله تعالى يرشدنا إلى التأموس الطبيعي للأفكار والعقول والمعارف ، أو بعبارة أخرى إلى سنة من سننه الكونية ، هي أن العلم دائماً في قلب ، ولا يمكن أن يقف عند حد ، إذ هو قابل للزيادة ، والرسول نفسه ، وهو مَنْ هو في علمه ، مكلف بأن يتطلع دائماً إلى الازدياد من العلم ، وإلى أن يجعله من أعز آماله ومطالبه التي يتوجه فيها بالدعاء إلى ربه .

هكذا ينظر القرآن إلى العلم ، وهكذا يوحى إلى المؤمنين أن يطلبوه ويحرصوا على التجديد منه ، وعلى التجديد فيه ، وألا يكونوا أسرى تقليد ، وسجناء جمود ، ولكن كثيراً منا معاشر المسلمين نسي هذا أو تناساه كيلا يكلف نفسه شططا ، ولا يحملها عنتا ولا رهقا ، فزالَت جامعة كالآزهر تدرس مذهب « اللأدرية » ، الذين يُشككون في أنفسهم ، ثم يشككون في شكهم . فأين المذاهب الحديثة التي تملأ أقطار الأرض الآن ، ولا نجد من يرد عاديها ، ولا من يرشد غاويها ؟ وأين دراسة الشبه التي توجه إلى الشريعة والفقه في أوربا وأمريكا ، والتي يغزوها الصهيونيون وأعداء الإسلام والطامعون في بلاده ؛ عقول المحدثين من للشباب ، ويصوروننا بها أمة بدائية أو متخلفة ، فيقولون : دينهم يبيع كذا ، ويرضى بكذا ويعارض في كذا ... الخ .

ثم ما زال الأزهر يدرس نظام شركة الوجوه ، وشركة العنان ، ولا يعرف شيئا عن شركات التوصية والضمائم .

وما زال يدرس « التدبير » و « التعمير » ولا يعرف نظام التأمين على الأشياء .
أو على الحياة ، وإذا سألت عن حكم ذلك لم تجد قولاً شافياً ، ولا بياناً في ذلك .
كافياً ، وإنما هي « سطحيات » تلقى ارتجالاً ، وتُحمّل على الفقه حملاً .

وما زال كثير من طلاب هذه الجامعة وعلماؤها ، يحسبون بعض الطوائف
المنقرضة على بعض الطوائف الحاضرة ، فإذا رأوا في كتاب قديم نَحْلَةً مضافة
إلى مذهب من المذاهب أخذوا بها كل من تسمى باسمه دون تفرقة بين فريق
وفريق ، وهذا لعمري قصور في البحث وتقصير ، ولا أجد لهذا مثلاً إلا أنه
تُدْرَس « الجغرافيا » الحاضرة من مثل كتاب « معجم البلدان » وقد تغيرت البلاد
ومن عليها ، وتقلب أحداث الزمان مئات المرات بعد « معجم البلدان » .

* * *

لا شك أن الأولين كانوا مصاييح دجى ، وأعلام هدى ، ولا شك أنهم
أدّوا أمانة العلم حق الأداء ، وأن في أعناقنا لهم منناً عظيماً لا ينكرها إلا الجاحدون ،
ولا شك أننا في كثير من العلوم والقواعد والنظريات ما زلنا عالة عليهم ،
ولكن لا يجعل بنا مع ذلك أن نقول : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، ولكن نقول :
جزاهم الله عنا خيراً ، وكم ترك الأول للآخر ، والله المستعان .

محمد محمد علي

نَفْسِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

— ٨ —

آيات التفسير — مراعاة حق الفطرة بالنهي عن تحريم الطيبات — عمارة الكون تقتضى خلق الإنسان روحياً مادياً معاً — النظرة تأبى ما ينافيها — نزوع أهل الأديان السابقة إلى مقاومة النظرة : الرهبانية ابتداءً من المسيحيين — خطر للمادية المتحللة — توسط الاسلام — سبب نزول آيات التفسير — إعطاء النفس حقها المشروع لا ينافى تقوى الله — حرمان النفس من الطيبات بقصد تهذيبها استظهار وتزويد على الله — توسط الإسلام أصل لإصلاح عظيم الأثر في البشر — (شبه لدعاة التزهّد والتشف : سير الصالحين والراشدين . أثر الترف في إفساد الأمم . حملة القرآن على أهل الترف) — (الجواب عن هذه شبهة . الولاة قادة وقدوة . الأمم تدعى إلى التشف في بعض ظروفها كعلاج واستعداد — القرآن لمّا حمل على المسرفين في ترفهم) — أحكام الحلف ومناسبة ذكرها في هذا الموضع — حكمة الإسلام في تشريع الكفارات لمن تورط باليمين أو الخطأ أو الالتزام — الإسلام يؤثر فعل الخير والبر على النمك باليمين المافية لها — التفرقة بين اللغو وما عقدت عليه العزائم — الكفارات من أعظم أبواب البر — وجوب حفظ الأيمان وما يوحى به الأمر بذلك .

آيات التفسير :

فستعين الله تعالى وتتابع الكلام على الآيات الكريمة التي جاءت في سورة المائدة ، مُصدّرة بالنداء الإلهي للمؤمنين ، وقد انتهى ما أردناه من الكلام على تسع من هذه الآيات ، وهذا هو النداء العاشر :

قال الله تعالى :

و يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤخذكم بما عقدتم الأيمان . فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون .

مراعاة حق الفطرة بالنهي عن تحريم الطيبات :

هذا أحد العقود التي جاءت بها السورة ، وأمرت في أولها بالوفاء بها ، وموضوعه مبدأ من أهم المبادئ الإسلامية التي جعل الله المسلمين بها أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس ، ذلك المبدأ هو مراعاة حق الفطرة الإنسانية ، والنهي عن سلوك السبيل التي سلكها أهل الأديان السابقة ، أو بعض الفلاسفة ، من تعذيب النفس وحرمانها من الأخذ بما يلائم الفطرة ، وبحقق المتاع الجسمي الطبيعي ، لإثارة لتهذيبها ، وميلا إلى تقوية الجانب الروحي فيها ، فالقرآن الكريم يبطل هذا في قوة وحزم ، وينهى المؤمنين عنه في عقد يجعله في سورة العقود ، ويصف ما أحله للناس بأنه طيبات ، إيجاباً لهم بأن إحلاله إنما كان لطيبه ، وطيبه يدل على خلوه مما يؤذي النفس مادياً أو معنوياً ، واشتماله على ما يفيدها في كليهما ، ثم يشعرهم إشعاراً قوياً - حين ينههم عن الاعتداء ، وينبئ حب الله للمعتدين - بأن في هذا خروجاً من الإنسان عن حده ، وتجاوزاً لدائرة فطرته وإنسانيته ، وتمرداً على الألوهية ذات الدقة في التشريع ، والحكمة في التحليل والتحريم ، ثم يأمرهم أمراً صريحاً بالاكل مما رزقهم الله من الطيبات ، غير مكثف بفهم ذلك من النهي السابق ، ويؤكد هذا كله بأمرهم بتقوى الله الذي هم به مؤمنون ، مشيراً لهم بهذا إلى أن ذلك من مقتضيات الإيمان ، ثم يلحق ذلك ببيان السبيل التي بها

يتخلص من الزم نفسه بتحريم شيء مما أحله الله ، مبيناً حكم اليمين وحكم الكفارة مستوفياً بذلك أمر هذه الالتزامات في مختلف أحوالها .

عمارة الكون تقتضى خلق الإنسان روحياً مادياً معاً :

اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الإنسان مركباً من روح وجسم ، حتى يكون صالحاً للمباديات والمعنويات ، ولم يجعله كالملائكة روحانياً صرفاً ، لأن عمارة هذا الكوكب الذى نعيش عليه تقتضى هذا اللون من الخلق المزدوج الطبيعة ، تقتضى « المادية » ، لأن الكون مشحون بالمادة ، فلو كان سكانه روحانيين لما انتفعوا بها ، ولما التفتوا إليها ، واطلت معطلة ساذجة يتفاعل بعضها تفاعلاً يؤدي به إلى الفناء ، وبعضها تفاعلاً يؤدي به إلى التوالد الساذج الذى لا تلبث ثمراته أن تلتحق بأصوله فتهمل وتعطل فلا يتحقق المقصود من إثارة الأرض وعمارتها ، وتقتضى مع ذلك « الروحية » ، لأن سكان هذا الكوكب لو كانوا ماديين صرفاً ، ولم تكن لهم « معنويات » يدركونها ويقصدون إليها ويتمتعون بها كما يتمتعون بالمادة لكان قصاراهم أن يكونوا كالحيوان الأعمى ، أو كالوحوش فى الغاب ، ولما أدركوا الخالق ، وعرفوا حقه ، وتوجهوا إليه بالعبادة ، ولما كانت الحياة إلا ظلمات مادية لا يتخللها أى ضوء من أضواء العقل والروح التى هى من غير شك سر الإنسانية وقوامها .

الفطرة تأبى ما ينافيها :

خلق الإنسان - لهذه الحكمة البالغة - على هذا النحو الجامع بين المادية والروحية ، فكان لا بد له من الاعتراف بحقوق فطرته وميوله وعواطفه ، لا بد من الاعتراف بأنه إنسان يشتهى أن يأكل ويشرب ويلبس ويتزوج ويجتمع ويغدو ويروح ويسافر ويقيم ، ولا بد من الاعتراف بحقه فى ألا يقف من هذه الأشياء عند حد الضرورة ، فلا يأنها إلا بقدر ، ولا يزاو لها إلا فى حدود ضيقة ، فإنه بحكم بشريته طموح نزاع إلى المعرفة والتوسع وإلى أن يكشف الأسرار ، ويعرف الأسباب ، وينتقل من معلوم إلى مجهول ، ويركب الأخطار ، ويتعرض

للغامرات ، كل هذا من طبعه ومما فطر عليه ، فلا يمكن أن يلزم بما ينافر هذا الطبع ، ويجافي هذه الفطرة ، لا يمكن أن يلزم بالقبوح في كهف أو مغارة أو جبل من الجبال ، لا يأكل إلا من أعشابها ، ولا يشرب إلا ما يشتهه من رمالها ، أو يلتقطه من ندادها أو مطرها ، لا يمكن أن يكبل نشاطه الإنساني ، وتقيد إمكانياته البشرية ، واستعداداته الطبيعية بقيد ينافيها ويبطئها ويذهب بالغاية المقصودة منها ، لا يمكن أن يقال له : جع ، وقد خلقت له معدة وأمعاء وجهاز كامل يقتضى أن يأكل ، ولا يمكن أن يقال له : اكشف بالضرورة من الغذاء ، وقد خلقت غدده وأجهزته الهضمية وما يتصل بتقويته وبنيتة خلقاً يستدعي أن يتوسع في ذلك ، وأن يترفه أحياناً ، وأن يتمتع متاعاً حسناً يشترح به صدره ويقر به عينه ، ويعرف معه نعمة الله عليه ، ولا يمكن أن يقال له : انقطع عن الاجتماع ، وأنت مدني بالطبع ، ولا اهجرك النساء ، وأنت جزء من نوع ، لا يكمل ذكره إلا بآثاء ، ولا أنثاه إلا بذكره . . . وهكذا فالفطرة تأبى كل ما ينافيها ، وهى الباقية فى الإنسان الراضية فيه ، وكل ما سواها فهو طارئ عليها ، متأثر بها ، لا يستطيع أن يزيلها ، ولا يقوى على أن يحيلها .

نزوع أهل الأديان السابقة إلى مقاومة الفطرة :

نزوع أهل الأديان السابقة إلى الخروج بالإنسان عن هذا النطاق الذى ضربته عليه الفطرة . فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فكان منهم من آثر الجانب الروحى ورمى إلى فك أسر الإنسان من قيود المادة ، وانتزاعه من العواطف والميول والنزعات والشهوات التى ركبت فيه ، وكانت طباعاً لازمة له ، ومن هناك التزهّد والتبتل والترهب والتخلّي والتشف ، ومكابدة الحرمان فى المأكل والمشرب والملبس والشهوة الجنسية .

الرهبانية ابتداء من المسيحيين :

ولما قلت فى هذا المقام : نزوع أهل الأديان السابقة ، فإنى أريد أن يفهم القارئ من هذا أن الأديان السابقة نفسها لم تكن تفرض على الناس ابتداء

أن يكونوا متبتلين رهبانيين ، وإنما كانوا هم أنفسهم يتبدعون ذلك نزولاً على معان فلسفية نبئت في أذهان بعضهم ، ظناً منهم أنهم بذلك يرفعون من قيمة الإنسان ، ويقوّون من صلته بعالم السمو والكمال ، وما أدروا أنهم بذلك يصادمون فطرة الله ، ويغفلون عما في هذه الفطرة نفسها من حكمة ، حيث تعين المادةُ أبلغ العون على إدراك المعاني الروحية ، وتقوّى بأساليبها المختلفة ، ومن حيث يشعر الإنسان أو لا يشعر ، رغبة الإنسان في التعلق بالمعنويات ، والنزوع إلى السموات بها واكتناه لذاتها وعرفان أسرارها ، وفي القرآن الكريم إشارة إلى ذلك حيث يقول الله عز وجل : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها » . قال المفسرون ، معناه : أحدثوها وجاءوا بها من عند أنفسهم ، وما فرضناها نحن عليهم ، والاستثناء في قوله عز وجل : « إلا ابتغاء رضوان الله » ، منقطع ، والمعنى : ولكنهم ابتغوا رضوان الله بتلك الرهبانية فلم يرعوها حق رعايتها ، والرهبانية المشار إليها هي ما حلوا أنفسهم عليه من المشاق في الامتناع من الم مطعم والمشرب والملبس والنكاح ، والتعب في الجبال ، فهذه الآية مفيدة للمعنى الذي ذكرناه من أن الله تعالى لم يشرع هذه الرهبانية في دين الذين تهربوا ، وإنما هم الذين أحدثوها ، وأن إحداثهم إياها كان فلسفة منهم ترمى إلى غاية هي في نفسها شريفة ، وهي ابتغاء رضوان الله ، ولكن الوسائل لا تقبل إلا إذا كانت مشروعة غير مناهضة لمبادئ الفطرة القويمة ، كما تفيد أن هؤلاء الذين ابتدعوها لم يرعوها حق رعايتها ، وعندى أن ذلك لأنهم - بحكم بشريتهم - لم يطبقوها ولم يقدروا على التزامها ، وهذا شأن كل التزام يناق الطبيعة ، ويخالف الفطرة ، وإن السر أعظم السر في خلود الشريعة الإسلامية لني إنشائها على حكم الفطر ، وعدم منافرتها للطبائع الإنسانية .

وفي ذلك عبرة يجب أن ينتفع بها واضعو القوانين ، ومنظمو النظم ، فإنما ينزل الناس على حكمها راضين ، ويستمرون على احترامها في السر والعلن ، إذا كانت تنظيماً للفطرة ، وتحقيقاً للمصلحة ، أما إذا كانت تجافي طبائع الناس ، وتناهض

من الحياة ، ولا تعترف بواقع الفطر ، فإنها مقضى عليها بالزوال مهما دعمتها القوة ، وأيدها السلطان .

خطر المادية المتحللة :

وكما نزع طائفة من أهل الأديان إلى هذا الجانب ، وهم غالباً من أتباع المسيحية ، نزع طائفة أخرى إلى الجانب المادى وهم غالباً من أتباع اليهودية ، ولا تطيل في تتبع مذهبهم المادى ، فهو معروف وله أنصاره الذين يريدون للإنسان حياة مطلقة من كل قيد ، غير مقيدة بأى نظام ، تستبيح كل شئ ما دام في قدرة الإنسان أن يفعله ، وما دام يحقق له شهواته في أوسع نطاق ، ويمكنه من أن ينفق كل لحظة من لحظات حياته في صورتها الواقعية أو الوجودية كما يقولون ، وحسبنا أن جميع أرباب العقول لا يرون في هذا المذهب إلا هوساً وجنوناً ، بل خطراً داهماً لو تعرض له العالم لهبت عليه ريح الفناء .

توسط الإسلام :

والإسلام دين الفطرة والتوسط ، فهو لا يرضى بأن يكون أمر الإنسان معلقاً بهذا الجانب أو ذاك ، لا يرضى بأن يتركه في ظلمة المادية غارقاً في شهواته ولذته ، غير مستمسك بما يرتفع به ويسمو على الحيوان المشارك له في ذلك ، ولا يرضى بأن يكله إلى هذه الرهبانية الزاهدة في الحياة ، الهاربة من العمل والسعى ، المحاولة تعطيل سنة الله في الخلق ، ولكنه يطلب إلى الناس أن يكونوا وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء ، وهذا هو الاعتدال الذى ذكره القرآن الكريم في غير موضع بعبارات محكمة سارت مسير الأمثال ، وأفصححت عن مبدأ الاتزان والقسط في كل شئ أحسن إفصاح : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا ، . . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، . . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ، . . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ، . »

وعما جاء على مبدأ التوسط ، والاعتراف بالفطرة والواقع أن الاسلام

اعترف بالحرب كضرورة بشرية ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكنه مع هذا نهى عن الاعتداء بها أو فيها ، وحث على الإنصاف والعدل حتى مع البغض والشأن ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ، .
 و فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله ، .

ومما جاء على هذا المبدأ أيضاً مبدأ التوسط آية التفسير التي نحن الآن بصدها ، يأياها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ... الخ .

سبب نزول آيات التفسير :

ذكروا في سبب نزول هذه الآيات روايات كثيرة لا تختلف معانيها كثيراً ، وكلها تفيد أن الإسلام يأبى للناس أن يقصدوا إلى ما كان يقصد إليه أهل التبتل والزهانية ، ويربدهم على أن يأخذوا بحظ بشريتهم من الحياة والمادة في قصد واعتدال .

ونحن نسوق بعض هذه الروايات على شهرتها وكثرة ذكرها في كتب التفسير والحديث ، تسهيلاً وتقريباً وتكميلاً ، وليكتفي بها من شاء .

فمن ذلك ما أخرجه مسلم عن أنس أن نفراً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله في السر ، فقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أنام على الفراش - فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم - فحمد الله وأثنى عليه فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ؟ لكنني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وخرّجه البخاري عن أنس أيضاً ولفظه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها

فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ! قال أحدهم : أما أنا فأني أصلي الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أنزوج أبدا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكننى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأنزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي أمامة الباهلي رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية من سراياه ، قال : فر رجل بغار فيه شيء من الماء فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار فيقوته ما كان فيه من ماء ، ويصيب ما حوله من البقل ، ويتخلى من الدنيا ، قال : لو أنى أتيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك ، فإن أذن لى فعلت ، وإلا لم أفعل ؛ فأناه فقال : يا نبي الله إنى مررت بغار فيه ما يقوتنى من الماء والبقل ، فحدثنى نفس بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا . قال : فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إنى لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ، ولكنى بعثت بالحنيفية السمحة ، والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، ولما قام أحدكم في الصف خير من صلاة ستين سنة ، (١) .

وهناك روايات كثيرة غير هذه .

إعطاء النفس حقها المشروع لا يتنافى تقوى الله :

ويؤخذ مما روينا أن النبي صلى الله عليه وسلم أرشد الرهط الثلاثة إلى أن نهيه عن التبتل والانقطاع ، وأمره بتوفية النفس حقها من حظوظ الحياة في اعتدال وما شرحه من سنته في المدارلة بين ذلك وبين العبادات - كل ذلك لا يتنافى مع التقوى والخشية من الله ، فإنه صلى الله عليه وسلم أنقاهم وأخشاهم ، ومع ذلك لا يفعل ما يفعلون ولا يرضى به سنة لأمته .

(١) الغدوة المرة من الغدو ، وهو سير أول النهار ، تقيض الروحة التى هى المرة من الرواح .

حرمان النفس من الطيبات بقصد تهذيبها استظهار وتزويد على الله :

وفي ذلك إشارة إلى معنى رفيع ، هو أن التقوى والخشية في واقعهما الصحيح تستدعيان الإخلاص في تنفيذ ما أمر به الله أو نهى عنه ، وأن إضافة شيء إلى ذلك تحقيقاً لهوى نفس - ولو كان هوى في مظهر ديني أوزهداً في متاع ابتغاء رضوان الله - إنما هو تزويد غير مقبول ، وخروج على سنة المشرع ، وكأنه استظهار على الله جل علاه ، لأن فاعل ذلك كأنه يقول لربه : لقد شرعت لي التمتع بالحلال ، والأكل من الطيبات ، وتناول ما تقتضيه بشرتي ، وما يصلح عليه جسمي ، وتقوى به نفسي ، ولكني لا أرى ذلك كافياً ياربي ، فأطلب ما هو فوقه زيادة في ابتغاء رضوانك ، فأجوع ، وأعري ، وأتبتل ، وأقطع ... الخ ، ولا شك أن هذا اعتداء وخروج على سنة الشريعة ، ولذلك عد الأمر في قوله تعالى : « وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ، للوجوب لا للإباحة ، إذ هو تصريح بأن النهي الوارد في الآية السابقة لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، لا يتحقق الامتثال فيه إلا بالانتفاع بالطيبات فعلاً ، والخروج عملاً من مظهر الممتنع عنها بالتزام ، وإيثار للحرمان .

وعما يساعد على فهم هذا ما ذكرك به الآية من قوله تعالى : « واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » ، وفي ذلك يقول العلامة الطبرسي صاحب تفسير مجمع البيان : « هذا استدعاء إلى التقوى بالطف الوجوه ، وتقديره : أيها المؤمنون بالله لا تضيعوا إيمانكم بالتقصير في التقوى ، فتكون عليكم الحسرة العظمى واتقوا في تحريم ما أحل الله لكم ، وفي جميع معاصيه من به تؤمنون وهو الله تعالى ، وفي هاتين الآيتين دلالة على كراهة التخلي والتفرد والتوحش والخروج عما عليه الجمهور في التأهل وطلب الولد ، وعمارة الأرض ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل الدجاج والفالودج ، وكان يعجبه الحلواء والعسل ، وقال : إن المؤمن حلو يحب الحلوة ، وقال : إن في بطن المؤمن زاوية لا يملؤها إلا الحلواء . وروى أن الحسن كان يأكل الفالودج ، فدخل عليه فرقد السبخي ، فقال : يا فرقد ما تقول

في هذا فقال فرقد لا آكله ولا أحب أكله ، فأقبل الحسن على غيره كالمتعجب ، وقال : لعاب النحل بلباب البر مع سمن البقر هل يعيبه مسلم !

ويقول الطبري في هذا أيضاً : « لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح إذا خاف على نفسه بإحلال ذلك بها بعض العنت والمشقة ، ولذلك رد النبي صلى الله عليه وسلم التبتل على ابن مضعون ، فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده ، وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب عباده إليه ، وعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنة لأمته ، واتباعه على منهاجه الأئمة الراشدون ، إذا كان خير الهدي هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا كان كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشَّمر والصوف على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله ، وآثر أكل الحُشن من الطعام ، وترك اللحم وغيره حذراً من عارض الحاجة إلى النساء ... فإن ظن ظانٌّ أن الخير في غير الذي قلنا لما في لباس الحُشن وأكله من المشقة على النفس ، وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة فقد ظن خطأ ، وذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها ، ولا شيء أضر للجسم من المطاعم الرديئة لأنها مفسدة لعقله ، ومضعفة لأدواته التي جعلها الله سبباً إلى طاعته ، وقد جاء رجل إلى الحسن البصري ؛ فقال : إن لي جاراً لا يأكل الفالودج ، فقال : ولم ؟ قال : يقول لا يؤدى شكره ؛ فقال الحسن : أفيشرب الماء البارد ؟ فقال : نعم ، فقال : إن جارك جاهل ، فإن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالودج . »

توسط الإسلام أصل إصلاحى عظيم الأثر في البشر :

هذا أصل من أصول الإسلام الإصلاحية ، وبه ضمن الله لامة الإسلام صفات الحياة والتدرج في مراقى الحضارة والمدنية ، والسعى إلى الانتفاع بكل ما في هذا الكون من منافع ينجزها الله للإنسان في رقابة من تقوى الله وخشيته

يتحقق بها الاعتدال وعدم الإسراف في اتباع الشهوات ، وعبادة المادة ، والاشتغال بها إلى درجة الفناء فيها ، وبهذا كانت الأمة الإسلامية أمة وسطا ، وصلحت لأن تكون شهيدة على الناس ، أى أن تكون مقاييسها هي المقاييس الصحيحة ، وسنتها هي السنن القويمة ، وذلك أن الأمم إذا صلحت واستقامت واعتدلت كانت نموذجا لغيرها من الأمم في أفعالها وأقوالها ، وما يعد صلاحا وما يعد فسادا ، واليوم ، وقد تأثر الناس بالقوة والمال والعزة والمنعة ، أصبحت الدول الغربية سواء في أوروبا أو في أمريكا هي الدول التي يحتكم إليها في المقاييس والصلاح والفساد ، والعدل والظلم ، فكأنهم هم الشهداء على الناس ، وما ذلك إلا بأن المسلمين تنحوا عن مركزهم العالمي الذي بوأهم إياه دينهم في سالف الزمان .

ولقد كان لهذا الأصل الإسلامى فضل على الإنسانية عظيم ، لأنه لفتها عما أراد أن يحجر إليها أهل الرهينة والانقطاع ، وسلك بها سبيل العمل والنشاط والسعى الدائب لعمارة السكون ، وكشف ما أودعه الله من أسرار في الأرض والجو والسماء .

ولو أن الإسلام صادم العرب بتقرير ميله إلى الرهينة والتزهّد وطلب إليهم أن يأخذوا أنفسهم بالحرمان والتعذيب وتحريم الطيبات ، لما استطاع أن يمد رواقه على العالم ، ولما كان قصاره أن يرى من هؤلاء العرب جماعة يختم عليها الكسل ، ويعوقها الضعف والتراخي عن كل عمل ، جماعة لا يقوم إليهم حكم ولا عدل ولا علم ولا اختراع ولا إنشاء ولا حرية ، جماعة لا تنتفع بهم الإنسانية في قليل ولا كثير ، ولم يكن يطول بهم الزمن حتى ينقرضوا ويبيدوا ويصبحوا أثرا بعد عين ، وخبرا يذكر في القصص وما يتسلى به الناس .

ففضل الإسلام اذن بهذا الأصل عظيم ، فقد عرس في العالم غراسه ، واقتلع ما كان قد نبت في الناس من بذور الرهبانية والتخلي ، ومن هنا تخلت المسيحية عن ميراثها الذي كان ثقلا عليها ، وآصاراً وأغلالا في أعناقها ، فخرجوا بأنفسهم يبتغون الحياة ، ولم يبق فيهم إلا هذا النوع المعروف بالاديرة ، وهو أشبه بملاجئ

يلجأ إليها العاجزون ، ويفر إليها الهاربون من الكفاح ، ولا يحفظه الآن إلا ما رُصد عليه في قديم الزمان من الأموال والثروات ، وما أشبهه بالتكاي التي كان ينقطع فيها فريق من المسلمين ساروا وراء من كانوا قبلهم شبراً بشبر ، وذراها بذراع ، حتى دخلوا هذه الخرائب التي لا تُصلح لإنسانا في مادته ولا في روحه ، وإنما هي مغاور وكهوف للإنسان المستأنس ، وقبور للأحياء الأموات .

وهكذا كان المسلمون في أولهم دعاة عمل وسعى وجد ونشاط ، فسار المسيحيون وراءهم وأخذوا في العمليات بأصولهم وقواعدهم ، وكان المسلمون في آخرهم أهل تقليد واقتباس من الذين كانوا من قبل يوجهونهم ويقودونهم إلى الصلاح والحياة الصحيحة .

* * *

شبه لدعاة الزهد والتقشف :

سير الصالحين والراشدين . أثر الترف في إفساد الأمم . حملة القرآن على أهل الترف .

قد يتساءل بعض الناس في هذا المقام عما ورد في التاريخ من أخبار الولاة الصالحين ، والائمة الراشدين الذين كان شعارهم الزهد والتقشف ومشاركة الرعية في لاوائها وبأسائها وضرائها ؛ وبالتالي يتساءلون عما عسى أن يدعو إليه قادة الأمم وموجهوها في كثير من الظروف من دعوة التقشف والتخفف واتجاه أفراد الأمة ولو كانوا من أغنيائها وقادريها إلى التخلي عن مظاهر الترف وكثير من المباحات والطيبات ، حتى تستغنى بما لديها ولا تقع تحت ضغط أعدائها والمتربصين بها .

قد يتساءل عن ذلك بعض الناس ، وقد يذكرون أن الأمم المترفة الناعمة التي ركنت إلى بُلهينة العيش ، واستلانت متاع الحياة ، قد استرخت وأصيبت بالضعف والكسل ، وكلت عن مكابدة الصعاب والمشاق حتى استولى عليها أعداؤها ، أو أدركها الهزال فعاشت عيشة لا خير فيها ، ولا سمو ولا كمال .

قد يتساءلون عن ذلك ، ويذكرون فيه آيات من الكتاب الكريم من مثل قوله تعالى : « أمرنا مترفها ، . . إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ، « ارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم ، . . إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، . . إلى غير ذلك .

الجواب عن هذه الشبه :

الولاية قادة وقدوة . الأمم تدعى إلى التقشف في بعض ظروفها كعلاج واستعداد . القرآن إنما حمل على المسرفين في ترفهم :

والجواب عن هذه الأسئلة سهل ، فأما أخبار الولاية الصالحين والائمة الراشدين الذين كانوا يأخذون أنفسهم بالتقشف ، فإنما كان ذلك منهم مشاركة للأوساط الناس ، وقدوة للفقراء وذوى الحاجة من الامة ، وإن من حسن السياسة ، ومما يجلب محبة الرعية وطاعتها أن يكون الراعى زاهداً غير متكالب على المتاع ، ولا متناول منه ما يعجز عنه الأوساط من رعيته ، وهؤلاء كانوا قادة للامة يأخذون من أموالها ما يكفل لهم معاشهم ، ويغنيهم عن الصفق في الأسواق ، فكان لهم من بيت المال مثل ما لغيرهم من أمثالهم لا يزيدون ولا ينقصون ، ولم يكن لكثير منهم مال خاص يمكنه من الانفاق عن سعة ، والله سبحانه وتعالى يقول : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق عما آتاه الله ، هذا ولم يرو عن أحد منهم أنه ترهب أو اعتزل الحياة ، أو جانب النساء ، فكل ما في الأمر هو القرار من زهرة المال والترف الذى من شأنه ألا يصل إليه جميع أفراد الرعية ، وأن يحملهم على التطلع والتسائل والمطالبة بمثله فهذا مقام آخر غير مقام الحرمان والتبتل والخروج من حياة العمل والجد بالانقطاع عن الدنيا ، وتحريم ما أحل الله قولاً أو فعلاً ، وشتان بين المقامين .

وأما أمر الأمم وما قد تدعو إليه ظروفها من ملابسة بعض المشاق ، وترك بعض المتاع ، والتخلي عن بعض ما أحل الله من الطيبات ، فهذا من قبيل العلاج الذى تحتاج إليه الامة في بعض الاحيان ، ويترب عليه صلاح أمرها في بقائها

أو في توفير أسباب قوتها ومنعتها ، ومثله كمثل المريض الذي توصف له الحية عن بعض ما يحل له وهو صحيح ، فليس ذلك مما نحن فيه ، وقد عرفنا في حياتنا الحاضرة أننا نوقف صلاحها على هذه الخطة فقام أفرادها بتنفيذها وتطبيقها على أنفسهم وأهلبيهم ومناهجهم في الحياة حتى كان شعبها كله كأنه فرق متضامنة متعاونة في جيش واحد له خطة واحدة ، وهدف واحد .

وهذان أيضا مقامان مختلفان شتان ما بينهما .

أما الأمم المترفة التي ضربها الله للناس مثلا ، وأنبا ما أن ترفها كان سبب هلاكها وفنائها وعذاب الله الذي حق عليها ، فإنما هي الأمم التي انغمست في النعيم انغماساً كلياً ، ولم ترع جانب الروح ، فهي الأمم المادية التي لم تقف ماديتها عند حد ، أمم الشهوات والفناء فيها ، والانحلال بها ، والإسلام ليست دعوته إلى المادية دعوة إلى الإباحية والإسراف والخروج عن الحد ، ولكنه يدعو إلى التوسط بين مطالب الجسم ومطالب الروح ، وكان بين ذلك قواما .

* * *

أحكام الحلف ومناسبة ذكرها في هذا الموضوع :

اتصل بهذا النداء الإلهي الذي وضع للدؤمنين أساس معرفة حق الفطرة ، والنزول على مقتضياته - اتصل بهذا النداء بيان لأحكام الإيمان التي يحلفها الناس ويلزمون أنفسهم بها أمورا في حياتهم ، وهو اتصال مناسب من جهة المعنى ، فإن الذين نهوا عن تحريم ما أحل الله ، وأمرُوا بتناول ما أباحه من الطعام ، كانوا قد التزموا ذلك ، وكان لبعضهم إيمان على التزامه ، وقد ورد في بعض الروايات وهي ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : لما نزلت « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » في القوم الذين كانوا حرموا النساء واللحم على أنفسهم ؛ قالوا يا رسول الله كيف نصنع بإيماننا التي حلفناها عليها ، فأنزل الله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم » .

فلذلك الارتباط بين تحريم الناس على أنفسهم ما أحله الله لهم ، وبيان أسلوبه

التخلص من هذا التحريم ، ذكرت أحكام الإيمان والكفارة ، ومباحث الإيمان والكفارة مبسطة في كتب الفقه ، وفيها تفصيلات كثيرة للعلماء ، وحسبنا أن نذكر هنا هذه المسائل :

حكمة الإسلام في تشريع الكفارات لمن تورط باليمين أو الخطأ أو الالتزام :

إن الإسلام يقف في هذه المسألة أيضا - كدأبه في جميع تشريعاته - موقفاً ملائماً للفطرة ، ذلك أن الإنسان قد يتأثر في وقت من الأوقات بدافع من حماسه وانفعاله في حال الرضا أو الغضب ، فتصدر منه يمين حاسمة يلتزم بها أمراً من الأمور ، ثم تهدأ حماسه ، ويزول انفعاله ، ويعود إلى حالته الطبيعية ، فربما تبين له شططه أو ارتسكابه ما يخالف البر والخير بإقدامه على هذه اليمين ، فلو فرضنا أن التشريع الإلهي كان ملزماً له بما التزم ، مضيقاً عليه فيه ، لا سبيل إلى انفكاكه منه ؛ فلا شك أن ذلك يكون سبباً في عنت كبير ، ومشقة بالغة ، لا يطيقها عادة ، ويظل المرء آسفاً على ما بدر منه ، فإن التزم ما ألزم نفسه إياه في صدق وإخلاص عملاً بدينه ، وخوفاً من ربه ، فإن ذلك هو المشقة اللازمة التي لا تطاق ، وإن تساهل بدافع من نفسه ، متحلاً من يمينه دون أن يكون التحل مشروعاً ؛ فإنه حينئذ يكون رافضاً لدينه ، خارجاً عليه ، معذب النفس والضمير بذلك دائماً وإن اجترأ عليه ، وتوقع فيه ، فلم يكن بد إذن من أن يوجد مخلص تشريعي لهذا المتورط ، ومن أن يفتح له باب الرجوع عما تورط فيه ، تمسحاً مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والرحمة التي جعلت من أسس التشريع وكلاهما يقتضى التخفيف والتخليص من المآزق والمضايق .

لهذا كان من محاسن الإسلام شرع الكفارات في الأخطاء والإيمان والالتزامات التي تنافي الطبيعة ، وتجنأ ما فطر الله الناس ، فللإيمان كفارة ، وقتل النفس خطأ كفارة ، ولظهار كفارة ... إلى غير ذلك ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم » .

الإسلام يؤثر فعل الخير والبر على التمسك باليمين المنافية لهما :

ويتصل بهذا المعنى أن الإسلام لا يكتفى بأن يبيع الدرء أن يتحلل من التزامه بما لا خير فيه حين يرى ذلك ، بل يوجب عليه هذا ويأمره به على أن يكفر بيمينه ، وفي ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فانت الذي هو خير وكفر عن يمينك ، وفي لفظ ، فكفر عن يمينك وانت الذي هو خير ، وقد جاء هذا الحديث بروايات كثيرة غير هاتين ، وفي بعضها تقديم التكفير ، وفي البعض الآخر تقديم فعل ما هو الخير على التكفير ، وقد استدل بذلك على جواز الامرين .

فالإسلام لا يجب أن يعوّق الخير أبداً ، ولا يرضى بأن يكبل الناس بأى قيد يحول بينهم وبين الصلاح والإصلاح ، ويتجاوز في هذا عن عقدة اليمين وعن كونه عهداً بين صاحبه وبين الله جل جلاله ، وهذه نظرة سامية للخير والمصلحة ، وتشريع سديد من شأنه أن يفتح المجال أمام العاملين المصلحين .

التفرقة بين اللغو وما عقدت عليه العزائم :

ثم إن الإسلام لم يعتد في الإيمان باللغو ، وإنما اعتد بما عقدت عليه العزائم ، وقد اختلفوا في اللغو تبعاً لما جاء تفسيراً له في الروايات ، فمنهم من قال : هو تحريم ما أحله الله لك كما جاء في الآية السابقة ، فعليك أن ترجع عنه ولا كفارة عليك ، ومنهم من قال : اللغو مثل أن يتبايع الرجلان فيقول أحدهما : والله لا أشتري منك إلا بكذا ، ويقول الثاني والله لا أبيعك إلا بكذا ، ثم يقبل كل منهما بغير ما حلف عليه ، وقيل : هو الحلف في الغضب ، وقيل : هو في النسيان ، وقيل : هو الإيمان التي يجري بها اللسان في الكلام دون قصد ، كأن تقول لصاحبك : لا والله . بلى والله ، أو لضيفك : والله لنأكلن هذه ، أو لتقدمن على . . الخ

أما الإيمان المعقودة فهي التي يقال مقصودة مصمماً عليها في روية وفكر ، فهذه هي التي تجب فيها الكفارة .

ولا شك أن هذه التفرقة فيها رحمة عظيمة ، وفيها « واقعية » كما يقولون ، أو نزول على مقتضى الفطرة كما بينا .

الكفارات من أعظم أبواب البر :

ولقد جعل الإسلام الكفارة في اليقين وفي غيرها باباً من أبواب البر والخير والإحسان إلى المجتمع ، فهي دائرة بين إطعام الفقير أو كسوته ، وبين اعتناق الرقبة ، وبين الصوم ، فالأول ترفيه عن الفقراء والمساكين ، والثاني من الحرية على نفس كانت مستعبدة ، والثالث تهذيب وتطهير من شأنه أن يصلح النفوس ويقربها من الفضيلة .

ولا شك أن أبواب الكفارات وأسبابها التي نجب فيها كثيرة متكررة ، فكم من الناس يخلفون كل يوم ، وكم من الناس يخطئون كل يوم ؟ فلو أن الناس عنوا حقاً بدينهم ، ونفذوا أحكامه في الإيمان والكفارات ؛ لوجد المجتمع ألواناً من البر والخير تنهال من كل صوب .

وجوب حفظ الإيمان وما يوحى به الأمر بذلك :

وقد نهانا الله جلّت حكمته - مع تحقيقه لهذه المصالح بقضيه الكفارة ، وتيسير الخروج من مضايق الإيمان - عن اتخاذ الإيمان ديدناً لنا ، وأن نفتحم حماها بجهتين عليها فقال جل شأنه في هذه السورة : واحفظوا أيمانكم ، وقال في سورة البقرة : ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم .

وحفظ الإيمان يقتضى منا ألا نبذلها إلا حيث تكون الحال تقتضيها اقتضاء شديداً كأن توجه إلينا اليقين في حق ، أو في دفع باطل أو نحو ذلك ، فإن الإيمان الشرعية في الإسلام إنما تكون بالله عز وجل ، فإذا قال القائل : أقسم بالله فهي كلمة خطيرة لا يجوز له الإقدام عليها إلا إذا كان واثقاً بما سيأتى بعدها ، جازماً بأنه يقرر الحقيقة في إجمالها أو تفصيلها ، وأنه لا يخفى غير ما يظهر ، ولا يتلاعب باللفاظ ، ولا يتخذ منها دريعة له ، وإذا تصور المؤمن عظمة الله وجلاله وإحاطته بكل شيء من أحواله ومقاصده وأقواله ، فإنه لا يتجرأ على اقتحام هذا الحى إلا

إذا كان على ثقة من نفسه ، وعلى بينة من أمره ، ولذلك روى عن بعض الصالحين أنه كان يقف أمام أحد القضاة طالباً حقه من مغتصب لا بينة له عليه ، فوجه إليه القاضي اليمين ، فلما سمع هذا التوجيه أصفر وجهه واضطرب اضطراباً شديداً مع علمه الصدق في نفسه ، وأنه على الحق ، ثم لم يلبث أن فاضت عيناه بالدمع ، فقيل له : ألسنت محقاً ، فما يبكيك ، ولم تضطرب هذا الاضطراب ؟ فقال : ما بكيت اضطراباً من باطل ، ولكنني استحييت أن أجعل الله عرضة ليمني لعرض من أعراض الدنيا وقد سمعت قوله عز وجل : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » وأشهدكم أني وهبت خصمي حتى إني أثاراً لربي !

نعم إن هذه القصة المؤثرة ليست هي المقياس التشريعي في قبول توجيه الأيمان أو عدم قبوله ، ومن حق من يشعر بأنه على الحق أن يستوفى باليمين حقه حين توجه إليه ، ولا يكون بذلك مضيقاً يمينه ، أو جاعلاً الله عرضة فيها ، ولكني إنما سقتها لأبين مدى الرهبة التي يشعر بها المؤمن القوي حين توجه إليه يمين باسم الله ، فأين هذا من يجترئ كاذباً على اليمين ، فيفتحم هذا الحى وهو يعلم أنه حى الله القوي العزيز ؟ ولولا أن الشعر خيال ، وأن الشعراء يقولون ما لا يفعلون ، كما قال الله عز وجل ، لحسبت أن الله سوف لا يغفر لابن الرومي قوله :

وإني لذو حلف كاذب إذا ما اضطرت وفي الحال ضيق
وما في اليمين على 'مُحَرَجٍ بدافع باقه ما لا يطيق

ولكني أحسبها دعاية من دعاياته ، غفر الله له .

ثم أقول : كما أن الله تعالى يأمرنا بحفظ اليمين في ألا نقدم عليها إلا واثقين مطمئنين ، كذلك يقتضى هذا الأمر بلفظه أن نحفظها إذا حلفنا ، فلا نضيعها ، ولا نحث فيها إلا لغاية يعلم الله من قلوبنا أنها غاية صحيحة مبررة للتحلل من هذا العقد ، وذلك هو المعبر عنه في الحديث الشريف بقوله صلى الله عليه وسلم : « فرأى غيرها خيراً منها » فالؤمن يزن الأمر بميزان الحق لا بميزان الهوى والرغبة فلا يقدم على الحنث إلا إذا ظن أن الخير فيما سيفعل ، والحقيقة أنه في هذه الحالة

لا يسمى حائثا إلا باعتبار الصورة والظاهر وما يجب عليه من الكفارة ، وإلا فهو في الحقيقة التي تبدو من تأمل الحكم مطالب بأن يؤثر الخير ، وألا يصرفه عنه يمين حلفها كما قررنا من قبل . وفعل المراء ما هو واجب عليه تحث لا حث ، والكفارة كأنها تطهير له ، لأنه أقدم على الحلف قبل أن يتدبر موقفه ويعلم ما هو الخير ، ففعله كان لو تدبر لم يحلف ولم يعرض يمينه لأن تضييع .

هذا ما يوحى به قوله تعالى : « واحفظوا أيمانكم إذا حلفتم » ، واندراج المعنى الثانى فى لفظ الآية واضح حيث طلبت منا أن نحفظ أيماننا إذا حلفنا ، أى إذا وقعت منا اليمين فعلا فعلينا أن نحفظها من الحث ، وحفظها كما قررنا بالألفها إلا ونحن على بصيرة من أن الخير فى إلغائها ثم نكفر عنها ، أما اندراج المعنى الأول فى هذا اللفظ ، فتوجيهه أن نفهم « إذا حلفتم » على معنى يعم : إذا أردتم الحلف ، على حد : « يأبى الذين آمنوا إذا قتم إلى الصلاة فاعسلوا » ، يعنى إذا أردتم القيام إلى الصلاة . وعلى هذا يكون التعبير شاملا كأنه قيل : احفظوا أيمانكم ابتداء وانتهاء ، حين تقدمون عليها ، فلا تقدموا إلا حافظين لها ، وحين نحلفونها فعلا ؛ فلا تضيعوها .

هذا هو النداء العاشر من النداءات الإلهية للمؤمنين فى سورة المائدة ، فلننظر كيف حفظ الله جل جلاله بهذا التشريع الحكيم جميع تلك المصالح الحيوية ، وموفقا بينها أتم توفيق ، ولنعلم أن هذا ما بدا لنا الآن ، وهو قليل من كثير ، ولكن الجهد محدود ، وسيحان من قال عن كتابه الكريم ، وفى كتابه الكريم : « إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم » . « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

دَعَائِمُ الْقُوَّةِ فِي الْإِسْلَامِ

لحضرة الأستاذ الجليل محمد علي علوبه

رئيس جماعة التقريب

استمعت ذات ليلة إلى حديث ممتع كان يتحدث به
الأستاذ الجليل محمد علي علوبه رئيس هذه الجماعة ، وسيادته
متحدث من الطراز الأول ، يستولى على قلوب سامعيه
بلفظه المرتب ، وأسلوبه المذهب ، ومعارفه الواسعة التي
وعاها قلبه شيخ إذا ذكرت التجارب، شاب إذا تحدّثت
الصعاب والعواقب ، وكان يلقي حديثه بنبرات تنبئ عن
صدق الإحساس ، وقوة الإيمان ، وعمق الإخلاص ،
فأثر ذلك في نفسي وفي نفوس سائر السامعين تأثيراً حملي
على أن أحاول تسجيل ما وعاه ذهني من هذا الحديث
أقراء ﴿ رسالة الإسلام ﴾ وقد عرضت على سيادته
ما كتبت فأقره وأذن بنشره : [رئيس التحرير]

* * *

قال - حفظه الله - بعد أن بين حالة الأمة الإسلامية الآن ، وما يرجوه
شعوبها في مختلف بلادها من نهضة تعميد مجد الإسلام ، وتجعل لأهل مكاتهم
المرموقة في العالم الحاضر :

ثلاثة أشياء أعتقد اعتقاداً لا يخالجنى فيه شك أنها هي الأساس المتين الذي تقوم عليه عظمة الأمم ، والدرع الحصين الذي يبقى هذه العظمة من أن تمس فضلاً عن أن تصاب ، تلكم الثلاثة هي : الخلق ، والعلم ، والعمل .

فأما الخلق فلا أريد به فضيلة بعينها ، وإنما أريد هذا المنبع النفسى الذى لا يصدر عنه إلا الفضيلة فى شتى صورها ، ويختلف ألوانها ، أريد هذه القوة الحفية التى تجعل الإنسان رقيقاً على نفسه بنفسه ، يسألها إن فعلتْ لمَ فعلتْ ، وإن تركتْ لمَ تركتْ ، ثم ينظر إلى فعلها وتركها نظر المحاميد الذى لا يهمله أن يشهد لها أو عليها ، لأنه لا يرمى إلا إلى الخير ، ولا يبنى إلا الإصلاح . - إذا وجدت هذه القوة فى الإنسان فهو بخير ، بل هو الخير كله ، لأنها ينبوع الأخلاق الفاضلة جميعاً ، عنها ينبع الصبر إذا اقتضته الحياة أن يصبر ، وعنها تنبع الثورة إذا اقتضته الحياة أن ينور ، وعنها يأتى الحياء ، وعنها تأتى الجرأة ، وبها يخلص العامل فى عمله ، والأستاذ فى علمه ، والطالب فى درسه ، والزارع فى حقله ، والجندى فى جيشه ، والحاكم فى ديوانه ، والمحكوم فى مختلف ألوانه ، وبها تحل المشكلات ، وتنفرج الأزمات ، وتكثر الثمرات ، وترقى الجماعات ، وتكثر العوامل المفضية بالامة إلى السعادة ، وتقل العوامل المؤدية بها إلى الشقاء .

يختلف التعبير عن هذا المعنى ، فمن الناس من يسميه « الضمير الحى » ، ومنهم من يسميه « الشعور بالواجب » ، ومنهم من يقول هو « تقدير الفرد لمسئوليته أمام الجماعة » ، وقد يرد الحديث عنه فى الدين بأنه « التقوى » أو « الإخلاص » ، أو « النفس اللوامة » ... الخ . والمعنى فى كل ذلك هو المعنى ، والاثـر فى صلاح الحياة واستقامتها هو الاثر .

وقد يكون من العسير أن تربي الأمة كلها على هذا النمط العالى ، ثم يكون من البعيد أن تنهض الأمم إذا كان هذا شرطاً من شروط نهوضها ، أو أساساً من أسس بنائها ، ولكن من يقول أنه يجب أن تكون كلها كذلك ؟ فيمكن أن يشيع ذلك فيها ، وأن يعمل ولاة الأمر على ألا يوسدوا الأعمال - ولا سيما التوجيهية منها - إلا لهذا الطراز من المواطنين الصالحين .

إن سر النهوض في الأمم الناهضة ، وسر النجاح في الأمم الناجحة ، يرجع في الكثير الغالب إلى توافر هذا العنصر في الأمة ، وإلى حسن الاختيار فيمن توسد إليهم الأمور ، دون تأثر إلا بالصالح العام .

* * *

وأما العلم فلا أريد به مجرد معرفة القواعد والمسائل والنظريات ، وإنما أريد مع هذا علماً تطبيقياً عملياً ننشئ به المصانع والمعامل ، وننتج به الآلات والأدوات ، ونسخره في تيسير الحياة ، وتذليل صعابها ، وتقوى به أنفسنا ، ونكشف به أسرارنا ، وندرس وسائل علاجها ، ونبتكر لها إذا أعوزنا أن نجد العلاج فيما بين أيدينا ، ونسابق به الأمم في مضمار الحضارة البشرية سباقاً يشعرون معه أننا أعضاء عاملون في الكتلة الإنسانية ، ولنا عالة عليهم ، ننتفع بعلمهم ، وتأثر أبلغ التأثير بآثارهم ، وتمتلىء حياتنا في بيوتنا ومصانعنا وسائر مواطن نشاطنا بشمرات أفكارهم ، ونحن مع ذلك نرجو أن يحترمونا أو يحاربنا ، أو لا يفكروا في استعمارنا ، واستغلال ما لم نستطع استغلاله في بلادنا ، كما هي سنة القوة مع الضعف ، والمعرفة مع الجهل .

إن الخلق بدون العلم لا ينفع ، ولكن العلم في الأمة الفاضلة يدرأ عنها فيحفظ عليها أن تغزى في أخلاقها ، والفضيلة في الأمة العالمة توجه علمها إلى الخير والإصلاح وتعضمها من أن تتخذ منه أداة للهدم والتخريب ، والظلم وهضم الحقوق ، وابتغاء العلو والفساد في الأرض بالطغيان والجبروت .

لقد كنا - معاشر المسلمين - قادة في العلم والاختراع واستنباط ما ينفع الناس وبمكث في الأرض ، وكان الناس لنا في ذلك تبعاً حيناً من الدهر ، أما الآن فقد انعكست الآية ، وصار القادة تابعين ، والتابعون قادة ، فتي نعود إلى تبوؤ مكائتنا ، أو متى - على الأقل - نشارك أهل العلم في علمهم ، فنحملهم على احترامنا ، ونجاريهم في أهم ميادين الحياة ، ونؤدى للإنسانية ضريبة إنسانيتنا ؟ .

بقى الكلام عن العمل ، والشعوب لا تصاب بما هو أضر عليها من الكسل ، إن الكسل إذا خيم على أمة أصابها بالانهلال المؤدى إلى الهلاك ، إنه هو سل الشعوب ، وميكروها الفتاك ، ونحن معاصر الشرقيين يكثر فينا المتبطلون حتى بين العاملين ، وأقول المتبطلون لاؤدى معنى انصرافهم عن الأعمال بإرادتهم ، أو تخلفهم منها عن قصد إيثاراً للكسل ، وهذا الداء متفش فينا ، حتى العاملون منا يحبونه ويركون إليه كلما اطمأنوا إلى خلهم ممن يراقبهم أو يحثهم ، فالموظفون عددهم كبير ، وإنتاجهم قليل ، ولا تكاد تجد مشغولاً بعمل صدر يومه يفكر فيه أو في سواه بعد انقلاعه من دائرة شغله ، ولا تكاد تجد لشبابنا مسلة في بيوتهم تعود بالخير عليهم وعلى أمهم ، والمقاهى عامرة بروادها يقطعون فيها ساعات من النهار والليل في لعب الزرد أو الورق أو التندر على الناس ، وتلاميذنا منصرفون عن دروسهم إلى ما ليس من شأنهم ، والنساء في البيوت مضيعات لأنهن أوقاتهن في الاجتماعات والأحاديث ، معتمدات على الخدم والمربيات في كثير من الأحيان ، وهكذا ، قوى معطلة أو مبعثرة لا يعرف لها قيمتها ، ولا نعمل على الانتفاع بها وتوجيهها فيما يعود على الأمة بالخير ، وتركها تُؤلد بيننا كثيراً من عوامل الضعف ، وتخلق في مجتمعنا ألوان المشكلات ، وأصناف الازمات .

لقد قرأت في بعض المجلات الأجنبية أن كبيراً من أهل أميركا زار أوروبا ، وطاف كثيراً من مصانعها ومواطن نشاطها ، فلم يرقه منهم ما سماه تراخياً في العمل ، وبطاً في الإنتاج ، وقال : إننا معشر الأمريكيين لو سرننا في العمل على طريقة البطء والكسل التي يسير عليها الأوروبيون لاختلت بلادنا ، واضطربت أحوالنا .

ترى ماذا كان يقول هذا الأمريكى لو طوّف في بلاد الشرق ؟



ألا إن الأخلاق قوة ، والعلم قوة ، والعمل قوة ، ولن تقوم أمة إلا إذا اجتمعت لها هذه القوى الثلاث متضافرة ، تسوس بها نفسها ، وتعامل على ضوئها شعوب الأرض أجمعين ؟

بحث عن الدولة العباسية

لمحاضرة صاحب المعالي السيد محمد رضا الشيباني

وزير المعارف السابق بالعراق

— ٣ —

العباسيون الأول :

أبو العباس السفاح :

بويح أول الخلفاء العباسيين أبو العباس السفاح ، فكانت بيعة اجماعية ، أجمع عليها أهل بيته وأنصارهم ، وبهذا الإجماع امتازت بيعته على بيعة غيره ممن جاء بعده أو خلفه في هذا المنصب ، أى أن عصر السفاح امتاز بعدم ظهور منافس له أو ناثر عليه ، ومع أن أخاه وخلفه من بعده المنصور أكبر منه سناً إلا أنه كان في مقدمة من بايعه .

لم يحدث في خلافة السفاح حدث على أهل بيته أو أبناء عمومته ، خلافا لما وقع في خلافة المنصور ؛ لأن السفاح كان معنياً باستئصال الامويين في هذا الدور ، وهو دور التأسيس والبناء .

بطش العباسيون الأول بطشة جبارة ببنى أمية ، قتلوهم أبنا وجدوا ، حتى توارى عن الأنظار كل متصل بنسب إلى بنى أمية ، بيد أن كثير من أهل الشام حاضروهم وبادهم ، وكثيراً من عرب الجزيرة وديار بكر ، وهم من ربيعة ومضر وتغلب وبكر بن وائل ، ظلوا ناقلين على الهاشمين أو العباسيين ؛ لأسباب شتى ، وهم يستظلون بظل الراية العباسية ، بل أجهد العباسيين بعد ذلك استئصال شأفة

كثير من الناقين عليهم في حواضر الشام والجزيرة وبواديها ، فانطوى هؤلاء على كثير من الغل وفساد النيات .

أصبح هؤلاء الناقون عوناً لكل نائر على العباسيين ، ولو لم يكن ذلك النائر من بني أمية فكثرت الفتن في الشام والجزيرة ، وفي ديار بكر وريبعة ، وفي ديار مصر ، وتعدد خروج الخوارج في هذه البلاد ، ولا يخلو تاريخ بلد قديم غلب أهله على أمرهم من محاولة للثورة والانتفاض على الغالب ، فقد ثار الحجاز وثار العراق وثار غيرهما من الأقطار على حكم بني أمية ، فلماذا لا ثور الشام ؟ ولماذا لا ثور الجزيرة على حكم بني العباس ؟ وقد تعددت الفرص السانحة لمناهضة الدولة الجديدة ومناهضة خلفائها ، ولم تقدم هذه الفرص من ينتهزها من ذوي المطامع والأغراض البعيدة ، وفي البلاد المذكورة - وهي الجزيرة والشام - بقية باقية من أنصار بني أمية ومن مواليهم الضالعين معهم ، ولنا أن نقول : أن القطر الشامي وما إليه قد استحال بسبب سخط الساخطين ، وبسبب وجود عدد لا يستهان به من موالي الأمويين وأنصارهم إلى بيئة صالحة للخروج على بني العباس ، وللدعوة إلى مناهضتهم وخصومتهم من أية ناحية جاءت هذه الخصومة .

أبو جعفر المنصور :

وما أن وافى السفاح أجله لينخلفه أخوه الأكبر أبو جعفر المنصور حتى كشرت الفتن عن أنيابها ، وحتى توالى القلاقل في دولته ، ولكنه - أي المنصور - واجهها بما عرف عنه من صرامة وفطنة ودهاء ، وقد تخلص - بموجب خطة رسمها - من خصومه واحداً بعد آخر ، تخلص من عمه عبد الله بن علي النائر عليه بأبي مسلم الخراساني صاحب الدولة ، ثم تخلص من أبي مسلم كما تخلص من زعماء آخرين توسم في بقائهم خطراً على دولته ، وخلع ابن أخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد - وكان السفاح عهد إليه من بعد المنصور - وعيسى هو الذي حارب له الآخرين محمد وإبراهيم من أبناء الإمام الحسن ، فظفر بهما ، فكوفى بخلة من قبل المنصور ، وعهد بولاية عهده إلى ولده المهدي ، ثم إلى عيسى بن موسى

هذا ، والأقربون أولى بالمعروف ، فكان من يبايعه يقبل يده ويد المهدي ثم يسمح على يد عيسى ولا يقبلها ، نقل ذلك ابن تغرى بردى وأعقبه بقوله : « أن البلاد والرياء قديمان ، ثم إن المهدي خلع ابن عمه المذكور من ولاية العهد وعقدهما لولده الهادي ، وكانت أول ثورة على المنصور ثورة الأمير عبد الله ابن علي عم الخليفة .

عبد الله بن علي :

يعد عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس بن أبيه الأمراء العباسيين . وأبوه علي - وهو الذي انتشر الخلفاء العباسيون من نسله - من أوائل الهاشمين الذين رشخوا للخلافة بعد أن نضجت فكرة الثورة على الأمويين ، وإحلال الهاشمين محلهم في هذا الشأن ، وقد أعقب أكثر من عشرين ولداً ذكراً ، من أشهرهم : عبد الله هذا ، وأخوه محمد وصالح أبناء علي ، وكان لكثير من أولاده شأن في تاريخ الدولتين الأموية والعباسية ، إلا أن الخلافة العباسية كانت من نصيب أولاد محمد بن علي وهو أكبر من أخيه عبد الله ، ولم يبايع بالخلافة أحد من ولد عبد الله بن علي المذكور ، ثم هو الأمير الذي نذبه السفاح لقتال مروان الجعدي فظفر به وبغيره من أمراء بني مروان في واقعة الزاب الآنف ذكرها ، وعلى يده انقرضت دولتهم ، ومن ثم استخلص الشام ومصر ، وكان ساعدهم الأيمن في ذلك أخاه صالح بن علي الذي جهزه السفاح على طريق السيارة فطارده مروان وفلول الجيش الأموي إلى مصر وقتله في (أبي صير) (١) ، وهو - أعني عبد الله بن علي - بعد ذلك عم السفاح ، لذلك كان يحدث نفسه بالخلافة ، بل كان يرى أنه أحق العباسيين بعد السفاح بأن يكون خليفة ، أحق من المنصور وأحق من سائر أمراء بني العباس ، وكان يظن أن ابن أخيه - أي السفاح - لا يعدوه في الوصية بولاية عهده لأنه نائبه في الجهاد وقيادة الجيوش وغزو الروم ، ولكن السفاح عهد في مرض موته بولاية العهد إلى أخيه المنصور ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى ،

وما أن علم عبد الله بن علي ببيعة المنصور في العراق ، وكان - كما قلنا - يتحين الفرص للدطالة بحقه في الخلافة ، حتى جاهر بالدعوة إلى نفسه وعدل بجيشه إلى العراق ، ولكن خانه الحظ وأخفق في الوصول إلى بغيته ، وانتهت حياة بطل الزاب بالموت في سجن ابن أخيه المنصور بعد هزيمته في واقعة نصيبين ، (١) على يد أبي مسلم الخراساني ، هكذا أخفق عبد الله بن علي في الوصول إلى غايته المنشودة ، ومرد إخفاقه فيما نراه إلى قصر نظره وافتقاره إلى شيء كثير من الدربة والحنكة السياسية وكان دون أخيه محمد بن علي ربان الدعوة العباسية في كل شيء . كان دونه في عقله الراجح ، وكان دونه في حزمه وخبرته الواسعة ، وقد ارتكب في دعوته إلى نفسه أغلاطاً فظيعة ، فإنه أمر بقتل عدد كبير من الخراسانيين كانوا في جيشه لتوهمه بميلهم إلى أبي مسلم الذي ندب لقتاله ، وهم أيضاً أن يفتك ببعض المقحاطبة وهم من أشهر القواد في جيشه ، وكان جل جيشه الباقي مؤلفاً من أهل الشام الذين غلبوا على أمرهم في واقعة الزاب ، ولا بد لنا من القول : أن المنصور اضطرب الاضطراب كله في بدء هذه الحركة التي قام بها عمه حتى أنه هم بالخروج إلى مناجزته بنفسه ، وكان لا يرى من بعده أهلاً للقيام بحرب عبد الله إلا أبا مسلم الخراساني ، ولذلك قال له : « ليس لهذا الأمر إلا أنا أو أنت » ، فامثل أبو مسلم أمر المنصور في قمع هذه الثورة ، ولم تقمع إلا بعد أن مضت عليها أشهر غير قليلة ، وهي أول حرب تقمع في صدر الخلافة العباسية بين أهل خراسان بقيادة أبي مسلم وأهل الشام في الجزيرة بقيادة عبد الله بن علي المذكور .

(١) تجد تفصيل هذه الوقائع التي وقعت بين أبي مسلم الخراساني وبين عبد الله بن علي عم المنصور في تاريخ الطبري [١٥٦ / ٩] ومروج الذهب [١٩٧ / ٢ - ١٩٨] في الطبعة الأزهرية ص ١٦٧ . والكامل [٢٢٠ / ٥ ، ٢٢٢] وقد ترجم الخطيب البغدادي لعبد الله بن علي هذا في تاريخ بغداد [١٠ / ٨ - ٩] وانظر أيضاً (ص ٥٣) من الجزء المذكور . وتجد كيفية حبس عبد الله وقتل أصحابه بعد وصولهم إلى المنصور في الكامل [٢٣٦ / ٥] وتجد طرفاً من أحوال عبد الله بن علي هذا في كتاب الوزراء والكتبان للجيشياري [٨٥ - ٨٦ ، ١٠٣ ، ١٣٠ - ١٣٢] .

دور الطالبين :

ومن أهم الأحداث في خلافة المنصور ، إن لم يكن أهمها ، تلك الثورات التي قام بها فريق من زعماء الطالبين . وقد بدأت في خلافة المنصور ، ولم يكن لها أثر في أيام السفاح ، بل لم يحدث في خلافته حدث على الطالبين ، كما لم يحدث من الطالبين حدث عليه . وقد أقضت هذه الأحداث مضاجع الخلفاء العباسيين الأولين خصوصاً وهم يعلمون أن النفوس في كثير من الاقطار إلى خصومهم أميل ، وأن الرأي العام فيها ينجح إلى تفضيل آل أبي طالب على بني العباس ، وكان المنصور يعرف أن لآل أبي طالب مكانة مكيئة في نفوس الجمهور لا يحلم بها أكثر العباسيين فكان يخشى - لذلك - جانبهم ، ومطالبهم بحقوقهم التي يعصدهم كثير من الناس في المطالبة بها ، ومن هنا جاء حقد المنصور على الطالبين ، وقتل من قتل منهم من ساداتهم وأشياخهم النائرين وعاملهم بقسوة منقطعة النظير . جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي ما نصه : « وفي سنة ٤٥٠ كان خروج الأخوين محمد وإبراهيم ابني عبد الله ابن حسن بن الحسن بن علي ، فظفر بهما المنصور فقتلهما وجماعة كثيرة من أهل البيت ، فإننا لله وإننا إليه راجعون . وكان المنصور أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين ، وكانوا قبل ذلك شيئاً واحداً ، (١) . وقال أيضاً : « ومن أفنى بجواز الخروج مع محمد على المنصور مالك بن أنس ، وقيل له : إن في أعناقنا بيعة المنصور فقال : إنما بايعتهم مكرهين ، وليس على مكره يمين » .

كانت ثورات الطالبين مصدر قلق للطبقة الأولى من خلفاء بني العباس ، وقد ألحقت بهم ما ألحقت من الأضرار البليغة بالأرواح والأموال ، وقد حاول قوم من المحدثين المعنيين بالتأريخ أن يعدوا ثورات الطالبين المتوالية على أبناء عمومهم من بني العباس من جملة العوامل الفعالة في زوال الدولة العباسية ، وفي هذا الرأي ما فيه من التكلف والمبالغة ؛ لأن أخطر تلك الأحداث والبشوق التي انبثقت من ناحية الطالبين إنما وقعت في صدر الدولة العباسية وفي خلافة خلفائها الأول

كالمنصور والمهدى والهادى وآخرين من القوم ، وقد تمكن العباسيون الأولون من قمعها بشيء غير قليل من الغدر والقسوة والغلبة المتناهية على بنى العمومة المذكورين ، على أننا نرى أن شيوخ هذين البيتين من طالبيين وعباسيين عاشوا في صفاء تام في معظم عصور الدولة العباسية الأخيرة ، وهى العصور التى منيت فيها الدولة المذكورة بالضعف الشديد . وفى هذه العصور أحدث منصب نقابة الطالبيين ، وهو من المناصب الجليلة ، وقد تولاه كثير من أشياخ الطالبيين ووجوه العلويين فى العصور العباسية المذكورة ، لذلك لا يصح القول إطلاقاً بوجود علاقة أكيدة أو صلة مباشرة بين الثورات الطالبيية المشار إليها ، وبين انحلال الدولة العباسية .

وقد خصص أبو الفرج الأصفهاني الشطر الأكبر من كتابه المسمى : « مقاتل الطالبيين » بذكر زعماء آل أبي طالب الذين قتلوا فى عصور الدولة العباسية عصرراً عصرراً ، وقد ابتدأ بمن قتل منهم فى خلافة المنصور الذى بز جميع العباسيين فى ذلك ، وقد حفلت عصورهم بهذه الأحداث إذا استثنينا عدداً قليلاً من خلفائهم كإسحاق والأمين والواثق بن المعتصم والمتنصر مالوا إلى محاربة الطالبيين ، وكان المتوكل شديد الوطأة على آل أبي طالب . قال أبو الفرج الأصفهاني : « بلغ منهم ما لم يبلغ أحد من الخلفاء قبله إلى أن قتل ، فعطف عليهم ابنه المتنصر . كان يرى مخالفة أبيه المتوكل ، ويظهر ذلك العطف على أهل البيت ، فلم يحجر عليهم مكرود فى خلافته » .

كانت غلطة المتوكل فى هذا الباب من الأسباب التى استحل بها ولده المتنصر هدر دمه كما هو معروف (١) وكان المتوكل يكره كل عباسى قبله ظهر منه شيء

(١) أنظر عن الفرق بين سيرة المتوكل وسيرة ابنه المتنصر فى هذا الشأن مقاتل الطالبيين (٥٩٧ / ٥٩٩ ، ٦٢٦) من طبعة القاهرة ، ومروج الذهب (٢ / ٢٨٤) ، وتأريخ الأمم والملوك للطبرى (١١ / ٨١) ، والكامل لابن الأثير (٧ / ٢٠ ، ٢٩) ، وتجد أخبار خروج الطالبيين والعلويين على العباسيين فى الكامل (٥ / ٢٤٣ - ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧١) . وقد عني غير واحد من المؤرخين بأخبار الطالبيين والعلويين الثائرين وتأريخ مقاتلهم ومن أشهرهم فى ذلك الطبرى والمسعودى وابن الطقطقى صاحب الآداب السلطانية .

من الميل إلى آل أبي طالب ، وقد روى بعض المؤرخين أن الفقهاء أشاروا على المنتصر بقتل أبيه بعد أن حكى لهم عنه أموراً فيبيحه (١) .

ومن الخلفاء العباسيين الذين افترن تاريخهم بشدة الوطأة على الطالبيين - كما جاء في كتاب المقاتل - المهدي والهادي والرشيد والمأمون والمستعين والمعتز والمهتدي . وهكذا إلى خلافة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠) ، وحسبك أن مصارع الطالبيين في عصور الخلافة العباسية استوعبت جل كتاب المقاتل على ضخامة حجم الكتاب المذكور .

هذا ويحسن بالمؤرخ في هذا المكان اللامع بتاريخ هذا الخلاف أو النزاع بين أعيان هذين البيتين الهاشميين ، والوقوف على علله وأسبابه ، وذلك على الصورة الآتية :

أصل الدعوة وصيغتها العامة :

كانت الدعوة إلى انتزاع السلطان من بني أمية هاشمية عامة في أصلها ، شارك فيها الهاشميون : الطالبيون منهم والعباسيون ، وكانت الجمعيات السرية القائمة بها في أواخر عصور الدولة الأموية تتألف من وجوه العلويين والعباسيين ، ومن حضرها السفاح والمنصور ، وكانت الدعوة تبث أو تعلن بشكل يتناول الهاشميين جميعاً ، أى أن الدعوة كانت تعلن بالإضافة إلى (آل محمد أو أهل البيت) . وقد بويغ من بويغ من وجوه الفاطميين بالخلافة سرّاً ، بايعه العباسيون أنفسهم ومنهم السفاح والمنصور ، فكانت الدعوة الهاشمية المذكورة في أخريات عصور الدولة الأموية على جانب عظيم من التنظيم والقوة . وقد امتاز الدعاة الهاشميون بدعائهم وخبرتهم (٢) الواسعة .

اتجه الدعاة في أول الأمر بعد سير أحوال بني العباس والمقارنة بينهم وبين

(١) أنظر رواية ابن الأثير في الكامل (٧ / ٤٣ - ٤٤) .

(٢) يرجع في ما يتعلق بكفاية رجال الدعوة إلى الآداب السلطانية لابن الطقطقي

(١١١ - ١١٢) ط الرحمانية في القاهرة .

الطالبين إلى تفضيل الطالبين ، ولكن سادات أهل البيت من الطالبين كانوا على جانب كبير من الورع فلم يعبأوا بالأمر ، وقد رفض بعضهم مقترحات الدعاة بشأن البيعة ، وكان الأمويون على وشك الاستفادة من انقسام الهاشميين لولا أن الدعوة نمت نمواً هائلاً وسرت مسرى النار في الهشيم ، وذلك للملامة البيئية لها ، وهي بيئة مشبعة بالسخط والثورة النفسية على سياسة الأمويين ، وهكذا كانت الدولة من نصيب بني العباس (١) .

هذا على أن بعض المؤرخين ، وأكثرهم من الفرنجة المستشرقين يغمزون العلويين بالعجز عن انتهاز الفرص ، وأن العباسيين فاقوهم بالحزم والمضاء وبعد النظر في هذه الناحية .

والواقع أن الطالبين أكرهوا على الثورة في كثير من الأحيان لشدة طلب العباسيين لهم ، إلى أن صارت الثورة على حكم العباسيين شعاراً لهم كما كانت من قبل على حكم الأمويين . وقد انتهز بعض الطالبين والعلويين طغيان الموالي والأتراك في الدولة العباسية واضطراب الأمور فيها بعد ذلك فقاموا بثورات عدة ، وحاولوا الاستقلال بجزء من البلاد الخاضعة للدولة العباسية ، وقد نجح بعض زعمائهم في إنشاء دولة لهم بطبرستان ، وهي الدولة الزيدية العلوية ، عاشت أكثر من مئة سنة (٢) .

المهدى - الهادى - الخيزران :

أربت الفترة الواقعة بين موت المنصور وبيعة حفيده هارون الرشيد على عشر سنوات قليلاً . بويج خلالها المهدي والهادى ، وتعتبر هذه الفترة - على

(١) يرجع إلى الآداب السلطانية عن اتجاه الدعوة وكيف أعرض عنها الطالبون وكيف بويج العباسيون ، وانظر عن انتقال الأمر إلى أوائل بني العباس من أبناء عمومته المصدر المذكور [١١٩ - ١٢٠] .

(٢) تجد أخبار هذه الدولة في التاريخ الكامل [٧ / ٤٩ - ٥١] . وانظر أيضاً مادة طبرستان في معجم البلدان .

الأكثر - امتداداً لخلافة السفاح والمنصور إذا استثنينا عناية المهدي بفتح بعض الطرق العامة ، وتوسيع عاصمته بغداد حتى ازدهرت فيها الصناعة والتجارة ، وعن المهدي فيما عني بنظام البريد في المملكة (١) ، وكان شديداً في مواخظة المتظاهرين بالمذاهب الشاذة ، كما كان أبوه يعيبه بالإسراف والتبذير ، وينسب ذلك إلى ضعفه وحدائته واستيلاء أعوانه عليه ، وما لاشك فيه أن المهدي كان مغلوباً على أمره لزوجه الخيزران ، إذ كانت تدخل أنفها في كثير من الأمور العامة ، إلى أن حجر عليها ابنها الهادي بعد وفاة أبيه .

كانت الخيزران خائفة على نفسها من ابنها الهادي ، شاعرة بأنه يحاول الفتنك بها ، فإنها رأت في نفسها الكفاية للمساهمة في إدارة شؤون الدولة ، وقد كثرت الغاشية وازدحمت الموالكب على بابها بعد موت زوجها المهدي ، ومرد ذلك على الأكثر إلى حدائته سن ابنها الهادي ، إذ بويع بالخلافة وعمره نيف وعشرون سنة ، فأرادت مشاركته في سلطانه ، وحاولت غلبته على أموره ، وكانت حلة رجال الدولة بها وصلتها بهم حديث المحافل في البلاد ، كما كان الهادي يطوى نفسه على كثير من الأشجان والآلام من أجل ذلك ، فهو معروف بشدة الغيرة على حرمة ، ولكن هذا الخليفة الشاب سرعان ما تنسكر لآمه ، بل ثار عليها ثورة صاخبة ، وخاطبها بعبارات جارحة فاضت على لسانه وكلها عدل وتقرير وتهديد ووعيد ، ومن أجل ذلك - على ما يقول فريق من المؤرخين - سعت أمه في الفتنك به قبل فتنك بها . وذلك في مستهل السنة الثانية من خلافته (٢) .

هارون الرشيد :

بلغت بغداد ، بل بلغت الدولة العباسية أوج عظمتها وحضارتها في عهد الرشيد ،

(١) أنظر عن عنايته بنظام البريد تاريخ الخلفاء للسيوطي (١٠٧) ،

(٢) أنظر عن قصة الخيزران وعلاقتها بموت الهادي وتضارب أقوال المؤرخين في ذلك

تاريخ الطبري [١٠ / ٣٣ - ٣٤] والمروج [٢ / ١٨٤] والكمال [٤٠ / ٦ - ٤١] وقد روى المؤرخون المذكورون نص خطاب الهادي لآمه الخيزران انتهى أحفظها عليه .

وهو عهد امتاز بالرخاء والرفاه والغنى واليسار ، حتى ضربت بذلك الأمثال وحتى وضعت في ترف العباسيين وبذخ أعيان دولتهم قصص معروفة بعضها من نسج الخيال .

كان هارون الرشيد - كجده المنصور - من أبعد العباسيين نظراً وأتقيهم فكراً خبيراً بنزعات الشعوب والأقطار الداخلة في حكم بني العباس مطالعاً على معظم ما يجري في البلاد المذكورة إذا استثنينا أغلاطاً سياسية وقعت له - كما سترى ذلك - .

معسكر الرقة

قواعد حرية للعباسيين :

كان الخطر ما تلا أمام الرشيد والفتنة واقعة لاحتالة من ناحية البلاد المأهولة بعدد غير قليل من أنصار الأمويين والقبائل الموالية لهم ، وفي مقدمة تلك البلاد : ديار بكر وريبعة في الشرق والشمال ، وديار الشام في الغرب ، بل كان الرشيد يعرف من ينسج غزل هذه الفتن من بني العباس الموتورين أنفسهم فضلاً عن غيرهم ، ولذلك فكر المنصور وفكر بنوه وأحفاده - وفي مقدمتهم الرشيد - في اتخاذ قاعدة عسكرية كبرى تكون على مقربة من الشام أو متوسطة بينها وبين الجزيرة ، ومن هذه القاعدة يشرف بنو العباس على ما يجري في البلاد الواقعة شرقي الفرات وغربيه ، فاختار الرشيد « الرقة » (١) وزاد في أبنيتها التي بناها المنصور وأكثر من الإقامة فيها .

وصف المؤرخون طيب هوا « الرقة » و « الرافقة » ، كما لو كان طيب الهواء وعدوبة الماء فيهما علة العلل في انتقال الرشيد إليها . مع أن الرقة لم تكن إلا قاعدة من جملة قواعدهم العسكرية تشحن بالمقاتلة لدرء الأخطار التي قد تتجم من الغرب أو الشرق ، ولولا ذلك ما فارق العباسيون عاصمة ملكهم بغداد (٢) .

(١) تجد سبب إقامة الرشيد في الرقة في السكامل [٧٦/٦ - ٧٧] .

(٢) أنظر عن الرافقة والرقة وعناية المنصور والرشيد بهاتين الحاضرتين معجم البلدان [٧٣٤/٢ - ٧٣٥] ط « لا يسك » وانظر السكامل لابن الأثير [٧٦/٦ - ٧٧] .

حنين العباسيين إلى بغداد :

كانت أغراض العباسيين العسكرية - كما قلنا - تفرض عليهم الصدود عن بغداد والإكثار من الإقامة في الرقة ، كما فعل المنصور وهارون الرشيد وغيرهما من خلفاء بني العباس ، وقد أشار الرشيد نفسه إلى هذا الموقع العسكري الممتاز الذي انفردت الرقة وتميزت به على بغداد ، وذلك لما اجتاز بغداد وعبر جسرهما في طريقه من الرى إلى الرقة رأساً دون أن يقيم في العاصمة ، وذلك سنة ١٨٩ ، فقال ما هذا نصه : « إني لأطوى مدينة ما وضع بشرق ولا غرب مدينة أيمن ولا أيسر منها ، وإنما لدار مملكة بني العباس مابقوا وحافظوا عليها . مارأى أحد من آبائي سوء ولا نكبة فيها . ولنعم الدار هي ، ولكن أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى والحب لشجرة اللعنة مع ما فيها من المارقة والمتلصصة ومخيفي السبل ، ولولا ذلك ما فارقت بغداد ، (١) ، من هذه الجلة يتجلى رأى العباسيين في فضل بغداد وحنينهم إلى الإقامة فيها ، وحسرتهم على مفارقتها ، لولا ما يعينهم من الإشراف عن كئيب على ما يجري في بلاد الشام أو ما يجري في ديار الجزيرة شرقي الفرات ، والاهتمام بقمع الفتن الناجمة من هناك ، فإنا أن مات أبو العباس السفاح سنة ١٣٦ حتى طلعت الفتن بعضها في أثر بعض من تلك الأقطار طبقاً لما توقعها الرشيد .

الفتن تترى :

وما هي الأحداث تترى على عدوق الفرات الأعلى وما وراءهما شرقاً وغرباً بحيث لم يخل منها عصر من عصور العباسيين الأول بعد السفاح ، فن خلع إلى خلاف في أيام أبي جعفر المنصور إلى فتن عادت جذعة بين القيسية والبيانية في الشام ، ومن مؤامرات لخلع الرشيد ، إلى قتال دام بين الأبناء المجندين من العجم وبين قبائل العرب ، إلى أحداث أخرى تدل على أن هؤلاء الخلفاء الأول من بني العباس كانوا على صواب في تخوفهم من القلائل الناجمة عن تلك الاصقاع ، وفي استعدادهم لمواجهة ما

(١) انظر رواية ابن الأثير لهذه الكلمة في السكمل [٦ / ٧٧] .

بين الفقهاء والشعراء

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

يقول جاز الله الزمخشري في تفسير قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ذكر الوادي والهيوم فيه ، تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول ، واعتسافهم ، وقلة مبالاتهم بالغلو في المنطق ، ومجاوزة حد القصد فيه ، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنبرة ، وأشجعهم على حاتم ؛ وأن يبهتوا البرى » ، ويفسقوا التقى ، وعن الفرزدق أن سليمان ابن عبد الملك سمع قوله :

فَإِنَّ بَجَانِيَّ مُصْرَعَاتٍ وَبَتَّ أَفْضُ أَغْلَاقِ الْخَتَامِ

فقال : قد وجب عليك الحد . فقال : يأمير المؤمنين ، قد درأ الله عنى الحد بقوله : « وأنهم يقولون ما لا يفعلون » اهـ .

وفي أثناء هذه المحاوراة القصيرة بين الخليفة والشاعر تطوى النسبة بين الشعر والفقه بمعناه الأعم ؛ فموضوع الفقه الحقائق الواقعة من حيث ما يعرض لها من الحل والحرمة ، والصحة والفساد ، والثواب والعقاب إلى آخره ؛ وموضوع الشعر ، الصور التي يزورها الخيال ، لما يحيط بالشاعر من مظاهر الحياة ، وما يجول في خاطره من مشاعر وأحاسيس ؛ فالفقيه واقعي ، والشاعر خيالي ، والنسبة بين الواقع والخيال هي النسبة بين المتضادين ، ومن هنا اتسعت مسافة الخلف بين الشعراء والفقهاء ، وتنسك بعضهم لبعض ؛ ومضى في نبز ما كان ضعيف

الخيال من الشعر ، أنه شعر فقيه ١ وحملوا ذلك على جميع أشعار الفقهاء والنحاة ، والبلغاء وأصحاب القواعد في كل علم وفن .

وربما ندرت أبيات من الشعر لبعض الفقهاء ، فحملها النقاد على الشذوذ ، الذى لا تسلم منه قاعدة ، وربما أسى به الظن من أجلها ؛ كما وقع لعروة بن أذينة ، أحد فقهاء المدينة وعبادها ، وكان من أرق الناس تشبها ، فقد وقفت عليه امرأة فقالت له : أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح ، وأنت القائل :

إذا وجدت أوار الحب في كبدي أقبلت نحو سقاء الماء أبترد
هذا برّدت يبرد الماء ظاهره فن ل نار على الأحشاء تنقد ١٩
والله ما قال هذا رجل صالح
ونحن إذا قرأنا له أيضاً قوله :

قالت - وأبثثتها وجدى وبجت به - قد كنت عندى تحت السر فاستتر
ألسن تبصر من حولي ؟ فقلت لها : غطى هواك وما ألقى ، على بصري

وافقنا هذه المرأة ، على صدق العاطفة ، ورقة الخيال في هذا الشعر ؛ وإن خالفناها في إساءة الظن بصاحبه ، تهدياً برد أستاذنا الفرزدق العظيم على سليمان ابن عبد الملك آنفا ١ .

والحق أن للفقهاء في جميع عصور الأدب الإسلامى كثيراً من روائع الشعر ، وبدائع التوشيح ، في أغراض الشعر جميعاً حتى الفكاهة ، ولكن الأعم الأغلب منه يتغلغل في مداخله ، ويترأى من نخصاصه ، الروح العلوى ؛ فكان الحكم منوطاً بهذا الأعم الغالب . وإلا ؛ فن هو هذا الناقد الذى يجزؤ أن يحدد قوة الشعر ، في قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة في الغزل :

كتمت الهوى حتى أضربك الكتم ولاملك أقوام ، ولومهم ظلم
ونم عليك الكاشحون ، وقبل ذا عليك الهوى قد نم ، لو نفع النّم
فيامن لنفس لا تموت فينقضى عناها ولا تحيا حياة لها طعم
تجنبت إتيان الحبيب تائماً ألا إن هجران الحبيب هو الأثم :

ومن ذا الذى لا تستخفه الفكاهة ، فى قول ابن الأزرق ، قاضى الجماعة
بغرناطة ، من قصيدة طويلة : (١)

أفدى صديقاً كان لى بنفسه يسعدنى
فتارة أنصح به وتارة ينصحنى
وتارة ألغى به وتارة يلغىنى
وربما أصفعه وربما يصفعنى
أستغفر الله فهذا الـ قول لا يعجبنى
يا ليتنى لم أره وليته لم يرنى
كأنتى، ولست أدرى الـ آن : ما كأتى
والله ما التشبيه عند شاعر بهين .. الخ

والقصيدة نقيض بالفكاهة الصارخة ، ولكنى أوردت منها ، ما لا يحدش
وقار رسالة الإسلام : مجلة الفقهاء .

* * *

وقد تلاقى الشعراء الفقهاء ، فى أنهما كانا من الأسناد التى قامت عليها الخلافة
الإسلامية ، منذ أن صارت ملكاً ، والتى قامت عليها الحكومات الإسلامية
فى شتى مظاهرها ، ومختلف أوطانها ؛ فالشعراء للدعاية ، وإذاعة فضائل الدولة
القائمة ، والمنافعة عنها ، والإشادة بذكر أمرائها وعمالها ، وتعداد مآثرهم فى البلاد ،
وأيادهم على الشعب ، وجهادهم لأعدائها فى الخارج والداخل ، وسهرهم على
مصالح الرعية ، وحيطة الدولة ، الخ الخ .

والفقهاء ، لأقامة ميزان العدل بين الناس ، وإرشاد الخلق إلى الحق ، فى
العبادات والمعاملات ، والحقوق والواجبات ، وحراسة الدين ، من أن تتعدى
حدوده ، أو يستباح حماه .

(١) قاضى الجماعة = قاضى القضاة .

وكان طبيعياً أن يتلاقيا - بعد ذلك - في أنهما كليهما لم يكونا بمنزلة سواء في مواقفهم من الدولة ؛ بل كان من الشعراء من يتصل بحكومته على أساس من الإخلاص لها ، والرغبة في بقائها ، والمعاونة الصادقة في خدمتها ؛ ومن يتصل بها على أساس من المنفعة الشخصية ، والتفاق السياسي ؛ ومن يتصل بها اتصال المكره المدارى ، حرصاً على الحياة ، وإبقاء على النفس . ومن وراء أولئك آخرون تمردوا على الدولة ، واتخذوا مواقف أخرى ، محافظة على مبدأ ، أو تشيماً لبعض الأحزاب ، أو غضباً للحرمان من الوظائف أو المناصب ؛ أو غير ذلك مما يفضض وبئير .

وعلى أمثال هذه البواعث تقوم صلات الفقهاء بالدولة أيضاً ، فمنهم العامل في ذات الله ؛ ومنهم العامل للهوى والشهوات الدنيا .

وقد سجل التاريخ صفحات بيضاء لكثير من أحرار الفقهاء ، تعتبر بحق من مفاخر الإسلام على وجه الزمان .

يقول الطبري : لما دخل الوليد بن عبد الملك المدينة في حجته سنة ٩١ ، غدا إلى المسجد ينظر إلى بنائه ، فأخرج الناس منه فسا ترك فيه أحد ، وبقي سعيد ابن المسيب ، ما يجترى أحد من الحرس أن يخرج به ، وما عليه إلا ربطتان ما تساويان إلا خمسة دراهم ؛ في مصلاه ؛ فقيل له : لو قت . قال : والله لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي كنت أقوم فيه ! قيل : فلو سلبت على أمير المؤمنين ؛ قال : والله لا أقوم إليه . قال عمر بن عبد العزيز : فجعلت أعدل بالوليد في ناحية المسجد ، رجاء أن لا يرى سعيداً حتى يقوم ؛ فحانت من الوليد نظرة إلى القبلة ، فقال : من ذلك الجالس ، أهو الشيخ سعيد بن المسيب ؟ فجعل عمر يقول : نعم يا أمير المؤمنين ؛ ومن حاله ، ومن حاله ؛ ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك ؛ وهو ضعيف البصر . قال الوليد : قد علمت حاله ؛ ونحن نأتيه فنسلم عليه . فدار في المسجد حتى وقف على القبر ؛ ثم أقبل حتى وقف على سعيد ، فقال : كيف أنت

أيها الشيخ ؟ فوالله ما تحرك سعيد ولا قام ؛ فقال : بخير والحمد لله ، فكيف أمير المؤمنين ؟ وكيف حاله ؟ فقال الوليد : خير ، والحمد لله ؛ فأنصرف وهو يقول لعمر : هذا بقية الناس ! (١)

ولا أذكر أئمة المذاهب ، وبلاهم في ذات الله مما هو متعالم مشهور ، ولكني أنزل إلى من دونهم ، فأذكر أبا يوسف صاحب أبي حنيفة ، ويحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك ، وعافل الأندلسي ؛ فقد ترفع أولها عن أن يلي القضاء على أن لا يعين قاض في الشرق إلا برأيه ؛ كما امتنع الآخر عن القضاء على أن لا يعين في الأندلس قاض إلا برأيه .

ولقد طغى سلطان الفقهاء في الشرق والغرب أحياناً على كل سلطان سواه ؛ وموقف الحنابلة في الشرق مشهور ، ووقعة الرّبيض ، أشهر المواقع الداخلية في الأندلس الإسلامية ، كانت بين الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وبين الفقهاء ؛ فقد انحرف الحكم عن سنن آبائه ، فأنهمك في اللذات ، وعاقراً الخرجهاراً ، فتألب عليه الفقهاء بزعامة يحيى الليثي ، وحرضوا الناس على نبذ طاعته ، وأوعزوا إلى المؤذنين أن يعرضوا به على المسأذن ؛ فثار به أهل الربيض (٢) ؛ ولكنه تغلب عليهم وقبض على اثنين وسبعين كبيراً منهم فصلبهم ، وهدم دورهم ومساجدهم ففترقوا أيدي سباً ، بعد أن أعطوه درسا رده إلى رشده ، وأعادته إلى نهج آبائه ، من الاستقامة والسماد .

ويقول أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ، لقاضي الجماعة بقرطبة : منذر ابن سعيد البلوطي : بلغني أنك توصي باليتامى أو صيأه يأكلون أموالهم ؛ قال منذر : نعم ، وينكحون أمهاتهم ؛ باللفظ الغليظ . قال الناصر : وله ؟ قال : لو رخصت لي في أن أضرب بالسياط ظهر أمثال الشيخ أبي إبراهيم المالكي لأجبرهم على قبول الوصاية ، لحدت أمرها ؛ ولكن الامناء يأبونها ، فلا أجد بداً من إستادها إلى من لم يرضوك .

(١) ج ٨ ص ٨١

(٢) الربيض = ما حول المدينة ، ضواحيها .

والشيخ أبو إبراهيم من كبار علماء المالكية في عهد الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) يتحدث عنه المقرئ في نفع الطيب فيقول .

روى ابن مفرج أحد تلاميذه ، قال : إني لعهده في مسجد أبي عثمان ، وجلسه حافل بجماعة الطلبة ، إذ دخل عليه خصي ، فوقف وسلم وقال : يا فقيه ، أجب أمير المؤمنين أبقاه الله ، فإن الأمر خرج فيك ، وها هو قاعد ينتظرك ؛ وقد أمرت بإعجالك ، فآله الله ! .

فقال له : سمعاً وطاعة لأمر المؤمنين ، ولا عجلة . فارجع إليه ، وعرفه - وفقه الله - عني ، أنك وجدتني في بيت من بيوت الله تعالى ، معي طلاب العلم ، أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم يقيدونه عني ، وليس يمكنني ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا الله وطاعته ، فذلك أؤكد من مسيرى إليه الساعة ؛ فإذا انقضى أمر من اجتمع إلى من هؤلاء المحتسبين في ذات الله ، الساعين لمرضاته ، مشيت إليه إن شاء الله تعالى ، ثم أقبل على شأنه ، ومضى الخصي متضاجراً ، فلم يكن إلا ريثماً أدى جوابه ، ثم عاد ، فقال : يا فقيه أنهيت قولك على نصه إلى أمير المؤمنين - أبقاه الله - فأصغى إليه ، وهو يقول لك : جزاك الله خيراً عن الدين ، وعن أمير المؤمنين ، وجماعة المسلمين ، وأمتهم بك ! وقد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضى شغلك وتمضى معي . فقال : حسن جميل ، ولكنني أضعف عن المشي إلى باب السدة ، ويصعب على ركوب دابة لشيخوختي وضعف أعصابي ؛ فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بفتح باب الصناعة ، لقربه ، كان ذلك أرفق بي ، وأحب أن تعود فتنبه ذلك إليه ، ففضي الخصي ، وعاد بعد قليل ، فقال : يا فقيه قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت ، وأمر بفتح باب الصناعة ، ومنه خرجت إليك ؛ ثم جلس الخصي جانبا ، حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه بأكمل مما جرت به عادته ، غير منزعج ولا قلق .

قال مفرج : فلما انفضضنا عنه قام إلى داره ، فأصلح من شأنه ، ثم مضى إلى الخليفة ؛ ولقد تعمدنا أن نمر بباب الصناعة ، لإثر قيامنا عن الشيخ أبي إبراهيم

فوجدناه مفتوحا ، وقد حفره الخدم والاعوان منزعين ، ما بين كناس وفراش ،
متأهبين لانتظار أبي إبراهيم (١) .

* * *

ولقد بقي الاشتغال بالفلسفة والتنجم محرما في بلاد الأندلس بأمر الفقهاء
إلى أواخر القرن السادس ، إذ اشتغل بها أبو يعقوب بن عبد المؤمن على يد
الفيلسوف ابن رشد وأستاذه ابن طفيل .

* * *

وعلى الرغم من أن للشعراء في النفاق رخصة ، لم تنح للفقهاء ، وهي أن يمدح
الخيال ، وأن أعذب كلامهم أكذبه ؛ فقد أبى الكثير الطيب منهم أن ينزل إلى
مستوى الإماعات والاتباع ، يشهدون المنافع ، ويتطلبون مناعم العيش :

هذا الفرزدق يَجْبَهُ عاهل بني أمية بقوله :

أحبسني بين المدينة ، والتي إليها قلوب الناس يهوى منيها
يقلب رأسا لم يكن رأس سيد وعينا له حواء باد عيوبها
وهذا عبيد الله بن قيس الرقيات يقول في صراحة صارخة :

أنا عنكم بني أمية مزور رء ، وأنتم في نفسى الأعداء
إن قتلى بالطف قد أوجعتني كان منكم لئن قتلتم شفاء !

وهذا دعبل الخزاعي ، يصرخ في وجه عهور بني العباس : المأمون بقوله :

إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعده
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذك من الحضيض الأوهده

* * *

وهذا الشريف الرضي ، يواجه الخليفة العباسي بقوله :

مهلا - أمير المؤمنين - فأنا في دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبداً ، كلانا في المفاخر مُعْرَق
إلا الخلافة ميزتك ، فأننى أنا عاطل منها ، وأنت مطوق

بل هذا السيد توفيق البكرى الشاعر المعاصر رحمه الله ، يفخر على بيت محمد
على ، فيقول :

ولمى من البيت الذى تعلينه أقام عمود الدين لها تأوِّداً
وأول هذا الأمر نحن أساته وآخره ، حتى يعود كما بدا

ورحم الله السيد لطفى المنفلوطى ، أى شجاع فى برديه ، وهو يستقبل الخديو
عباس الثانى فى عودته من أوروبا ، بقصيدته الرائعة :

قدوم ، ولكن لا أقول سعيدٌ وملك - وإن طال المدى - سيبيد
تذكرنا أيامكم يوم أنزلت علينا خطوب من جدودك سود

أما بعد ، فإذا عدَّ الفقهاء على الشعراء كثيراً من الفاسدين ؛ فإن الشعراء
ليعدون على الفقهاء كثيراً من المارقين ؛ المدلسين ، الضالين المضلين ؛ على أن
فساد الشاعر فساد قاصر ، لا يجاوز شخصه أو قرابته الأدنين ؛ فأما فساد الفقيه ،
فإنه جسم الخطر ، شديد الضرر ، على الأخلاق والدين والاجتماع ، لمكان الفقيه
من الأخلاق ، والدين ، والاجتماع ؟

الإسلام والدراسات الإسلامية

محاضرة الطائفة الفاضلة الدكتور محمد البرهي

أستاذ الفلسفة في كلية اللغة العربية بالأزهر

١ - الإسلام :

نظرة الإسلام إلى الحياة ، هي نظرة مادية روحية :

الإسلام : هو رسالة من رسالات الله إلى خلقه من بني الإنسان ، جاء بها رسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي إذ كانت رسالة من رسالات الله فلا تختلف في جوهرها عن رسالات الله التي قام بالدعوة إليها الرسل السابقون عليهم صلوات الله . فهي تدعو جميعها إلى عبادة الله ، وإلى التمسك بالوصايا الخلقية التي تحدد الطريق السليم للإنسان في هذه الحياة .

وعبادة الله معناها الاعتراف بقوة في هذا الوجود فوق قوة البشر جميعاً ، وأن هذه القوة هي الداعية للخير في هذه الحياة ، وأن الخير الذي تدعو إليه ليس هو متع الحياة وأطاييها المادية ، بل المعاني الفاضلة والقيم الخالدة : كالحجة ، والأخوة ، والإحسان ، والتعاون ، والمشاركة في الوجدان والاحاسيس الإنسانية .

فرسالة الله إذن تقوم على اعتبار أن هناك أساساً معنوياً لهذا الوجود لا يقل عن الأساس المادى المشاهد فيه . والحياة في نظر الدين لها صفحتان : صفحة محسوسة وهي تلك المتع الظاهرة التي تتصل بمطالب الجسم ، وصفحة أخرى معنوية

وهي التي تتصل بنفس الإنسان أو روحه . والأمور المادية ، والأخرى المعنوية تتكون منها حياة الإنسان ووجوده .

وإذن النظرة المادية الصرفة إلى الوجود والحياة لا تعبر تماماً عن الوجود كما هو والحياة كما هي . وكذلك النظرة الروحية المحضة لا تمثل واقع الأمر في الوجود والحياة .

والإسلام كرسالة من رسالات الله قام على اعتبار الجانب المادى والجانب الروحى للوجود والحياة ، وعالج نفس الوجود ونفس الحياة من زاوية الأساس الذى قام عليه :

فاعترف بالفرد ، وبالأسرة ، وبالأمة والشعب ، وبالعالم الإنسانى .

١ - منهجه للفرد بما يحقق الموازنة بين روحه وجسمه :

قوم الفرد لذاته ، واعترف بشخصيته الوجودية . وعن اعترافه بالفرد وبقيمته الذاتية خطاً له الطريق في الحياة ، وأمته فيه من أن ينحرف : فرسم له كيف يقوى صلته بربه ، وكيف يعشق الخير لذاته عن طريق هذه الصلة . لأنه إذا عرف ربه كمصدر للخير ، وللمعاني وللقيم الرفيعة ، أدرك الخير الذى يتمثل في هذه المعاني والقيم ووقر في نفسه حبها . وإذا أحب الإنسان الخير لذاته فعل الخير دون أن يترقب جزاء عليه ؛ فعله لنفسه وغيره : من هو قريب منه ، ومن هو بعيد عنه .

وكما رسم له طريق الاتصال بربه - رسم له طريق معاملة نفسه ، ومعاملة غيره في محيطه الضيق أو محيط الإنسانية العام . والحدود التي يعامل نفسه وغيره ، هي ألا يضر نفسه ولا يضر غيره . وهذا يحتمل أن ينفع نفسه ولا يضر غيره ، أو يكتفى بموقف عدم الإيذاء لنفسه وغيره . فإيجابته في الحياة : إما أن تتعدى عدم الإضرار والإيذاء إلى إيصال الخير والنفع في صورة من صورته إلى نفسه وغيره ، أو تقف عند حد عدم الإضرار والإيذاء .

للإنسان ملكات واستعدادات فطرية : الإنسان يميل إلى الاطلاع والمعرفة ، ويميل إلى السعى والحركة في الحياة ، ويميل إلى حفظ البقاء . فإذا نمت هذه الاستعدادات والميول ، واتجه بها الوجهة الصحيحة في الحياة ، وجنبها الانحراف - كان عندئذ خيراً نافعاً لنفسه وغيره .

إذا اتجه بيميله إلى الاطلاع والمعرفة نحو ما يصور الحقيقة وواقع الامر كما هو ، ويميله إلى المشاركة الوجدانية إلى ما يعين غيره في صورة القول أو الفعل ؛ في صورة القول المذهب أو القول بالمعروف ، وفي صورة فعل البر به ، ومعاونته بما يحل أزمته أو يدفعه إلى التقدم في حياته الاقتصادية ، ويميله إلى السعى والحركة في الحياة نحو ما يكون منه عاملاً منتجاً في الحياة لا مخرباً أو هداماً فيها ، ويميله إلى حفظ البقاء ، نحو بقاء شخصه ونوعه الذي يتمثل أولاً في الحرص على أمرته الخاصة بقاء أديباً قبل البقاء المادى ، بقاءً يعد في جماعته ويعتبر كمثل فيها أو بقاءً يسجله تاريخ قومه أو تاريخ الإنسانية - إذا اتجه بيموله هذه الاتجاهات ، فهو إنسان خيراً لنفسه وغيره .

وإذا اتجه بها اتجاهات أخرى : كأن يتجه بالمعرفة إلى ما يشبع غرائزه لا إلى ما يصقل عقله أو يوقنه على الحقيقة كما هي ، ويتجه بيباق الميول والاستعدادات نحو هذا الاتجاه - كان إنساناً ضاراً لا خير فيه لا لنفسه ولا لغيره ؛ كان إنساناً منحرفاً عن خط الاستقامة في السير في الحياة ، وعن خط الهداية الذي يحدده العقل للإنسان المنتج المثمر في الحياة ، والذي ينصح به الإسلام - وكل دين سماوى في رسالته الأولى - الإنسان المبتغى سعادة نفسه وسعادة غيره .

ميول الإنسان واستعداداته الفطرية يمكن أن يتجه بها الإنسان وجهة مادية محضة ، وعندئذ لا يكون هو الإنسان صاحب العقل والإدراك . ويمكن أن يتجه بها وجهة روحية فقط ، وعندئذ لا يكون الإنسان الذي يعيش في هذه الحياة المزدوجة . ليس واحداً من صاحبي هذين الاتجاهين بالإنسان الذي تريده الحياة ، ولا بالإنسان الموجه من قبل الإسلام .

الإسلام لا يريد في توجيهه عكس ما في طبيعة الإنسان ، ولا مناوأة الحياة الواقعة . وإنما يريد التوفيق بين ما في طبيعة الإنسان نفسه وواقع الحياة كما هي . ورسالة الله بين خلقه من البشر لا تختلف أبداً عن طبائعهم ، ولا تتعارض كذلك مع حياتهم . إنما هي رسم لمنهج يلائم الأمرين معاً ، يلائم طبيعة الإنسان وحياة البشر . قصد به تجنب الإنسان الزلل والانحراف عن طبيعته في حياته .

الإنسان المادى في نظره إلى الحياة وفي تنمية استعدادات نفسه الفطرية ، وفي علاقته بالآخرين في جماعته وفي عالمه - إنسان لا يسير وفق الطبيعة الإنسانية كما هي ، بل هو إنسان منحرف .

والإنسان الروحى في فهمه للحياة وفي سلوكه فيها إنسان ارتفع من هذه الحياة وبني له عشاً في عالم آخر . وهو ليس ذلك الإنسان الذى أراد الله بتوجيهه إياه أن يسكن هذه الحياة ، ويعمرها ، ويستخدم ما فيها من جوانب مختلفة لمصلحة الإنسانية وخير البشرية عامة .

اذن ، الإنسان المادى الروحى هو إنسان هذه الحياة ، وإذن التوجيه المادى الروحى للإنسان هو التوجيه السليم ، وإذن رسالة الله للإنسان لا بد أن تتضمن هذا المكون من التوجيه ، وإذن استقامة الإنسان نفسه واستقامة جماعته وعظمته يتوقف على التوجيه المزدوج ، على توجيه الإنسان صاحب الروح والبدن ، وصاحب الإدراك العقلى يصعد به إلى ما وراء المادة ، وصاحب الحركة الجسمية التى تقيد به بأرض هذه الحياة :

للفرد أن يملك في الإسلام ، ولكن ليس له أن يطغى بما يملك على غيره . وللفرد أن يفكر كما شاء وحيثما شاء ، ولكن لا يصح أن يلحق تفكيره ضرراً بغيره . للفرد أن يعتقد فيما يشاء وبما يشاء ، ولكن لا يصح أن يفرض ما يعتقد على غيره ، ولا أن يعتقد ما يسيء إلى كرامته كإنسان له منطق وإدراك . للفرد أن يتزوج ، وله بعد أن يتزوج أن يفرق ، ولكن في زواجه وفي افتراقه يجب أن يكون بعيداً عن الإيذاء المادى والنفسى في عشرته وفرقه ، يجب أن يكون

جعيداً عن الاعتداء في أية صورة من صوره . للفرد أن يبيع ويشترى ، ويكسب في بيعه وشرائه ، ولكن يجب ألا يكون في كسبه ما يؤدي غيره عن طريق الغش والخداع ، أو عن طريق الجشع في الربح ، أو انتهاز فرصة من الفرص .

الابن قريب إلى نفس الوالد ومن نفسه ، ولكن ليس لوالد أو للولد إيداء الآخر فيما يملك ويقتنى . الزوجة هي العضو الثاني في الأسرة ، ولكن ليس للزوج بما عليه من حق الاتفاق عليها أن يعتدى عليها في مالها ، أو يؤذيها بنابى القول في حال فقرها ، وليس لها بثراتها أو بزيادة حظها في المعركة أن تدل عليه أو تسخر منه .

للضعيف حقه في الحياة ، والمنتسب إلى الأقلية حقه في الحياة كالمنتسب إلى إلى الاكثرية ، وللوضع حقه في الحياة كالشريف .

ب - منهجه للجماعة بما يحقق العدالة في الترابط بين الجماعة والافراد :

وقوم الإسلام الأسرة على أن لكل عضو من عضويتها حقه فيها وعليه واجبه نحوها . أما الواجب فتمليه طبيعة كل عضو منهما : على الرجل أن يسعى لينفق ، وعلى المرأة أن تدبر بيتها وترعى أولادها وشئون زوجها . وأما حق كل منهما قبل الآخر فيحدد الهدف من الأسرة : وهو الانسجام والتعاون في العشرة وفي الحياة . فإذا استحال الانسجام المطلوب إلى خصام دائم سقط حق كل منهما قبل الآخر ، وكانت الفرقة بينهما أولى من بقاء الرباط الظاهري ، وهو رباط الزوجية المفكك .

ونظم حال كل من عضوى الأسرة بعد الافتراق لمدة معينة ، حتى يستطيع كل منهما تدبير أمر نفسه ، ونظم حال أولادهما بما يصون لهم حنان الأم في صغرهم ، ويكفل لهم توجيه الأب - كرب الأسرة - بعد اجتيازهم مرحلة الطفولة الأولى ، وبعض الثانية .

أما في حال بقاء الزوجة والزوج معاً فرعاية الأولاد منهما مضمونة بحنان الأم وتوجيه الوالد معاً ، في فترات نموهم حتى بلوغهم الرشد .

ونظر إلى الأمة والشعب نظرة مزدوجة : كجماعة وكأفراد ، للجماعة واجبات على الأفراد ، وعليها حقوق هؤلاء الأفراد . وبالتالي على الأفراد واجبات يؤديونها للجماعة ، ولهم حقوق تعطى لهم من هذه الجماعة ، فعلى الجماعة - وهى الممثلة الآن فى الدولة - أن تهىء للأفراد ، وهم رعاياها ، فرص الحياة المختلفة : فرصة العمل ، فرصة التعليم ، فرصة التداوى والتريض . ولمن يعجز عن العمل لعاهة مستديمة أو مؤقتة يجب على الدولة أن تكفل له لون الحياة الذى ارتضاه لنفسه قبل عجزه وقعوده بسبب هذا العجز عن العمل ، وكذلك تكفل لمن وجبت عليه نفقة معيشته فى الحياة ، حسبما كان يؤديها ذلك العاجز قبل عجزه .

والجماعة - وهى الدولة - نظير ذلك أن تنقضى من الأفراد ضريبة الدم فى الدفاع عنها عند الاعتداء عليها ، وقسطاً معيناً من أرباحهم المالية - التجارية أو الزراعية - وقسطاً معيناً مما اكتسبوه بخبرتهم ، وفهم ، ومعرفتهم ، فأرباب الخبرة الهندسية والقانونية ورجال العلم والمعرفة وأصحاب الانتاج الفنى كالكتاب الأدباء يجب ألا يحبسوا خبرتهم وعلمهم وفهمهم عن مواطنهم ودولتهم ، والدولة أن تجندهم وقت الضرورة لدفع الكوارث ، أو لتحقيق مستوى رفيع من العيش صحياً واجتماعياً للمواطنين .

والأفراد أن يملكوا ما يشاءون من ضروب الملكية ، ويستمتعوا بحرية إبداء رأى وحرية العقيدة ، وليس للدولة أن تتدخل فى ذلك إلا بمقدار ما يصون حقوق الغير ، أو الأساس العام للجماعة الذى يتمثل فى نظامها الإسلامى .

وهنا وضع الإسلام نظاماً دقيقاً لحقوق الجار على جاره ، والقريب البعيد والقريب على قريبه ، وسكان القرية الواحدة على أهلها [زكاة للفقر مثلاً] .

وهكذا ابتدأ فى تحديد السلوك والمعاملة : من الفرد نحو نفسه ، ثم منه نحو غيره فى أسرته ، ثم منه نحو غيره من مجاوريه فى السكن ، ثم منه نحو أهل قريته ، ثم منه نحو أهل القرية المجاورة ، ثم منه نحو الدولة العامة وهى جماعته .

وهذا النظام نظام نفسى ومالى : يتمثل فى المشاركات الوجدانية ، فى حالات

الحزن وحالات المسرة ، واللفف فى المعاشرة ، واللبن فى المجادلة والمناقشة ، واليسر فى التعامل ... كما يتمثل فى الزكاة والإحسان فى جميع صورته المادية .

ج - منهجه لجماعة نحو جماعة أخرى بما يحقق السلام وتبادل المنافع بينهما :

ونظر إلى صلات الأمم بعضها ببعض على نحو يقوى الروابط فيما بينها ويدعم السلام فى علاقات بعضها ببعض ، ويكفل تبادل المنافع الاقتصادية والعلمية لرفع مستوى شعوبها .

ومن جانب آخر دعا إلى دفع الاعتداء من إحداها على الأخرى ، وإلى المشاركة فى دفع هذا الاعتداء عند ما تطلب الأمة المعتدى عليها المعاونة فى ذلك .

وفى دفع هذا الاعتداء يطلب الإسلام من أفراد الأمة مقاومته كل بما يستطيع وعلى النحو الذى يجيده .

ولا ينظر فى معاونة دفع الاعتداء إلى الاتحاد فى العقيدة ، بل لأمة إسلامية أن تنقذ أمة مسيحية من اعتداء أمة أخرى عليها . لأنه يوجب دفع الاعتداء من حيث هو اعتداء ، أما من وقع ؟ وعلى من وقع ؟ فليس هذا وذلك من الأسباب التى تحدد مشروعية وجوب دفعه .

* * *

٢ - الدراسات الإسلامية والعوامل التى تأثرت بها :

رسالة الإسلام هى على نحو ما أوضحنا : الإسلام يبنى استقامة الفرد فى سلوكه ويبنى توجيهه وجهة انتاجية فى الحياة . وذلك عن طريق التوفيق والملاءمة بين حاجات العنصرين الأساسيين فيه ، وهما المادة والروح ، ومحاولة إيجاد وحدة منسجمة بينهما .

ويبنى قوة الجماعة ، ويرى هذه القوة فى تكتلها ، ويرى طريق هذا التكتل

في ضرورة المبادلة بين حقوق الأفراد وواجباتهم في هذه الجماعة ، ويرى المظهر الواضح للتسكتل في السير نحو غاية واحدة وهدف واحد في الحياة .

ويبغى سلام العالم جميعه . ويرى هذا السلام في دفع الاعتداء في العالم ، والمساهمة الجماعية في دفعه ، وفي تبادل المنافع الأدبية والمادية في علاقات الشعوب بعضها ببعض ، ويرى أن مظهر السلام في العالم يبدو أيضاً في اتجاه الشعوب إلى التعاون الوثيق من أجل غاية واحدة . هي القربى من الله .

والإسلام إذ يحدد غاية العالم بالله ؛ قد حددها بالخير العام للبشرية جميعها : لأنه إذ ينادى بتقوى الله يضمن ذلك نصح الناس بأن يراقبوا الله ، في أعمالهم فلا يحكموا الهوى والمنافع الشخصية البحتة في هذه الأعمال ، ولا يقصدوا إلى الإيذاء والأضرار الخاصة والعامة بأدائها . ومن هنا يكون النداء بتقوى الله هو النداء بالخير العام ، والقربى إلى الله هي القربى عن طريق هذا الخير العام .

كما أنه إذ ينادى بعبادة الله ، وباتخاذ الله الغاية الأخيرة في الوجود - يضمن ذلك توجيه الناس إلى أن اتجاهاهم في الحياة يجب أن يكون نحو الخير العام . وكلما ابتعد الإنسان في صنع الخير وتجاوز به حدود نفسه إلى غيره في جماعته أو في جماعات أخرى ؛ كان أدخل في عبادة الله ، وأقرب إليه .

رسالة الإسلام إذن هي « الوحدة » أو « الانسجام » : في دائرة الفرد بين قوى النفس المختلفة ، وكذا بين النفس من جهة والجسم من جهة أخرى ، وفي دائرة الجماعة بين إنسان وآخر ، وفي دائرة البشرية بين أمة وأخرى ، ثم بين الشعوب جميعا .

* * *

إذا كانت هذه هي رسالة الإسلام فلم تفرق المسلمون ؟

ولم جادل بعضهم بعضاً في الرأي ؟

ولم اختلفوا في تفسير الإسلام وتعاليمه ؟

ولم نشأ عن بعض هذه التفسيرات من المذاهب ما أنكره فريق باسم الإسلام وما صوره هو نفسه فريق آخر بأنه الصورة النقية للإسلام ؟

لم تبدل - بالاختصار - حال المسلمين ، واتجاه المسلمين في التفكير ، وأصبحوا قوميات وشعوباً ولم يبقوا أمة واحدة ؛ وأصبحت لهم رسالات مذهبية متعددة بدل رسالة دينية عامة واحدة ؟

إن الدراسات التي نشأت حول الإسلام وحول مصدره الأول وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة منذ الدعوة الإسلامية (٦١٠ ميلادية) إلى الآن تأثرت بعدة عوامل ، وكان لهذه العوامل أثرها في نمو هذه الدراسات وتطورها من جهة ، ثم في بُعد بعضها عن أن تكون صورة صادقة واضحة للإسلام كما جاء بها القرآن وشرحها السنة النبوية الصحيحة من جهة أخرى . ثم من جهة ثالثة أحدثت هذه العوامل من ألوان الفرقة والقطيعة بين المسلمين ما جعل منهم في عهود ضعفهم السياسي - وركودهم الذهني شعوباً وجماعات تكاد تتقابل أو تتباين ، بدلا من أن تكون متآخية أو متقاربة في السير وفي الغاية في الحياة .

وأم هذه العوامل - حسب وقوعها التاريخي - هي :

العامل الأول : الأحداث السياسية الداخلية الأولى :

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقبل دفنه ، اختلف المسلمون في المكان الذي يدفن فيه : أيدفن بالمدينة وهي مقر الأنصار ؟ أم يدفن بمكة وهي الموطن الأول للدعوة الإسلامية ، ثم هي مكان المهاجرين ؟ .

ولم يحسم هذا الخلاف بين الفريقين إلا تلاوة ذلك الحديث : (الأنبياء يدفنون حيث يموتون) فتذكره الطرفان .

وبعد دفنه صلى الله عليه وسلم اختلف الفريقان أيضاً : مَنْ يقوم بشئون المسلمين العامة ويخلفه في التوجيه والقيادة ؟ وأسمعت فجوة الخلاف حتى نادى الأنصار بأن يكون منهم أمير ، ونادى المهاجرون بأن يكون منهم أمير كذلك ، وانتهى الأمر بتولية أبي بكر .

ومن ذلك اليوم ابتدأت الأنظار تتجه إلى الخلافة ، وإلى عمل الخليفة أو الإمام . وابتدأ الرأي ينتشع حول هذا المركز الخطير والمؤهلات التي يجب أن تتوفر فيمن يشغله كما ابتدأ ينقسم حول تكليف العمل الذي يقوم به شاغله بالفعل .

فهل يشترط في الخليفة أن يكون من بيت الرسالة ، أم يكفي أن يكون معروفاً بالكفاية الذاتية والدينية لتولى هذه الوظيفة ولو لم يكن من بيت الرسالة ومن قبيلة الرسول ؟

ولا يهمنا في هذا البحث أن نحقق باحث الخلاف في الرأي سواء حول الامامة العامة ومؤهلاتها ، أو حول تقدير عمل الإمام والحكم عليه - أيرجع إلى الرغبة في تحرى الحق وحده ومعرفة وجه الصواب ، أم إلى عاطفة من العواطف الشخصية وإن كان الذى يذكر في كتب التاريخ هنا أن هذا الفريق أو ذاك قصد الحق في رأيه ، وأنه بخلافه أراد أن يجتنب الجماعة العمل بما يخالف الإسلام . كما يُذكر أيضاً أن كل فريق حاول أن يبرر رأيه من الكتاب والسنة . يستشهد بالنصوص على رأيه ، وقد يحملها حملاً على رأيٍ رغب فيه .

إنما الذى يهمنا الآن أن الجماعة الأولى التى كانت واحدة ابتدأت الآن تحت تأثير العنصر القبلى أو العنصر السياسى (حول مسئولية الخلافة العامة) تنقسم إلى أحزاب . لكل حزب رأيه ، ومبررات هذا الرأى من الدين . وأصبح المؤرخ السياسى الثقافى والاجتماعى يسجل لكل من « الخوارج » و « الشيعة » نشاطه في تاريخ الثقافة الإسلامية كحزبين متقابلين . واتسع الامر بعد ذلك في أيام معاوية حتى قام إلى جانب هذين الحزبين فريق المعتزلة ، أصحاب القول بالاختيار وبأن الإنسان مسئول عن عمله وتصرفاته بناء على أنه صاحب إرادة وصاحب حرية في أفعاله ، وفريق أصحاب القول بالجبر الذين ينادون بسلية الإنسان في الحياة فيما يرى له من أعمال ، ويرجعون العمل جميعه في هذا الوجود صغيره وكبيره إلى الله تعالى .

وفي واقع الامر قامت هذه الأحزاب جميعها بدور واضح في شرح تعاليم الإسلام وأصوله ، وتكونت من شروحاتها عدة مدارس تعتبر متقابلة ومتفاوتة في وجهات النظر ، وإن تأثرت جميعها بالجانب السياسى السائد في توجيه الجماعة الإسلامية . وفريق الخوارج له رأيه الخاص في الحكومة ورياسة الدولة ، والشيعة لهم رأيهم

في ذلك ، وهو مختلف عن رأى الخوارج ، وحزب المعتزلة له رأى في ذلك يعد وسطا بين رأى الخوارج والشيعة ثم من وجهة أخرى له رأى في صلة الفرد بالدولة ، وبسلطان الدولة على الفرد يعتبر مقابلا تمام المقابلة لأصحاب الجبر .

ثم حزب « الجبريين » في تحديد صلة الفرد بالدولة وبرئيسها ، يرى عكس ما يراه حزب « المعتزلة » . وهكذا أصبح في الثقافة الإسلامية للشيعة فقه ، ولأهل السنة فقه ، وللمتأولة تفسير للقرآن ، ولأهل التفويض والنص تفسير آخر . وهكذا تمكن التوجيه السياسى ، وإدارة دفة الحكم فى الجماعة الإسلامية ، وأوحى باختلاف الجماعة الإسلامية إلى أحزاب يتميز رأى بعضها عن بعض فى كثير من المسائل والمشكلات .

ولهذا جعلنا الأحداث الداخلية والعنصر السياسى عاملا من العوامل التى تأثرت بها الدراسات الإسلامية من جهة ، وجعلت بعض آرائها ربما لا تمثل الاسلام تمام التمثيل من جهة أخرى . وربما يرجع عدم تمثيل بعض هذه الآراء للاسلام تماما - إلى أن الرأى كان يتبلور أولا عند رجال الحزب تحت تأثير الحدث السياسى ، ثم تحصل محاولة انتزاعه من أصول الاسلام ، أو تبريره من وجهة نظر الاسلام بعد ذلك . والوضع الطبيعى فى تفسير تعاليم الاسلام هو العكس .

العامل الثانى : الثقافة الأجنبية القديمة :

دخلت الثقافة الأجنبية القديمة الجماعة الإسلامية ، وقد تكون بعض الأحزاب فيها ودخلت ؛ إما عن طريق اختلاط حملة هذه الثقافة بالمسلمين ومجادلتهم إياهم فى مسائل كانت تعرض للبحث ، أو عن طريق النقل والترجمة . وكانت هذه الثقافة فكرية ميتافيزيكية ، أو رياضية ، أو طبيعية ، أو نزعات دينية صوفية ، وغير صوفية ، وسمائية ، ووثنية ، وغربية وشرقية : اغريقية وهندية وفارسية .

والجماعة الانسانية طالما كانت متماسكة ومتحدة ، لا ينزع أفرادها إلى الدخيل من الثقافة والعادات ، على أن لهذا الدخيل قيمة إيجابية فى حياتهم ، بجانب ثقافة الجماعة الخاصة ، وعاداتها التى تغلبت عليها . لأن تماسك الجماعة وتكتملها يكون

في واقع الأمر عن طريق اعتزاز أفرادها بمقومات هذه الجماعة . ومقومات أية جماعة إنسانية تتمثل في دينها ، وأغتها ، وعاداتها ، وخصائصها في حياتها ، وفهمها للوجود الخاص والوجود العام .

فإذا انقسمت الجماعة إلى شيع وتحوّلت إلى أحزاب ، وإذا اشتبكت شيعة وأحزابها في جدل عقلي ، وتخاصمت في الرأي - أصبحت المقومات الأساسية للجماعة في المحل الثاني بعد آراء الأحزاب والشييع ، وأصبحت هذه المقومات بالنال وسيلة لا غاية . تتخذ منها الأحزاب مادة للبرهنة على صلاحية الآراء الحزبية وإذا احتلت الآراء الحزبية الوضع الأول في الجماعة بعد انقسامها وتحزبها ، ووضعت المقومات الأساسية للجماعة في الوضع الثاني، بعد هذه الآراء واستغفلت لتدعيمها - فإن الدخيل من الثقافات الأجنبية قد ينظر إليه في هذه الجماعة على أنه السيل الذي يستعان به ، والمصدر الذي تستوحى منه الحجة والبرهان لترجيح رأي لحزب على رأي آخر لحزب آخر . أي تصل منزلته إلى الدخيل المحبوب ، أو الدخيل المرجى .

وهذه الحال للجماعة الإنسانية بشقيها بالنسبة للثقافة الأجنبية لم تتخلف عن الجماعة الإسلامية في وحدتها ، وبعد انقسامها : فعند ما كانت وحدتها حقيقة واقعة كان يسيطر عليها الإباء إزاء « الدخيل » ، على العموم ، وعند ما استعالت إلى جماعات ، وتحول الرأي فيها ، إلى مذاهب أو مدارس - طلبت « الدخيل » وجدت في الملامة بين ما هو خاص بها وما يحمله هذا الدخيل .

ولإذن : إذا قيل الآن أن العصر العباسي كان المسرح الزمني لدور الثقافة الدخيلة ، فمضى ذلك أن الجماعة الإسلامية وصلت عن طريق انقسامها إلى شيع وأحزاب في هذا العصر إلى الحال التي لا بد منها لكل جماعة إزاء كل دخيل ، وهي حال القبول أو التعاون مع هذا الدخيل ، إن لم يكن حال الاستنجاد به ، أو الدفاع عنه .

وهنا في العصر العباسي برزت الثقافة الأجنبية القديمة من أغريقية وفارسية

وهندية كعامل مؤثر في الدراسات الإسلامية أو كعامل موجه فيها ، ولم تقف هذه الثقافة على هامش الحياة في الجماعة الإسلامية ، ولم تحتك فقط بالجوانب غير الرئيسية فيها وإنما اتصلت بالموجه الأصيل فيها وهو القرآن الكريم وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام . وإذن فقد اتصلت بالأساس الذي دارت وتدور حوله الدراسات الإسلامية ، وعن هذا الاتصال رأينا اتجاهات لم تكن معهودة من قبل في الجماعة الإسلامية : رأينا اتجاه الفلاسفة ، واتجاه المتصوفة ، واتجاه أهل الباطن ، واتجاه أرباب الظاهر ، بجانب اتجاه المتكلمين على اختلاف فرقهم ، والفقهاء على تعدد مدارسهم .

ورأينا الإسلام في جانب الله يفسر في ضوء المدرسة الأرسطية الإغريقية مرة ، وفي ضوء الزرادشتية والمناوية الفارسية مرة أخرى ، وفي ضوء البرهمية الهندية مرة ثالثة ، وأحيانا في ضوء الوثنية المصرية القديمة مشتبكة مع بعض المدارس الفلسفية الإغريقية مرة رابعة . . . وهكذا .

ورأينا فريقاً من علماء المسلمين لا يسايرون الرأي العام الإسلامى إلى وقتهم في فهم تعاليم الإسلام ، ويميلون إلى شرح غريب فيه : مفاده أن الإسلام له باطن وظاهر ، وأن ظاهره لعامة المسلمين وباطنه لخاصتهم ، وهم العلماء - يعنون أنفسهم - وبناء على هذا الشرح فرسالة الإسلام متفاوتة بين العامة والخاصة ، وهذا وضع يختلف تماماً عن وضع الإسلام على عهد صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام : إذ كان الأمي والمتعلم سواء ، وأهل الحضر كسكان البادية ، والإعرابي البعيد عن التفقه كالفقيه من الصحابة ، عليهم رضوان الله في التكليف بالإسلام والعمل بتعاليمه .

ورأينا القرآن يفسر مرة برأى أرباب وحدة الوجود ، من المتصوفة كما قد يفسر برأى الطبيعيين من فلاسفة الإغريق في أصل العالم والأفلاك وعقولها ، كما قد يُخرَّج كثير من آيه على أنها نمط من التمثيل أو على أنها ضرب من ضروب المجاز والمبالغة في الوصف .

ألوان من الحزبية المذهبية ، والمدرسية ، والعقلية برزت في العصر العباسي على أثر دخول الثقافات الأجنبية في الجماعة الإسلامية ، وكشّاتٌ مختلف من التراث العقلي والديني القديم اختلط بالتعاليم الإسلامية الأصلية ، وأفهامٌ متعددة - وربما متضاربة - لرسالة الإسلام في الحياة الانسانية - أصبحت في الجماعة الإسلامية حقائق واقعة كنتيجة لدخول الثقافة الأجنبية فيها ، وسيطرتها على فريق من المشتغلين بالمعرفة من علماء المسلمين .

ذات الله أصبحت مشكلة تختلف فيها الأفهام ، وتحثك فيها العقول عن طريق الجدل والحجة ، بعد أن كانت واضحة للإسلام الأول .

وعلاقة الإنسان بالله أصبحت مشكلة ينقسم فيها الرأي إلى التقابل والتضاد ، بعد أن كان المؤمن السابق يميز بين مجال نفسه ومجال خالقه في يسر ووضوح .

والرياسة العامة للمسلمين أصبحت مشكلة بدورها ، ولا يخضع الرأي فيها للدين وحده ، أو للذنطق وحاجات الجماعة معه ، بعد أن كان الاتجاه في العمل إلى الله وفي سبيل الله .

والزهد في السلوك العملي أصبح مشكلة فنية بعد أن كان مسلكه بتّين المعالم والحدود .

والقرآن نفسه - وهو رسالة الله ، ومن الله وحده ، والله خالصة - أصبح يُجذب في تفسيره إلى معرفة الإنسان التي اتسمت باسم الفلسفة ، أو إلى تصورات الإنسان في الكون التي آلت إليه عن طريق الاعتقادات السابقة في شعوب الآريين أو الساميين ، أو الحاميين . وهكذا أضحي الإسلام مشاكل ، وأضحت حلولها وقفاً على الجدل النظري .

والشهرستاني - وهو في مقدمة المؤرخين للحياة الثقافية على عهد العباسيين - يؤرخ لعشرات من الفرق الإسلامية وغير الإسلامية ، ولعشرات من الملل والنحل التي بقي طابعها الاصيل عالقاً بها ، ولعشرات من المذاهب الفكرية والبصيرية التي

تنتمي في أصلها إلى بعض تعاليم الإسلام ، أو التي هي من أصل أجنبي عنها ، وبذلك ذلك كله على أنه العناصر التي تكونت منها صورة الحياة الثقافية في وقته ، وهو القرن السادس الهجري ، أو الثالث عشر الميلادي .

نمو مطرد في التراث الثقافي الإسلامي ، وتنوع متزايد في الاتجاهات في الحياة الثقافية للجماعة الإسلامية ، وتقيد متواصل لحلول المشاكل ، وإغراق في الجدل النظرى حول شرح هذه المشاكل ، وتفتيت مستمر لوحدة الجماعة ، ونفرة واضحة في الخصومة بين أحزابها وشيعها .

كل ذلك يرسم لنا الخطوط العامة التي تميزت بها الجماعة الإسلامية بعد دخول الثقافة الأجنبية فيها واشتباكها مع الثقافة الأصلية والتوجيه الأصيل فيها ، وهي ثقافة الإسلام ، وتوجيه كتاب الله .

وأنت - بعد أن وضحت هذه الصورة في الجماعة الإسلامية وأصبحت طابعا لها - فترة طويلة يردد فيها العقل النظرى لعلماء المسلمين هذه المذاهب والاتجاهات السابقة ، ويخاصم فيها هؤلاء العلماء بعضهم بعضا ، غير ملتزمين في بعض الأحيان طريق الجدل العلنى في الخصومة العلنية ، ويبرر فيها العقل العملى للمسلمين شعائر وعادات قد تباين منهج المسلمين الأول في سلوكهم ومعاملاتهم .

وقد ارتفع في هذا المجال صوت باحث عد غريبا عن أصوات البقية الباقية ، هو صوت ابن تيمية في آخر القرن السادس الهجري أو في القرن الثاني عشر الميلادي .

ارتفع هذا الصوت بالثورة على الوضع القائم المعرفة في وقته ، وعلى الأسلوب الذى تعالج به ، وعلى طريقة التفكير ، وندد بمذاهب التوجيه المختلفة التي كانت معروفة على عهده ، وأوضح آثارها السلبية على الإسلام نفسه ، وعلى الجماعة الإسلامية ، وربط بينها وبين حال الذلة والضعف التي آلت إليها المسلمون في ذلك الوقت ، ورسم طريق الخلاص من هذه الحال بوجوب الرجوع إلى طريقة السلف - وهم الجماعة الأولى - في فهم الإسلام . وهذه الطريقة هي الأخذ بالقرآن على نحو ما أخذ به السلف في وقتهم ، والحيلة في تقبل الأحاديث ، وتضييق

دائرة الرأي والقياس في الأحكام الفقهية ، والوقوف عن التأويل وكثرته في معرفة الله ، والإيمان - بدلا عنه - بما ورد في هذا الشأن على نحو ما كان عليه السابون .

ورأى أن هذا العلاج سيرد الجماعة الإسلامية إلى وحدتها ، وتماسكها ، وسيحفظ للإسلام قوة الإيمان به في نفوس المنتسبين إليه .

ولكن هذا الصوت الذي صاح به ابن تيمية جلب عليه التعذيب في السجن إلى أن مات فيه ، كما أوجد ثورة عقلية أخرى عليه وعلى مذهبه من أتباع المذاهب التي سادت في وقته والتي وصفنا أمرها سابقا .

وعندئذ استمر الحال على هذا النحو إلى أن جاء القرن التاسع عشر واتصل الغرب صاحب الحضارة الصناعية المادية بالشرق صاحب الثروات الثلاث : صاحب الثروة الأرضية بما في جوفها أو ينبت على ظهرها ، وصاحب الثروة البشرية التي تتمثل في قوة النسل فيه ، وصاحب الثروة الروحية التي يصورها القرآن الكريم ، والتي تتركز في وحدة الألوهية ، وفي وحدة البشرية ، وآساوى الناس فيها بتساويهم في الحقوق والواجبات ، ووحدة الفرد في ذاته وأمام غيره في جماعته بالاعتراف بحرماته وبإيجابيته فيها ، وفي وحدة المسلمين وتكافؤهم في هذه الوحدة بمقاومة الولاية عليهم لأجنبي عنهم في دينهم .

العامل الثالث : الاستعمار الغربي في القرن التاسع عشر :

اتصل الغرب صاحب القوة الصناعية بالشرق صاحب الثروة المادية اتصال المستعمر المستغل ؛ المستغل لكل مصادر هذه الثروة ، واضطر أن يتصل بذلك اتصال الموجه الذي ادعى لنفسه رسالة إنسانية فيه . كي يستطيع في ظل ذلك أن يحصل على أكبر قسط من المنفعة المادية في جو نفسي للشعوب الشرقية تظله الظلمانية ، وربما الاستحسان من قادة هذه الشعوب لتصرف المستعمرين .

وليس الفجوة بين الغرب والشرق في أن الأول يحمل قوة الصناعة الحديثة ، وأن الثاني فقير منها وفي حاجة إليها ، بل الفجوة الكبرى بينهما كانت في أن الغرب

نمض في تفكيره ، وتخلص من المظاهر التي سادت التوجيه هناك في القرون الوسطى ، وهي تشبه إلى حد كبير تلك الأخرى التي سيطرت على تفكير المسلمين في القرن السادس الهجري ، أو القرن الثالث عشر الميلادي : وهي تعدد في مدارس التوجيه ، وخصومة عنيفة بين أصحاب هذه المدارس ، وجدل نظري لا يتصل بواقع الحياة ، يسيطر على البحث والعمل العقلي ، ودوران للفكر في حلقة مفرغة من الآراء ، وترديد في غير ملل لأفكار لا توصل صراحة إلى ماضٍ معين ، ولا تعالج أمراً من أمور الحاضر .

فالنهضة الأوروبية ميزت الغرب عن الشرق ، وجعلت العقل الغربي يعالج الطبيعة في واقعها وفي تطور خصائصها ، ومكنته من أن يستخدمها ويسخرها لخدمته ورفاهيته .

وأغراه بحته الطبيعي ، وأغرته النتائج التي وصل إليها في بحثه في الطبيعة إلى أن يزيد في قيمة الحضارة المادية ، وعلى حساب القيم المعنوية والروحية . وجدت مذاهب في السلوك الإنساني - كالميكافيلية ، ومذهب المنفعة - نتيجة لهذا التفضيل ، ودفعت بالرجل الغربي إلى اقتناص المنفعة المادية بأية وسيلة ، وفي أي مكان ، وعلى أية صورة : فالغاية في نظره تبرر الوسيلة ، والحياة ليست إلا انتهازاً للفرص . وما وراء ذلك من معاني الحرمات ، والانسانية ، وحقوق الغير من الناس والأوطان ، وأمثالها يضعها تقديره الخاص للأشياء في المنزلة الثانية .

امتاز الغرب عن الشرق بالبحث الطبيعي ، بينما وقف بحث الشرق في دائرة النظر المحض ، وتغيّر مقياس الرجل الغربي في الحياة ، فأصبح أساسه المنفعة الواقعية ، بينما بقى الرجل الشرقى يحلق في جو من المثالية ، والمثالية الخيالية .

هذا الفارق بين الغرب والشرق ، هياً للغرب أن ينتفع بالشرق ، وأعد الإنسان الشرق لتسهيل مهمة الغربي في وطنه . فواقعية الغرب مكنته من الانتفاع ، ومثالية الشرق أو وقوفه في دائرة النظر بعيداً عن الواقع جعلته متساهلاً أو متساهلاً أو غاضاً النظر عما يجري في واقعه ، لأنه لا يحفل بواقعه هذا إلا قليلاً تحت تأثير تفكيره النظري .

ولكن هذا الفرق في التفكير بين الغرب والشرق لا يمكن أن لا يمتد من الانتفاع بالشرق طويلا ، ما دامت هناك قوة نائلة كامنة في الشرق وهي القوة الروحية ، أو القوة الإسلامية ، بجانب القوتين الأخرين ، وهما القوة المادية الممثلة في الامكانيات العديدة من بترول ومعادن النحاس والقصدير وغيرها ، ومحصولات الزراعة من مطاط وقطن وأرز وغيرها ، والقوة الأخرى البشرية الممثلة في وفرة النسل وكثافة السكان .

واذن ليسكن من منهاج الغرب الطويل المدى في استغلال الشرق واستثماره العمل على « خلخلة » القوة الروحية في الشعوب الشرقية وذلك بالوسائل الآتية :

١ — تمكين الرسائل التبشيرية ، لا على أنها تبسط تعاليم المسيح عليه السلام في الأوساط المسيحية أو بين القبائل الوثنية ، أو حتى على بعض مسامع المسلمين ، بل على أنها تثير الشكوك في العقيدة الإسلامية بين المسلمين وبالأخص بين الطبقات التي لم تنل حظاً في التوجيه الإسلامي الصحيح .

واتخذت هذه الرسائل من بعض مدارس الأوربيين ومؤسساتهم الثقافية في الشرق مجالا لنشاطها ، وتستر في ذلك وراء مسميات عامة محبوبة : كالتعليم ، والتربية ، والثقافة . وحصلت نشاطها هذا بامتيازات حصلت عليها في صورة معاهدات ، كما حصل في مصر وبلاد الشرق الأدنى ، أو بخفارة مسلحة كما كان الحال في إندونيسيا والملايو من بلاد الشرق الأقصى الإسلامي ، أو كما هو واقع الآن في شمال أفريقيا ، والمستعمرات الأوروبية الأفريقية .

٢ — العمل على زيادة الفجوة بين بعض المذاهب الإسلامية وبعض ، كإذكاء العداوة بين الشيعة والسنيين : فالأحداث التي كانت تقع بين الفريقين في الشرق الأوسط لا ترجع إلى تباين المذاهبين ، بل إلى الخطأ في أفهام أتباعها ، وإلا فكتاب الشيعة هو كتاب السنة ، ورسول السنة هو رسول الشيعة .

وهذا الحظر يحدث أو يثار كلما شمر المستعمر الأوربي بوعي إسلامي عام ، أو بوعي قومي محلي في الرقعة التي يستغلها .

٣ — خلق جو من العداء والخصومة بين قديم الشرق فى ثقافته وبين الجديد من تفكير الغرب . والوسيلة إلى هذه الخصومة أمر ميسر . إذ يكفى الإقناع العام فى النظرة إلى تراث الشرق الثقافى الذى وصل إلى ما وصفنا نظرة هيئة تنطوى على معنى الاستخفاف بالنسبة إلى ثقافة الغرب الجديدة . أن تكون هذه الثقافة الغربية الجديدة فى صحة حضارة الغرب الصناعية . فمخترع السيارة ، والطائرة ، واللاسلكى ، والراديو تبدو ثقافته الفكرية التى يحملها أرجح فى الوزن أمام رأى العام من تلك الثقافة التى يحملها الشرق ويدور فى فلكها دون رعاية لواقع حياته ودون أن يصفىها حتى تدفعه دفعا إيجابيا ليلتزم بين ماضيه وحاضره ، وليعيش فى غده وهو على اتصال بأمسه .

وأضحت الثقافة الغربية بكل ما فيها من توجيه أمراً مرغوباً فيه فى بلاد الشرق الاسلامى ، وأصبحت الثقافة الشرقية الاسلامية حتى الاصلية منها أمراً لا تلتزمه العقلية الشرقية فى توجيهها ، وربما لا تطيل الدفاع عنه ، وربما تسهب فى تنقيصه .

٤ — العمل على إيجاد مذاهب جديدة فى الجامعة الاسلامية تحمل طابعاً اسلامياً ، ويقوم بالدعوة إليها علماء ينتسبون لجماعة المسلمين ، وتبشر بمبادئ جديدة يرضى عنها المستعمر أو يحممها كذلك ، لأنها تمكن له من استثمار واستغلال قوى الشرق الاسلامى لفترات طويلة .

وقد قام بالفعل فى ظل الاستعمار البريطانى فى الهند مذهب يدعو لنفسه ويدعى أنه من مذاهب المسلمين - وهو القاديانية - وينادى مع ذلك بصحة تولى الاجنبى عن الاسلام ولاية المسلمين العامة ، على معنى أنه يجب على المسلمين طاعته وأن يوكل إليه تقدير المصالح المرسلة بين المسلمين وكافة شئون الولاية العامة ، حتى إعلان الحرب بين من ولى عليهم من المسلمين وبين جماعة مسلمة أخرى . كما ينادى بإلغاء فريضة الجهاد ، بدعوى أن أمر الاسلام قد استقر فلا داعى بعد هذا لفرض الجهاد . مع أن مشروعية الجهاد أصالة لدفع الاعتداء على المسلمين على أية جماعة منهم فى أى موطن كانت ، والاعتداء ليس أمراً موقوتاً حتى يوقت الجهاد ،

بل هو فطرى فى الانسان وفى الجماعة الانسانية ، وإذن فرض الجهاد كوسيلة لردّه أمر مستمر .

هذه الوسائل التى استعان بها المستعمر الغربى لخلخلة القوة الروحية فى الشرق الاسلامى لا بد أن توجد حولها جدلا ، أخذاً ورداً ، ولا بد أن يخلق الجدل حولها اتجاهات أخرى فى فهم الاسلام وتعاليمه ، وفى تفسير القرآن الكريم وسنة رسوله الصحيحة . وربما يكون بعض هذه الاتجاهات ضرباً من ضروب التحريف أو الانحراف عن الفهم الصحيح لرسالة الإسلام .

فتشكيك المبشرين فى العقيدة الاسلامية كان له صدى فى مجال الفهم والتفهم للإسلام ، والعمل على زيادة الفجوة بين بعض المذاهب الاسلامية القائمة وبعض كان له دافعون ومدافعون باسم الاسلام والتعاليم الاسلامية .

وإيجاد جو من التوتر بين قديم الشرق وحديث الغرب فى الثقافة لا بد أن يوحى بنوع من التعصب العقلى بين فريقين متقابلين ، أحدهما للقديم والآخر للجديد ، وربما يأتى بفريق ثالث يحدد مهمته بالتوفيق بين الطرفين . وفى كل هذا لا يقوم التعصب العقلى لدى كل من الفريقين المتقابلين ، ولا يقوم التوفيق كذلك عند الفريق الثالث إلا على ادعاء نمط من الصلة بالاسلام وأخذ الحجة منه .

وقيام بعض المذاهب الاسلامية التى يعارض بعض ما تنادى به بعض الأمور المقررة فى الاسلام لا يمر دون أن يثير مناقشة عقلية له أو ضده ، تزداد بمرور الزمن ، ويتسع نطاقها كلما دخل دائرة النقاش جديد من التابعين أو المعارضين .

وإذن العامل الثالث وهو الاستعمار الغربى ساهم مساهمة فعالة فى نمو الدراسات الاسلامية كما ساهم فى تعقيد بعض المشاكل الدينية وفى زيادة الفجوة بين المسلمين ، وفى إحداث بعض الاتجاهات التى قد تتعارض معارضة واضحة مع الاسلام ، ومن الأسف أنها تضم إلى مذاهب المسلمين .

ومن جهة أخرى هذا الاستعمار الغربى أوحى بحركة إيجابية فكرية فى الشرق الاسلامى ، وكان نفسه لهذا عاملا من عوامل النهضة الاسلامية الحديثة . وإذا كان النصف الأول من القرن التاسع عشر المسرح الزمنى لقوة الاستعمار الغربى فى الشرق الاسلامى ، فإن النصف الثانى منه شهد مولد الحركات والنهضات القومية فى هذا الشرق ، كهدى ورد فعل لهذا الاستعمار .

واستهدفت هذه الحركات عكس ما استهدفه الاستعمار فى الشعوب الاسلامية : استهدفت جمع الكلمة للمسلمين عن طريق الرجوع بهم إلى الاسلام فى عهده الأول ، وإلى طريقة السلف فى فهم القرآن والتعاليم الاسلامية ، كما استهدفت الاستخفاف بالتقليد للذاهب القائمة والتعصب لها ، وأوضحت كفاية أخيرة لها معالم الشخصية الاسلامية وحدودها التى تتمثل فى استقلالها وجوب الحرص على هذا الاستقلال : فاستقلالها كدولة يوجب فرض الجهاد والقيام به على جميع أفرادها ، واستقلالها كعلاء وموجهين يوجب على العلماء والموجهين الاجتهاد فى فهم الاسلام بما يلائم أحداث العصر وحاجاته ، ونبت التقليد الطييع للذاهب القائمة على أنها اتجاهات لا تقبل التعديل .

وقد راعى هذه الحركات فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد إقبال .

وهذه الحركات بدورها أوحى بمعارضين لها من علماء المسلمين ، وأرجعوا معارضتهم إياها إلى سند من الاسلام ، كما حاولوا أن يشرحوه بما يلائم رغبتهم الخاصة فى المعارضة ، وأصبح جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى نظرهم منحرفين عن الطريق السليم فى فهم الاسلام بما يدعوان إليه من جواز الاجتهاد ، ونبت التقليد .

ولم تزل النهضة الفكرية الاسلامية تسير فى طريقها الذى عبدها أولا ، وإن كان الآن بخطوات فسيحة عن ذى قبل ، ولم تزل معارضة الأسس التى قامت عليها موجودة وإن كانت فى صورة من اليأس أو الهزال .

العامل الرابع : الثقافات الغربية المعاصرة من المذاهب الاجتماعية والاقتصادية :

والاستعمار الغربي وإن خلف الصورة السابقة في الدراسات الإسلامية ، فإنه من جهة أخرى زاد اتصال الشرق الإسلامي بالغرب . ولعل زيادة الاتصال هذه كانت إحدى نتائجه المباشرة ، لأن الشرق لم يتصل بالغرب اتصال المتكافئين ، وإنما اتصال التليذ بالمعلم ، واتصال صاحب الحاجة بالمناخ ، وهذه الظاهرة حتمًا من خلق الاستعمار ومن طبيعته ، فالمستعمر سيد والشعوب المستعمرة رعاياه .

وزيادة اتصال الغرب بالشرق مكنت للشرق بوسيلة وبأخرى أن يقف على ثقافة الغرب المعاصرة . وعلى الأخص ما يعد منها في منزلة الموجه للحياة الغربية الحاضرة وقف الشرق على مذاهب الديمقراطية ، والشيوعية ، والفاشية ، والرأسمالية ، والاشتراكية من تلك المذاهب التي تقود الدول الحديثة اليوم في مجال الصراع الدولي . كما وقف على آثار هذه المذاهب في السلوك العملي للأفراد والجماعات .

وإذا وصلت هذه الاتجاهات إلى الشرق الإسلامي لا تصل إليه وتعيش على هامش الحياة الفكرية فيه . لأن حملتها إما من أرباب الأقلام فيه ، أو أصحاب رسالة توجيهية في الجامعات والمعاهد العليا ، أو أصحاب رغبة في ممارسة فن الحكم في بلاد هذا الشرق الإسلامي .

وإذن سيكون لها احتكاك بالتراث الشرقي الإسلامي الموروث ، وإذن سينتار حولها - لها أو ضدها - نقاش عقلي ، وإذن ستتمس المناقشة من إلهام الإسلام عوناً لتأييدها أو معارضتها ، وأخيراً سيخلق احتكاك الثقافة الغربية الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة نوعاً من الدراسة الإسلامية . وسيضيف اتجاهها أو آخر إلى الاتجاهات العديدة التي أشرنا إليها والتي تكونت منها الدراسات الإسلامية . وقد يكون من بين هذه الاتجاهات ما يتعارض مع مبادئ الإسلام معارضة واضحة .

إن الاسلام فى أصله مجموعة من النظم والتعاليم لإيجاد حياة إنسانية فاضلة مبتدئة من الفرد إلى العالم الكبير . وليست هى الدراسة والآراء والحلول التى جاءت بها الأحداث السياسية الداخلية ، ولا هى التى أنت بها ثقافة الاغريق والفرس والهنود القديمة ، ولا هى التى ساعدها الاستعمار الغربى فى الشرق الاسلامى ، ولا هى المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الحديثة فى العالم الغربى .

القرآن كتاب الله هو مصدر هذه التعاليم والنظم . وهذا القرآن لا ينشد إلا السلم فى أضيق الحدود وأوسعها ، والأخاء فى البشرية ، والاعتدال فى وزن الحياة وقيمتها .

والتفسير الصحيح لكتاب الله هو ما يصدر عن فهم واضح لغاية الله فى كونه . وإذا كان الله مستغنياً عن كونه فغايتة فيه لا تعدو الخير لمن أكرمه الله بين كائناته وهو الانسان . والخير إذن هو سبيل القربى إلى الله ، وهو وسيلة النجاح فى هذه الحياة . ليس الخير الصدقة ، ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والساكنين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون .

صدق الله العظيم ؟

برّ المخالفين في الإسلام

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المنعم الصعبدى
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

ومن أصرح ما جاء في القرآن الكريم من بر المخالفين في الإسلام قوله تعالى في الآيتين - ٨ ، ٩ - من سورة الممتحنة : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فقد روى في سبب نزول ذلك أن قتيلة بنت عبد العزى قدمت من مكة وهي مشركة إلى المدينة بهدايا إلى بنتها أسماء بنت أبي بكر وزوج الزبير بن العوام ، فلم تقبلها منها ، ولم تأذن لها بالدخول عليها ، فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تدخلها وتقبل منها هديتها وتكرمها وتحسن إليها .

والأكثر على أن ذلك نزل في أهل العهد الذين عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على ترك القتال والمظاهرة في العداوة ، وهم بنو خزاعة ، كانوا عاهدوا الرسول عليه الصلاة والسلام على ألا يقاتلوه ولا يخرجوه ، فأمر بالبر والوفاء لهم إلى مدة أجلهم ، وقيل إن ذلك نزل في شأن نساء المشركين وصبيانهم ، فلا يصح أن يعاملوا معاملة الرجال القادرين على القتال ، بل يجب الكف عن قتالهم ، ليكون القتال مقصوراً على المقاتلين وحدهم .

وقيل إن ذلك نزل في المسلمين حين استأمرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أقربائهم من المشركين أن يصلوهم ، ولعلمهم يعنون أقرباءهم من أسرى بدر أيضاً .

ولا شك أن هؤلاء المفسرين يريدون بذكر هذه الأسباب تقييد ما أطلقه القرآن من البر بالمخالفين في الإسلام ، ففي السبب الأول والثالث يراد تقييده بالنساء والصبيان ونحوهم ، وفي السبب الثاني يراد تقييده بمن له عهد وذمة من الذميين والمعاهدين ، وفي السبب الرابع يراد تقييده بالأسرى الذين لهم أقرباء من المسلمين .

وإنما حملهم على تقييد بر المخالفين بذلك ما ورد من الأمر بقتالهم ، فيجب عندهم أن يقيد من لم ينهنا الله عن بره ومودته بالأصناف السابقة ، حتى لا يكون هناك تعارض بين الأمر والنهي ، ومن المفسرين من يرى ذلك منسوخاً بآيات القتال ، لأن عدم النهي عن برهم ومودتهم يخالف الأمر بقتالهم ، ولعله لا يرى بر من سبق من المخالفين في الإسلام ، من الذميين والمعاهدين والنساء والصبيان والأسرى الذين استكروها على القتال ومن إليهم ، بل يرى الخشونة في معاملتهم ، ويستحسن مواجهتهم بالإساءة في القول والفعل ، وسيأتي أن هذا على مجافاته لسماحة الإسلام قد أخذ به بعض المتشددین في الدين ، فأساموا بهذا إلى الإسلام من حيث يريدون الإحسان إليه بتشددهم ، لأن كل شيء يجاوز حده ينقلب إلى ضده .

وإنى أرى أن المفسرين الذين قيدوا بر المخالفين في الإسلام بمن سبق من الأصناف بنوا مذهبهم في ذلك على أن المخالفين ينقسمون إلى قسمين : ذميين ومحاربين ، فالذميون لا شيء في البر إليهم جميعاً ، ولا فرق في ذلك بين نسائهم وصبيانهم ورجالهم ، والمحاربون لا شيء في البر إلى صبيانهم ونسائهم ، ومن أكره على القتال منهم ، فلا يعاملون معاملة من قاتل وحارب بالفعل .

وقد غفل هؤلاء المفسرون عن قسم ثالث من المخالفين ليس بيننا وبينه حرب ولا عهد ، من الذين لم تبلغهم دعوة الإسلام ، أو بلغتهم دعوته ولكنهم لم يجيئوا ولم يحاربوا ، فهذا القسم تشمله الآية أيضاً ، وليس علينا إلا أن نبلغه دعوة الإسلام ، فإن أجاب فله جزاؤه عند الله ، وإن لم يجب لحسابه على ذلك في الآخرة

وإذا لم يحاربنا فلا شيء علينا في أن نعامله معاملة من له ذمة وعهد ، ولا شيء في أن تشمله آية : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم » ، لأنه لا إكراه في الدين ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وإذا كان الإسلام قد جاء بالحرية الدينية قبل أن تتمسّدق بها أوروبا زوراً في عصرنا ، فإن من شأنها أن تدع لكل إنسان دينه يحاسبه الله عليه في الآخرة ، ولا يصح أن نخاصه أو نقاتله في الدنيا لأنه يخالفنا في الدين ، بل يجب أن نجذبه إلى ديننا بحسن المعاملة ، وأن نتخلق معه بالأخلاق الكريمة ، لأن هذا أدعى إلى تحببه في ديننا ، وإلى تقديره لحسن آثاره فينا ، فيدعوه هذا إلى الإيمان به ، أيهديه إلى الأخلاق الكريمة كما هدانا ، فأصحاب كل دين عنوان عليه ، فإن كانوا عنواناً حسناً عليه كانوا دعاية له ، وإن كانوا عنواناً قبيحاً عليه نفروا الناس منه ، وأخذوا بتنفيرهم منه في الآخرة ، وربما عذر من نفروهم منه لأنهم لم يبلغوا دعوته تبليغاً صحيحاً .

وعلى هذا يجب أن يحمل حديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشكوا في دينهم » : لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم ، على محمل لا يعارض ما جاء به الإسلام من الحرية الدينية ، وباب التأويل بالنقيض ونحوه باب واسع في الإسلام فيمكن حمل الناس في الحديث على أهل مكة ، نظير حمله في القرآن عليهم في مثل قوله : « يا أيها الناس أعبدوا ربكم ، ويكون هذا خاصاً بهم ، لأنهم قاتلوا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ، ولأن مكة لها شأن خاص بوقوع الكعبة فيها ، وهي قبلة المسلمين ، فيجب أن تظهر من عبادة الأوثان ، وأن تكون خالصة لدين التوحيد ويمكن أيضاً حمل الناس على العرب خاصة ، لأن الإسلام أراد حملهم على دين واحد ، ليزيل من بينهم أسباب التدابير والتخاصم ، ويجمع بينهم على كلمة التوحيد ، أو لتكون جزيرتهم معقلاً للإسلام ، وحصناً حصينا للمسلمين ، وقد أخذ بهذا بعض الفقهاء ، ففرق في مضمون ذلك الحديث بين مشركي العرب وغيرهم ، وقضى بأن مشركي العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام ، وبأن مشركي غيرهم تقبل منهم الجزية كأهل الكتاب .

والاسلام أبر من أن يأخذ الناس بإطلاق ذلك الحديث ، فيقيمها حرباً عواناً عليهم ليدخلهم فيه بالسيف ، وهو دين البر والرأفة ، ودين الساحة والحرية ، وقد جعل وسيلته في الدعوة الحكمة والموعظة الحسنة ، كما قال تعالى في الآية ١٢٥ من سورة النحل : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » ، وما كنت لأطيل في شأن ذلك الحديث لولا أن أخذه على ظاهره ينافي ما جاء به الاسلام من البر بالناس ومن أعظم البر بهم أن يدعى إليه بينهم بالتي هي أحسن ، وألا يكون ظهوره بينهم لإقامة حروب تحملهم على الإيمان به قسراً ، وتقييد الحديث بذلك يجعل الاسلام كما هو في الحقيقة دين سلام لا دين حرب ، ودين بر بالإنسانية ، بمعاملتها في الدعوة بالوسائل السلمية ، وابتعاده عن الوسائل الحربية إلا عند اضطرارة إليها في الدفاع عن نفسه .

على أن الاسلام لا يتخلو مع المخالفين من أهل الحرب بأخذهم بكثير من البر ، فحين أمر بقتالهم لأنهم قاتلوه حرم الاعتداء عليهم ، كما قال تعالى في الآية - ١٩٠ - من سورة البقرة : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، فنهى عن الاعتداء في قتالهم بعدم مراعاة ما يوجبه البر بالإنسانية ، وكان الاسلام بهذا أول من راعى مثل ذلك في الحرب ، وشرع به أصولاً فيها تبعدها عن الحروب الوحشية ، فحرم بهذا ما كان يحصل فيها من المثلة ونحوها من الأمور التي لا تليق بكرامة الإنسان ، وكان هذا أساساً لكل ما حصل بعده فيها من التشريعات التي تحقق فيها أمور البر بالإنسان بقدر الامكان .

وكذلك حرم المضى في قتالهم إذا جنحوا للسلم ، فقال تعالى في الآية - ٦١ - من سورة الأنفال : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » ، فلم يجعل منها حرباً انتقامية يمضى فيها مع شهوة الانتقام ، وهي لا تقف عند حد ، ولا تنتهي إلا بالقضاء على المغلوب ، بل أوجب أن يمضى فيها بقدر الضرورة ، فإذا أدركمهم الوهن وجنحوا للسلم وجب وقفها فوراً ، تخفيفاً لويلاتها

وبراً بالعدو الذى أدركه الوهن ، لأننا لا نحاربه شهوة فى الحرب ، أو قصداً للانتقام منه ، وإنما نحاربه دفاعاً عن النفس ، وحماية للدين ، فإذا كف عن القتال كففتنا عنه ، وعاملناه بما ينبغى من البر ، ولم ننتهز فرصة ضعفه لنشقى ما قام بنفوسنا من الحقد عليه ، بل يجب أن يقوم الصفاء مكان الحقد ، وأن يحل السلم محل الحرب لأن الأصل فى الإسلام أن تكون علاقته بالناس علاقة سلمية لا حربية ، فإذا زالت أسباب العلاقة الحربية وجب أن ترجع علاقته بالناس إلى أصلها ، ولا يصح المضى فى مخالفتها .

وقد يكون من البر بالإنسانية فى الحروب تقييد مقابلة الاعتداء بالاعتداء ، بأن يكون بالمثل فى قوله تعالى فى الآية - ١٩٤ - من سورة البقرة : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ، قاتلهم المشركون عام الحديبية فى ذى القعدة ، فقبل لهم عند خروجهم لعمره القضاء فى ذى القعدة أيضاً وكرهتهم القتال فيه : هذا الشهر الحرام بذلك الشهر الحرام ، وهتك بهتكم فلا تبالوا به ، فالحرمات قصاص ، أى أن كل حرمة - وهى ما يجب المحافظة عليها - فيها القصاص فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد عن العمرة ، فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، واعتدوا عليهم بمثل ما اعتدوا به عليكم ، شهراً بشهر فقط ، واتقوا الله فى شأن الانتصار ، واحذروا أن تجاوزوا ما رخص لكم ، ويجوز لنا أن نقيس آلة الحرب على زمن الحرب ، فسكنا وجب تقييد مقابلة الاعتداء بالاعتداء بالمثل فى الزمن ، يجب تقييد مقابلة الاعتداء بالاعتداء بالمثل فى آلة الحرب ، فإذا اعتدى علينا بالسيف اعتدنا به أيضاً ، ولا يصح أن نجاوزه إلى ما هو أشد فتكاً ، وإذا سعى العدو فى ابتكار آلات حربية ليقاتلنا بها سعيها فى ابتكار مثلها لندافع بها عن أنفسنا ، فيكون شأننا فى هذا مجازاة غيرنا فى الاستعدادات الحربية ، حتى لا نكون سبياً فى إيقاع الأمم فى المنافسة فى ابتكار آلات الحرب ، وإنفاق أموال الشعوب فى اختراع المدمرات ، بدل إنفاقها فيما يطيب به عيشها ، وتكمل به هئاتها ، كما تفعل الأمم التى تتسابق الآن فى اختراع

آلات التدمير ، حتى وصلت بها إلى ما يهدد العالم بالخراب ، فالإسلام يجعل أمته في هذا الاستعداد الحربى تابعة لامتبوعة ، لأنه لا يريد إلا السلام والبر بالانسانية على اختلاف أديانها ، فلا يجرى فى الاستعداد الحربى إلا مضطراً ، ولا يكون فيه مبتدئاً بل مجارياً ، ولا يستعمل الآلات الحربية الأشد فتكاً إلا بعد أن يعتدى عليه بها ، فإذا وصلت إلى حالة تؤدى إلى إشاعة الخراب فى العالم لم يسهه إلا أن يدعو إلى تحریمها ، وإذا سبق بالدعوة إلى تحریمها لم يسهه إلا إجابة هذه الدعوة ، وكيف لا يكون هذا موقف الاسلام من تلك الآلات المدمرة ، وقد روى مالك فى الموطأ عن يحيى بن سعيد أن أبا بكر بعث جيوشاً إلى الشام ، فخرج يمشى مع يزيد بن أبي سفيان - وكان يزيد أمير رُبْع من تلك الأرباع - فقال : إني موصيك بعشر خلال : لا تقتل امرأة ، ولا صبياً ، ولا كبيراً هرمًا ، ولا تقطع شجراً مثمرًا ولا تحرق عامراً ، ولا تعقرن شاة ، ولا بغيراً إلا لما كله ، ولا تعقرن نخلاً ولا تحرقه ، ولا تغال ، ولا تحب ، وقد أخذ الأوزاعى والليث وأبو ثور بهذه الوصية التى وصى بها أبو بكر يزيد بن أبي سفيان ، فذهبوا إلى عدم جواز التحريق والتخريب فى بلاد الأعداء ، وقد ذهب غيرهم إلى جواز ذلك ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قطع نخل بنى النضير ، وقد ذهب الطبرى إلى أن النهى يحول على القصد لذلك ، بخلاف ما إذا أصابوا ذلك أثناء القتال ، وبهذا قال أكثر أهل العلم .

وإني أرى بعد هذا كله أنى سقت ما فيه الكفاية لإثبات بر المخالفين فى الإسلام ، من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع أولئك المخالفين ، إلى نصوص صريحة من القرآن الكريم ، إلى أحاديث ووصايا من النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعض الخلفاء الراشدين ، فإذا رأينا ما يخالف هذا حكمنا بأنه مخالف لسماحة الإسلام ، ولم نر الأخذ به فى الدين ، لأنه يضر الإسلام ولا يفيد ، وينفر الناس منه ، ويبعدهم عن الإيمان به .

ومن ذلك ما روى عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه ،

وقد أخذ الجمهور بهذا الحديث ، وذهبوا إلى تحريم ابتداء المسلم لليهودى والنصراني بالسلام ، وحمل بعضهم هذا النهى على الكراهة ، وخالفهم طائفة منهم ابن عباس فذهبوا إلى جواز ابتدائهم بالسلام ، واحتجوا بعموم قوله تعالى : « وقولوا للناس حسنا » وبأحاديث الأمر بإفشاء السلام ، لأنها جاءت عامة لا تخصيص فيها والحق في هذا مع تلك الطائفة التي فيها ابن عباس ، وقد كان أدري بالاسلام وسماحته من أبي هريرة ، ولا شك أن من يذهب إلى جواز ابتدائهم بالسلام ولا يأخذ بصدر الحديث في النهى عن ابتدائهم به ، لا يأخذ بآخره وهو . « وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه » لأنهم إذا دخلوا في عموم قوله تعالى « وقولوا للناس حسنا » لم يجز الإساءة إليهم بهذا الفعل ، لأن إساءة الفعل أشد من إساءة القول ، وقد قالت عائشة : دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : السام عليك - والسام الموت - ففهمتها فقالت : عليكم السام واللعنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلا يا عائشة ، إن الله يحب الرفق في الأمر كله ، فقلت يا رسول الله ، ألم تسمع ما قالوا . فقال : لقد قلت وعليكم ، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يرض مثل هذا القول من عائشة ، فكيف يرضى إذا قابلنا أحدهم في طريق أن نضطره إلى أضيقه .

ومن ذلك ما يحكيونه في تفسير قوله تعالى في الآية - ٢٩ - من سورة التوبة « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » قالوا : إن الجزية تؤخذ منهم على الصغار والذل والهوان ، بأن يأتي بها ماشيا غير راكب ، ويسلبها وهو قائم والمتسلم جالس ، إلى ما قالوه مما لا ينبغي ذكره ، والاسلام أكرم من هذا كله ، وما أحسن قول بعضهم : معنى الصغار هنا هو نفس إعطاء الجزية ، والحق أنه من صغر ضد كبر وعظم ، لا من صغر بمعنى هان وذل ، فالمعنى وهم غير متكبرين ولا متعاضمين كما كانوا وهم محاربون ، وهذا إنما يفيد نفي التعاضم ، ولا يمنع أن يعطوها في كرامة توافق ما أمرنا به من برهم ؟

عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ

لمحاضرة الطالب الكبير السيد صدر الدين شرف الدين

صور - لبنان

الكاتب الكبير السيد صدر الدين شرف الدين الموسوي غني عن التعريف
بما له من بحوث جليلة الشأن ، في معانيها ومبانيها ، يعرفها له العالم الإسلامي
فيجد فيها العالم بغيته ، والأديب أمنيته ، وهذا بحث من بحوثه التي ستكون
فصلا من كتاب يشغل باعداده ، هو « حليف مخزوم » . رئيس التحرير

قد تعجب لكل انصرف من عقده الرابع أو كاد ، يسلط عليه من حر الحديد ،
ومن لفع النار ، ومن ضغط الماء ، عذاب نكر ، فلا يستخذي للعذاب ، ولا يحفل
به ، ولا يباله ، بل يقبل عليه مرة بعد مرة في مرات كثيرة ، مطمئناً له ، راضياً به ،
لكأن أطراف الاسنة والسنة النار ، وضغط الماء أشياء من دغدغات حبيب تثير
الرضا لا السخط ، وتدعو إلى الاغتراب لا إلى الحزن ، وتحيي الرجاء لا اليأس .

وقد تعجب لشيخ ينصرف من عقده العاشر أو يكاد ، يسلط هو على عدوه
من سيفه نارا تشبهها النار ، ومن عزمه حديداً أصلب من الحديد ، ومن اندفاعه
سيلا أعنف من السيل .

وقد يبطل عجبك من هذا وذاك ، حين تعلم أن هذا الشيخ الفتي المستطيل ،
إنما هو ذلك الكهل الشاب المضطهد نفسه ، وأن هذا الإنسان الراسخ في حاله ،
لم يستقبل الفتنة المنكرة كهلا ، ولم ينزل فيها للعذاب الشديد الغليظ عن بدنه ،

إلا من أجل عقيدة كانت ماتزال طرية الغرس في نفسه ، وأنه لم يمتشق في شيخوخته سيفه العاصف المتأجج المزهوب المحبوب إلا من تلك العقيدة ، وقد توطنت في نفسه وامتدت واستمكنت ، فإذا هي روحه الذي يتنفس ودمه الذي يجري . وماذا تنتظر من شيخٍ نُتيم كهولته عقيدة نيرة ، وتصبره على العذاب الشديد الغليظ فيها . وهي طرية الغرس لما تنشر عروقها في أنسجته وشرائنه ، غير أن تنضيه ذلك السيف العاصف . وقد هبطت جذورها إلى أخمصيه واشتبهت خيوطها في مشاشه ، وفشت منه في كل عُدة ، وفي كل حجارة ، حتى استحال دمه كله لإيماننا وإخلاصنا ، وحقاً من الحق الصريح .

لم يكن الكهل الشاب يتلقى حز الحديد ، ولفح النار ، وضغط الماء ، بلحمه ودمه ، وإنما كان يتلقاه بعقيدته وإيمانه ، فإذا لقي جلده : هذا الثوب ، من العذاب الشديد الغليظ أذى وتبريحاً ، فقد كانت نفسه ، تلك الروح ، تجد من التضحية لذة وترويحاً .

ثم لم يكن الشيخ الفتى يصارع عدوه بساعده وعضله ، وإنما كان يصارعه بدينه ومبدئه ، فليس هو - في واقعة - جارحة تكل ، ولا سيفاً يفل ، ولا ضربة تنبو ، وإنما هو حقيقة تنصب على زيفها انصباب النور على الظلام بزقه تمزيقاً ، ويمحوه محواً .

فأى عجب بعد هذا في أن يصبر كهل على فتنة ، أو يثبت على امتحان ، مهما غلا هذا أو تلك في قسوة ، أو بالغاً فيها ؟ وأي عجب بعده في أن تشب شيخوخة هذا الكهل وقد تبين لها الحق ، ووضع لها الطريق ؟ وما حاجة الكهل والشيخ معاً إلى أجساد الشبان ، وعضلات الأحداث مما تنتظره لصبر يمتحن أو إقدام مقدام ؟ وما الفتوة ؟ هل هي سن وميعة صبا ؟ هل هي مرحلة معينة من مراحل العمر ؟ الواقع أنها ليست كذلك ، وإنما هي إيمان ، يكبر حظك منها كلما كبر حظك منه ، هي حماسة إيمان تلبس إهاب الكهول والشيخوخة ، كما تلبس إهاب الشبان الأحداث ، فتنشئ في هؤلاء وهؤلاء ما ينشئ الشبان الجلد القوى الصبور ،

وتحرك منه في هؤلاء وهؤلاء ، ما تحرك من عزم ونشاط ونفاذ وحيوية وتوقد ومضاء . وكما يافع منطق الجذوة كليل الحد تسقطه الفتوة من حسابها وإن أعجبك منظره ، وكما معمّر متوهج الجرة مشبوب الهمة تحتضنه الفتوة الأصيلة ، وإن نبا في العين مظهره .

وكانت الفتوة تزيد في صاحبنا على نفسها في غيره زيادة مضاعفة . كان لا يشك هو ، ولا يشك معه عدوه ولا صديقه في أن سيفه ميزه ، فإذا أهدت السيوف إلى خصومها ضربا واحداً من الموت ، فإن سيفه يهدى إلى خصمه وخصم صديقه ضربين : أيسرهما فناء الجسد ، وأشقهما لعنة الأبد . ثم كانت تضاعف فتوته ميزه أخرى لنفسه كميزة سيفه . كان يعلم هو وعدوه وصديقه لا يجعلان أنه مع الحق سلم أو قتل ، وأن خصمه مع الباطل انتصر أو أُخذل ، وأية حماسة ادعى للفتوة من حماسة إيمان تهدي إلى عدوها موتين أحدهما أخزى من الآخر ، وتدخر لصديقه حياتين أخراهما أبقى من الأولى ؟

كهولة حمرة برة بكثرت بسكها على الاسلام ، قدمته أحد سبعة سابقين أولين ، فنهض بأجسم أعباء الرسالة وأشقها ، نهوض جهاد متصل ، وتضحية صابرة ، وكفاح مر .

وشيوخوخة لم تقصر عن كهولتها حرية ولا برا ، قدّمت صاحبها طليعة وفاء لروح الاسلام ، فكان من الآحاد الأول الناهضين بأعباء الرسالة ، نهوض جهاد متصل ، وتضحية صابرة وكفاح مُر ، فما التفت جبهتها صراع إلا كان (علامة هدى) في إهداهما سبيلا ، وأعدلهما قضية .

كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم راية للمؤمنين لم يتفقدوها الرسول في محنة قط ، إلا وجدوها رفاقة تقتحم الهول على (الشرك) عنيفة به صامدة لعنفه .

ثم ظل بعد النبي راية للمؤمنين لم يتفقدوها روح الرسول في محنة قط إلا وجدوها هناك رفاقة تقتحم الهول على (الردة) عنيفة بها صامدة لعنفها .

قال المحدث : هذا كله جعل من (عمار) بن ياسر (علامة هدى) يموت

من يموت إلى جنبه موقناً أنه غاد إلى الجنة ، ويهلك من يهلك إلى جنب عدوه ، موقناً أنه راح إلى النار .

وكان (عمار) يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاث خلال من جعلن جمع الإيمان كله : الانفاق من الإفتار ، والإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم . » وكان - ما عاش - هذه الخلال الكريمة نفسها ، فما رأيناه بشراً من البشر ، ولكن رأيناه الإيمان بخلاله الثلاث هذه ، يتحرك بين الناس عطاء وإنصافاً وسلاماً . هو العطاء والإنصاف والسلام محارباً كان أو مسالماً .

حليف مخزوم :

أسمر اللون ، عجنحت طينته بمسك ، مديد القامة ولد من طائلة الرماح ، بعيد ما بين منكبيه ، صيغ تجسداً للبهابة ، أشهل أصلع ، « في مقدم رأسه شعرات ، وفي فناء شعرات » - كما قال معاصره القصاص ذو الاداة .

طويل الصمت كأنما تحدّثه الملائكة ، شديد الرأي لا يخدع عن الصواب ، راجح العقل « ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما » - كما وصف رسول الله - زكى النفس ، سخي اليد ، هبّاب للحق ، جرى به ، لا يلوى فيه ، ولا يصرف عنه . ولد في حى بنى مخزوم من (مكة) سنة ٥٧٠ م أو نحوها ، فقد كان ترباً للنبي صلى الله عليه وآله - كما يقول هو - لم يكن أحد أقرب إلى النبي سنّاً منه ، أما أمه « فسميه » بنت خياط ، وكانت أمة لآبى حذيفة سيد بنى مخزوم ، ولم تكن في أماء قريش أمة مثلها حرة في ذكاء القلب ، وصحة العقل ، وملاحة الوجه ، وعفة النفس ، وطهارة الذيل .

وأما أبوه فياسر بن عامر ، عربي عنسي مذحجي قحطاني يمانى . أقبل من اليمن مع أخويه : مالك والحارث ، يلتمسان أخاً رابعاً لهم كان قذف به قدر من أقدار الحياة الكثيرة المصطلحة يومذاك على اليمن تفرّق أهلها ، وتبعثرهم هنا وهناك ، وتفرّهم من وطنهم الذى ألح عليه الجفاف ، وابتلاء فساد الحكم بالقحط والمحن ، والبطالة ونضوب العيش ، فهاجرون منه أفراداً ، ويهاجرون منه جماعات بحثاً عن الرزق ، وتقيياً عن العمل .

وكانت مكة مهاجراً تترى إليه الوفود اليمانية منذ تفرقوا أيدي سبأ ، أمتها جرم الثانية ، وأمها خزاعة ، وحكمتاها واحدة بعد الأخرى غالبتين على حكمها أهلها من بنى إسماعيل ، حتى استعاده (قصي) بن كلاب (٤٠٠ م) ، واستأنفه مضرباً ، وأم غير جرم وخزاعة غير مكة من الحجاز ، فعمرت يثرب بالآلوس والخزرج ، وأم غير هؤلاء وأولئك غير الحجاز من العراق والشام واليمامة ونجد والعروض منتشرين كالجراد يملأون فراغ الجزيرة العظيمة ، ويزودون هلالها الحصب بما حلوه من كشافة ، وما نقلوه من ثقافة وأوضاع .

وكانت مكة تمتاز على جميع هذه المهاجر بأنها دار أمن لا يأتيه الخوف من بين يديه ولا من خلفه ، وبأنها دار رخاء لا يدنو إليه الجوع من فوقه ولا من تحته ، ففيها بيت الله ، وعليها سدنته الأسماح المططيون ، يبذلون اضيوفها الرغد والكرامة من أنفسهم ، ويبسطون العدل في القضاء من حكومتهم ، فهم آمنون وادعون ، كافلون للأمن والدعة ، لا يروعون ولا يروعون .

فلما يئس الإخوان الثلاثة من العثور على فقيدهم في مكة ، انحسر عنها مالك والحارث ، واستقر فيها (ياسر) حليفاً لمضيفه أبي حذيفة سيد خزوم ، يحفظه هذا ، ويحفظ هو لهذا يده عنده ، ويثيب احسانه إليه ، وامتناعه به ، بالوفاء له أكرم الوفاء وأصفاء وأخلصه . وكان أبو حذيفة كأخيه (هشام) من قبل وكأخيه (الوليد) من بعد ، زعيماً سمحاً كريماً رضيعاً حافظاً المعروف ، مثيباً عليه ، وكان حديبا على حليفه العنسي بوجه خاص . رؤوفا به رحباً ، يؤثره بحب يضيفه إلى ما أخذ به نفسه من حلفه ، وربما أضاف إلى هذا أو ذاك شيئاً من احترامه لهذا العنسي الغريب الذي اضطرت له الأقدار إلى الاعتصام بغير داره ، ورمته إلى دار يطلب فيها الحماية من غير أهله ، وعسى أن يكون ، بل هو قد كان ، ذا دار منيعة عزيزة ، وذا أهل كرام أشداء ، من أجل هذا حالفه أبو حذيفة ، ثم أحبه ، ثم احترمه ، ولم يخيب ياسر ظن حليفه ، فوفى له ، ثم تصرف بوفائه تصرف العقلاء الأعزاء الذين يلائمون بين أدب الغريب وضعف اللاجئ ، وبين كرامة النفس واستقلال الرأي ، فكان من سلامة سلوكه ومن صفاء معدن حليفه معاً أن عرف بعد ذلك مخزوميا

له ما للخزوميين ، وعليه ما عليهم . يطوف بأندية (قريش) ما يطوف حبيبا
أثيراً محترماً ، لا يثقل على أحد بتكليف ، ولا يستقل أحد له ظلاً .

وفي ذات يوم فكر أبو حذيفة بحليفه العنسي ، فرآه مستقبلاً لا تطيش به
نزوات الرجال ، ورأى أنه رجل لا بد لبيته من مرأة ، ورأى أن الحياء والاقبال
يحولان بينه وبين ما يطمح إليه كل رجل من زوج تدبر له المنزل ، وتكشف عنه
وحشة الوحدة ، وترزقه خير الأولاد ، فزوجة (سمية) بفت خياط أحب أماته
إليه وأحظاهن عنده وأكرم الاماء جوهرآ في ذاتها وطهارتها . ثم كان من بره
بحليفه ، وقدره الدقيق لمشاعره الحرة تحرير أبنائه من (سمية) . لم يسأله ياسر ذلك ،
ولكنه هو أحسن ما بنفسه ياسر فرفع عنه بأريحية صناعة إنتاج العبيد والاماء ، وكان
أفضل (نقوط) عند ياسر حرية بطن سمية التي وقع منها على كثر ، أى كثر .

أوضاع مكة :

درج الصبي عمار ناضج الصبا ، خامر الطفولة ، يثب إلى النور وثوباً ، ويسبق
الزمن إلى اكتمال الرجولة واستيفاء الذكاء جميعاً ، وكأن ما بنفسه من طموح
أعانه على القفز ، وألغى عنه ما يفرض على غيره من حكم الزمن ، وانتظار إذنه
في الانتقال من مرحلة إلى مرحلة . ومن دور إلى دور ، ومن حياة إلى حياة .

وشب الصبي الكبير . فهو الآن يقرب من العشرين إن لم يكن بلغها بعد ،
ذو هدى ووقار وبر بوالديه ، ورفق بعشراته ، يعنى الناس من شره ، ويعفيه
الناس من شرورهم ، فهو صامت غاديا ، وصامت رائحا ، ذاهب في الجرم غدوه
ورواحه مطرقاً يرفع نفسه عما يدنس غيره من سادة مكة وعبيدها ، ويبضها
وأحاديثها بمن أبطرم الغناء وأفسدهم الرخاء ، ومال بهم الطيش إلى سفه ومجون ،
وتشدد ووقوع في أقوات الناس وأعراضهم .

وحسب الذين تعودوا صمت (عمار) أنه صمت الغريب المستضعف ، يسبغه
ويضفيه ، فيحسن إسباغه وإضافه أدب في نفسه ، ووداعة في طبعه ، ولين في
مزاجه ، وانصراف عما لا يعنيه . أما الذين عاشروه حق المعاشرة ، وبلوا دخائله

حق البلاء ، فكانوا يعلمون أن لصمته مصدراً آخر أعمق من هذه المصادر كلها ، وإن كانت هذه لمصادر حق تؤثر فيه الصمت ، وتطبعه عليه . أما المصدر الخطير فكان تفكيراً ملحاً من تفكير حنيف - كما كانوا يقولون - أو وعى حر - كما تعودنا أن نقول اليوم - من وعى الأحرار المفكرين ، وكان الوعى في عهده متعلماً يبرق إلى الواعين ، ويخامرهم ، ويؤامرهم ، ويحشم حشاً عنيفاً على إعادة النظر بهذه الوثنية المظلمة ، وبهذه العادات الرثة ، وبهذه الأنظمة البالية ، ولكنهم كانوا يخشون الجهر ، ويخافون الظهور ، ولا سيما مستضعف كهمار ، أكبر حجته في بقاءه بمكة حام أبيه لأبي حذيفة ، وكل قوته أنه منسوب إلى هذا الزعيم من مخزوم ، فما أحراه إذ يضطرب وعيه بعيب للأله ، أو نقد للتقاليد أن يتخلى عنه أبو حذيفة ، وما أحراه إذ يتخلى عنه أبو حذيفة أن تمزقه السياط ، أو تتقاذفه الغلمان ، أو تتخطفه الشياطين ، فيذهب من أجل هذا صامتا صمته العميق المفكر ، موادعا سادة قریش موادعة أحلافهم وعبيدهم ، منتظراً مع هذا وذاك رجفة الزلزال التي يحسها في نفسه ، ويحسها في نظرائه ، ويحسها في سير الأحداث .

وكان خلال صمته ينتقد بينه وبين نفسه ، وربما انتقد بينه وبين أبيه مصير مكة في عهده ، وسوء منقلب سادتها أو أكثرهم ممن أسرفوا على مكة وعلى الناس وعلى أنفسهم ، فارتدوا جارية يوشك أن يبدلوا أمن (البيت) خوفاً ، ويعيدوا بشاشة الحياة عبوساً ، ويردوا رجاء العيش شدة ، ف هؤلاء السفهاء من أمية وجمع وسهم وعدى ، لا تكفيهم أفيائهم ومرابحهم ، ولا تسد شهواتهم القيان ومن استزلن الشيطان من نساء الحاضرة حتى بسطوا بتجارة الغرباء ، ويقلبوا الزائرين على بناتهم ، فيبلغوا حاجتهم من الاموال والاعراض بغزو أبشع من غزو البادية وأشنع وأشد استهتارا .

قال لأبيه مرة : ويح هؤلاء السفهاء ، ألا يتقون شر هذه البدع المنكرة في قدس بلدهم الذي به يحيون ، إن لم يتقوها في زكاة أنفسهم ، وتقوى ضمائرهم ، ألا ينظرون إذا تسامع بشأنهم الناس من حجاج (البيت) ومصر في التجارة ، أن يخلعهم من (البيت) ويزيلهم من الحكم ، أو يقطعهم إذا لم يستطيعوا

إلى خلعهم وإزالتهم سبيلاً ، فيميتوهم فقراً ومذلة وهواناً ؟ ما رأيت طيشاً كطيش هؤلاء السفهاء ! ولا يُرى طيش كطيشهم يفسد على صاحبه آلة العيش بلكه عفة النفس وراحة الضمير !

فقال له ياسر : أراك منذ اليوم تكبر على سنك ، وتسمو فوق شأنك ، أنسوق إلى هذا الحديث من نفسك ؟ أم ألقى به إليك ملق أراد بك شراً ؟ .

قال عمار : لم يلق إلى بهذا الحديث إلا عيني المبصرة ، وأذني السامعة ، نقلناه إلى نفسي ، ثم لم ننقله نفسى إلى أحد قبلك ، ولم ننقله إليك إلا هذه الساعة ، وإن كنت لأعلم أن نفراً من الصعاليك أمثال ليثون أنيني ، ويشكون شكواى . أترى تقرأ عين الناس وتطيب نفوسهم بما تنكر الأعين والأنف ، من استرقاق الرقيق ، واستضعاف الضعيف ، وامتصاص الجهود باسم آلهة هي أشد رقا من الرقيق ، وأعظم ضعفاً من الضعفاء ؟

فقال له أبوه . قد أعلم ما تعلم يا بني ، وأوقن بما توقن ، وأزيد فاسمى لك نفراً من العبيد والأحلاف وبعض أبناء البيوت يشوكم ما يشوكلك ، ولكن أكنتم هذا في نفسك ، ولا تجاوزه إلى أحد ممن في هذا الوادى ، إن يدع عنك هذا التقدير يثر عليك وعلى شراً لا تقدر على دفعه ، ولا تقوى على تحمله ، وتعلم - يا بني - أن لهذا (البيت) ربا يحميه ، ويكشف عنه كل ضر ، أنت لم تكن يوم (الفيل) فقد كنت رضيعاً ، وقد كنت أنا وشهدت يومه فيمن شهدده ، ورأيت كما رأى الناس عجباً ، رأيت سيد قريش : عبد المطلب بن هاشم ، يأمر أهل مكة أن يخلّوا بين (أبرهة) الحبشى وبين (البيت) ولم يكن له ولا لقريش قبل بلقاء جيشه الجرار المنظم ، ورأيتهم مطمئناً يذيع الطمأنينة في أهل مكة ، ويعدهم النصر دون قتال ، وكنت يائساً - ولا أكنتمك - في مكة مع اليائسين ، شاكاً بوعد عبد المطلب مع الشاكين ، ولكنى رأيت بأم عيني هذه جيش (أبرهة) مزقاً شر تمزق ، منكلاً به شر تنكيل ، فما كاد يوعز الحبشى إلى جيشه بالهجوم ، حتى غام الجو واضطرب ، وأخذة مخاض شديد ، ثم أقبلت من مجاهله سحب من طير صغار تحمل في مناقيرها وأرجلها حصى صغاراً ، ثم ترمى الجيش المعتدى من

حصاها بوباء ، فلا ترمى إحداهن الحصاة الصغيرة على رجل إلا خرقتة ونشرت فيه دائنين من حصبة وجدري ، وما هي غير ساعة حتى انكشف العدو مقطعا وانتصر (البيت) موفورا ، وجمت الطير مشكورة ، ونزلت السماء تغسل بقايا الوباء . ومنذ ذلك اليوم تعلمت أشياء نافعة كثيرة ، تعلمت الإيمان برب البيت الذى يعبد عبد المطلب ، لا بهؤلاء الأرباب الذين تعبدهم عامة قريش ، وتعلمت أن إيمان المؤمن المستضعف أقوى من قوة الظالم المتعجرف . وتعلمت ألا أزيد بانتصاري للحق على طاقتي ، ولا أعدو فيه طورى ، نازلا عن قيادته لأصحاب القيادة وأكفائها ، كما نزل عبد المطلب لربه عن حماية (البيت) فيما أعجزه من حمايته ، دع هذا الأمر - يا بنى - لأصحابه ، فأنت بالقياس إلى هؤلاء السفهاء أضعف من عبد المطلب بالقياس إلى جيش ابرهة ، وبنو عبد المطلب فى حرصهم على قداسة (البيت) وأمن بلدهم وقدرتهم على الأخذ بأعراف هؤلاء السفهاء ، حيث لا تقاس إلا بأحد غلمانهم ، فدع لهم أو لواحد منهم أن يتحدث بهذا الأمر ويفشيه بين الناس ، فانه إن يفعل لا يجد أحد فى مكة إليه سيلا ، وعساه إن فعل أن يبلغ من تأديب هؤلاء السفهاء ما يرضيك ويرضىنى وبرضىه ، وسواء أبلغ من تأديبهم الحاجة أم لم يبلغها ، فهو من حاله فى حصن من الأذى ، وفى قبة من طاعة الناس لأمره ، وأصفائهم إلى قوله ، أما نحن - يا بنى - فليس لنا من الأمر غير الرضوخ والصبر ، فان أبيتنا سلخوا جلودنا كما تسلخ الشياه ، ثم لا ينتطح فى محنتنا عنزان ، ولبتنا إذ نسلخ نبلغ الحاجة من تعميم الخير ، وإفشاء العدل ، إذن يكون ثمتنا مغريا ، ولكننا لن نجد إذ نحدث الناس بهذه الأمور غير الاستخفاف والسخرية ولن نجد إذ نضجى غير اللوم والتفريع من جزاء . ألا تعلم يا بنى أن التحدث بأمور العامة فى نظام كنظامنا الحاضر وقف على الأقوياء من السادة والقادة والإشراف والنبلاء ، وأنه محرم علينا نحن الضعفاء من الأرقاء والحلفاء والصعاليك والدهماء . وآخر ما أوصيك به أمران : أن تؤمن برب هذا (البيت) من إله عبد المطلب لا آلهة قومه . وأن تثق بهؤلاء الفر من هاشم ، فهم - فيما رأيت وبلوت - أصحاب الخير فى هذا الوادى ، وعسى أن يكون لهم شأن فى شكايك هذه هم بالغوه فى هذه الأيام .

بهذا تحدثني نفسي حديثاً أستيقنه جملة ، وأجمله تفصيلاً ، وما أدري ما يأخذني من تربك : (الصادق الأمين) كلما رأيت . إن له طلعة لمحتها تضمن بشر عام وخصه ، وقد كان جده عبد المطلب يتوسم به أعظم الخير ، وينتظر أن يكون له شأن من شئون السماء .

قال عمار لآبيه : لست أعدوك رأياً ، ولا أخالف لك أمراً ، ولكني رأيتك تخضع الهاشميين إلى إله غير آلهة قريش ، فما هو هذا الإله ؟ وما مكانه ؟ وماذا عساه أن يكون ؟ ولماذا لا يظهر ونه كما يظهر الآخرون آلهتهم ؟

قال ياسر لابنه : أنا لا أعرف إله الهاشميين معرفة كاملة ، ولكني أدركت فيهم وفي قومهم ما يمكن أن أدير من عقلي ، فوجدت لهؤلاء رأياً جليلاً في الله ، ورأياً جليلاً في الحياة ليس لقومهم مثلها : وليس إله عبد المطلب إلهاً مصنوعاً لا ينصر إلا أن ينصر ، ولا يعطى إلا أن يُعطى ، بل هو إله صانع ينصر ولا يستنصر ، ويعطى ولا يستعطى ، ألم تر إلى ما حدثتك به من أمر (ابرهة) وجيشه ؟ ألم تر إلى تلك الطير الضئيلة التي لا نعرف مثلها في النسور ، وإلى حصواتها الصغار التي لا نعرف مثلها في الصخور ، كيف أهلكك جيشاً لم تثبت له الجن ؟ ذلك كله مظهر من مظاهر القدرة في إله عبد المطلب . فأين منه آلهة الناس مما يصنعون من تماثيل ودُمى عَمى صم بكم لا تعقل ، ولا تدفع عن نفسها شراً أن أردناها بشر ، وإله مثل إله عبد المطلب - يا بني - خليك أن يكبر على طاقتنا ، فلا يخضع إلى تصرفنا كي نقله أو نحملة أو نعبث به كلما شئنا ، كيف شئنا .

قال عمار : لست أعنى بإظهاره تجسيده ، ولا تمثيله ، ولا نقله من عليائه إلى مصاف هذه الأحجار الصم العمى البكم ، فليكن إظهاره بإظهار أمره وإفشاء سره وإعلان قدرته .

قال ياسر : لكل أجل كتاب - يا بني - لا يسبقه ولا يتأخر عنه ، وكيف يتأتى لعارق هذا الإله العظيم إظهار أمره قبل تحرير الناس من سيطرة الخرافة ، وقيد العادة ، وعبادة الذات ، وسحر الوهم ، وهذه كلها جنود مجنودة ، لا تسكاد

تحس المنحرر حتى تأخذ عليه الافاق ، وتسد عليه الطرق ، وقد رأيت عبد المطلب برغم ذلك يتأق الفرصة ، ويسعى في مهل إلى خدمة ربه دون أن يحفظ قومه أو يربهم فيفاجئهم شيئاً فشيئاً بسنن وتنظييات تعدم لما يسميه (الخنيفية) من دين جده لإبراهيم ، ومن حكته - في تأتية الفرصة وتحينها - أنه بدأ بنفسه ، فاجتنب الخمر على أنها رجس ، ولم يخرج قومه بحملهم على اجتنابها ، مكتفياً بهذه السلبية التي تقبح عادة من عاداتهم ، وتسفه حلماً من أحلامهم ، وتنزل من عقول عقلاهم منزل القدوة ، ثم فارقم في حقيقة دينهم كله بسلبية أخرى دون إكراه ، وذهب إلى غار (حراء) يتحنث وينسك معتزلاً آلهتهم متوجهاً إلى إلهه بصومه وعبادته ، مكتفياً أيضاً بسلبية تحقر الأوثان تحقيراً غير مباشر ، وتشنع على الوثنية والوثنيين تشنيعاً دؤى في صدور الأحناف ، ثم تجاوز حقل الدين إلى حقل الحياة بثورة أخرى على شكل آخر ، فأهان (أسافاً ونائلة) إلهي النحر والاضحيان ، يحفره عندهما بئر زمزم ، وقده تكلف بهذه الثورة بعض الجهد ، واحتمل بعض المشقة ، ولكنه انتصر ، وأعلن من نصره هذا نصرين عظيمين ، على الخرافة والتقاليد ، انتصر على (أساف ونائلة) باستخفافه بهما ، وإعلانه ضعف خطرهما وانتصر على عجز الإنسان باكتشافه ماء زمزم : هذه البئر التي لا تنزف أبداً ولا تدم . ثم كانت له آيات أحداث في سور القوم المسحور كثيراً من الصدوع ، وفتحت به كثيراً من الثغر ، في جهاد صادق كان يصرع الأوهام في هذا البلد شيئاً بعد شيء ، ويؤلب عليها أهله والأقرب من عشيرته وصديقه ، فإذا جاء اليوم الخطير وجد طريقه ممهداً .

قال عمار : ولماذا لم ينصره - يا أبت - ربه نصراً حاسماً بآية كطير أبابيل ، وما باله يؤتية النصر شيئاً بعد شيء كالمدين المطول لا تطيب نفسه بالوفاء جملة ، فيسد دونه أقساطاً .

قال ياسر : هذه مسألة قد يكون على أقل من الجواب عليها : وقد يكون عند أبي طالب حلماً أو بعض حلماً ، ولكني أظن رب عبد المطلب ربا في قدرته الهائلة غنياً في ذاته ، ولأنه في قدرته الهائلة رب رؤوف حلیم غير ذى انتقام ،

فهو في غناه الذاتي قادر على الإمهال ، نشيط على الصبر ، كالدائن السميع يسدى بالإدانة أبادى عدة لا يبدأ واحدة : يبدأ في الدين ، وبدأ في أرباح الدّين ، وبدأ ثالثة في إمهال المدين حتى يدركه يسار النفس ويسار المال ، وهو في غناه الذاتي بعد هذا كله حيث لا يضره غى الناس ، ولا ينفعه رشدهم ، فسيان عنده علموا أو جهلوا ، وسيان عنده سفهوا أو عقلوا ، وسيان عنده شقوا أو سعدوا ، لا يناله من أحوالهم كلها ربح ولا خسارة ، وإنما يريد لهم ما يريد من خير ، ويأبى لهم ما يأبى من شر ، ثم لا يليق بغناه الذاتي فقر التدخل بأحوالهم على نحو الجبر ، لذلك لا يكرههم على الفضيلة لكرهاها ، وإنما يخبرهم ، ويخلى بينهم وبين ما يشاؤون من فضيلة أو رذيلة ، في أناة من لا يخيفه الفوت ، ولا يعجزه الطلب .

وهو من رأفته ، بمكان الألوهة : ينظر منه إلى أعدائه نظره الى أصدقائه ، كلهم عباده ، وكلهم عياله ، وكلهم حرى عنده أن يحى ويعيش ويسعد ، لا يأتى التفاوت في هذه الأمور من قبله ، وإنما يأتى من قبلهم ، صدره ليس ضيقا كصدورنا - يابى - بالحقد ، حرجا بالحسد ، فوارا بالنقمة ، بل هو صدره الر -
الفسيح الخافق بالحب والرحمة والغفران ، فلو قد عجل على المخطئين بالنقمة ، وأغلق في وجوه العاصين أبواب التوبة ، لم يكن حالذاك إلها ، وإنما كان ملكا جباراً تعروه الخطيئة ، ثم يجب عليه الفصاص ، ثم إذا فعل ما تتمناه أنت من معاملة الناس قل لى : من يبق من البشر على وجه البسيطة ؟ وإذا أخلى البسيطة من الناس ، قل : من ذا الذى يعرفه بعدهم ؟ وما الفائدة بعد ذلك من الأنظمة والشرائع والقيم ؟ بل ما ذا يبق للحياة كلها من الغايات والأغراض والأهداف ؟ تعلم - يابى - أن رب عبد المطلب رب لا أطول من أناته ، ولا أوسع من رحمته ، ولا أغنى من ذاته ، لا يكره بل يخير . ولا يعنف بل يلطف ، ولا يعجل بل يعمل ولا يعسر بل ييسر ، وقلما يظهر من قصاصه ، ثم لا يقتص إلا إذا طفق الكيل ، وإلا إذا توقفت على الفصاص حكمة من حكمه البالغة ، أو خيف انقطاع هذا الخيط الضعيف الذى يشد الأرض إلى السماء .

قال عمار لآبيه : لله حرة انكشفت عنك - يا أبى - ! لأننى لأشرب كلامك

هذا كما أشرب الرحيق ، فينشر في نشوة أسأل شارب الخمر عن ديبها ، يخيل لي - يا أبه - بعد الذي سمعت أنك لست إنسانا ، وإنما أنت ملك يفرس في ريشا من أجنحته ، بقيت عندي مسألة لا أحب أن يفوتني عليها .

قال ياسر لابنه : قل وخلاك ذم إن يكن عندي خير فهو لك .

قال عمار : يا أبتى رأيتك تعظم من بنى هاشم ما لا تعظم من بنى مخزوم ، وقد أعلم أن بنى هاشم أرفع مكانة ، وأعز نفرا ، ولكن مخزوما حلفاؤك ، وذووا الفضل عندك ، أليس من الوفاء لهم أن تحبس عليهم ميلك .

فقال له أبوه : وصلتك رحم يا بنى . أنا إنما أعظم الحق بمعزل عن هاشم ومخزوم ، ولو حدثتك بحديث القلب والعاطفة لكنت جديراً بالميل إلى أحلافى كما زعمت ، ولكنى أعلم أن ميل العصبي ككل ميل عصبي ، لا يغنى عن الحق شيئاً ، ولا يغير منه شيئاً ، وقد رأيت بعينى رأسى وعينى يقينى - وهن أربع - أن الفرق بين هاشم وبين عامة قريش ، وأفضلهم مخزوم ، كالفرق بين إله هاشم وبين آلهة قريش . أولئك أرواح برة نشيطة عاملة مدركة ، وهؤلاء تماثيل جامدة ثقيلة بغیضة ، فإذا تحركت لم تأت بخير .

خذ الحق - يا بنى - حتى من نفسك ، فو رب عبد المطلب لو فارقتنى أنت فيه لفارقتك ، ولما كان أعظم برى بك وحبى إياك أن أدخلك عليه ، أو أدخله عليك ما استطعت ، فإن لم أستطع كان أعظم حبى إياك وبرى بك أن أرتى لحالك من بعيد . هذا قياس وفائى لمخزوم : أهبا قلبى وأمنع عنها عقلى إلا فى الحق فإن خالفت الحق رجوت لها أن تعرفه ، وهذا أعظم الوفاء .

وبلغا من حوارهما هذا الحد .

قال المحدث : وكان حوارهما هذا من حديثهما الصباحى ، وكان صباح (مكة) صباحاً قرشياً مترفاً ، تحتشد فيه الأندية ، ويطيب فيه الحديث ، وكان ياسر يتخلف عن نادى بنى مخزوم أحياناً ليجلس إلى ابنته يجاذبه كلاماً هو أشبه بالدرس منه بالعبث والمفاخرة اللذين تصرف بهما قريش السأم عن الوقت ، وكان لياسر

من ملاحظته وعقله وتجربته وحكمته اليمانية ما يؤهله أن يقع من ابنه موقع المعلم من التلميذ .

قال المحدث : وقطع عليهما حوارهما ذلك الصباح هتاف هبط عليهما من (أبي قيس) كما هبط على غيرهما ، وعلى غير بينهما ، من متحدث (مكة) وأنديتها ، وقطع من الأحاديث كلها ما قطع من حوارهما ذاك ، وأنصتا فإذا الهتاف هبط من (أبي قيس) نقياً صافياً حاراً مشهوراً يبعث الروح والروعة جميعاً ، وتابعاه بكل حسهما ، وبما افشعر من بدنيهما ، فإذا هو يردد هذه الآيات في نقاء وصفاء وحرارة وإثارة :

يا للرجال لمظلوم بضاعته يبطن مكة فائق الحى والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا أهل (نهر) وبين الحجر والحجر
هل منصف من بنى (سهم) فرتجع ما غيىوا ؟ أم ضلال مال معتمر

قال عمار : أرايت - يا أبى - إلى ما حدثتك عنه من سفه هؤلاء ؟ لقد بلغت الشكوى منهم رؤوس الجبال :

فقال ياسر : ما شككت - يا بنى - أن طفولتك تنفتح عن شباب رشيد ، ولكن احفظ عنى ما أمرتك به فى صدر حديثي آنفاً ، وانقض الآن فاقتص لنا أثر هذا الخبر ، ما خطب هذا الهاتف يصاحج (مكة) بهذه الشكوى المرة ؟ وما عسى (مكة) أن ترد على هذا المظلوم من مظلمته الصارخة ؟

ولما عاد ياسر قال لأبيه : لم يخطئ عليك بنى هاشم من صلاحهم شيئاً ، كان الهاتف رجلاً من (زيد) أقبل إلى الحاضرة ببضاعة ثمينة ابتاعها منه أبو عمرو العاص بن وائل السهمي ، فسأواها إلى بيته ولما يدفع ثمنها لأخى زيد ، ثم غيَّب وجهه ، ويطلبه الزبيدي فيعجزه الطلب ، ويبتغي متاعه فيمتنع عليه المتاع ، ويلتمس بنى سهم يشكو إليهم أخاهم فلا يجد وجوهاً ، بل يجد أقفية ، ويبل في طلب حقه بلا حسناً ، فيطوف على أندية قريش من ظهراء (سهم) فلا يجد غير اعتصاب على الاغتصاب ، وغير عمالة على الغزو المجرم ، وغير عفو من الجميع عن العاص

يشترى منه عفواً عن مثلها بأنها حرب بن أمية ، وأبي بن خلف وغيرهما من 'فتاك مكة وعصابتها . وانتهى آخر الأمر إلى (أبي قبيس) يشكو أمره إلى قريش مجتمعة ، بعد أن شكاً إلى أكثرها متفرقة ، راجياً أن يكون لشكواه المعلنة شأن وتأثير ، ويرسله - كما سمعنا - صوتاً يهوى من العلياء كما ينزل الصوت من السماء .

قال عمار متابعاً : ولقد جهدت أن أحس وقع هذا الصوت العادل ، وأرى إلى أثره المرجو في هذا الحرم من وطن السلام ، فلم أجِد غير فقر يبسط ظله الصحراوي على كل مكان إلا واحة تنشر فتمتزللنداء اهتزاز نجدة وأريحية وإيمان . قال ياسر : لعلك انقلبت غن نادى الزبير بن عبد المطلب ؟

فقال عمار : ما أعلمك بهؤلاء النفرياً أبته ؟ وقد تركته يتحرك في اتجاه حلف يضع حداً لهذه المازل ، لكأنك تنظر إليه بما حدثتني عن رجل الانقلاب وصاحب الساعة .

قال ياسر : ما ظننته هو بالذات ، وما أظنه صاحب الساعة التي أغنى ، وإن كان لمن معداتها وأسبابها . ومالك تعجل ولكن أجل كتاب ؟

قال المحدث : وولع الصبي بعد ذلك ولوعه الهائم بالعدل ، وأولمه العدل بالهاشميين ذلك الولوع الهائم أيضاً . وكان بكرهاته ماته اهتمامه بنتائج صفقه الزبيدي . غدا على أبيه مرة عادياً ، وقص عليه قبل أن يلفظ أنفاسه النبأ التالي :

أثمر مسعى الزبير بن عبد المطلب ، فاجتمع له مؤتمر عقده في دار عبد الله ابن جعدان التيمي ، وألفه من بني هاشم وبني أسد وبني زهرة وبني تيم ، وحضر معهم تربي (الصادق الأمين) فتباحثوا بكشفهم ، وتحالفوا ليكون مع المظلوم حتى يردوا له حقه ، ما بَلَّ بحر صوفة ، فلا يظلم بمكة غريب ولا قريب ، ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يردوا له مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم ، وتحالفوا على التأسي في المعاش ، والتسامح بالمال أيضاً . وقد أسمى الزبير حزبه هذا (حلف الفضول) . وكانت أولى ثمراته انقاذ حق الزبيدي من فرعون بني سهم .

وأقبل على أبيه ذات يوم بقص عليه : دخل السوق تاجر من بني بارق فباع

بضاعته من أبي بن خلف الجمحي ، وهو - كما تعلم - مطول سيء المخالطة ، فاضطر البارقي لرفع أمره إلى حلف الفضول ، ويقول له الزبير : أخبر أئيباً أنك أبلغتنا شكواك ثم عد إلينا إذا لم يخرج إليك حقلك . فأناه فأخبره فأخرج إليه حقه .

وقص عليه مرة فقال : قدم خنعمي إلى مكة تاجراً ، ومعه بنت اسمها (الفتول) وهي أوصاً فتاة ، وأصبح نساء العالمين ، ويراها نبيه بن الحجاج السهمي فيري منها ما يبهره ، ويُطير نفسه حولها فيؤالي أن يطبق عليها وينزعها من يد أبيها . ويقتحم عليها وجه أبيها وصدرة ، ثم يتركها بعدها خزبان أسفاً ، يقلاب في أثرها طرف خاسر حائر خائر ، ويقال له - وهو سادر - : عليك بحلف الفضول ، وكأنما أدركه الفرج ، فينشط ويعود من حلف الفضول ومعه رسل الزبير إلى نبيه يأمرونه بإخراج الفتاة إلى أبيها ، فيناشدهم نبيه أن يمتعوه بها سواد ليلة ، فيقولون له : قبحك الله ما أجهلك ! والله ولا شخب لقحة . أخرجها وإلا . فيخرجها صاغراً ، وتخرج مكرّمة .

ويقول ياسر لابنه : كان عبد المطلب قبل (الفضول) وكانت رسله تحل هذه المشكلات ، أغرى حرب بن أمية أحد رجاله باغتيال ثري مستضعف ، واغتيل المسكين فاحتاز حرب تركته ، ورفعت القضية إلى عبد المطلب ، فأعاد سيد قريش التركة إلى الورثة ، وغرم حرباً دية القتل مائة ناقة .

ثم تمر الأيام آخذاً بعضها برقاب بعض ، وعمار يغدو على أبيه من أطرافها ويمسى بخبر من هذه الأخبار ، وبفسكرة من هذه الفسكرة ، لا يمل هو ، ولا يمل أبوه ، ولعل أباه أعرف منه بهذه الأخبار وهذه الأفكار ، ولكنه يصغى إليه لإصغاء المشجع ، ويعلق على أخباره تعليق المربي ، وكان بعد كل إصغاء ، وبعد كل تعليق يأمره بالتحفظ ، ويوصيه أن يحفظ ما يأمره به ، وكان الصبي يختم كل قصة وكل فكرة بقوله : لله أبوك يا أبتى . لم يخطئ عليك بنى هاشم من صلاحهم شيئاً ؟

من بحوث مجمع اللغة العربية^(١)

مَعْنَى الْفَاطِ الْفَرَانِ الْكَرِيمِ

- ١٣ -

ر ض و

رضى يرضى رضا ورضوانا ومرضاة فهو راض ورضى ورض : ضد سخط . رضى

ولهذا الفعل في القرآن استعمالات عدة بحسب تعديه :

١ — فتارة يأتي بدون مفعول أو جار ومجرور . وهذا الاستعمال يأتي على ضربين :

(أ) ضرب يكون فيه الفعل أو ما اشتق منه للدلالة على قيام حالة الرضا في نفس فاعله بدون إرادة المفعول ، مثل : « فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » ٥٨ / التوبة . « قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى » ٨٤ / طه . « ومن آتاه الليل فسيح وأطراف النهار لعلك ترضى » ١٣٠ / طه . « ولسوف يعطيك ربك فترضى » ٥ / الضحى . « وجوه يومئذ ناعمة لسمعيها راضية » ٩ / الغاشية . « ارجعنى إلى ربك راضية » ٢٨ / الفجر .

(ب) وضرب يكون فيه المفعول محذوفا ولكن على نية الذكر ، مثل : « فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء » ٢٨٢ / البقرة . أى ممن ترضونه .

(١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد رئيس المجمع .

« إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » ، ٢٦ / النجم . أى ويرضاه ، وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ، ١٠٨ / النساء .

٢ — وتارة يأتي متعدياً بنفسه مثل « ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، ٣ / المائدة ومعناه : اخترت ، « وأن أعمل صالحاً ترضاه » ، ١٩ / النمل ، ١٥ / الأحقاف ، وكذلك في ١٤٤ / البقرة ، ٢٤ / التوبة ، ٧ / الزمر ، ٥٩ / الحج ، ١١٣ / الأنعام .

٣ — وتارة يتعدى بالياء مثل : « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » ، ٣٨ / النساء ، « أنسكم رضيتم بالعود أول مرة » ، ٨٣ / التوبة ، ٨٧ / التوبة ، ٩٣ / التوبة ، ٧ / يونس ، ٥١ / الأحزاب .

٤ — وتارة يتعدى يعن مثل « رضى الله عنهم ورضوا عنه » ، ١١٩ / المائدة ، « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى » ، ١٢٠ / البقرة ، وكذلك ١٠٠ / التوبة ، ١٠٩ / طه ، ١٨ / الفتح ، ٢٢ / المجادلة ، ٨ / البينة ، ٩٦ / التوبة .

وقد ورد اسم الفاعل منه على حقيقته في « لسعها راضية » ، ٩ / الغاشية ، « ارجعى إلى ربك راضية مرضية » ، ٢٨ / الفجر .

أو بمعنى اسم المفعول مثل « فهو في عيشه راضية » ، ٧ / القارعة ، ٢١ / الحاقة ، أى : مرضية أو ذات رضا .

وقد وردت منه الصفة المشبهة في موضع واحد وهو : « واجعله رب رضا » ، ٦ / مريم ، أى : مرضياً أو كثير الرضا .

وقد ورد اسم المفعول في « وكان عند ربه مرضياً » ، ٥٥ / مريم « ارجعى إلى ربك راضية مرضية » ، ٢٨ / الفجر .

وقد ورد المصدر على صيغة رضوان في ثلاثة عشر موضعاً منها « وأزواج مطهرة ورضوان من الله » ، ١٥ / آل عمران ، « ذلك بأنهم اتبعوا ما أخطأه الله وكرهوا رضوانه » ، ٢٨ / محمد ، وكذلك في ١٦٢ ، ١٧٤ ، آل عمران ، ٢١ ، ٧٢ ، ١٠٩ / التوبة . ٢٠ ، ٢٧ / الحديد ، ٢ / المائدة ، ٢٩ / الفتح ، ٨ / الحشر ١٦ / المائدة .

وقد ورد المصدر أيضاً على صيغة « مرضاة » في أربعة مواضع في « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ، ٢٠٧ / البقرة . وكذلك في ٢٦٥ / البقرة ، ١١٤ / النساء ، ١ / التحريم ، ١ / الممتحنة .

أرضاه : جعله يرضى ، ومنه : « يحلفون لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه ، ٦٢ / التوبة ، ٨ / التوبة .

تراضى يتراضى تراضياً : اتفق مع آخر على شيء يرضى كلا منهما ، ومنه : تراضى فلا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، ٢٤ / النساء ، ٢٣٢ / البقرة ، « إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » ٢٩ / النساء ، ٢٣٣ / البقرة .

ارتضى الشيء يرتضيه ارتضاء : رضيه ، ومنه : « وليسكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، ٥٥ / النور ، وكذلك في ٢٨ / الأنبياء ، ٢٧ / الجن .

ر ط ب

رَطَبَ ورَطَبَ يرطب ويرطَّب رُطوبة ورَطابة : ندى ورخص ضد يبس ، فهو رَطَبٌ ، ومنه في موضع واحد : « ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » ٥٩ / الأنعام .

والرطب : نضيج البُسْرِ قبل أن يتِمَّ أو هو البسر إذا انضج فلانَ وحَلا اسم جمع واحدته رطبة ، وابس هو جمع تكسير لها ، وعلامة جمعها فعل الذي له واحد على فعلة ، أى لا يستعمل إلا مؤنثا ، نص على ذلك سيوييه ، فرطب عندهم اسم جنس اقولهم : هذا رطب وأكلت رطباً طيباً .

وجمع الرطب : أرطاب ورطاب ورطب الرطب ورطب وأرطب : حان أو ان رطبه .

وقد ورد الرطب في موضع واحد : « وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، ٢٥ / مريم .

ر ع ب

رعب رعب رعباً ورعباً : انقطع من امتلاء قلبه بالخوف . لازم : فهو رعب ورعب ، وأصل الرعب من رعب الحوض إذا امتلأ بالماء ، ورعب السيل الوادى ملأه لازم ومتعد .
رعبه رعبه رعباً ورعباً : أفزعه متعد .
ورعبه رعباً وترعباً فرعب رعباً .

وقد ورد منه المصدر في خمسة مواضع : سنلق في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ، ١٥١ / آل عمران ، ولو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملت منهم رعباً ، ١٨ / الكهف ، وكذلك في ١٢ / الأنفال ، ٢٦ / الأحزاب ، ٢ / الحشر .

ر ع د

رعدت السماء ترعد وترعد رعداً ورعوداً ، وأرعدت : صوتها للأمطار ، وقد كشف العلم الحديث بالكهرباء عن السر في هذا الصوت .
وأرعد فلان فارعد وترعد : أصابته الرعدة وانتفض جسمه ، وكان رعد السماء مأخوذاً من هذا ، لأنها إذا أرعدت رجفت لها النواحي والقلوب .
وقد ورد الرعد في موضعين من القرآن : د أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، ١٩ / البقرة ، د ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ١٣ / الرعد .

ر ع ي

(١) رعى الشيء رعاه رعيًا ورعاية : حفظه وحاطه .
ورعى النجوم رعيًا : راقبها ومنه د فسا رعوها حق رعايتها ، ٢٧ / الحديد : أى فسا حفظوها وحاطوها حق حفظها وحياطتها ، د والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون ، ٨ / المؤمنون و ٣٢ / المعارج : أى حافظون .

مرعى (ب) ورعت الماشية ترعى رعىا : أكلت الرعى وهو الكلاء ، والمرعى : الرعى ومنه ، والذي أخرج المرعى ، ٤ / الأعلى . د أخرج منها ماءها ومرعاهها ، ٣١ / النازعات .

(ج) ورعى الراعى الماشية رعىا ورعاية : سامها وسرحها وراقبها وحاطها وحفظها ومنه ، كلوا وارعوا أنعامكم ، ٥٤ / طه .
وجمع الراعى رعاة ورعيان ورعاء .

ورعاء ومنه ، لا نسقي حتى يصدر الرعاء ، ٢٣ / القصص .
راعى الشيء يراعيه مراعاة ورعاء : حفظه وترقبه وناظره وراقبه وتأمل فعله وناظر الام يصير ولاحظه ونظر إليه ، ومن الأخير ، لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا ، ١٠٤ / البقرة ، ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم ، ٤٦ / النساء .

وقد ذكر في تفسير راعنا ، والنهى عن خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام بها أن اليهود كانوا يقولونها له ويريدون بها معنى قبيحا فى العبرية يوافق لفظه لفظها العربى ومعنى اللفظ بالعبرى (اسمع - لا سمعت) .

وقيل أرادوا به لفظا عربيا هو منادى من الرعونة ، وكأنهم كانوا يقولون يا راعن . وزيدت الألف لمد الصوت .

وقد ذكر الفراء أن أصل المنادى أن يكون بين صوتين فيأخذ أصله يا زيدا ثم اكتفى بيا ونوى الألف .

ر غ ب

ورغب (أ) رغب الشيء يرغب ورغبا ورغبة : اتسع ، ورجل رغب الجوف وحوض رغب : واسع الجوف والرغاب الأرض اللينة التى تأخذ الماء الكثير . فأصل الرغب السعة فى الشيء .

(ب) ورغب فى الشيء وإليه ورغبه يرغب ورغبا ورغبة ورغبي :

اتسعت إرادته إياه وحرص عليه ومنه « وترغبون أن تنكحوهن ، ١٢٧ / النساء .
« وإلى ربك فارغب ، ٨ / الشرح : أى فاضرع واحرص بالسؤال . « إنا إلى الله
راغبون ، ٥٩ / التوبة ، « إنا إلى ربنا راغبون ، ٣٢ / القلم ، أى ضارعون راجون
العفو طالبون الخير ، وإلى لانتهااء الرغبة أو لتضمن الفعل معنى الرجوع « لأنهم
كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ، ٩٠ / الانبياء : أى رجاء وخوفا .

(ج) ورغب عن الشيء : زهد فيه وصرف رغبته عنه وترفع عنه ومنه
« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ١٣٠ / البقرة . قال أراغب
أنت عن آلهتى يا إبراهيم ، ٤٦ / مريم .

(د) ورغب بنفسه عن الشيء : صانها عنه وصرفها ، وكرهه لها وترفع عنه
ومنه « ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ١٢٠ / التوبة : أى لا يصرفوها عن موارد
نفسه الكريمة ولا يصونها عما لم يصن نفسه عنه .

ر غ د

رغد العيش يرغد رغادة ، ورغد يرغد رغدا : اتسع ولان وطاب فهو رغد
رغد ورغيد .

ومنه « وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ٣٥ / البقرة ، « فكلوا منها حيث
شئتم رغدا ، ٥٨ / البقرة ، « يأتينا رزقا رغدا ، ١١٢ / النحل .

ر غ م

رغم الشيء يرغمه ورغمه يرغمه رغما : كرهه .

والرغم : التراب والذل والقي .

ورغم أنفه : لصق بالرغم : أى التراب .

وأرغمه : ألصق أنفه بالرغام وأسخطه وأذله .

وراعم الناس : نابذهم وهجرهم وغاضبهم وسخطهم ، والمراغم : المذهب مراغم

والهرب ومنه ، ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ،
١٠٠ / النساء : أى متحولاً ومهاجراً ومتزحزحاً عما يكره ومتسعاً عما يكون
فيه من ضيق المضامين والكافرين ، وقيل : طريقاً يراغم بسلوكه قومه أى يفارقهم
على رغبتهم ، أو متسعاً يصل فيه المهاجر إلى ما يكون سبباً لرغم أنف قومه
الذين هجرهم .

ر ف ت

رفات

رفت الشيء يرفته رفناً : فنته ودقه .

والرفات : الحطام من كل شيء .

ورفت العظم يرفت رفناً : صار رفاناً ، ومنه ، قالوا أنذا كنا عظاماً ورفاناً
أئنا لمبعوثون خلفاً جديداً ، ٤٩ / الإسراء ، ٩٨ / الإسراء .

ر ف ث

رفت

رفت يرفت رفناً ورفت رفناً وأرفت : أخش في القول وأفصح بما
يكنى عنه ، أو أخش في شأن النساء خاصة من الجماع والمغازلة والتقييل .

وقد ورد في موضعين : د أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ،
١٨٧ / البقرة ، والمراد به هنا الجماع . د فن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق
ولا جدال في الحج ، ١٩٧ / البقرة ، يحتمل هنا القول والجماع .
وعدى في الآية الأولى بإلى لتضمنه معنى الإفضاء .

ر ف د

رفده يرفده رفداً وأرفدى : أعطاه وأعانه من رفق الحائط دعمه ، والرفد
اسم منه ، وهو العطية والصلة والعون ومنه :

د واتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بثس الرفد المرفود ، ٩٩ / هود :

أى بشى العون الممان والنصوص بالذم محذوف ، أى رقدتم ، والمراد به اللعنة وتسميتها عوناً من باب التهكم ، وأما كونها معاناً فلأنها أرفدت فى الآخرة بلعنة أخرى .

مرفود وأسند اسم المفعول إلى الرقد على الإسناد المجازى نحو جد جده وجنون مجنون

ر ف ف

رف الشجر يرف رفاً ورفيقاً : انتشرت أغصانه .

ورف الطير نشر جناحيه ، ورف فرخه يرفه إذا نشر جناحيه متفقداً له

ورف النبات : نعم وحسن . ورف : ارتفع .

ررفرف : اسم جنس أو اسم جمع واحد رفرقة ، ومنه : « متكئين على رفررف خضر ، ٧٦ / الرحمن ، وفسرت بالانسجة الخضرة التى تتخذ منها المحابس التى تطرح على ظهر الفراش للنوم عليه ، وقيل هى البسط ، وقيل هى الوسائد ، وقيل هى الفرش المرتفعة ، وقيل ما تدلى من الأسرة من غالى الثياب ، وقيل ضرب من الثياب مشبهة بالرياض ، وقيل هى رياض الجنة ، من رف النبات إذا نعم وحسن .

ويقال الرفررف لكل ثوب عريض ، وللريق من ثياب الديباج ، ولأطراف الفسطاط والخباء الواقعة على الأرض .



قال شيخى و لكن قال شيخى

اضطررنا إلى تأجيل بعض المواد الهامة ، وفى مقدمتها « قال شيخى ، و لكن قال شيخى ، وإنهما لدينا ولدى قرائنا لمن الطراز الأول فى الأدب القائم على العلم والفكرة ، وإلى اللقاء فى العدد المقبل إن شاء الله .

أَسَاءُ وَآرَاءُ

استعداد العقلية الألمانية لتقبل الإسلام :

موضوع له أهميته الكبرى في العالم الإسلامي ، وله صلته الوثيقة بشعب عظيم من شعوب العالم الغربي ؛ تحدث فيه إلى مجلة « الدعوة » الغراء فضيلة العلامة الحليل الأستاذ الشيخ محمد تقي القمي ؛ السكرتير العام لجامعة التقريب ، وقد نشرت « الدعوة » هذا الحديث في عددها الأخير .

و (رسالة الإسلام) ترى حقاً عليها أن تسجل هذا الحديث لما تضمنه من الآراء السديدة ، والنظرات الموفقة ، ولكنها تعتذر في الوقت نفسه عن نشر ما قدمت به « الدعوة » الغراء لهذا الحديث ، التزاماً لما أخذت به نفسها من عدم نشر ما يزجي إلى أحد أفراد أسرتها من ثناء .
وهذا هو الحديث :

الدعوة الإسلامية في أوروبا :

س : هل وجدتم في المجتمع الألماني استعداداً لقبول الفكرة الإسلامية ؟
وهل هناك دعوة منظمة للتبشير بالإسلام ؟ .

ج : في أعقاب أي حرب من الحروب تظهر عادة في الشعوب المتحاربة نزعات تدفع الناس إلى طرح الأفكار القديمة ، وتبيسهم لتقبل بعض أفكار جديدة ولعل هذا هو سبب ظهور تيارات فكرية مختلفة في العقلية الألمانية لم يكن لها وجود من قبل ... فألمانيا الآن قسمان : القسم الشرقي وتهيمن عليه روسيا ، والقسم الغربي ويحتله الحلفاء الآن احتلالاً خفيفاً ويهدده الغزو الروسي مستقبلاً ، وهذا القسم الغربي هو الذي زرته أخيراً وقد لاحظت أن القلق يسود جوه ...

والقلق يدفع الناس إلى الرجوع إلى الله والالتجاء إليه ، ويخلق فيهم استعداداً لتقبل كثير من الموجات الروحية ، وهذه فرصة ذهبية ثمينة لعرض الفكرة الإسلامية التي تعيد إلى النفوس البشرية الثقة والاطمئنان ... وألمانيا أنسب مكان تسير فيه الفكرة الإسلامية بنجاح نظراً لما بين أهلها وبين اليهود من جفوة تفوت على هؤلاء — أي اليهود — فرصة وضع العراقيل في طريق أية فكرة صالحة .

ثم إن البساطة الموجودة في الاسلام تناسب تماماً العقليّة الألمانية، وفلسفة الإسلام تناسب روح الألمان ، كما إن آدابهم متأثرة بكثير من آراء الشرق .

فالجو مناسب والنفوس مستعدة ، ولكن - للأسف - لم تقم أية هيئة إسلامية بواجبها نحو التعريف بالاسلام - وهو أقل الواجبات - حتى يمكن محو الأراجيف المنتشرة عن الاسلام ، والقضاء على كل فكرة سيئة عنه تعلق بأذهان الألمان وغيرهم من الشعوب الأوروبية .

وهناك نفر أسدلوا بفضل جهود بعض المسلمين الشخصية ، ونود أن نعين هذا نفر على حمل عبء الدعوة الإسلامية ونشرها بين أبناء وطنهم .

وأنا شخصياً ، في اتصالاتي هناك لاحظت استعداد الألمان لتقبل الفكرة الإسلامية الصحيحة ، مما جعلني استبشر خيراً ... غير أنني أقرر أن المجتمع الألماني ليس فيه أي دعوة منظمة للتعريف بالاسلام .

وسائل النجاح :

س : كيف تتجه الدعاية للإسلام بين الألمان ؟

ج : ضمان النجاح أن تكون الدعاية مناسبة لعصرهم وبيئتهم ومنظفهم ، لأن أسلوباً يناسب أقصى بلاد آسيا لا يناسب مطلقاً أرقى البلاد الأوروبية . ومن الواجب أن ندرس تفكيرهم . وتعرف الأساليب المؤثرة فيهم ونزود بها الدعاة قبل أن نوجههم إلى تلك البلاد .

مسجد باريس :

س : سمعنا أنكم لم ترتاحوا للوضع الذي عليه مسجد باريس ، فما السبب ؟

ج : هذا صحيح ... لأن المسجد في الاسلام مهمته تبليغ الدعوة ، فإذا أصبح متحفاً كالمتحف ، يزوره الزائر فلا يسمع من رائده سوى وصفه لسجاده الكاشاني ، وهندسته العربية ، وصناعة منبره ، وطلاء جدره . ثم لا يسمع شيئاً عن العقيدة الاسلامية فإنه لا يؤدي رسالته . لقد زرت هذا المسجد في رحلتي الأخيرة مرتين ، وفي كل مرة كنت أجد جمعاً من السياح من مختلف بلاد العالم ، وكلهم يحب الاستطلاع . وكان رائدنا - وهو من خدم المسجد ويلبس طربوشا - يسرد على مسامعنا ما ذكرت ، ثم يختم كلامه بهذه الجملة العجيبة : « وهذا المكان تقام فيه صلوات المحمدين » .

وظننت في المرة الأولى أن المصادفة وحدها أجرت على لسانه ذلك الحديث ، ولكنني في الزورة الثانية سمعت منه نفس الكلام ونفس الخاتمة ، فاعترضت عليه باللغة العربية فألفيته لا يعرفها ، فخطبته بالفرنسية وأفهمته أن واجبه التحدث إلى هؤلاء السياح عن بعض نواحي الاسلام ، أو على الأقل إعطاؤهم فكرة عن الصلاة التي ذكر أنها تقام فيه .

هذا ما جعلني ألفت نظر القائمين على أمر المسجد إلى أنه ليس متحفاً ، وإنما هو مركز رسالة يتحتم أدائها ، ولكنني لم أجد فيهم سمياً فصممت على للعمل من جانبي لإكمال هذا النقص بأية طريقة .

وبهذه المناسبة أذكر أن الجالية الاسلامية في هيمبورج بألمانيا أعدت مشروعا لبناء مسجد فيها يتكلف مئات الألوف ، وراجموني في هذا الأمر فنصحتهم بوجوب الاهتمام بإقامة مسجد ينشر الدعوة الاسلامية ويعرف بالاسلام هناك لا أن يكون مبنى شكلياً لارواح فيه . وقد أيد رأيي هذا ما رأيته من تقصير في مسجد باريس ، ونرجو أن يكون في اتصالنا بهم ما يساعد على تحقيق هذا الأمل .

س : هل تقومون بنشاط في ألمانيا بعد ما كونتم رأياً عن المجتمع هناك ؟ .

ج : لقد بدأت اتصالاتي بخصوص هذا الأمر إثر رجوعي من السفر ،

وآمل أن يحالفنا النجاح ، وأرجو إعفائي من شرح خططنا الآن ، فهي ما تزال اقتراحات لم يبت بعد في شأنها .

* * *

تلخيص البياض في مجازات القرآن :

نقرأ في كتب التاريخ والتراجم أسماء مؤلفات في موضوعات شتى لمصاهير العلماء والأدباء القدامى . ومن المعروف أن قسماً كبيراً من هذه المؤلفات قد أبادته الحوادث ، وحالت بيننا وبين أروع ما أنتجه الفكر العربي في عصر التمدن الإسلامي .

وكان يظن أن من جملة ما فُقد كتاب تلخيص البيان في مجازات القرآن ، للشریف الرضی (١) ولكن تبين أخيراً أن إحدى المكتبات القديمة في إيران تحتفظ بنسخة منه ، ويرجع تاريخها إلى القرن الخامس الهجري ، ومن حسن الحظ أن تقع هذه النسخة في يد السيد الجليل محمد المشكوة ، فسعى جاهداً لنشر الكتاب ، فطبع ألف نسخة بالصورة الفوتوغرافية ، فجاءت النسخ كما هي في الأصل ، واشترط الناشر أن توزع النسخ مجاناً على من يستحقها ، ورجا من تصل إلى يده نسخة ، وأراد بيعها أن يدفع ثمنها لمن لا يكون كذاباً ، ولا تاركاً للصلاة .

إن قارئ هذا الكتاب ليزداد اعتقاداً بمرونة اللغة العربية ، ومطاوعتها في قلب الأساليب وتعدد أنواعها ، وما يتفرع على مفرداتها ، وأنها تكافئ حياة أهلها مهما كثرت أغراض هذه الحياة . إن ألفاظ كل لغة محدودة . أما المعاني فهي كالحياة لا تكاد تنتهي ، ولكن اللغة الحية تنمو وتسير مع التطور . وتشايع كل جديد ، وكتاب مجازات القرآن يقيم الدليل على أن اللغة العربية لغة نامية بما فيها من ثروة الأوضاع ، وروائع الأسرار . ونقل طرفاً يسيراً من الكتاب إلى القراء ليعرفهم عن نفسه بنفسه .

(١) هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم ابن الإمام موسى الكاظم عليه السلام ؛ أخو الشريف المرتضى - توفي سنة ٤٠٦ هـ .

قال المؤلف في تفسير الآية ١٩ / الجن : وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ، : اللب هنا كناية عن الجماعات المتسكثرة التي تظاهرت على النبي صلى الله عليه وسلم ، واجتمعوا عليه متألبين ، فكانوا عليه كلبد الشعر ، وهي طرائقه وقطعه التي يركب بعضها بعضاً ، واحدتها لبدة ، ومنه قيل لبدة الأسد ، وهي الشعر المتراكم على منكبيه ، وهذا أبلغ ما شئت به الجوع المتعاضدة ، والاحزاب المتألفة .

وقال في تفسير الآية ٤٣ / الرعد : أولم يروا أنا أنأت الأرض تنقصها من أطرافها ، : المراد بنقص الأرض موت كرامها ، وتكون الأطراف هنا جمع طرف بكسر الطاء ، لا طرف بالفتح ، والطرف هو الشيء الكريم ، ومنه سمي الفرس طرفاً إذا كان كريماً .

وقال في تفسير الآية ٤٨ / سبأ : قل جاء الحق ، وما يبدىء الباطل وما يعيد ، : الإبداء والإعادة يكونان في القول وفي الفعل ، أما في الفعل فقوله سبحانه : وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وأما في القول فقولهم سكنت فلان فلم يبد ولم يعد ، والإبداء الحال الأولى ، والإعادة الحال الأخرى ، وهاتان الصفتان لا يوصف بهما الباطل إلا على طريق الاتساع ، والمراد أن الحق قوى وظاهر ، والباطل ضئف واستتر ، ولم يبق له بقية يقوى بها .

وقال عند تفسير الآية ٧٦ / الكهف : فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض ، : إن الإرادة على حقيقتها لا تصح على الجساد ، والمعنى يكاد أن ينقض ، لأنه لما ظهرت فيه أمارات الانقضاء من ميل بعد انتصاب ، واضطراب بعد ثبات ، حسن أن يطلق عليه إرادة الوقوع على طريقة الاتساع ، وبأق في كلامهم كاد بمعنى أراد ، وأراد بمعنى كاد ، وجاء في القرآن : كذلك كدنا ليويسف ، أى أردنا ليويسف ، وقوله سبحانه : إن الساعة آتية أكاد أخفيها ، : معناه على أحد الأقوال أريد أخفيها .

وقال عند تفسير الآية ١٠٧ / الإسراء : وقرآنا فترآناه لتقرأه على الناس ، :

معنى فرقناه بيناه للناس بنصوح مصباحه ، وشدوخ أوضاحه حتى صار كفرق الرأس في وضوح مخطه ، أو كفرق الصبح في بيان منبلجه .

وقال عند تفسير الآية ٤٤ / يوسف د قالوا أضغاث أحلام ، : هذه أبلغ استعارة ، وأحسن عبارة ، لأن أحد الأضغاث ضغث ، وهو الخليط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض ، فشبه سبحانه اختلاط الأحلام باختلاط الحشيش المجموع من أصناف كثيرة .

وقال عند تفسير الآية ٦ / المزمل د إن ناشئة الليل هي أشد وطأ ، : المراد ناشئة الليل ما ينشأ فعله أى يبتدأ به من عمل الليل ، ومعنى أشد وطأ في قول بعضهم : أشد مواطأة ، وهو مصدر يقال واطأه مواطأة ووطأه أى يوطئ فيها السمع القلب ، واللسانُ العمل ، لفلة الشواغل العارضة ، واللاوافت الصارفة ، ولأن البال فيه أجمع ، والقلب أفرغ .

نكتفي بهذا المقدار ، وفيه الدلالة الوافية على أن في لغة القرآن العظيم أسراراً جمّة كآسرار الطبيعة لا يحصيها العد ، ولو قيض الله سبحانه لها أذهاناً ناقية ، وقرائح نافذة كما هيأ للطبيعة عقولاً نيرة لتغير فهم اللغة العربية ، كما تغير فهم السكون ، لو أتاح لهذه اللغة من يكشف عن كنوزها ودقائقها لظهر للأجيال أن لغة القرآن من أغنى اللغات وأغزرها مادة ، وأنها لا تضيق عن معنى الحضارة وأشياها ، وإن بلغت أرقى أحوالها ، وأعلى درجاتها ؟

محمد هادي صفينة

أمة واحدة :

هذا هو عنوان مقال جيد كتبه الأستاذ العلامة الشيخ عبد الله القلقيلي ، وهو من علماء السنة الأعلام في مجلة (العرفان) الغراء ، بين فيه أن الخلاف أمر يكاد يسكون طبيعياً ، وأنه لا ينبغي أن يفضى بالمسلمين إلى أن يكونوا طرائق قددا لأن العبرة بالأصول الدينية وهي متفق عليها ، وكان مما ختم به هذا المقال قوله :
د أهل السنة إنما هم شيعة في إجلال أهل البيت وتعظيمهم ومعرفة حقهم ،

وهم في صلاتهم يصلون عليهم ، وعلى منابرهم يسألون الرضا عنهم ، وينعتونهم بأفضل النعوت .

والشيعة سنة في الأخذ بما صح عندهم عن الرسول قولاً وفعلًا وعملًا ، وهم في صلاتهم وزكاتهم وصومهم وحجهم يحرون على ما رأوا أنه سنة .

ومساجد الفريقين واحدة ، لا يرى أحدهم أن الصلاة في مسجد الآخر باطلة حتى من بناء من يعد من أساطين الخلاف ... الخ .

ونحن نحبي هذا الروح - ولا نستغربه - في الأستاذ الفاضل وفي العرفان الغراء .

* * *

عالم جليل يلقى ربه :

نعت الصحف ودور الإذاعة إلى العالم الإسلامي عالماً جليلاً من أكرم علماء الإسلام ، وأعظمهم نشاطاً في خدمة الدين والعلم ، هو المرحوم المبرور العلامة الحجة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، عضو جماعة التقريب بالمراسلة ، وصاحب التأليف المشهورة ، والبحوث الجيدة التي كان لقراء رسالة الإسلام ، حظ في الاطلاع عليها .

ولقد كان للراحل الكريم صفات فضل ، ليس المقام الآن بمقتنع لتفصيلها ، ولعل من أبرز صفاته أنه كان عالماً مقداماً ، يشرع سنان قلبه في الدعوة إلى الله غير هياب ولا وجل ، و يكشف الغطاء ، عن كثير من الحقائق العلوية التي يتهيب الخوض فيها من يؤثرون السلامة وإرضاء العامة ، وربما كان هذا من أهم الأسباب التي أدت إلى نجاح مؤلفاته ، وحرص الناس من كل طائفة على قراءتها واستطلاع رأيه في موضوعاتها ، وفي مقدمة هذه المؤلفات كتابه الشير ، أصل الشيعة وأصولها ، الذي طبع مراراً ، ونشر في مختلف البلاد الإسلامية . ورسالة الإسلام تعزى الأمة في فقد هذا الخبر الجليل ، وتسأل الله تعالى أن يعوض المسلمين عن فقدته خيراً ، وأن يجزيه عن جهاده في سبيل الله جزاء المؤمنين الصادقين ، و إنا لله وإنا إليه راجعون .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

١ - نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ - ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، وألا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ - ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالنقطة هى أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يمهّدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للوادة بينهم وبين إخوانهم .

٤ - من المعروف أن سياسة الحكم والحكام ، كثيراً ما تدخلت قديماً فى الشؤون الدينية ، فافسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشيء إلا لصالح الحائزين وتثبيتاً لأقدامهم ، وأنهم سخرّوا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكم وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيلة .

وعلى الجملة ، نرجو ألا يأخذ أحد القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

- أ - العمل على جمع كل كفة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .
- ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .
- ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

٢٢٦	كلية التحرير
٢٣١	تفسير القرآن الكريم
٢٥٠	دعائم القوة في الأمم
٢٥٤	بحث عن الدولة العباسية
٢٦٥	بين الفقهاء والشعراء
٢٧٣	الإسلام والدراسات الإسلامية
٢٩٦	بر المخالفين في الإسلام
٣٠٣	عمار بن ياسر
٣١٩	معجم ألفاظ القرآن الكريم
٣٢٧	أنباء وآراء
٣٣٤	رجاء من التقريب
٣٣٥	من القانون الأساسي لجامعة التقريب

رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلة إسلامية عالمية
تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير: محمد محمد المذنب مدير الإدارة: عبد العزيز محمد عيسى
الإدارة: ١٩ شارع حشم باشا بالزمالك - القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤
قيمة الاشتراك عن سنة في البلاد العربية خمسون قرشاً مصرياً
وفي أمريكا أربعة دولارات وفي البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

مطبعة أحمد علي بخيم ١٩٣٧

سِالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار البقريّة بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة السادسة
المجلد الرابع

صفر ١٣٧٤ هـ
أكتوبر ١٩٥٤ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
”قرآن کریم“

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



آية كريمة من كتاب الله عز وجل في سورة الشورى ، ترسم المنهج الراشد الذى يجب على كل داع إلى الخير والإصلاح أن ينتهجه ، بها خاطب الله رسوله الكريم يوم كانت دعوته ناشئة يناهضها الشرك المستأصل في قبائل العرب ، والحسد الكامن في طوائف الذين أورثوا الكتاب ، فكانت الصراط السوى للسالكين ، والاسوة الحسنة للقيتفين .

تلك هي قوله تعالى : « فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، وإليه المصير . »

عشر جل في آية واحدة ، هنّ جماع الخطوة الراشدة ، لمن دعا إلى الإصلاح ، وأراد الفلاح .

فقوله تعالى : « فلذلك فادع ، الإشارة فيه للدين الواحد الذى أنزله السماء على الأرض في حقب التاريخ المختلفة ، منذ عهد الرسول الأول نوح ، إلى عهد خاتم النبيين والمرسلين محمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ذلك الدين الواحد هو الإسلام ، وما كان لله دين قط غير الإسلام « إن الدين عند الله الإسلام ، ومن يتبغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ، وما كانت التوراة إلا تفصيلاً لبعض أحكام هذا الدين يناسب وقتها ويحكم بها النبيون الذين أسلدوا للذين هادوا ، ، وما كان عيسى إلا مصداقاً لما بين يديه من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعده اسمه أحمد ، وما كانت الدعوة التى وصى بها إبراهيم

بنيه ويعقوب ، إلا دعوة الإسلام ، يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن
إلا وأنتم مسلمون ، وآيات القرآن الكريم تدل على ذلك أوضح دلالة ، ولذلك
يقول الله عز وجل فيما تشير إليه آية الشورى ، مخاطبا الرسول الأخير وأمه :
« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم
وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه . »

فالإسلام ليس هو « الوحدة » ، بين المتبعين لمحمد فحسب ، وإنما هو
« الوحدة » ، التي تجمع - وإن أنكرت - بين المتبعين حقاً لرسول الله أجمعين ،
هو كلمة الله ، تلقاها نوح ، ثم تلقاها مَنْ جاء بعده رسولا بعد رسول ، ثم تلقاها
محمد ، ثم تلقاها عنه الأئمة الراشدون ، والعلماء الصادقون ، فما كان ينبغي أن تسمى
هذه الدعوة في حقب التاريخ كلها إلا بما سماها الله به ، أي « بالإسلام » ، وما ينبغي
أن ننسبها نسبها إلى رسلها أو أقوامهم ، حيث قيل « المسيحية » أو « الموسوية » ،
أو « اليهودية » ، أو « المحمدية » - ما ينبغي أن ينسبنا هذا - أنها هي « الإسلام » ،
ثم ما ينبغي أن ينسبنا هذا تلك الأسماء الطائفية التي اتخذناها ، فنحن « المسلمون » ،
قبل أن يتسمى فريق منا « بالحنفية » ، أو « الشافعية » ، أو « الزيدية » ، أو « الإمامية » الخ .
ذلك ما تدل عليه الإشارة المقدمة المقرونة بقاء السببية في قوله تعالى :
« فلذلك فادع ، وما ينبغي أن يكون لنا - معاشر المسلمين - هدف إلا هذا الهدف
نرى إليه ، ونحث عليه ، ونقتنع به العالمين . »

ولإذا عرف الإنسان الهدف الذي يرمى إليه استراح ، وكان عليه أن يعرف
الوسائل المحققة له ليأخذ بها ، وهذه الوسائل منها ما هو إيجابى عملى يتعين على
صاحب الدعوة أن يضطلع به ويعمله غير متهاون فيه ، وهذا ما يأمر به الله عز
وجل في قوله : « واستقم كما أمرت » ، فإن أول ما يساور المدعوين إلى مبدأ
من المبادئ أن ينظروا إلى مسلك الداعين إليه ، وسيرتهم في حياتهم ، فإن رأوا
خيرا أقبلوا عليهم ، واستمعوا إليهم ، وكانوا أقرب إلى طاعتهم ، وإن كانت
الأخرى : انصرفوا عنهم ، واعتقدوا أنهم كاذبون فيما يقولون ، أو هم به متجرون .

ومنها ما هو سلبي يراد به التحصن من الباطل ، ومقاومة إغرائه بإهماله ، وذلك ما ينهى عنه الله عز وجل بقوله « ولا تتبع أهواءهم ، فالمصلح لو اتبع الأهواء متهاونا أو متأولا أو مجاملا ؛ اضطرب عليه أمره ، وطمع فيه خصمه ، وساورت الشكوك قلوب أصحابه ، فلن تكون له بعد ذلك قوة ، ولن تقوم لدعوته قائمة .

ومنها ما يراد به إنصاف العقول ، وإدخال الطمأنينة على القلوب ، فإن الداعي يجب أن يعلم أن دعوته ستعرض على عقول الناس ، فإن رآوها حقاً استراحت عقولهم ، ثم هم سينظرون إليها من زاوية حياتهم وما به يطمنون على مستقبلهم ، فقد يكون الشيء حقاً في ذاته ، ولكنه يجد المنكرين له ، لأنهم ترقبوا أن يكون رسوخه فيهم وبالا عليهم ، أو وسيلة إلى ظلمهم واحتضام حقوقهم ، فهم يرفضونه ، وإن آمنت به قلوبهم ، استجابة لمصالحهم ، وتلبية لعواطفهم ، ولذلك أمر الله رسوله بأن يقول للناس جميعاً « آمنت بما أنزل الله من كتاب ، ليطمئنهم إلى أنه ليس « بدُّعاً من الرسل » وإنما هو داع إلى ما دعوا إليه ، مؤمن بما آمنوا به : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا تفرق بين أحد من رسله » وأمره عقب ذلك بأن يبين لهم في عبارة حاسمة أنه أمر ليعدل بينهم ، فلا يمكن أن يكون اختلافه وإيماهم في العقيدة سبباً في ظلمهم ، أو سبيلاً إلى احتضام حقوقهم ، وانظر - أيها القارىء - إلى قوله تعالى « وأمرت لأعدل بينكم ، حيث أتى بحرف اللام في قوله « لأعدل » ولم يقل « بأن أعدل » فإني أحسب أن السر في هذا التعبير هو أن يدركوا أنه مأمور من ربه بأن يسلك كل السبل ، ويتوسل بكل الوسائل ليحقق العدل بينهم : يعلم ليصل بالعلم إلى تحقيق العدل ، يتقوى ليصل بالقوة إلى تحقيق العدل ، يجتنب العصبية في نظره وفي حكمه ، يحلم ، يصبر ، يتسامح أحياناً ، كل هذا يفعله لخصمه كما يفعله لصديقه ، فكان المأمور به في قوله « أمرت » حذف ليعم جميع الوسائل التي بها يحقق العدل ، واكتفى بذكر الغاية التي يجب الوصول إليها في قوله : « لأعدل » .

هذه هي الخطة التي رسمها القرآن الكريم لصاحب أعظم دعوة عرفتها الإنسانية ، ولها سرٌ يتعلل فيما جاءت به الآية بعد ذلك من لفهام المختلفين بأنه لا داعى للاختلاف ، ولا مصلحة لأحد الفريقين فيه ، فكل منهما مسئول عما يذهب إليه من حق أو باطل ، محاسب عليه حين يرجع إلى ربه . الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير . . وفي غير هذا الموضع من القرآن يرشد الله رسوله إلى هذه الخطة الحكيمة أيضاً :
 « فإن حاجوك فقل أسألت وجهي لله ومن اتبعن ، وقل للذين أتوا الكتاب والأمينين أسألتهم ؟ فإن أسألوا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، وإن كذبوك فقل لي على ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون » .
 « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » .
 « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » .

فإذا كانت هذه هي خطة الإسلام مع من عاندوا الإسلام وكابروا فيه من ذوى الحجة الداحضة ، والقلوب الغلف ، فكيف يسوغ للمسلمين فيما بينهم أن يقوم فيهم ناعبٌ لا همَّ له إلا أن يقطع أواصرهم ، ويحل خناصرهم ، ويجعلهم أعداء يتربص بعضهم ببعض ، ويكيد بعضهم لبعض ؟ ١٤

وإذا كان الله جل جلاله يرسم الخطة الراشدة لحمل العالمين على الإسلام ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، والصفح الجميل ، وأخذ العفو ، والأمر بالعرف ، والإعراض عن الجاهل ، حتى تتقارب القلوب ، وتتفاهم العقول ، ويظهر الحق في جو من الصفاء والهدوء ؛ فما بالنا لانسلك هذه السبيل فيما بيننا ، فيحترم بعضنا بعضاً ، ويعذر بعضنا بعضاً ، ويتفاهم على قضايانا ذوو الأحلام الراجعة ، ويكف عن الإيقاع بيننا ذوو الأفلام الجامحة ؟

أما والله لتلك دعوة التقريب ، وإنها لدعوة الحق ، وإن الله هو الحق المبين . قل هذه سبيلي أدع إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين .

محمد محمد

نَفْسِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

سُورَةُ الْمَاعِدَةِ

— ٩ —

النداء الحادى عشر - الصلة بينه وبين النداء الذى قبله - «وسطية» الإسلام - عرض لإجمالى لما جاء فى آيات هذا النداء - الحُر : معانى المادة التى اشتقت منها فى اللغة - اللغة والمشرية على أن كل مسكر خمر - تقد القرطبي للكوفيين فى قصرها على المتخذ من العنب - رأى «الإمامية» - المبسر : معانى المادة التى اشتق منها فى اللغة - كل قار مبسر - أنواع القمار المستحدثة من المبسر - الأنصاب والأزلام - معنى كون هذه الأشياء «رجساً» و «من عمل الشيطان» - تدرج التفسير القرآنى فى تحریم الخمر والمبسر وبيان الحكمة فى هذا التدرج - استطراد توحى به الآية لفائدة التقريب - أسلوب القرآن فى الجمع بين مخاطبة العقول ومناشدة العواطف - مثالان لهذا الأسلوب فى شرحهما فوائد - نفى الجناح عن المؤمنين فيما طعموا : سبب نزول هذه الآية فيما رواه الجمهور وغيرهم - ترجيح رأى أهل البيت فى معنى الآية وأدلة هذا الترجيح - فائدة التكرار الوارد فى الآية .

النداء الحادى عشر :

اتنهينا فى العدد الماضى من الكلام على النداء العاشر من النداءات التى نادى الله بها المؤمنين فى سورة «المائدة» ، واليوم نستعين الله تعالى ونتكلم على النداء الحادى عشر من هذه النداءات ، وهو قوله تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة

والبغضاء في الخبز والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ، ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين .

الصلة بين هذا النداء والذي قبله :

كان موضوع النداء السابق على هذا ، هو نهى المؤمنين عن تحريم طيبات ما أحل الله لهم ، وأمرهم بأن يأكلوا مما رزقهم حلالا طيبا متقين الله ، غير متخرجين من النعيم ، ولا مائلين إلى التزهد والترهب اللذين ظهرت بوادرهما في محيطهم ، وهموا بأن يلبسوا بعض صورهما ، وغير متخرجين من أيمان كانوا قد حلفوها بالتزام هذا التزهد والترهب ، فإن الله قد فرض للؤمنين بحلة أيمانهم ، وجعل لهم مخرجا بالكفارة حين يرون أن أيمانهم كانت في غير مصلحة خاصة أو عامة برضاها الله .

هذا هو النداء السابق ، وقد صدر عن مبدأ من مبادئ هذه الشريعة السمحة هو مراعاة حق الفطرة ، وحياطة هذا الحق بما يصادمه أو لا يتفق معه ، ولعمري إن في هذا لوفاء للإنسانية ، وإبقاء على عوامل نمو البشر ، وعلى الخصائص التي خصهم الله بها ، بل على الأسس التي هي قوام الحياة ، وبدونها لا تكون حياة .

دوسطية، الإسلام :

وآيات اليوم في موضوع مقابل لهذه الإباحة للطيبات ، والأمر بأخذ الحظ منها ، وعدم التخرج فيها ، إنها في موضوع يحقق دوسطية ، الإسلامية ، ونعني بها جعل الإسلام متبعيه أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس ، ومعايير ومقاييس لها هو خير ونفع ورشاد ، وما هو شر وضرر وفساد ، فالله تعالى كما يبيع الطيبات لأنها طيبات ، ويأمر الناس بأخذ الحظ منها تلبية لدواعي فطرتهم ، ينهى كذلك عن الخبائث ، ويحذر الناس من أن يقارفوها ، أو يفسدوا حياتهم

الخاصة والعامة بها ، لا تحكمًا بالتحليل والتحرير دون مبرر ، ولا رعاية فحسب لحق الألوهية في الأمر والنهي ، والإباحة والحظر ، ولكن مجازاة لمنطق هذه الشريعة ، فإن الذي يحل الشيء لما فيه من طيب ونفع ، لا بد أن يحرم ما هو ضار وخبيث ، سواء أكان ضرره وخيئه يرجعان إلى الفرد ، أو إلى المجتمع ، وهذه هي «الوسطية» الإسلامية في الإباحة والحظر ، فلا إباحة مطلقة لكل ما في هذا الوجود ، تجعل الإنسان بهيمياً مادياً ، ولا إسراف في الحظر والمنع يكون به الإنسان محروماً من تذوق لذة العيش ، أو قاصراً عن القيام بما أريد له من عمارة هذا الكون ، ولكن بين هذا وذاك ، إباحة مطلقة للطيبات ، لم يلاحظ فيها إلا أنها طيبات ، وتحريم مطلق للخبائث ، لم يلاحظ فيه إلا أنها خبائث .

ولإذن فالصلة بين هذا النداء والذي قبله واضحة ، لأنهما طرفان منهما تتولد أو تتحقق الوسطية الإسلامية ، التي ما كانت إلا صدى للفطرية البشرية .

عرض لإجمالى لما جاء فى آيات هذا النداء :

وقد جاء هذا النداء فى أربع آيات :

الأولى : حصر لأمر الخمر والميسر والأنصاب والأزلام - وهى عناصر الشر ومحيطاته وجوامعه - فى كونها رجساً من عمل الشيطان ، وقد ذيلت بالأمر الصريح باجتناب هذا الرجس رجاء الفلاح .

والثانية : بيان فيه شيء من التفصيل للفساد التى يبتغيها الشيطان حين يزين للناس أمر هذه الأشياء من إيقاع العداوة والبغضاء بينهم ، ومن صدم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، وقد ذيلت بجملة استفهامية قوية الدلالة على طلب الكف عن هذه الموبقات .

والآية الثالثة : قد تضمنت أمراً بإطاعة الله وإطاعة الرسول ، لاشك أن المقام يقتضيه فى هذا الموقف تأكيداً للنهي ، وحثاً على تقبله والخضوع له ، كما تضمنت تحذيراً مطلقاً غير واقع على محذّر منه معين ، ليُفهم أن الخطر جسيم ،

وأن ما ينبغي أن يحذر منه في هذا الشأن كثير ، وقد ذيلت بتهديد عظيم لهم إذا تولوا عن طاعة الله وطاعة رسوله أو تهاونوا فلم يحذروا ، وهو في معنى تحميلهم المسؤولية كاملة بعد أن جاءهم الرسول بالبلاغ المبين ، كأنه يقول : لا شأن لرسولنا بعد ذلك ، ولا تقصير في حقكم ، فإن لم تنتهوا فاحملوا وحدكم لائم الإصرار ، ومضار الاستكبار ، وعاقبة هذا الفساد المبير ، والشر المستطير ، فليس على رسولنا إلا البلاغ والبيان ، وقد جاءكم بالبلاغ والبيان .

أما الآية الرابعة : وهي آخر الآيات التي جاءت في هذا النداء ؛ فهي في مقصدها وما تقرره ، شبيهة بالآية الثالثة التي هي آخر الآيات في النداء السابق : كلناهما تستل من قلوب المؤمنين ما لعله ساورهم من المخاوف على ما فرط منهم ، أو ما عسى أن يفرط منهم ، مخالفاً للحكم الذي تقرر ، فالتى هناك تنفي مخاوف الذين أقسموا على أنفسهم أن يكونوا زاهدين مترهين ، ومخاوف كل من مال ميلهم ، أو أخذ نفسه بما أخذوا به نفوسهم ، وذلك بالتصريح بعدم المؤاخذه باللغو ، وتشريع الكفارة في الخنث ، والتي هنا تنفي مخاوف الذين تناولوا شيئاً من هذه الأشياء المحرمة من قبل ، وفي حكمهم كل مقترف غير عامد جهل ففعل ، ثم عرف فكف ، ورائده التقوى والإيمان والإحسان ، لا ينبغي مجونا ولا عبثاً ، ولا يتخذ أمر الله هزوا ولا لعباً (١) وقد ذيلت الآية هناك ببيان أن القصد الإلهي من أخذ الناس بهذه الأحكام وتشريعها متسمةً بالرحمة والرفق ، هو أن يشكر الناس ربهم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ، ، وذيلت الآية هنا بتقرير أن الله يحب المحسنين ، وهو في معنى ما تقدم ، لأن الحب يفضي إلى رحمة المحبوب ، ورحمة المحبوب تقتضي عدم مؤاخذته بما عسى أن يكون قد فرط

(١) وذلك على رأى الجمهور في بيان سبب نزول هذه الآية واتصالها بتحريم الخمر حيث أثيرت أسئلة عن الذين ماتوا من المسلمين وقد شربوها قبل تحریمها ، فنزلت هذه الآية ، ولنا في هذا بحث سيأتى في هذا المقال رجعتنا به في هذه المسألة رأى أهل البيت عليهم السلام لأن الدليل معهم .

منه غير عامد ولا مُصير ، أو بما عسى أن يفرط منه من ذلك ، وتلك المعاملة من الحبيب لمحبوبه تقتضى الشكر وعرفان الجليل .

وهكذا يتبين أن المعاني متجانسة ، آخذ بعضها برقاب بعض ، يمد أولها لآخرها ، ويؤكد آخرها ما جاء في أولها ، وكلها ترمى إلى خير المؤمنين ، ومدتهم بالتشريع الملائم لفطرتهم ، المتمشى مع مقتضيات حياتهم ، الذى يحقق لهم السعادة ، ويبعثهم على تذوق النعمة ، فيشكروا ربهم الذى أسداها إليهم ، ويسرها لهم .

* * *

بعد هذا البيان الإجمالى لما تضمنه هذا النداء ، وللصلة التى بينه وبين ما سبقه من النهى عن تحريم الطيبات ؛ نعرض بشئ من التفصيل لموضوع آيات اليوم ، فنقول وبالله التوفيق :

الآية الاولى تحدثت عن أربعة أشياء : الخمر ، والميسر ، والانصاب ، والازلام فذكرت أهما رجس من عمل الشيطان ، وأمرتنا باجتنب هذا الرجس أو هذا العمل ، لعلنا نفلح . فعلينا أن نعرف هذه الأشياء : ما هى ؟ وأن نعرف معنى كونها رجساً من عمل الشيطان ، وأن ننظر فى دلالة الكلام على التحريم ، ثم فى علاقة هذا التحريم بما يرمى لنا من فلاح :

الخمر : معانى المادة التى اشتقت منها اللغة :

فأما الخمر ، فاشتقاقها من مادة (خمر) ومن تتبع هذه المادة فى اللغة وجدها تدور بين معانٍ متقاربة :

منها : الستر ، يقال خمره يخمره خمر أى ستره ، وكل شئ غطى شيئاً ، فقد خمره أى ستره ، ومنه خمار المرأة ، ومنه دخروا آيئكم ، أى غطوها .

ومنها : السكتان ، يقولون : خمر الشهادة إذا سكتها .

ويقولون : خمر فلان أى استجى منه ، وخمر عنه أى توارى واستتر .

ويقولون : خامره فى البيع مثلاً أى خاتله ، وخامر الشئ الشئ أى خالطه ، وقد خامره الداء أى داخله .

اللغة والشرعة على أن كل مسكر خمر :

ولذلك سمي المسكر خمرأ لأنه يستر العقل ويخامره ويختله ، غير أن بعض اللغويين كابن سبويه فسروا الخمر بأنه عصير العنب إذا أسكر ، وذلك نقلاً عن صاحب العين ، فظن بعض الناس أن الخمر لا تطلق في اللغة إلا على هذا وهو خلاف الواقع ، فإن اختيار المسادة وإطلاقها على الشراب المذهب للعقل ، دليل على أنه مُنظر فيها إلى ذلك ، وأنه لم يُرد تخصيص شراب معين بالاسم ، ويقول صاحب القاموس : الخمر ما أسكر من عصير العنب أو عام كالخمر ، وقد يذكر ، والعموم أصح ، لأنها حرمت وما بالمدينة خمر عنب ، وما كان شرابهم إلا البسر والتمر ، سميت خمرأ لأنها تخمر العقل وتستره ... الخ ، وقد ذهب إلى هذا أيضاً من اللغويين الجوهري ، وأبو نصر القشيري ، وأبو حنيفة الدينوري .

نقد القرطبي للكوفيين في قصرها على المتخذ من العنب :

ويقول القرطبي في الرد على القائلين بأن الخمر إنما هي عصير العنب ، الأحاديث الواردة عن أنس وغيره على صحتها وكثرتها تبطل مذهب الكوفيين القائلين بأن الخمر لا يكون إلا من العنب ، وما كان من غيره لا يسمى خمرأ ولا يقنأوله اسم الخمر ، وهو قول مخالف للغة العرب وللسنة الصحيحة وللصحابة ، لأنهم لما نزل تحريم الخمر فهموا من الأمر بالاجتناب تحريم كل ما يسكر ، ولم يفرقوا بين ما يتخذ من العنب وبين ما يتخذ من غيره ، بل سوا بينهما وحرما كل ما يسكر نوعه ولم يتوقفوا ولم يستفصلوا ولم يشكل عليهم شيء من ذلك ، بل بادروا إلى إنلاف ما كان من غير عصير العنب ، وهم أهل اللسان ، وبلغتهم نزل القرآن ، فلو كان عندهم تردد لتوقفوا عن الإرافة حتى يستفصلوا ويتحققوا التحريم ، وقد أخرج أحمد في مسنده عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من الخنطة خمر ، ومن الشعير خمر ، ومن التمر خمر ، ومن الزبيب خمر ، ومن العسل خمر ، اهـ

رأى الإمامية :

وقال الطبرسي في تفسيره : « جمع البيان ، بعد أن أرجع لفظ الخمر إلى معناها

الذى تفيده المادة في اللغة ، وهى كل شراب مسكر يخالط للعقل مغط عليه ، وما أسكر كثيره فقليله خمر ، هذا هو الظاهر في روايات أصحابنا ، يريد الإمامية ، راجع تفسيره عند قوله تعالى : يسألونك عن الخمر والميسر ، في سورة البقرة - وقال عند تفسيره لقوله تعالى : إنما الخمر والميسر ، في سورة المائدة ، مرة معناه في سورة البقرة ، قال ابن عباس : يريد بالخمر جميع الأشربة التى تسكر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الخمر من تسع ، من التسبّع - وهو العسل - ومن العنب ، ومن الزبيب ، ومن التمر ، ومن الحنطة ، ومن الذرة ، ومن الشعير والسلت ، .

الميسر : معانى المادة التى اشتق منها في اللغة :

وأما الميسر فاشتقاقه من يسر الشئ يسر يسرا ، والمادة متنوعة المعانى كادة خمر ، وهى مثلها أيضاً في تقارب معانيها ، فتارة تفيد معنى السهولة ، وتارة تفيد معنى الوجوب ، وتارة تدل على الجزر ، فالياسر الجازر ، والميسر الجزور ، وتارة تفيد معنى التجزئة ، فكل ما جزأته فقد يسرته ، ولهذا المعانى كلها شواهدا في الشعر وكلام العرب ، وقد استعمل لذلك في معنى القمار ، والقمار فيه هذه المعانى التى تعرفها اللغة العربية في مادة يسر ، فإذا نظرت إلى معنى الوجوب ، فكل من اللاعبين المقامرين يسر شيئاً أى يوجهه ، وهو ما يحق له أو لصاحبه بمقتضى المقامرة ، وإذا نظرت إلى معنى السهولة ، فكل منهما يكسب المال سهلاً يسيراً ، وهما يكسبانه الفقراء سهلاً إذ يوزعان اللحم جزور الميسر عليهم وإذا نظرت إلى معنى التجزئة وجدته ، إذ كانوا يجزئون اللحم هذا الجزور فيقسمونه أو يقتسمونه - وهكذا .

كل قمار ميسر :

وكل ما من شأنه أن يكون فيه مخاطرة واحتمال للربح والخسارة عن طريق المياسرة والمقامرة فهو حرام ، وقد ورد في ذلك آثار وأحاديث ونقول عن الأئمة والعلماء .

فمن ذلك ما روى عن الإمام على كرم الله وجهه من أنه قال : الشطرنج من الميسر ، رواه ابن أبي حاتم عن أبيه بسنده المتصل عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي .

وروى عن عطاء ومجاهد وطاوس أنهم قالوا كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز ، وعن راشد بن سعد ، وضمرة بن حبيب مثل ذلك وقالوا : حتى الكعاب والجوز والبيض التي تلعب بها الصبيان .

وفي صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه .
وفي موطأ مالك ومسنند أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله . . . إلى غير ذلك .

أنواع القمار المستحدثة من الميسر :

ومن هذا يتبين أن كل أنواع القمار المستحدثة داخلة في معنى الميسر ، فالمرهنة على سباق الخيل ميسر ، ولعب الورق ميسر ، ولعب الطاولة ، ميسر ، وه اليانصيب ، ميسر ، ولا عبرة بأن القصد من اليانصيب ونحوه تمويل المشروعات الخيرية أو النافعة ، فقد كان هذا مما يقصده اللاعبون في الجاهلية ، وكانوا يوزعون لحوم الجزر على الفقراء ، أو يقربونها للأوثان ، والإسلام ينظر إلى وسيلة الشيء كما ينظر إلى غايته فهو حريص على صحة الوسائل حرصه على صحة المقاصد .

الانصاب والأزلام :

وأما الانصاب فأصلها الأحجار تنصب أي تقام لغرض كأن تتخذ علامة تنصب ليهتدى بها القوم ، والواحد نصيب ، وتَنَصَّب ، وكما يقال في الجمع أنصاب يقال نَصَب ، والله تعالى يقول : « كأنهم إلى نصب يوفضون ، قرىء بفتح النون والصاد ، وقرىء بضمهما .

وكان للعرب أحجار ينصبونها ، ليست هي الأصنام ، لأن الأصنام كانت

مصورة ومنقوشة ، وهذه ليست كذلك ، وإنما كانوا يذبحون عليها ، ويقربون قربانهم بتشريح لحمها ونشره فوقها ، وتلطيفها بدمائهم .

وأما الأزلام فهي القِداح جمع زلم - بفتح تين ، أو بضم ففتح - : كان للعرب في الجاهلية قطع من الخشب على هيئة السهام التي لا ريش فيها ، يستقسمون بها ، أى يستعملونها ويستخبرونها ما قسم لهم ، وهى ثلاثة : أحدها مكتوب عليه : « أمرنى ربى » والثانى مكتوب عليه : « نهانى ربى » والثالث غفل ليس عليه شئ ، فإذا أراد أحدهم سفراً أو زواجاً أو بيعاً أو شراءً أو غير ذلك من شئونه أجال هذه الأزلام ، فإن خرج له الزلم المكتوب عليه « أمرنى ربى » مضى لما أراد ، وإن خرج له المكتوب عليه « نهانى ربى » أمسك عن ذلك ولم يمض فيه ، وإن خرج الذى لا كتابة عليه أعاد الاستقسام .

وقيل فى الأزلام غير ذلك ، ولكنه لا يخرج عن هذا المعنى فى الاعتماد على ترجيح القطع الخشبية التى تُزَلَم وتَسَوَّى ويستنبأها الشخص فيما يفعل أو يترك . هذه معانى الأشياء الأربعة التى جاءت فى الآية .

معنى كون هذه الأشياء « رجسا » و « من عمل الشيطان » :

وقد وصف الله هذه الأشياء بوصفين ، أحدهما أنها رجس ، والآخر أنها من عمل الشيطان .

فأما الرجس فهو ما يستقذره العقلاء حساً أو معنى ، فالميتة رجس ، والعذرة رجس ، والكفر رجس ، والنفاق رجس . . . الخ ، وقد يسمى الغضب الإلهى رجساً ، والعذاب رجساً ، وفى القرآن الكريم : « فأعرضوا عنهم إنهم رجس » وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، « قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب » ومن يرد الله أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ، « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » فاجتنبوا الرجس من الأوثان ،

وكل هذه المواضع يبدو فيها أن المراد بالرجس الرجس المعنوى ، وفي القرآن الكريم موضع واحد أطلق فيه الرجس على ما يبدو أنه رجس حسى ، وذلك قوله تعالى : « قل لا أجد فيها أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس » ، على إعادة الضمير في قوله « فإنه رجس » إلى جميع ما تقدم ذكره في الآية .

ومن هذا يتبين أن الرجس معنوى وحسى ، وأن أكثر ما عبر عنه في القرآن الكريم بالرجس أشياء لا يبدو فيها الرجس الحسى ، ولهذا حمل الرجس في آية الخمر على القذر المعنوى لا الحسى ، ورد بذلك قول من استدل به على أن الخمر نجسة العين ، ولا سيما وقد عطف عليها الميسر والأنصاب والأزلام ، وهى مسألة خلافية فيها استدلالات أخرى ، وكون الخمر رجسا معنويا ظاهرا من آثارها السيئة وما تجره من مضار خاصة وعامة ، وهو ما أشارت إليه الآيات فيما بعد بنوع من التفصيل ، وكذلك القول فيما عطف عليها من الأشياء الأخرى ، وهى الميسر والأنصاب والأزلام .

وقوله تعالى : « من عمل الشيطان » بيان وتوضيح لكونها رجسا ، فإن الشيطان يزينها للناس ويوحى إليهم ابتداعها وإنشاءها والافتنان فيها .

تدرج التشريع القرآنى في تحريم الخمر والميسر وبيان الحكمة في هذا التدرج :

بعد ذلك يأتى الأمر الصريح باجتنابها مشفوعا بتعليلين ، أحدهما لإجمالى وهو قوله تعالى : « لعلكم تفلحون » ، والآخر تفصيلى ، وهو قوله تعالى : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء ، الخ .

ويحسن بنا أن نقف هنا وقفة تأمل فيها موقف التشريع القرآنى من الخمر والميسر ، وتدرجه حتى انتهى إلى تحريمهما تحريما صريحا بهذه الآية ، منتفعين بما فى ذلك من عبر .

فن المعروف أن القرآن الكريم لم يحرم الخمر والميسر ابتداء ، وإنما ترك

الناس حتى شعروا بآثارها السيئة في المجتمع ، وبما لها من مفسد ، وبما ينجم عنها من شرور ، وكان من آثار هذا أن حدثت حوادث من السكر مثلاً خرج فيها الشاربون عن طورهم ، وما يجب عليهم من الوقار ، واحترام ذوى الأقدار فيهم ، وأن صلى بعضهم صلاة غلط في قراءته فيها خلطاً شنيعاً ، وقد أدت هذه الحوادث إلى أن يتكون في المسلمين شعور نفسى وإحساس قلبى ، بضرر الخمر والميسر ، وإلى أن يتطلعوا إلى معرفة حكم الله فيهما ، فتمت بذلك حكمة الله تعالى فى أن يأتى التشريع متطلباً والنفوس إليه متطلعة ، والأعناق مشرّبة ، وذلك سر من أسرار بقاء التشريع الإسلامى ورسوخه ، لأن التشريعات التى تُفرض فرضاً قبل أن يشعر المجتمع بحاجة إليها ، وقبل أن يدرك المفسد والشرور التى تعالج بها ، أقول : إن مثل هذه التشريعات تأتى مصادمة للناس ، فتولد فيهم روح المعارضة لها ، والنفرة منها .

وقد ظهر فى المجتمع الإسلامى قبل تحريم الخمر والميسر نزوع إلى هذا التحريم وتطلع إليه كثير من العقلاء ، وجعلوا يسألون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن حكمهما ، وهذا ما تشير إليه أول آية نزلت خاصة فى ذلك وهى قوله تعالى فى سورة البقرة : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » وصف الإثم بأنه كبير ، وعبر عن المنافع بعبارة تشعر بهوانها ، وقلة جدواها ، ولكنه على كل حال لم يصادم الناس بانزعاجهم مما هم به ، أو أكثرهم ، مقتنعون بحكم العادة والإلف ، وكأنه يريد منهم أن يدركوا بأنفسهم أن هذه المنافع لا تذكر بجانب الآثار السيئة ، والمضار الكبرى ، وترك لهم الفرصة حتى يتبينوا ذلك ، ويؤمنوا به إيماناً عميقاً ، فكان هذا الطور من الأطوار التشريعية بمثابة تمهيد وإعداد ، وقد فهم بعض الناس من هذه الآية تحريم الخمر والميسر فكفوا عنها ، لأنهم أدركوا أن النفع القليل لا يقام له وزن بجانب الضرر الكبير ، والإثم العظيم ، وذلك لأن كل ما فى الحياة له جانبان : جانب خير ، وجانب شر ، ولا يسكاد يوجد شيء هو شر كله ، ولا شيء هو خير كله ،

ولأنما العبرة في كون الشيء خيراً برجحان جانب الخير فيه على جانب الشر ،
والعبرة في كون الشيء شراً برجحان جانب الشر فيه على جانب الخير .

ثم تقدم التشريع خطوة أخرى في سبيل التحريم جاءت على إثر حادثة الرجل
الذى قرأ في صلاته غلطاً ، فنزل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة
وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » فكانت هذه الآية سبباً في أن يقطع كثير
من المترددين عن الخمر والسكر ، لأنهم نهوا عن قرب الصلاة وهم سكارى ،
والصلاة هي العبادة الأولى في الإسلام ، هي المناجاة للرب جل وعلا في اليوم
خمس مرات ، هي النهر الذي يغتسل فيه الناس كل يوم عدة مرات من أدرانهم
كما جاء في بعض أقوال الرسول الله وسلامه عليه ، وهي بعد هذا كله فرصة
كل مؤمن للاجتماع بالرسول والاقتداء به والانتفاع بما يدعو به لمن صلى معه .
إلى غير ذلك ، فكانه عز عليهم أن يحرموا ذلك كله من أجل الخمر التي تذهب
بعقولهم ، وتحول بينهم وبين أعظم غم في نظرهم ، فلهذا كف كثير منهم ، وإن كان
آخرون اكتفوا بأن يكفوا عنها في الأوقات التي تمنعهم من أداء الصلوات ، وأن
يشربوها في أوقات أخرى ، فلما تهيأت النفوس تمام التهيؤ ، وكثرت المفسدات
والشور والناجحة عن هذين الأمرين في المجتمع ، جاء التشريع الحاسم القاطع ،
فنزلت هذه الآيات التي نفسرها : « يا أيها الذين آمنوا لا تأخذوا الخمر والميسر ... الخ .

قصرهما على وصف الرجس ، بعد أن كان يشير إلى ما هو شائع عندهم من
منافعهما الضئيلة ، ثم أمر باجتناب ذلك الذي هو رجس من عمل الشيطان ، بعبارة
حاسمة هي قوله « فاجتنبوه » بعد أن كان يشير إلى هذا دون نص عليه ، وكما مهد
للحكم بوصف المحكوم عليه بأنه « رجس » و « من عمل الشيطان » اتبعه ببيانين ،
أحدهما إجمالى يبين الغرض من التشريع وهو قوله « لعلمكم تفلحون » أى إنما
شرعنا لكم اجتناب ذلك رجاء أن تفلحوا ، والفلاح لفظ واسع المدلول ، لا يدع
شيئاً من أسباب السعادة والطمأنينة والرضا والعافية إلا شمله ، والآخر تفصيلي
يوضح به كون هذه الأشياء « من عمل الشيطان » مبرزاً آثارهما السيئة في المجتمع

بأسلوب قوى مؤثر ، وذلك قوله تعالى : إنما يريد الشيطان ، إلى آخر الآية ، حيث ذكر العداوة والبغضاء ، وهما جامع أسباب القلق والاضطراب والشقاء وألوان البلاء ، وذكر الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، فس بذلك عاطفة الإيمان في المؤمنين ، وأثار اشمزازها ، ثم خاطبهم بهذه الجملة الاستفهامية الرائعة في معناها التي من شأنها أن تهز المؤمنين : « فهل أنتم منتهون ؟ » ، كأنه يقول لهم : أنا ربكم وخالفكم ، والعالم بما ينفعكم وما يضركم ، وقد أرخيت لكم في حبل النظر والتأمل ، ولم أنتزعكم من عادتكم انتزاعا ، ولكن أمهلتمكم أمهالا ، ومهدت لكم تمهيدا ، ثم بينت لكم بيانا ، وأكدت لكم توكيدا ، فهل أنتم بعد هذا كله مستجيبون لي ، متبعون لأمرى ، نازلون على تشريعى ؟ ولذلك وردت الاخبار الصحيحة بأنهم بادروا حينما سمعوا هذه الآية بقولهم : اتيننا اتيننا !

استطراد توحى به الآية لفائدة التقريب :

وأحب أن أستطرد بذكر شيء يتردد في خاطرى في هذا الموضع ، قبل أن أنتقل إلى نقطة أخرى : ذلك أن الله سبحانه يخوف المؤمنين تخويفا شديدا حينما يقول لهم : إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء ، ويجعل ذلك في مقدمة الأسباب التي دعت إلى تحريم الخمر والميسر ، لأنه أهم هذه الأسباب ، ويشير إلى أنه أسلوب من أساليب الشيطان ، ومن عمله واقتنانه في الكيد للإنسان ، وأنه أخطر أسباب القلق في المجتمع ، فليس خطره على الفرد في نفسه أو ماله أو عقله أو صحته فحسب ، ولكن خطره الأول والأشد على المجتمع ، وهذا ما يفيد التعبير بقوله : « أن يوقع بينكم » ، فهذه « البينية » ، يجب أن تظل بمنأى عما يفسدها ، وعن كل بذرة من بذور السوء في أرضها ، لأن الشارع الحكيم يستهدف ذلك في تشريعه ، ويعمل عليه في أحكامه ، ويلفت إليه نظر المؤمنين في تعليقه ، فإذا أردنا أن نعبّر عنه بلغة العصر ، فلنا أن نقول إنه من الأحكام الأساسية ، والمبادئ التي يجب أن تراعى في كل حكم ، وفي كل قانون ، وفي كل معاملة ، وإذا كان الأمر كذلك فكل ما يؤدي إلى إفساد ذات البين في المسلمين ، فهو حرام حرمة الخمر والميسر ، فلندع جو المسلمين صافيا ، لا نكدره بإثارة الخلافات العقيمة التي

لا تنتج خيراً ، بله الخلافات الخبيثة التي يثيرها الحشياء ، والتي تلد الشر والإثم والقطيعة وما نهى الله عنه من العداوة والبغضاء ، وهذا ما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث له إذ يقول : « إن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول حالقة الشعر ، ولكن أقول حالقة الدين » .

أسلوب القرآن في الجمع بين مخاطبة العقول ومناشدة العواطف :

وبعد هذا البيان الإلهي للخمر والميسر والهما في الناس من أثر سوء ، يقرع الله أسماع عباده المؤمنين بهذا التحذير القوي ، فيقول لهم : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » .

وهذه الآية خطاب لعاطفتهم الدينية ، بعد أن خاطب بالآيتين السابقتين عقولهم ، وأوضح لهم الواقع الذي يعرفونه بأنفسهم ، ولا ينكرونه ، وهذا هو أسلوب القرآن دائماً : يجمع بين مخاطبة العقول ، ومخاطبة القلوب ، ويورد الناس دائماً هذين الموردين ليحملهم على الطاعة بإذاعتهم فوائد العملية المادية ، وفوائدها الروحية المعنوية ، ثم ليجارى المسكفين الذين تختلف أوزجته ، فمنهم من ينصت إلى دواعي العاطفة ، ومنهم من يعرض كل قضية على عقله ، ويطلب فيها حكم الواقع السليم دون تأثر بالعاطفة .

ولو ذهبنا نستقرئ مواضع التشريع في هذا الكتاب الخالد لوجدنا الجمع بين عامتين الناحيتين من ظواهره الواضحة : يعمل ليقنع ، ثم يناشد ليضاع ، ولا بأس بأن نضرب بعض الأمثلة التي تؤيد ما نقول ، وتوضح السبيل أمام الناظر في هذه الناحية من نواحي عظمة التشريع القرآني .

مثالان لهذا الأسلوب في شرحهما فوائد :

فإن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة : ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نسأؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملائقوه وبشر المؤمنين ،

بأنهم الله تعالى عن إتيان النساء زمن الحيض ، فيقرر لهم أولاً أنه أذى ،
وتحت هذه الكلمة ألوان كثيرة من الضرر ، عرفها الناس قديماً معرفة عملية ،
وعرفوها بنفرة الرجل ذى الطبع المستقيم من مس المرأة في هذه الفترة ، وبنفرة المرأة
من المخالطة فيها ، ثم عرفها العلم الحديث بتحديد الأمراض التى تترتب على مخالفة
التشريع القرآنى فى هذا الشأن ، فتصيب الرجل ، وتصيب المرأة ، وتصيب ماعسى
أن يرزقاه من ولد ، فالأساس فى التشريع إذن هو الرغبة فى وقاية الناس من الضرر ،
ولكن الآية تظم إلى ذلك هذه المناشدة العاطفية : « إن الله يحب التوابين ويحب
المتطهرين » ، كأن الله تعالى يقول لهم : إن كنتم تحبون أن أحبكم فتوبوا من ذلك
وتطهروا ، ومن ذا الذى لا تهتز عاطفته لهذا النداء العاطفى القوى ، ثم يقول
فى الآية التالية : « وقدموا لأنفسكم » ، واتقوا الله ، واعبدوا أنسكم ملاقوه ، وبشر
المؤمنين ، تذكير لهم بأنهم مقبلون على يوم شديد لا بد أن يقدموا فيه لأنفسهم
ما يدرا عنهم شدته من طاعة الله ، والنزول على حكمه ، وأمر لهم بأن يتقوا الله ،
ويعلموا أنهم ملاقوه ، ثم تبشير مطلق للمؤمنين ، لا تختص فيه البشرى بشيء ،
ولا تقييد بشيء ، ولكن تطلق إطلاقاً : « وبشر » ، فأية مناشدة عاطفية قلبية
ك هذه المناشدة ؟ .

وقد يدمج القرآن الكريم كلتا الناحيتين لإدماجاً ، فيخاطب العقل والعاطفة
معاً كما يبدو فى هذا المثال الذى نشرحه بعض الشرح .

يقول الله تعالى فى تحريم نكاح المشركات ، والإنكاح إلى المشركين :
« ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ،
ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ،
أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ، ويبين آياته للناس
لعلهم يتذكرون » .

لا شك أن أمر النكاح ، واختيار الزوجة أو الزوج أمر له أهميته وخطورته
ولا شك أن البيئة الإسلامية بيئة مقتطعة من بيئة العرب المشركين ، وقد كانوا

جميعاً أهل وطن واحد ، وبينهم وشائج قرنى ، وصلات معاملة ، وأنواع من الصداقات والتعارف ، فإذا أراد مسلم أن يتزوج ، ووقع اختياره على مشركة ؛ فليس هذا بعيداً ، وربما طفت عليه عوامل الرغبة والحرص على إتمام هذا الزواج ، فلم يلتفت إلى الناحية الدينية ، فلما حرم الله زواج المشركين والمشركات قرنه بأمرين :

أحدهما : الإشارة إلى أن الاختيار الزوجى لم تقصره الطبيعة على ناحية معينة حتى يشعر الإنسان بأنه إذا لم يفز ببغيته ، ويحقق طلبته من هذا الأفق بالذات فإنها لا تتحقق ، فإن فى أفقه المشارك له فى العقيدة والرأى فرصا للاختيار ، يتحقق بها مطلبه إذا لم يسكن يريد التعنت ، فيمكنه أن يحدد زوجات مؤمنات ، وأزواجاً مؤمنين ، وإذا كان فى جانب المشركين والمشركات شئ من عوامل الإغراء والترجيح أثار فى نفسه الإعجاب ، فليذكر أن الإيمان صفة ترجع بآثار الصفات عند الموازنة ، فلو أن أمة مؤمنة وزنت بامرأة مشركة لكان لها فى نفس المؤمن رجحان وإيثار ، ولو أن عبداً مؤمناً وزن برجل مشرك لكان له فى نفس المؤمن رجحان وإيثار ، والآية بهذا تعمل على إقناع المكلفين بالحكم من جانبيين : جانب لفستهم إلى خيرية ، المؤمن ، لأنه آمن وما كان لإيمانه إلا لأنه أدرك الحق فهو ذو عقل ، وأنه لم يستكبر على الحق الذى أدركه فهو ذو حكمة ، ولم تصرفه عنه عوامل المنفعة الشخصية ، فهو ذو تضحية ، وذلك مالم يتوافر فى المشرك الذى لم يدرك ، أو أدرك وكابر ، أو بخل بالتضحية ، ولا شك أن الزوج الذى تتحقق له صفات الإدراك والحكمة والتضحية هو الزوج الأفضل ، وأن الزوج الذى يحرم هذه الصفات هو الزوج الأدنى ، والجانب الآخر أن الآية بهذا تثير فيهم نخوة الإيمان ، وتقابل بها نخوة المعاطمة والمكاثرة والتفاخر بالزوجية والصهر ، ولا شك أنها تصيب من ذلك هدفها ، فالقوم مؤمنون لا يعدلون بإيمانهم شيئاً من أعراض هذه الحياة .

الأمر الثانى : من الأمرين اللذين اقترن بهما تشريع هذا الحكم : ما وصف الله به المشركين والمشركات فى هذا المقام حيث يقول : « أولئك يدعون إلى النار »

فإنه في قوة أن يقول : كيف يعرض المؤمن نفسه وما عسى أن يرزقه من بنين وبنات ثمرة لهذا الزواج إلى خطر الارتداء في أحضان الشرك المفضى إلى النار ؟ وهل مثل ذلك في نظر العقلاء إلا كمثل امرئ يلقى بنفسه طائماً مختاراً في نار حامية يدعو إليها داع ؟ لاشك أن الحزم هو الابتعاد عن النار ومن يدعو إلى النار ، والناس الحياة في كنف آمن غير هذا الكنف .

والآية بهذا أيضاً تخاطب العقل حيث يلتمس الإنسان في الزواج المجانسة والمؤانسة والأمن والسكن والذرية التي تكون ملائمة له معينة على لأواء الحياة ، وكل هذا إنما يتوفر في زواج متناسب بين مؤمن ومؤمنة ، لا بين مشرك ومؤمنة ولا بين مؤمنة ومشرك ، وهي أيضاً تخاطب العاطفة حيث توازن بين دعوة المشرك إلى النار ، ودعوة الله إلى الجنة والمغفرة .

وإنما أطلنا بعض الإطالة في هذا لتجلى معنى يجب أن يعرفه أرباب القانون والتشريعات الوضعية ، ليعلموا أن هذا سر من أسرار نجاح التشريع القرآني وخلوده ، وأن سياسته هي خير سياسة ، وحكمه هو أحسن حكم ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ، ؟ .

بعد هذا نفود إلى ما كتبنا فيه فنقول : إن الذي جرننا إلى هذا الحديث هو مجيء قوله تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ... » الخ . بعد الآيتين السابقتين اللتين بُينَ فيهما أوصاف الخمر والميسر وشروعهما ومفاسدهما في المجتمع ، فهي خطاب لعاطفة المؤمنين بعد مخاطبة عقولهم ، وفيها تحذير لهم ، وإنذار بالتخلي عنهم ، وتركهم لأنفسهم وما اختاروا بعد البلاغ المبين .

نفى الجناح عن المؤمنين فيما طعموا : سبب

نزول هذه الآية فيما رواه الجمهور وغيرهم :

جاءت بعد ذلك آية كريمة متصلة بهذا النداء هي قوله تعالى « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين » .

وقد اختلفت الروايات في سبب نزول هذه الآية ، فمنها ما يقرر أن سبب نزولها هو أن الصحابة لما نزلت آية الخمر السابقة قالوا يا رسول الله : ما تقول في أخواننا الذين مضوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فأنزل الله هذه الآية هذا هو المروى عن ابن عباس وأنس بن مالك والبراء بن عازب ومجاهد وقتاده والضحاك ، وفي بعض هذه الروايات تنظير لهذا بتحويل القبلة ، حيث قال ناس : يا رسول الله ، لإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ، فأنزل الله : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » .

ومن الروايات ما يذكر إن الذين سألوا أو تسألوا عن ذلك هم اليهود ، لا الصحابة ، روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن عمرو بن دينار أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : اصطبغ ناس الخمر من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ، ثم قُتلوا شهداء يوم أحد ، فقالت اليهود : فقد مات بعض الذين قتلوا وهي في بطونهم ، فأنزل الله : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ... الخ » .

ومن الروايات ما يذكر أنها نزلت في القوم الذين حرموا على أنفسهم اللحوم وسلكوا طريق الترهيب كعثمان بن مظعون وغيره ، فبين الله لهم أنه لا جناح في تناول المباح مع اجتناب المحرمات ، وبذلك تكون هذه الآية مرتبطة بالنداء السابق على هذا كارتباطها بهذا النداء .

وهذا الاختلاف في سبب النزول لا يضرننا ، فقد علمنا أن له حلاً ، وهو أن قول الرواية إن آية كذا نزلت في كذا ، ليس معناه دائماً أن نزولها كان مباشراً لهذا الذي تذكره ، فقد يكون مراد القائل أنها نزلت شاملة لحكمه ، أى أن الله قد أنزل آية تدل على هذا الحكم أو على جواب هذا السؤال .

ولنا ، على هذا ، أن نفهم أن الصحابة سألوا يريدون الاطمئنان على إخوانهم الذين سبقوهم ، وأن اليهود أيضاً تسألوا أرجاءاً على القرآن وعلى المؤمنين ، فلا تنافي بين هذا وذاك ، وأن الآية بعموم حكمها مبيئة لمن ترهبوا أن الأمر ليس

أمر اجتناب للباحات إذلالا للنفس ، وإنما هو أمر تقوى وإيمان وإحسان فليس على المؤمنين المتقين المحسنين جناح فيما طعموا من الحلال ، ولا يعتبرون في شرعة الإسلام ناقصين أو ملومين بأنهم لم يترهبوا ويتزهّدوا .

ترجيح رأى أهل البيت في معنى الآية وأدلة هذا الترجيح :

والمعنى الأخير هو الثابت عند أهل البيت عليهم السلام ، فهم يفسرون الآية بقولهم : « فيما طعموا ، أى من الحلال ، وقد ذكر هذا الرأى الطبرسى في كتابه (مجمع البيان) وإنى أميل إلى ترجيح ذلك لأسباب :

منها أن التعبير في الآية جاء بلفظ « فيما طعموا » وهذا اللفظ أقرب في إفادة معنى الأكل ، ولا يستعمل في الشرب إلا إذا ضُمّن معنى « ذاق » ، وقد صرح بذلك صاحب لسان العرب ، فذكر أن طعم بمعنى أكل الطعام ، وأنه إذا جعل بمعنى الذوق ، جاز فيما يؤكل ويشرب ، واستشهد له المفسرون بقول الشاعر :

فإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

النقاخ بالضم : الماء البارد ، والبرد : النوم . قال الزخشرى : ألا ترى كيف عطف عليه البرد وهو النوم ؟ ويقال : ما ذقت غماضا . ١ هـ [راجع تفسير الكشف عن قوله تعالى في سورة البقرة « ومن لم يطعمه فإنه منى »] .

ومن هذا يتبين أن الطعم في اللغة لا يدل على الشرب ، وإنما يدل على الأكل ، وقد يستعمل بمعنى ذوق المشروب ، أى إدراك طعمه واختباره ، وإذن فالمراد الانيان بقاعدة عامة إنشائية يعلم بها أن أساس الأمر في الشريعة ، إنما هو الإيمان والتقوى والإحسان كما قلنا ، لا الترهّب وتعذيب النفس ، ولو كانت الآية نازلة في أمر الذين شربوا الخمر قبل تحريمها ، وماتوا وهي في بطونهم ، لسكان المعنى قاصراً عن ذلك لأن الآية إنما بينت حكم من طعم الخمر، والخمر شراب ، فالمعنى ليس على الذين آمنوا جناح فيما ذاقوا أى وضعوا في مقدمة أفواههم لإدراكه واختباره كما هو الاستعمال اللغوى لطعم بمعنى ذاق ، ولا شك أن هذا معنى غير مراد ، ولم يفهمه أحد من الصحابة وهم عرب فصحاء يفهمون الفصيح من الكلام .

ومن أسباب الترجيح أننى قد أفهم أن اليهود يرجفون على القرآن بمثل هذا السؤال فيستشكلون وهم عارفون أن الذين شربوها إنما شربوها قبل تحريمها ، وهذا ما ورد في بعض الروايات ، ولكنه غريب لم يجرى إلا في رواية واحدة ، أما الصحابة فكيف يمكن أن يستشكلوا بذلك على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ؟ أفاتهم أن التحريم طارىء ، وأن الله لا يؤاخذ على ما قد سلف ؟ أم حرصوا على إبطال هذا الحكم وتحاولوا بذلك على التخلص من الاعتراف بالتحريم ؟ نعم قد يقال إن الله تعالى لما أخبر عن الخمر والميسر وما عطف عليهما بأنها رجس من عمل الشيطان ؛ فهموا أن كونها رجسا ، وكونها من عمل الشيطان ثابت لها وإن لم تحرم ، فسألوا عن شأن من ماتوا وهي في بطونهم ، قد يقال هذا تبريرا لسؤالهم ، ولكنه تبرير ضعيف ، لأنهم يعللون أن أحداً لا يؤاخذ قبل التكليف ، ولو كان قد تناول الرجس وملا منه بطنه ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا .

ومن أسباب الترجيح أيضاً أنه لو كانت هذه الآية استثناء للذين شربوا الخمر قبل تحريمها وماتوا لكان هذا الاستثناء بلفظ قاصر عن إفادته ، لأنه لم يقل : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما كانوا قد طعموا - مثلاً ، ولا : ليس على الذين آمنوا وسبقوا إلى ربهم جناح فيما طعموا ، ولكن الكلام يبدو عاماً لا يراد به جماعة من المؤمنين دون جماعة ، ولا سيما والآية تقول : إذا ما اتقوا ، ولا تقول : لأنهم فعلوا ذلك وقد اتقوا ، وإذا كانت الآية عامة فإنها تثير شبهة في نفوس بعض الناس قد تحملهم على شربها متأولين بأهم متقون مؤمنون .. الخ . وقد حدث هذا فعلاً ففهم بعض الناس على عهد عمر ذلك - ومنه ما روى أن أناساً شربوا بالشام الخمر ، فقال لهم يزيد بن أبي سفيان : أشربتم الخمر ؟ قالوا نعم بقول الله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، الآية فكتب فيهم إلى عمر بن الخطاب ، فكتب إليه : (إن أذاك كتابي هذا نهاراً فلا تنتظر بهم إلى الليل ، وإن أذاك ليلاً فلا تنتظر بهم نهاراً ، حتى تبعث بهم إلى ثلثا يفتنوا عباد الله ، فبعث بهم إلى عمر ، فشاور فيهم الناس ، فقال لعلى ما ترى ؟ قال أرى أنهم قد شرعوا في دين الله ما لم يأذن الله فيه ، فإن زعموا أنها حلال

فاقتلهم فقد أحلوا ما حرم الله ، وإن زعموا أنها حرام فاجلدوهم ثمانين ثمانين ، فقد افتروا على الله ، وقد أخبرنا الله عز وجل بحد ما يفترى بعضنا على بعض ، فقدم عمر ثمانين ثمانين) .

هذه الرواية تدلنا على أن عمر وعلياً لم يريا درأ الحد بالشبهة في التأويل ، ولو كان الأمر أنها نزلت لاستثناء من شربوا الخمر قبل تحريمها وماتوا ، لكان تأويل الشاربين قريبا ، ولما كان يجب قتلهم إذا اعتقدوا حلها لأنهم متأولون تأولا محتملا بفهم العموم من الكلام ، وليس في الكلام ما يدفع إرادة العموم ، فلم يبق إلا أن عمر وعلياً فهما أن الآية ليست في هذا الشأن ، وإنما هي في شأن آخر وهو ما رجحناه .

وإذن فمعنى الآية إنشائي عام لا خصوص له ، وجملته : أن العبرة في دين الله ليست بأن يتخرج المؤمنون من تناول المباحات واللذائذ التي يسرها الله لهم حلالات طيبا ، وإنما العبرة بالإيمان والعمل الصالح والتقوى والإحسان ، فإلى هذه الصفات فليتنجه الناس ، لا إلى الترهيب ، ولا إلى التزهّد ، فإن شأن الذين يتصفون بها أن يضعوا كل شيء في موضعه ، وأن يتناولوا ما أحل الله لهم تناولاً مشروعاً ، يعرفون بالإيمان فضل الله فيه ، وبالتقوى تصفيته من كل ما يشوبه ، وابتغاء رضوان الله والمقاصد الصحيحة به ، وبالإحسان عدم الإسراف فيه بما يضر المرء في نفسه ، أو بما يتبعه تضيق على غيره ، أو تعطيل لمصالح الأمة ومنافعها المتوقعة على الاقتصاد فيه .

وكون عدم الجناح في تناول المباحات خاصاً بأصحاب هذه الصفات ؛ علته أنهم الذين من شأنهم أن يضعوا الأمر في ذلك موضعه دون طغيان ولا انحراف ، أما الكافرون المحرومون من لذة الإيمان والتقوى والإحسان وابتغاء وجه الله والمقاصد الشريفة ، فلا يدركون إلا أنهم يتمتعون ، والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ، .

بقى بعد هذا الكلام على التكرار الذى جاء فى الآية : « اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، وقد اختلف فى تعويل ذلك المفسرون ، واضطربوا فى الجمع بينه وبين كون الآية نزلت فى الذين ماتوا وقد شربوا الخمر وأكلوا الميسر ، والذى أفهمه أن هذا التكرار إنما هو للتوكيد على سنة العرب فى توكيد الأمر بإعادته وتكريره مرة بعد مرة ، وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أى الناس أحق بحسن صحبتى فقال : أمك ، قال ثم من ، قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أبوك - فهو قد أراد أن يرسخ المعنى فى ذهنه وأن يؤكد له عدة مرات ليعرف منزلة أمه .

ويشبه ذلك ما روى عن على كرم الله وجهه من قوله فى إحدى خطبه : « ... لقد أفسدتم على رأى بالعصيان ، وملأتم جوفى غيظاً ، حتى قالت قريش : ابن أبى طالب رجل شجاع ، ولكن لا رأى له فى الحرب . لله درهم ! ومن ذا يكون أعلم بها منى أو أشد لها مراساً ، وقد نشأت بها وما بلغت العشرين ، ولقد نيفت اليوم على الستين ، ولكن . لا رأى لمن لا يطاع ، لا رأى لمن لا يطاع ، لا رأى لمن لا يطاع ، .

والشاهد فى تكريره الجملة الأخيرة اقتلاعاً لما زعموا من كونه ليس بصاحب رأى فى الحرب ، كما ترمى الآية إلى اقتلاع فكرة الترهيب .

فهى تقول لهم : ليس الترهيب والتزهّد هو الذى يريده الله منكم ، ولكن الإيمان والتقوى وعمل الصالحات ، الإيمان والتقوى ، التقوى والإحسان ، ولا شك أن هذا أسلوب من يريد إقناع متردد أو معتقد خلاف الصواب ، والله يقول الحق وهو يهّدى السبيل ، والحمد لله رب العالمين .

في سبيل الوحدة :

هبة من تجاربنا

لحضرة صاحب السماحة العالم الجليل الأستاذ محمد تقى النعمى
السكرتير العام لجماعة التقريب

كل خطوة نحو التكتل تثير منا الاهتمام ، وكل فكرة ترمى إلى الوحدة تحرك فينا الأمل ، وكل محاولة لضم صفوف المسلمين تقع من نفوسنا أحسن موقع ، فطبيعى وهذه حالنا ، أن نستبشر خيراً حين نلاحظ اتجاهها إلى تحقيق التعارف بين إخوة تخاصموا في الميراث ، وتقاطعوا على الزمن ، وتنكر بعضهم لبعض دهرأ طويلاً وصارخ بعضهم بعضاً صراعاً رهيباً ضعضع قوتهم ، وحطم كيانهم ، وجر المذلة والضعفة عليهم جميعاً .

إن أربعمائة مليون من المسلمين قوة لا يستهان بها ، وجمع كلتهم أمر لا يكرهه إلا عدو ولا يخافه إلا طامع ، ولكن تحقيق ذلك بصورة كاملة يحتاج إلى تفكير جدى عميق ، وبحث مستفيض دقيق ، ودراسة شاملة لخريطة العالم الإسلامى ، والمسام كامل بالأحوال القائمة فى كل جزء ، والآراء السائدة فى كل صقع ، والنزعات المتباينة فى كل قطر ، فإذا أحطنا بكل ذلك علماً ، أمكن أن نجتمع المسلمين على منهاج لا تنفر منه طائفة ، ولا تجحده فرقة .

وليس ذلك بعسير إن صححت العزائم ونهيات النفوس ، لأن المسلمين متفقون فى الأصول ، والخلاف بين طوائفهم ومذاهبهم إنما هو فى آراء لا تمس العقائد التى يتحتم على المسلم ليكون مسلماً أن يؤمن بها .

ونحن حينما نتكلم عن الطوائف ، إنما نعني تلك التي تتفق في الأصول من أهل السنة والشيعة ولا دخل لنا بالطوائف التي لا وجود لها إلا في كتب الملل والنحل ، أو التي تختلف في الأصول ، فأنبأهم في نظرنا ليسوا بمسلمين ، وإذا كان هناك غلاة فنحن أول من نحكم بكفرهم .

إن إله المسلمين واحد ، ونبيهم صلى الله عليه وآله وسلم واحد ، وكتبهم وقه الحمد لا يختلف على حرف منه مسلم شيعي ولو في أقصى الصين ، مع مسلم سني ولو في أقصى المغرب . وهم جميعاً يتجهون في صلواتهم إلى قبلة واحدة ، ويحجون إلى بيت واحد ، ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالغيب والملائكة والنبين واليوم الآخر ، وغير ذلك من العقائد التي لسنا بصدد حصرها ، ورغم ذلك كله فإن التباعد بينهم - وهم أبناء الدين الواحد ، وأصحاب العقيدة الواحدة - يزيد أحياناً على التباعد بين أبناء دينين مختلفين ، بل يزيد على التباعد بين المؤمنين والملاحدة في بعض الأحيان .

إنها لمأساة عجيبة أن يعيش ٤٠٠ مليون من المسلمين في قطيعة وتدابير وهم أبناء ملة واحدة ، وسكان بقاع من الأرض متجاورة . إنها لمأساة عجيبة حقاً تدعو كل غيور إلى التفكير الجدّي ، وتدفع كل قادر إلى السعي الحثيث والعمل الدائب لتخليص هذه الأمة المسلمة من التقاطع والتدابير ، ومن الذل والهوان .

من هنا جاءت فكرة التقريب ، وظهرت جماعة التقريب ، لا لتوحيد المذاهب ، ولا لتصرف أي مسلم عن مذهبه ، ولا لتحجر على التفكير ، وإنما جاءت لتذكر المسلمين جميعاً بالنقط الوفاقية عندهم ، وهي كثيرة ، وهي الأصول لحسن الحظ ، ولتوجد التعارف بين الطوائف باطلاع كل طائفة على ما عند سواها فإن رأت الحق بجانب أختها احترمتها ، وإن لم تقمض بما ثبت عند سواها عذرتها فيه .

وكانت هذه الجماعة واقعية لا تتجاهل الخلافات ولا تتغافل عما يصعب علاجه ، ولا تخشى مواجهة الحقائق ، ولا تجامل طائفة على حساب أخرى ، فهذا سبيل من لا يثق بنفسه أو من يشك في صحة دعوته ولسنا كذلك ولله الحمد .

كنا ولا نزال صرحاء صادقين في علاج المشاكل ، وكم من مشاكل يحتاج علاجها إلى الصدق والصراحة ، وكان شعارنا التمثل والتروى والتدقيق ، وضرب المثل في الاعتدال في القول والهدوء في النقاش ، ولم يفتنا أن المهمة أدق من إجراء جراحة في القلب ، ولم ننس قط أن هناك من يثير الخواطر ويؤجج العواطف وأن هناك معوقين يعرفلون السير ، وأن بقية من الاستعمار لا تزال جائئة في أرضنا تعاكسنا بطرقها الخاصة ، وتغرى بنا نفراً من دعاة الفرقة كشف أمرهم وعرفت حقيقتهم .

كنا ندرك تماماً أن المهمة شاقة ، وأن الطريق طويلة ، وليست مفروشة بالورود والرياحين ، بيد أننا توكلنا على الله وحده ، واعتمدنا على عونه سبحانه ، وتجنبنا السياسة حتى لا تجرفنا تياراتها الهوجاء .

وكان من العوامل التي ساعدتنا على النجاح أن الفكرة جاءت في وقت ضعف فيه شأن الاستعمار ، وخفت وطأة سياسته التي تقوم على قاعدة فرق تسد . وظهرت فيه موجة من الإلحاد تهدد الكثير من البلاد الإسلامية ، فبدأ عقلاء المسلمين يفكرون في التكتل . وكان من حسن الحظ أن شمل هذا عقلاء المسلمين من مختلف المذاهب والشعوب المسلمة مما تجلت صورته بصفة واضحة من تأليف جماعة التقريب من أعضاء يمثلون تلك المذاهب ، وتلك العقلية النيرة ، أضف إلى ذلك أن انتشار الثقافة يخدم هذا الغرض وييسر فهم الفكرة ، ويساعد الفرد على الاطلاع والبحث بدل الاعتماد على الشائعات والاختذ بأقوال المغرضين .

وهكذا بدأت جماعة التقريب منذ نشأتها تشق طريقها وتلتزم سبيلها وتمتد يدها لمن يضمم للأخوة الإسلامية خيراً وللمسلمين وحدة . وتستجيب إذا دُعيت إلى مؤتمر أو تبعث برأيها إن فاتها الحضور .

واتفق أن انعقدت في السنين الأخيرة عدة مؤتمرات متفاوتة في القوى ، وفي الإمكانيات ، ونظرنا إليها نظرة التأييد لأنها لا تخلو من كونها محاولات لخير المسلمين .

وكان لزاماً علينا أن نفكر ونستقصى ، ونستمع إلى تعليل غيرنا ، لعدم نجاح مؤتمراتنا الماضية في الوقت التي كانت تنجح فيه المؤتمرات في غير بلادنا ؟
كان ذلك لزاماً علينا لنفيده منه ، ولا تقع في مستقبل أمرنا فيما وقع فيه من قبلنا .

قالوا : ما السبب ؟

أهو كثرتها ؟

أهو قلة عدد المؤتمرين فيها ؟

أهو عدم الدقة في انتخاب الأشخاص ، فغالباً ما يكون المؤتمرون غير منسجمين لما بينهم من اختلاف في التفكير ، وتفاوت في المركز ، وتباين في التمثيل .

أهو أن تلك المؤتمرات تعودت لإصدار قرارات جزافية لم يسبقها البحث والتفكير ، أو غير عملية لم يراع وقت صدورها إمكان التنفيذ ؟

وقلنا بدورنا : هذه كلها أسباب صحيحة ، ولكن ورائها جميعاً سبباً آخر له تأثيره وله خطره هو الطائفية ... وفي الله الدعاة إلى الوحدة الإسلامية العالمية شرها .

فهناك اختلاف في الرأي نشأ عنه مذهبان رئيسيان قديمان ، مذهب أهل السنة ، ومذهب الشيعة . وهما رغم اتفاقهما في الأصول ، ورجوع كليهما في الأحكام إلى كتاب الله وصحة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، إلا أن الاختلاف حول الخلافة والإمامة وكونها بالنص أو بالانتخاب ، وأن في الكتاب والسنة ما يثبت هذا أولاً ، أوجد تلك الطائفتين .

وكان بالإمكان أن يبقى الخلاف في دائرته المحدودة ، لولا حكام السوء وجور الظالمين الذين ابتدعوا العنف : العنف في الكتابة ، والعنف في الجدل ، والعنف في التعصب ، ثم التوسل بالاتهام والطعن ، فضلاً عن الحروب الدامية ، والفتن العمياء ، هذا مضافاً إلى التفرقة التي جدت أخيراً - وكما كنا في

غنى عنها - تفرق بين مسلم ومسلم فيما كانوا فيه على وفاق من قبل ، كأن رصيدنا من الخلافات لم يكن يكفيننا ١ .

وهذه كلها تركت في مجتمعنا رواسب أفقدتنا الثقة فيما بيننا ، وأدت بنا إلى التقاطع في كل شيء حتى في الثقافة .

ولو أنك سألت جامعة تدعى أنها للمسلمين جميعاً : ماذا يعرفون عن مذاهب المسلمين من غير أهل السنة المعروفة لأجابوك بالشائعات ، ذلك لأنها في الوقت الذي تهتم فيه بدراسة أحوال الإغريق القدامى ، والمذاهب البائدة كاللأدرية تغفل دراسة أحوال فريق كبير من المسلمين ، وتحجم عن دراسة فقه كفقه الإمام جعفر ابن محمد الصادق ، والإمام زيد بن علي بن الحسين ، وهما من هما وأتباعهما يقرؤون من ربيع عدد المسلمين .

هل من الرأي أن يجهل المسلم حال لإخوانه ويهتم بغيرهم ؟

هل يصح أن يعنى بالمذاهب غير الإسلامية وهو يهمل بعض المذاهب الإسلامية الصحيحة التي هي جزء من التراث الإسلامي المجيد ؟ وهل الفقه شيء يحارب ؟ وإلى متى تظل الثقافة الإسلامية مجردة ، وهي خير كفيل لوحدتنا ؟ وكيف يمكن أن تجتمع كلمتنا وفي قلوبنا رواسب ، وفي صدورنا حرج ، وفي عقولنا ظنون وأوهام .

وكيف يرجى النجاح لمثل هذه المؤتمرات التي كانوا غالباً ما يجتمعون فيها بأجسامهم ويتباعدون بأفكارهم وتعدم الثقة فيما بينهم .

وكيف فصل إلى تفاهم صحيح ، وكثيراً ما كنا نكتفي بالكلام العام المعسول ، ولا تتصارع خيفة أن تظهر ما يضره بعضنا لبعض من نفور ؟ .

لقد حدث في مؤتمر العلماء الإسلامي ، الذي انعقد في كراشي حين أريد الأخذ بلون من الصراحة أن ظهرت بوضوح النزعات المختلفة ، ولولا حضرة رئيس المؤتمر لشكرب الجو أكثر وساءت العاقبة ...

ثم ماذا ؟

ثم أحالوا بالإجماع المسائل الخلافية المعروضة عليه إلى جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة لعلاجها ، وهى مطروحة أمامنا ، داخله فى منهاجنا .

* * *

هذه هى تجاربنا أملتها علينا مع الأسف الوقائع الماضية ، ودعانا حبنا لامتنا ، وإخلاصنا لوحدتنا ، أن نهديها لإخواننا الذين يحاولون مخلصين أن يصلوا إلى الوحدة الإسلامية ، ولنا أن نقول بعد ذلك فى صراحة وقوة :

إن أية دعوة للتكتل لا بد لها من تهديد ، وأى مؤتمر يراد له النجاح لا بد له من أن يهتم فى نفس الوقت بدراسة البلاد الإسلامية والآراء السائدة فى أجزائها ، وإعطاء فكرة صحيحة لكل عضو عن مذاهب الآخرين ، والتنبيه على حملة الأقلام أن يقفوا عند حدودهم ، فلا مهاجمة ولا نبش للماضى ، ولا إثارة لمسائل خلافية من جديد من شأنها أن تهدم ما بينه المصلحون .

ولعل من اليسير بعد ما قدمنا أن ندرك أن الذين يتبنون فكرة المؤتمرات الإسلامية ، والذين تنعقد فى بلادهم هذه المؤتمرات عليهم تبعات جسام فى مقدمتها أن يعملوا على فتح آفاق جديدة للتفكير الإسلامى ، تكون ثمراته أجدى على المسلمين من نبش الماضى ، وإثارة الأحقاد ، وأن يكونوا فى ذلك كله جراًء أقوياء ذوى أفق أوسع من التعصب للطائفة البغيضة التى تتخذ أحياناً فى بعض البلاد مقياساً للفصل بين الكفر والإيمان وهى لم تكن كذلك فى سالف الزمان .

إن الطائفية التى لا تحس بها بلاد لا طوائف فيها ، تلعب دوراً هاماً فى كثير من بلاد المسلمين ، وكل محاولات لجمع الكلمة ينبغى أن تتفادى هذا الداء الويل ، وجماعة التقريب حين اتجهت إلى هذه الغاية ، إنما وضعت يدها على النقطة الحساسة ، فلو نجحت فى علاجها لنجح المسلمون .

تأييد جديد

لإثبات التأثير الإسلامي على الثقافة الأوربية

لحضرة الطائب الفاضل الدكتور محمود محمد الحضيرى

مراقب الثقافة بوزارة التربية والتعليم

الكشف عن ترجمة أوربية قديمة لكتاب إسلامى فى المعراج - الصلة بين هذا الكشف وما سبق من بحوث ومناقشات خاصة بالصلة بين دانتي والإسلام - نظرية أسبين بلايوس - مها كز نشر الثقافة الإسلامية فى أوربا فى العصور الوسطى - إعجاب العلماء الأوربيين بعلوم المسلمين فى العصور الوسطى وحضارتهم - تاريخ ترجمة كتاب المعراج إلى لغات أوربية ثلاث بأمر ألفونس العاشر - وصف محتويات الترجمة - ترجيح اعتبار هذه الترجمة لكتاب المعراج مصدراً مباشراً لدانتي فى تصويره للآخرة .

كتاب المعراج عنوان لكثير من الكتب التى ألفها المسلمون حول صعود نبيهم إلى السماء ، ومشاهداته فى صحبة جبريل فى العالم الآخر . ولكن واحداً منها أثار الكشف منذ قريب عن ترجمتين له من مخلفات العصور الوسطى كثيراً من الحديث فى محافل الثقافة فى الغرب ، وكثيراً من البحوث الطويلة فى صحفه المخصصة للعلوم والفنون والآداب ، وإحدى هاتين الترجمتين باللغة اللاتينية ، والثانية

(*) عاد من أوربا إلى مصر الدكتور محمود الحضيرى مراقب الثقافة بوزارة التربية والتعليم المصرية بعد إنجازه مهمة ثقافية استغرقت عاماً كاملاً ، واشترك فى تديرها وزارة خارجية الفاتيكان ووزارة التربية والتعليم المصرية ، وكان موضوع المهمة هو فحص الخطوط اللاتينية الخاصة بابن سينا فى مختلف دور الكتب الأوربية ، ويسرنا أن ننشر له هذا المقال عن ناحية من نواحي التأثير الإسلامى على الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى أثارها الكثير من الجدل والاهتمام فى أوربا فى الخمس والثلاثين سنة الأخيرة . وكان آخر مراحل البحث فيها هو الكشف عن ترجمة لكتاب عربى مما يبينه الأستاذ فى مقاله .

بالفرنسية القديمة ، وكلاهما ليس منقولاً عن الأصل العربي مباشرة ، بل منقول عن ترجمة أخرى باللغة الفشتالية ضاعت مع الأيام ولم يبق منها غير مقتبسات وغير ما نستطيع معرفته عنها من الترجمتين المنقولتين عنها . أما الأصل العربي نفسه وعنوانه كما قلنا ، كتاب المعراج ، فلم يهتد إليه الباحثون الذين عنوا بهذا الموضوع ، ولعل واحداً من قراء رسالة الإسلام ، يهتدى إلى التعرف به والتحقق منه مستعيناً بما أورده عنه من وصف وإجمال للمحتويات حسب الترجمتين اللاتينية والفرنسية القديمة ، فيسدى بذلك يداً للشغطين بالموازنة بين الآداب ، ويتعاون على هذا النحو تعاوناً مثمراً مع العلماء الأوربيين في دراسة ناحية مشرقة من تاريخ الإنسانية يلتقي فيها الشرق مع الغرب في النظر في مصير النفس والإيمان باليوم الآخر .

ويتصل الكشف الحديث عن كتاب المعراج ، ببحوث يرجع تاريخها إلى نحو خمس وثلاثين سنة عندما نشر العالم الأسباني المشهور أسين بلاثيوس السرقسطي بمناسبة دخوله في الأكاديمية الملكية الأسبانية سنة ١٩١٩ كتاباً عنوانه : « وصف المسلمين للآخرة في الكوميديا الإغنية لدانتى ، ومعروف أن القصيدة دانتى في الثقافة الأوروبية المسيحية شأنها عظيم لا يذانيه شأن أى أثر شعري آخر ، ويسمىها الأوربيون باسم القصيدة المقدسة ، وهى تجمع بين جمال الصناعة فى العبارة وروعة التصوير ، وتضمن الحكمة والمعارف على نحو يكاد يحيط بجميع ما حصله الأوربيون منها حتى ذلك الوقت ، وهى تنقسم إلى أقسام أو أناشيد ثلاثة : الأول عنوانه الجحيم ، والثانى عنوانه : الأعراف ، والثالث عنوانه : الفردوس .

وتتلخص نظرية أسين بلاثيوس فى أن دانتى استفاد كثيراً فى قصيدته هذه فيما يختص بوصف الحياة الآخرة من مؤلفات محبى الدين بن عربى ، لا سيما (الفتوحات المسكية) إذ يصف فيه منازل النعيم ودرجات الجنة ومواقع العذاب ودركات الجحيم وصفاً يشبه وصف دانتى إلى حد كبير ، وكذلك من كتاب أبى العلام المعرى المسمى (رسالة الغفران) إذ يصف فيه أحوال بعض المشهورين بعد الموت ومقامهم فى الدار الآخرة وما هم فيه من نعم أو عذاب كما استفاد من

مصادر إسلامية كانت في متناول طلاب العلم في صقلية وفي طليطلة وأشبيلية . وهو يعتمد في منهجه في الغالب على التثليل وإيراد أوجه التشابه ، ويبين بالتفصيل مدى اتساع التبادل الثقافي بين المسلمين والأوروبيين في المائتين الثانية عشرة والثالثة عشرة بعد الميلاد ، وكيف كان الأوروبيون من جميع البلاد يقصدون صقلية حيث ظلت الثقافة الإسلامية مزدهرة في بلاط ملوكها النورمانديين والجرمانيين ويذهبون أيضاً إلى طليطلة التي ظلت هذه طويلة أهم مركز لنقل التراث الإسلامي إلى أوروبا في العصور الوسطى . وكذلك إشبيلية ، وشرح كيف كان بعض الرهبان المسيحيين يعرف العربية ويستفيد بواسطتها من كتب المسلمين حتى ما كان قريب العهد من زمنه بل في زمنه . وتكلم أيضاً في مدى تأثير أخبار المسيحية وكبار معلمها لا سيما في القرن الثالث عشر للميلاد بفكرى الإسلام ، وكيف بلغ عند بعضهم الإعجاب بفلاسفة المسلمين إلى حد حملهم على تفضيلهم في العلم على مواطنهم وأبناء جنسهم ، وكيف دعا بعضهم إلى الإقبال على تعلم اللغة العربية ليتمكنوا من استيعاب علوم المسلمين التي كانت سبباً لتقدمهم إذ ذاك في مضمار الحضارة وفي انتصاراتهم وسيادتهم . وقد صرح ذاتي نفسه في بعض مؤلفاته بأن في العالم بلاداً أجل من وطنه توسكانا ، ومدنا أجل من مدينته فلورنسه ، وأما تتكلم لغات أفضل وأنفع من لغات الشعوب اللاتينية . ولعل هذا التصريح وغيره من القرائن ، مما جعل أسين لا يستبعد أن يكون ذاتي نفسه قد تعلم العربية .

وفي الواقع إنه يجوز أن يكون ذاتي عرف شيئاً من اللغة العربية ، ولكن مما لا شك فيه أنه لم يبلغ في معرفته بها درجة تمكنه من قراءة كتب صعبة مثل مؤلفات أبي العلاء المعري ومحيي الدين بن عربي وأمثالهما ممن ذهب أسين إلى أن مؤلفاتهم مصادر لبعض المعارف التي تضمنتها قصيدة ذاتي الخالدة ، ولم يصح دليل على أنها في عهده كانت مترجمة إلى لغة أوربية .

وتناول أسين أيضاً مسألة كبيرة الأهمية ، ولكنه لم يورد لها حلاً ، وكان في تناوله لهذه المسألة بالبحث أقرب ما يكون إلى إصابة الدليل الصحيح على

المصدر الرئيسى الذى استقى منه دانتى الكثير من معلوماته الخاصة بوصف الحياة الآخرة . ذلك أنه فى معرض كلامه عن الصلات الثقافية بين إسبانيا وفلورنسه موطن الشاعر العظيم أشار إلى الاخبار الخاصة بالسفير برونزو لاتينى الذى بعثت به فلورنسة فى سنة ١٢٦٠ ميلادية إلى بلاط الفونس العاشر ملك قشتاله وأشبيلية وغيرها من بلاد إسبانيا ، وعاد بعد سفارته إلى وطنه حاملاً بعض الكتب المترجمة من العربية فى عهد هذا الملك الملقب بالحكيم .

وقال أسين إنه ربما كان بين ما حمله السفير من كتب إلى فلورنسه ترجمة ما لكتاب عربى يتكلم فى وصف المسلمين للحياة الآخرة . بل إن أسين اقترب إلى سر الموضوع أكثر من ذلك عند ما ذكر اسم كتاب أسبانى قال باحتمال اطلاع دانتى عليه واستفادته منه مباشرة ، ولم يكن يدور بخله أن هذا الكتاب نفسه يحتوى على معلومات مستمدة من الترجمة القشتالية لكتاب المعراج التى سنتكلم عنها عن قريب .

ومعنى ذلك أن بحث أسين بالرغم مما احتوى عليه من رأى صحيح ومن ثروة هائلة فى المعلومات استحق جمعها إعجاب المؤيدين والمعارضين ظلت أدلته فى حاجة إلى حلقة واحدة ليستقيم قياسه ، ولتصير نظريته سليمة مقبولة عند الجميع ، بعيدة عن كل شك وطعن .

وكان هناك عالمان يعمل كل منهما مستقلاً عن الآخر عكفا على البحث عن هذه الحلقة المفقودة حتى عثرا عليها فى صورة ترجمة لاتينية وأخرى فرنسية لكتاب عربى اسمه (كتاب المعراج) وقد صنعت الترجمتان فى عهد ألفونس العاشر نفسه وبأمر منه . وهذان العالمان هما إنريكو شيرولى Cerulli سفير إيطاليا فى طهران فى الوقت الحاضر ، والثانى أسبانى اسمه سندنو Sendino وقد أتما بذلك بحث أسين ووضع كشفهما نهاية لما احتدم من قبل من جدال طويل حول هذا الموضوع تجاوز أحياناً حدود الاعتدال .

وتتلخص قصة هذه الترجمة فى أن ألفونس العاشر الملقب فى الأدبانية بالحكيم

ملك قشتالة وطيطة وإشبيلية وقرطبة وغيرها من بلاد أسبانيا ، التي كان لا يزال يقيم فيها المسلمون إذ ذاك ، طلب إلى طبيب يهودى اسمه إبراهيم الحكيم أن ينقل له من العربية إلى القشتالية د كتاب المعراج ، فأتم الترجمة في سنة ١٢٦٤ ، ثم طلب الملك أيضاً إلى كاتب إيطالى يعمل فى خدمته اسمه برنافتورا من مدينة سينا أن ينقل الترجمة القشتالية إلى اللغتين اللاتينية والفرنسية القديمة فأنجزهما فى نفس السنة . وبدل هذا الحرص من الملك الحكيم الذى كان فى الوقت نفسه رئيساً للإمبراطورية الرومانية على نقل الكتاب إلى لغات ثلاث فى نفس الوقت على مبلغ تقديره لأهميته ورغبته فى تيسير الاطلاع عليه وإذاعته فيما وراء الحدود الإسبانية فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية وغيرها من البلاد .

ولدينا دليل ظاهر على السبب الذى دعا الملك إلى الاهتمام بالكتاب ، وهو ظن على كل حال ، ولولا أن هذا الظن نفسه كان من القوة بحيث وجه عالماً كبيراً من قبل وجهة معينة لما أوردناه ذلك أنه يغلب على ظنى أن المترجم اليهودى وكان من المقرين إلى الملك ربما أوممه أن الكتاب من تأليف النبي محمد نفسه ، وفى أوائل النصف الثانى من القرن الميلادى الماضى وقع نظر المستشرق المعروف اشتاينشneider M. Steinse Hneider بين مخطوطات أكسفورد على عنوان كتاب المعراج مرسوما بصورة مشوهة تجمع بين أداء النطق العبرى والتحريف اللاتينى ، ورآه فى العنوان نفسه منسوباً إلى محمد ، فلم يكلف نفسه مشقة فتح الكتاب والنظر فى مضمونه ، ولم يتردد فى أن يقرر أنه ترجمة لسورة د المعارج ، من القرآن الكريم ، وذلك لأن المستشرقين جروا على نسبة القرآن إلى النبي نفسه .

والواقع أن صاحب الترجمتين اللاتينية والفرنسية القديمة المنقولتين عن الترجمة القشتالية المفقودة يذكر فى مقدمة كل منهما ما تعريبه : د هذا هو الكتاب الذى يسمى بالعربية د المعراج ، ... صنعه محمد وأعطاه هذا الاسم ، وبه يسميه الناس ، وهو يشرح صعود محمد الى السماء بطريق المعراج ، كما ستسمعون فيما يلى وكيف رأى العجائب التى أطلعها الله عليها كما يقول هو نفسه ، وكما يتبين فى الكتاب .

ومعنى ذلك أن نسبة الكتاب الى النبي كانت موضوعة ومؤكدة بوضوح في نسخ الترجمة التي قرأها الاوربيون في المصور الوسطى .

وبعد ذلك يذكر المترجم في كلتا النسختين اللاتينية والفرنسية القديمة أنه نقل كتاب المعراج بأمر الملك ألفونس عن الترجمة الاسبانية التي صنعها إبراهيم الطبيب اليهودى تنفيذاً لأمر الملك نفسه .

ونقرأ بعد هذه المقدمة فهرست الفصول وعددها خمسة وثمانون فصلاً ، وهذه نماذج من عناوين الفصول :

الفصل الأول : الكلام في كيفية مجيء جبريل الى محمد ، وماذا قال له .

الفصل الثانى : الكلام في صفة الحيوان الذى أحضره جبريل إلى محمد ليذهب به الى بيت المقدس .

الفصل الثالث : الكلام في كيف سمع محمد أثناء سيره أصواتاً تناديه ، وماذا قال جبريل عنها .

الفصل الخامس : في صورة المعراج الذى عرج به محمد إلى السماء .

الفصل التاسع : الكلام في كيف رأى محمد أحد الملائكة في صورة ديك وكان نصفه من نار ونصفه الآخر من الثلج ، وماذا كان يصنع .

الفصل العاشر : كيف رأى محمد خازن النار ، وماذا قال لمحمد عن أمته .

الفصل الثانى عشر : الكلام في كيفية دخول محمد الى السماء الاولى ووصف ما وجد فيها .

الفصل التاسع عشر : الكلام في السماء الثامنة .

الفصل العشرون : الكلام في كيفية كلام الله الى محمد وكيف رأى عرش الله .

الفصل الثلاثون : الكلام في كيف رأى محمد سور الجنة ، وصفة السور وكيف خطا إليه .

الفصل الخامس والأربعون : كيف وجد محمد خازن الجنة ، وما ذا قال له ، وما ذا أراه .

الفصل التاسع والأربعون : الكلام في كيف تلقى محمد القرآن من الله .

الفصل الخمسون : في كيف خفف على محمد عدد الصلوات التي فرضها الله .

الفصل الرابع والخمسون : الكلام في كيف رأى محمد أرض الجحيم الأولى وما كان فيها من أشياء .

الفصل الستون : الكلام في الأرض السادسة .

الفصل التاسع والستون : الكلام في كيفية سؤال محمد لجبريل عما إذا كانت السموات والأرضون وسائر المخلوقات تتحدث فيما بينها ، وكيف أجابه جبريل .

الفصل السبعون : الكلام في كيف يفرق الله نعمه على الخلق .

الفصل السابع والسبعون : الكلام في الجبال المحيطة بالسراط ، وفي أنهار النار ، وسائر ما يوجد هناك .

الفصل التاسع والسبعون : الكلام في كيف رأى محمد مختلف ألوان العذاب عما يعانيه المخطئون في النار .

الفصل الثاني والثمانون : الكلام في كيف أخبر محمد أهل قریش بجميع ما رأى من أمور وكيف ردوا عليه .

الفصل الخامس والثمانون (وهو الفصل الأخير) : الكلام في كيف أملى محمد جميع هذه الأمور المذكورة ودونها وكيف جعل منها هذا الكتاب الذي سماه المراج .

وإذا نظرنا في بداية الكتاب تبين لنا أن القسم الأول منها لا يمكن أن يصدر عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنها في الواقع محاكاة لطريقة المؤلفين الأوروبيين في العصور الوسطى ، إذ يخاطب المؤلف الجمهور معرقاً بنفسه ، ذاكرة

اسمه واسم أبيه ووطنه ، وما ينتمى إليه من أمة أو جنس . وبذلك فنحن لا نشك في أن هذا القسم من وضع المترجم اليهودى ابراهيم الحكيم ، ولكنه سرعان ما ينتقل إلى وصف يحيى جبريل إلى النبي فيقول على لسانه : (بينما كنت في دارى بمكة راقداً في فراشى بجوار زوجتى أم هانئ .. أتانى جبريل الملك ، وظهر لى فى هذه الصورة ، كان وجهه أبيض من اللبن ، لا تشوبه شائبة ، وشعره أحمر فى حمرة المرجان ، بل أشد حمرة ، وأهداب عينيه طويلة ، وفه جميل فى صورة حسنة .. الخ جاءنى جبريل فى تلك الصورة ، وقال لى : يا محمد يا رسول الله ، قم واستعد .. واتبعنى لأن الله يريد أن يطلعك على أسرار عجائبه .. الخ) .

وفى النهاية شهادة من أبى بكر وابن عباس بصدق جميع ما فى الكتاب من أخبار ، ودعوتهما إلى تصديق كل صغيرة وكبيرة مما ورد فيه .

(انتهى كتاب محمد فى الصعود إلى السماء المسمى بالعربية « المعراج ») .

وجاء فى الترجمة الفرنسية ، أن الكتاب نقل من الإسبانية إلى الفرنسية فى سنة ١٢٦٤ ميلادية فى شهر مايو .

ونحن نعتقد أن هذا الكتاب الذى كان له بفضل نقله إلى اللغات اللاتينية والإسبانية والفرنسية فى العصور الوسطى ، ما كان من تأثير واسع المدى ، عظيم الخطر ، لا يزيد على كونه من المؤلفات الشعبية الإسلامية ، ولكن المترجم اليهودى أضاف إليه قليلا من الزيادات ليجمعه مماثلا فى صورته لكتب عصره . وكان احتفال الأوربيين به راجعاً إلى اعتقادهم أنه من تأليف النبي محمد على نحو ما قرره المترجم . ولكن دانتى استمد ما فيه من صور رائمة تمت إلى العقيدة الإسلامية بنسب قوى . ولم يعبأ دانتى بتصريف المترجم ، وإنما قصد إلى ما فى الرواية والأخبار من عقيدة وهدف وصور فنية .

الغلاة

في نظر الشيعة الإمامية

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد مهدي صابري
رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

الغلاة أصناف : منهم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ ، وهو أول من أظهر الغلو ، قال هؤلاء : حل في علي جزء إلهي واتحد بجسده ، وبه يعلم الغيب ، وأتى في القيام ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه ، وينتقل هذا الجزء الإلهي بنوع من التناسخ من إمام إلى إمام .

ومنهم الخطائية أتباع أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي ، قالوا : إن جعفر الصادق هو إله زمانه ، قال الشهرستاني : قد بالغ الصادق في التبري من أبي الخطاب واللعن عليه .

ومنهم المفوضة قالوا : إن الله خلق الأئمة ، ثم اعتزل تاركاً لهم خلق العالم ، وتدير شؤونهم .

ومن الغلاة من يدين بثالوث مكون من الأب وهو علي ، والابن وهو محمد ، وروح القدس وهو سلمان الفارسي . ومن الطريف قول بعضهم : إن يوم الأحد معناه علي ، ويوم الاثنين معناه الحسن والحسين .

وقد ذكر الشهرستاني في كتاب الملل والنحل فرقاً عدة للغلاة^(١)، ولكن هذه الفرق كلها ترجع إلى أن الأئمة آلهة أو أشباه آلهة أو أنصاف آلهة ، وعلى أي الأحوال فإن للغلاة دينهم الخاص ، وهو لا يمت إلى الإسلام بصلة ، وما زال كثير من

(١) وهؤلاء الفرق بائدة لا وجود لها الآن إلا في بطون الكتب .

الكتاب ينسب جملاً أو تشكيلاً عقيدة الغلاة إلى جميع فرق الشيعة حتى الإمامية مع أن الإمامية قد استدلووا بكتب العقائد والأصول على كفر الغلاة ووجوب البراءة منهم، ومن كل ما فيه شائبة الغلو. ومن أدلتهم على نفي المغلاة الآية ٧٧/المائدة «قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل، والآية ١٤/الزخرف: «وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين، وقول الإمام على كرم الله وجهه: (هلك فيّ اثنان مبغض قال، ومحب غال) وقول جعفر الصادق: (وما نحن إلا عبيد الذي خلفنا واصطفانا، والله مالتنا على الله من حجة، ولا معنا من الله براءة، وإنا لميتون وموقوفون ومستولون، من أحب الغلاة فقد أبغضنا، ومن أبغضهم فقد أحبنا، الغلاة كفار والمفوضة مشركون، لعن الله الغلاة، ألا كانوا نصارى ألا كانوا قدسية! ألا كانوا مرجئة! ألا كانوا حرورية (١)) أي خوارج، فالإمامية يعتقدون أن الخوارج الذين حاربوا علياً هم أفضل من الغلاة الذين ألوهوا وأبناءه.

وأجمع علماء الإمامية على نجاسة الغلاة، وعدم جواز تغسيل ودفن موتاهم، وعلى تحريم إعطائهم الزكاة وعلى أنه لا يحل للغالي أن يتزوج المسلمة، ولا للمسلم أن يتزوج الغالية مع أن الإمامية أجازوا الزواج بالكتابية، وأجمعوا أيضاً على أن المسلمين يتوارثون وإن اختلفوا بالمذاهب والأصول والعقائد. قالوا: يرث المحق من المسلمين من مبطلهم، ومبطلهم من محقهم ومبطلهم إلا الغلاة يرث منهم المسلمون وهم لا يرثون من المسلمين (٢)

(١) كتاب بحار الأنوار للعلامة المجلسي المجلد الثالث صفحة ٥١ و ٥٢ طبعة ١٣٠١ هجرية.

(٢) تجرد هذه الفتاوى في باب الطهارة وباب الزكاة وباب الزواج وباب الإرث من كتاب الجواهر وكتاب المسالك وكتاب العروة الوثقى وكتاب وسيلة النجاة الكبرى للسيد أبي الحسن الأصفهاني وغيرها من كتب الفقه للشيعة الإمامية.

أما عتيدة الإمامية بالصحابة ، فيدل عليها قول امامهم الرابع زين العابدين على بن الحسين عليه السلام في الصحيفة السجادية من دعاء له في الصلاة على اتباع الرسل . قال :

« اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحابة ، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره وكانفوه وأسرعوا إلى وفادته ، وسابقوا إلى دعوته ، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالته ، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته ، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته ، وانتصروا به ومن كانوا منطوين على محبته يرجون تجارة لن تبور في مودته ، والذين هجرتهم العشائر ، إذ تعلقوا بعروته ، وانتفت منهم القربات إذ سكنوا في ظل قرابته ، فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لك وفك ، وأرضهم من رضوانك وبما حاشوا الخلق عليك ، وكانوا مع رسولك دعاة لك وإليك ، واشكروهم على هجرهم فيك ديار قومهم وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه ، ومن كثرت في اعزاز دينك من مظلوميهم » .

الرابطه الوطنيه والرابطه الاسلاميه

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد المنعم الصمبدي
الاستاذ بكلية اللغة العربية

هذا الموضوع له صلة وثيقة أيضا بالغرض الذي تسعى إليه جماعة التقريب بين المذاهب ، فإنه إذا ثبت أن الإسلام ينظر إلى الرابطة الوطنية كما ينظر إلى الرابطة الإسلامية ، فبرعى حق المواطن غير المسلم كما يرعى حق المواطن المسلم ، ويجعل بينهما أخوة وطنية كالأخوة الوطنية بين المواطنين المسلمين ، لا تؤثر فيها المخالفة في الدين ، ولا يحط من قداستها أن كلا من المسلم وغير المسلم ينظر إلى الآخر نظراً مؤذياً من حيث الثواب والعقاب الأخرويان ، إذا ثبت هذا كانت رابطة المسلم بالمسلم أحق بالرعاية والتقدير ، لأن الخلاف بينهما لا يبلغ درجة الخلاف بين المسلم وغير المسلم ، ولأن كلا منهما لا ينظر إلى الآخر في الثواب والعقاب الأخرويين مثل النظر السابق ، نعم إن كلا منهما ينظر إلى الآخر على أنه عاص آثم بمخالفته له في المذهب ، ولكن هذا لا يبلغ ما يبلغ ما بين المسلم وغير المسلم ، فيجب أن يترك أمره إلى الآخرة وحدها ، ويجب ألا يكون له أثر فيما بيننا في هذه الدنيا ، إن لم يجب أن يزول أيضا من نفوسنا ، ليعذر كل منا الآخر في هذه الخلافات المذهبية ، ولا يرى فيها عصيانا ولا إثماً ، وإنما هي خلافات بريئة دعا إليها فتح باب الاجتهاد في الاسلام ، والمجتهد إن أخطأ فهو معذور ، وإن أصاب فهو مأجور .

وقد يظن كثير من الناس أنه ليس في الإسلام الا رابطة واحدة هي الرابطة الإسلامية ، فلا يكون فيه رابطة أخرى هي رابطة الوطنية ، لأنه لا يعرف حدود

الوطن ، ولا يعرف حدود القومية وما إليها من الحدود ، ولا يعرف العصية للوطن أو القومية على النحو الذي كان معروفا قديماً بين الناس ، ولا يزال معروفا بينهم في عصرنا الحديث ، وإنما أتى للقضاء على هذه العصية ، لتزول فيه كل عصية إلا عصية الدين ، وتذهب كل أخوة إلا الأخوة في الإسلام .

نعم قد يظن كثير من الناس هذا كله ، بل يظن أكثر منه ، فيظن أن الإسلام قد جعل المسلمين بعضهم أولياء بعض ، وجعل غير المسلمين بعضهم أولياء بعض ، فقطع ما بين المسلمين وغير المسلمين ، فلا يكون بينهم رابطة أصلاً ، ولا يكون هناك رابطة وطية تجمع بين المسلمين وغير المسلمين ، ويؤيد هذا بقوله تعالى في الآيتين - ٧٢ ، ٧٣ - من سورة الأنفال : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير ، والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

والحق أن هذا لا يفيد من يظن هذا كله في شيء ، لانا إذا حملنا الولاية في الآيتين على ولاية الإرث كما ذهب إليه بعض المفسرين ، كانت في موضوع آخر غير موضوعنا ، وهو ولاية المواطن للمواطن ، وإن كان أحدهما مسلماً والآخر غير مسلم ، وكذلك الأمر إن حملنا الولاية في الآية على غير ولاية الإرث ، كما ذهب إليه كثير من المفسرين ، لأن من حملها على الإرث ذهب إلى أنها منسوخة بقوله تعالى بعد الآيتين السابقتين : « وألوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » والحكم بأن ذلك صار منسوخاً بآية أخرى المذكورة معه في غاية البعد ، وهذا إلى أنه لا ضرورة تدعو إلى حمل الولاية على الإرث ، لأن لفظها لا يفيد إلا القرب ، فيمكن حمله على غير الإرث ، وهو كون بعضهم معظماً لبعض ، مهتماً بشأنه ، خصوصاً بمعاونته ومناصرته ، والمقصود أن يكونوا يداً واحدة على الأعداء ،

وأن يكون حب كل واحد لغيره جارياً مجرى حبه لنفسه ، وإذا كان اللفظ محتملاً لهذا المعنى كان حمله على الإرث بعيداً عن دلالة اللفظ ، وإنما كان حمل الولاية في الآيتين على هذا المعنى مثل حملها على الإرث في عدم المعارضة للولاية بين المواطنين وإن كان أحدهما مسلماً والآخر غير مسلم ، لأن الآيتين لم تنزلاً في مثل هذين المواطنين ، وإنما نزلتا في كفار قريش واليهود الذين اجتمعوا على حرب المسلمين وإلى بعضهم بعضاً على عداوتهم ، وكانت الجنسية علة ولاية بعضهم لبعض ، لأنهم لما اشتركوا في هذه العداوة صارت هذه الجهة موجهة للولاية بينهم ، ولقرب بعضهم من بعض ، ولم يكن اشتراكهم في هذا لأجل اتفاقهم في الدين ، لأن كل فريق منهم كان في نهاية الإنكار لدين صاحبه ، وإنما كان لمحض ما وقعوا فيه من الحسد والبغى والعناد ، على أن الآيتين إذا كان فيهما ما يفيد قطع الولاية بين المسلمين وأعدائهم من أولئك المحاربين ، فإن فيها ما يفيد الإبقاء على ما يكون من ولاية بينهم وبين غير المحاربين ، وهذا في قوله تعالى في الآية الأولى منهما : « وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » فليس في هذا ما يمنع من طغيان الرابطة الإسلامية على غيرها فقط ، بل فيه ما يفيد إثبات الرابطة الإسلامية عليها في بعض الحالات ، كما في هذه الحالة التي آثر فيها بعض المسلمين الإقامة في مكة على الهجرة إلى المدينة ، وكانت مكة في ذلك الوقت دار حرب ، فوجب الهجرة منها إلى المدينة تكثيراً لعدد المسلمين ، وزيادة في النكاح بأهل مكة ، فكان من أقام بها من المسلمين عاصياً بإقامته فيها ، وقد أوجب الله تعالى على المسلمين في المدينة أن ينصروهم في الدين إذا استنصروهم ، واستثنى من هذا أن يكون استنصارهم لهم على قوم من غير المسلمين بينهم وبين أهل المدينة رابطة ميثاق ، وهم أهل ذمة المسلمين ، بأن يكونوا مواطنين لهم أو معاهدين فأوجب عليهم مراعاة ذمتهم وعهدهم ، وآثر مراعاة ذلك على مراعاة الرابطة الإسلامية بينهم وبين مسلمي مكة ، لضعفها بإثباتهم دار الحرب على دار الإسلام ، وعودهم عن نصره لإخوانهم بالمدينة على أعدائهم بمكة ، فكان من حسن السياسة إثبات الرابطة السياسية على الرابطة الإسلامية في هذه الحالة ، لأن مسلمي أهل مكة

يظاهرون أهل الحرب ببقائهم بينهم ، وأهل الذمة يظاهرون المسلمين على أهل الحرب بمعاهدتهم لهم ، وإيثارهم مسألتهم على حربهم ، وفي هذا تقوية لجانب المسلمين على خصومهم ، فكان موقفهم من الناحية السياسية أحسن من موقف مسلمي مكة ، ومن مزايا الإسلام أنه لا يزن الأمور بميزان الدين فقط ، بل يزنها بميزان الدين وبميزان السياسة وغير هذا من الموازين الإنسانية ، ثم يأخذ في هذا بحكم المصلحة العامة ، وإن ترتب على هذا ما ترتب في هذه الحالة من إهمال مراعاة الرابطة الإسلامية ، وهذه مرونة دينية لا يكاد الإنسان يجدها في غير الإسلام ، ونظر بعيد يمتاز به على غيره من الأديان ، وتوجيه شامل يناسب تشريعه الشامل للناس جميعاً على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، ويلتزم حكمه العادل الذي لا يخص بعدله المسلمين وحدهم .

على أن في إيجابه تعالى على مسلمي أهل المدينة ، نصرة مسلمي أهل مكة ، إذا استنصروهم في الدين ما يفيد في الغرض الذي تسعى إليه جماعة التقريب بين المذاهب فقد حصل بعود مسلمي أهل مكة عن نصرة إخوانهم بالمدينة خلاف كبير بين الفريقين ، ولعله أول خلاف حصل بين المسلمين ، ثم طال أمده بينهم ، لأنه ظل من بدء الهجرة من مكة ، إلى السنة الثامنة منها ، وهي السنة التي فتح المسلمون فيها مكة ، وانقطع بها حكم الهجرة منها إلى المدينة ، لأنها صارت بعد فتحها دار إسلام ، فكانت الإقامة بها مثل الإقامة بالمدينة ، ولكن هذا الخلاف حصل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فوقف به عند حده الذي يجب أن يقف عنده ، وجعله خلافاً سياسياً لا دينياً ، فلم يحكم به على المسلمين الذين لم يهاجروا بالخروج من الإسلام ، كما حكم بهذا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في مثل هذا الخلاف أو أقل منه ، ثم أنه لم يتغال فيه بعد هذا حتى يصير إلى قطيعة بين الفريقين ، وينتهي إلى عداوة دينية أو سياسية ، كما انتهى الخلاف بين المسلمين بعده إلى مثل هذه العداوة ، بل بقيت الرابطة الإسلامية بين الفريقين في الحد السابق ، ووجب على مسلمي أهل المدينة نصرة مسلمي مكة إذا استنصروهم في الدين إلا على قوم بينهم وبينهم ميثاق ، فلم يؤثر الخلاف بين الفريقين في رابطتهم ، بل

كان مسلدو أهل المدينة ينظرون الى مسلمي مكة بشيء من الرحمة والشفقة ، ويعملون على ضمهم اليهم بكل وسيلة ، الى أن انتهى الخلاف بينهم بفتح مكة .

ويمكننا بعد هذا أن نحكم بأن الإسلام لا ينظر في سياسته الى الرابطة الإسلامية وحدها ، بل ينظر فيها الى غير الرابطة الإسلامية من الرابطة الوطنية ونحوها ، لأنه يمتاز على غيره من الأديان بأنه لا اكراه فيه على الدين ، فيدخل في حكمه المسلم وغير المسلم ، ويجتمع في وطنه الناس على اختلاف أديانهم وأجناسهم ، فيكون وطنه وطناً لهم جميعاً .

وقد نشأ الوطن الإسلامي المشترك بين المسلمين وغيرهم بعد هجرتهم من مكة الى المدينة ، فصارت المدينة بهذه الهجرة وطناً إسلامياً يحكم الكثرة الإسلامية التي ظهرت فيها ، فصار لها الحكم في أهلها ، وقد كان فيها جالية من اليهود هاجرت إليها قديماً قبل المسلمين ، واتخذت الصناعة والتجارة والزراعة حرفة لها ، وعاملت العرب بالربا الفاحش ، حتى ابتزت كثيراً من أرضهم وأموالهم ، ولما طال العهد عليها بين العرب انغمست في جاهليتهم ، وانقسمت إلى قبائل مثلهم ، فكان منهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، وكان العرب الذين يسكنون بينهم ينقسمون إلى قبيلتين كبيرين (الأوس والخزرج) وكان بين القبيلتين حروب وخصومات ، فاشتركت تلك القبائل اليهودية في هذه الحروب ، وانقسموا بها على أنفسهم ، ونسوا ما بينهم من رابطة الجنس والدين ، فدخل بنو قريظة في حلف الأوس ، ودخل بنو قينقاع وبنو النضير في حلف الخزرج .

فلم يضق الإسلام هؤلاء اليهود بعد أن آل أمر هذا الوطن اليه ، وبعد أن صار له الحكم فيه ، ولم ينظر إليهم كعنصر أجنبي دخيل على العرب . ولم تمتد عينه إلى ما لهم من أراض وأموال . استغلوا فيها غفلة العرب في جاهليتهم ، وحصلوا عليها بوسائل غير شريفة من الربا الفاحش وغيره ، لأن الإسلام دين سمح كريم ، لا ينظر إلى ما يثير الأحقاد ، ولا يبحث فيما يزرع الكراهية في النفوس ، وإنما ينظر إلى ما يزيل الأحقاد ويقتلعه ، ولا يعمل على هذا فيما بين أهله وحدهم ، بل يعمل عليه أيضاً فيما بينهم وبين غيرهم ، ليكون دين المحبة والصفح بين الناس ،

لا دين الاحقاد والكرامية بينهم ، ولهذا جاء بدفع السيئة من أعدائه بالحسنة منه ، كما قال تعالى في الآية - ٣٤ - من سورة فصلت : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .

فأراد الاسلام أن يجمع بين هؤلاء المتنافرين من العرب واليهود في هذا الوطن الجديد ، وقد قبله العرب ديناً لهم ، وبقي اليهود على يهوديتهم ، فجمع بينهم في هذا الوطن الجديد رابطة الوطنية ، ليعيشوا فيه جنباً لجنب لإخوانا في الوطن ، لا يفرقهم ما بينهم من الاختلاف في الدين والجنس ، لأن الاسلام يرى أن الدين لله يحاسب عليه في الآخرة ، وأن الوطن لجميع الناس على اختلاف أديانهم ، كما يرى أن الناس كلهم لأب واحد وأم واحدة ، فلا يصح أن تفرق بينهم فوارق من الاختلاف في الجنس ونحوه ، لأنهم خلقوا ليتعارفوا لا ليتناكروا ، كما قال تعالى في الآية - ١٣ - من سورة الحجرات : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » ، وبهذا كان الإسلام أول من أتى الناس بذلك الأصل العظيم : الدين لله ، والوطن لجميع الناس .

وقد توصل الإسلام إلى هذه الغاية العظيمة بإبطال ما كان بين أهل ذلك الوطن قبل الإسلام من معاهدات مفرقة بينهم ، ليعقد بينهم معاهدة جديدة تجعلهم إخوة في هذا الوطن ، فينسى العرب فيه أنهم عرب ، كما ينسون أنهم أوس وخزرج ، وكذلك ينسى اليهود فيه أنهم يهود ، كما ينسون قبائلهم التي كانت تفرق بينهم .

فمعد بين المهاجرين والانصار - الأوس والخزرج - واليهود معاهدة جديدة تخالف ما كان بينهم من معاهدات ، وتوافق الغرض الجديد الذي يريده لذلك الوطن ، وكتب بها كتاباً واحد فيه اليهود وعاهدتهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم وسأوى بينهم وبين إخوانهم في الوطن من المسلمين ، فكانت هذه المعاهدة فتحاً جديداً في السياسة الدينية ، أقرت حرية العقيدة ، وحرية الرأي ، وحرمة الوطن ، وحرمة النفس ، وحرمة المال ، ولم يحدث مثل هذا قبلها فيما بين أهل الأديان ، بل كل هناك الاضطهاد والظلم ، والتفرقة في الحقوق بين أهل الوطن ، للاختلاف في الدين أو الجنس ، فأزال الإسلام هذا كله بعده ، وقضى عليه بمرونته وسماحته .

قال شيخنا

حضرة النائب الفاضل الامام أحمد محمد بربري

ما زال قولهمو في النحو يعجبني حتى تعاطوا كلام الترك والروم
فعل فعول ومفعول ومفتعل هذا لعمري كلام غير مفهوم
هو بدوى انحدر إلى الكوفة أو البصرة أو بغداد أو غيرها من الحواضر ،
فرأى جماعة يتذاكرون النحو واستمع إليهم ، ففهم بل طعم ما يقولون ومضم .
فليس عسيراً أن يفقه البدوى إذا أنت قلت له : « ضرب زيد عمرا ، جملة تسكون
من فعل ماض أى حدث انقضى زمنه ، وفاعل أى محدث لهذا الفعل أو الحدث
ومفعول به أى واقع عليه الحدث .. ولن تجد صعوبة في لفهامه المبتدأ والخبر
وسائر المرفوعات والحال والتمييز وسائر المنصوبات والمجرور بالحرف أو بالإضافة
إلى آخر الأبواب والتفصيلات ..

أما أن تفهمه أن مفاعل غير فواعل وقواعل غير فعال ، وأن قال أصلها
قول وباع أصلها بيع وأن « قيسى » على وزن « فلى » ، فتلك مشاكل ما إلى حلها
من سبيل ، أو هذا كلام الترك والروم . وهو - فيما يرى أبو علانة - كلام
غير مفهوم .

قلت : على أنه لو فقه التصريف والأوزان وما إليها لأعجبه .. ولو طالت
إقامته في الحاضرة التي قدفت به بيدامته إليها لكان حرياً أن يفهم كلام الترك
والروم ، هذا الكلام غير المفهوم لديه إذ هو لم يزايل غبار الصحراء بعد .

قال : ولما كان حرياً أن يفقد كثيراً من سلامة طبعه ومقومات فصاحته ، وما كان كسبه فى علوم اللغة بمعوض خسارته شيئاً من فطرته القويمة الغنية عن النحو والصرف . . إن الجاحظ ليتحدث إلينا عن بدوى نزل عليهم ، وأقام معهم وحرص على أن تكون داره فى أحد أطراف البلد حيث تمتد الصحراء ، فهو لم يتعمق فى الحاضرة ، ولم يهجر البادية هجراً تاماً ، ولم يخاطب غير الجاحظ وأضرابه من أصحاب اللغة والأدب ، ومع هذا لم يبق - من حيث سلامة اللغة - هو هو الذى وردهم يوم ورد . . لأنه لخير لصاحبنا الذى لم يفقه ، فعمل فعول ، أن يظل هكذا جاهلاً كلام الترك والروم . خير له دون شك أن يظل حراً فى لغته ، وليت شعرى ما جددوا من القواعد أو السلاسل والأغلال إلا أن تعوقه وتعوق حر كاته الخفيفة الرشيقة ؟ دعه طليقاً ينطق ما قد يبدو خطأ إذا أنت أخضعتة لأحكام النحاة ، وإنهم لمضطرون إلى أن يحتالوا فيوائموا بين منطوق أبى علالة ، وبين قواعدهم ، وإنه لغير مضطر إلى أن يأخذ مقوله بمعيارهم .

قلت : ما أحسب د كتاب النحاة ، غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

قال : إنه لكتابك يوم تلقى ربك - أو كشف الحساب - هذا الذى لا يفادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها . فأما د كتاب النحاة ، - أعنى بمجمرع كلامهم بما فيه ما لم يصلنا - فقد غادر ما شئت من صغيرة وكبيرة ، ألم يمت علم من أعلام النحو وفى قلبه من د حتى ، أشياء ؟ إنه ليفتح د الكتاب ، فلا يرى أشياء كثيرة تعضها د حتى ، ود حتى ، ترغب إليه - ملحة الرغبة - فى أن يضم إليها متعلقاتها كاملة غير منقوصة ، ولكنه يموت قبل أن يشبع رغبة د حتى . ألا وإن حروفاً أخرى كثيرة لتمسك برقاب البصريين والكوفيين ، ناعية عليهم ، أنهم فرطوا فى ذواتها ، أو قسطوا عليها فأكلوا حقوقها أو منحوها غير مستحق فقرطوا وأفرطوا . فهذه الاسماء الخمسة أو الستة وهى شخوص قائمات بذواتها أو قل دولة مستقلة ، ذات سيادة لا تابعة لسيادة أخرى ، ولكنك ترى أصحاب النحو يعدون على هذه الدولة المستقلة ، ويأبون إلا أن ينزلوها منزلة التوابع فيلحقوها بدولة

« جمع المذكر السالم » ، إن لجمع المذكر السالم للملحقات أخرى كثيرة ، وإنه لغنى عن الأسماء الخمسة ، يسد أن سيؤويه وجماعته يريدون أن يضيفوا إليه جديدا ، وزيادة الخير خير لا يرفضه فرد ولا جماعة . إذن فما الحق بدولة « جمع المذكر السالم » . « أبون وأخون ... » وقال ابن مالك : لو قيل في حم حمون لم يمتنع ، لكن لا أعلم أنه سمع ، وقال أبو حيان يمتنع لأن القياس يأباه ، وجمع أب وإخوته كذلك شاذ فلا يقاس عليه ... وعن ثعلب أنه يقال في قم : فون وفين ، قال أبو حيان وهو في غاية الغرابة .

وهذا الذى لا يمتنع عند ابن مالك ، ولو أنه لم يسمع . كان من الممكن أن يُسمع ... فلو شاء خلف الآخر مثلا لقال مطولة نونية وضمها حمون أو حمين ، ثم نحلها الشفري أو تأبط شرا ، ولو أنه فعل لقال ابن مالك : لو قيل حمون لم يمتنع ولقد سمع .

قلت : ها أنتم أولاء تعودون إلى مناقشة الشيخ المستدرك فهو يطالبكم بالنصوص ، أفليس من يحفظ حجة على من لم يحفظ ؟ .

قال : فذلك النصوص أماننا إن أراد أقوال النحاة ، وما كان لى أن أخفيها أو أشكك في صحة روايتها ، أما إذا أراد بالنصوص الأب والأخ مفردين أو مجموعين جمع تكسير فأماننا كتاب الله وأحاديث رسوله وكلام العرب وفيها الأب والأخ والآباء والإخوة ، فأما الأبون والأخون فما أقل أن تجدهما ، وإذا وجدتهما ففي نحو « شربنى الأخينا » مما يتأتى معه إفراد الأخ وإضافة النون للتحلية ، كما هي في لباسين أو في شعر لا يخفى أنه مصنوع . فنحن نعلم أن قریشاً تقول : « آباء وإخوة » ، ولا تقول « أبون وأخون » ، إلا ماروى عن أبى طالب واستشهد به النحاة . أفتراه اخترعها ، أم تكلم بغير لغة قومه ؟ وإذا كان فعل فلم لم يقلها إلا مرة واحدة .

إن إلحاق الأسماء الخمسة أو إلحاق بعضها بجمع المذكر قد يكون ، لغة وقد يكون لغتية ، وقد يكون من أوهام النحاة ، وليس لى أن ألزمك بعض ما يمكن

أن يقال . فذلك قضايها يمتد فيها القول ويدور حتى ليدخل فى دائرة الدجاجة والبيضة أيتما أسبق وجوداً . وليس لى أن أرغب إلى الشيخ المستدرك فى أن يتخلف عن الصف ، وصف النحاة (الأبين) فهو أخوهم ولا منفعة لى فى شقاق بينهم ، ولكنى آخذ عليهم أن قواعدهم لم تحط باللغة إحاطة كاملة ، وليت شعرى أيكون السكّال من نصيب الإنسان ؟ لقد جد القوم كل الجد ، وفطنوا لكثير مما كان من الجائز ألا يفظنوا له ، على أنه قد فاتهم كثير . خذ مثلاً بآبى (البسط) و (القبض) فليست أشك فى أنهم لم يستنفذوها ، لأنهم عرفوا وعرفونا أن العرب تمد المقصور وتقصّر الممدود ، وترخم المنادى ، وتضيف النون تحلية كما تضيف الهاء فى نحو (ماله) و (سلطانية) إلا أن جميل بن معمر رخم بثينة غير مناد ، وسماها بثينة وبثين وبثة وبثن . وما أخسب النحاة وضعوا قاعدة لصنعة هذا . لقد بسطت العرب فزادت فى حروف الإسم والفعل فقالت : لو أن عمراً هم أن يرقودا ، أى يرقد . وسمت الفرقد (فرقودا) .

وليلة خامدة خمودا ، طخياء تغشى الجدى والفرقودا .

وقبضت فقالت : لاه ابن عمك . تريد فقه ابن عمك ودرس المنا . تريد درس المنازل . إلى غير ذلك من ظواهر كثيرة مبعثرة هنا وهناك وهى جديرة أن تبحث وتدرس .

واقعد رأيت أحد زملائى فى المجمع اللغوى يبدو الإهمال فى ربطة رقبته . قلت : إنك لتبدو مهملاً فى ربطتك هذه . قال : لقد ربطتها على الطريقة الإهمالية وهى آخر ما وصلت إليه الأناقة ، ولو خيل لغير الممتازين المتأنقين أن من يتزى كذلك خارج على قواعد الزى . إنه لإغراق فى الترف لا يعرفه إلا ذووه . ليقول غير المترفين إنه إهمال فلن يضير المترفين أن يقال هذا ، بل هم أنفسهم سمود : (الطريقة الإهمالية) فكذلك البدوى القمح يتأنق فى مقوله فتحسبه خرج على قواعد اللغة فى حين أنه بلغ أوج الفصاحة ، لقد تكلم على الطريقة الإهمالية كما يفعل المتأنقون فى هندامهم لا فى كلامهم . ولقد يضيق أصحاب النحو بمثل هذا البدوى الذى يأتى إلا أن يزعج بهم فى مازى . فليجدوا لهم لاله مخرجا .

قلت : أفيجوز لنا - وقد تأنقت العرب في لغتها الى حد إهمال قواعد اللغة - أن نحتذيها فنحمل قواعد النحو تأنقا فنرفع الحال مثلا وننصب المجرور ، ونرفع المنصوب ، ونزيد في حروف الكلمة وننقص منها الى آخر ما يدخل في باب الإنافة الإهمالية .

قال : على رسلك فأنا لم أزعم أن العرب أهملت قواعد اللغة ، بل زعمت أنك تحسبها خرجت على هذه القواعد . وحسبانك ليس حسبان العرب التي كانت تتكلم فتراعى حفظ النسب ، كما يقضى ميزانها الفطرى دون ما رجوع إلى القواعد التي لم تكن قعدت .. فإذا رأيت كلاما عريباً يجافى قاعدة من قواعد اللغة العربية نحواً أو صرفاً أو غيرهما ، فليس معنى هذا أن العربي أخطأ أو شذ ، بل معناه أن القاعدة الموضوعية قصرت فكانت غير جامعة أو مانعة .. على أنه ينسدر أن يعدم أهل (الفن) طريقة احتيالية تجعل القاعدة جامعة مانعة .

قلت : فكيف أتأنيق لغة على الطريقة الإهمالية ؟

قال : إنك تأبى إلا الإهمال غافلاً أو متغافلاً عن مدلول ضرب الأمثال .. لقد دعا أبو قير الناس إلى مذهبه الموسوم مذهب (اللذة) وهو إنما يعنى الم لذات الروحية ، يخاف من بعده خلف آمنوا بمذهب الم لذات أو الشهوات الحسية معتبرين أنهم لم يؤمنوا إلا بما آمن به أبو قير من قبل ، فهم أتباعه أو فقهاء مذهبه ...

قلت : لا أحب أن يصرفنا أبو قير عما نحن فيه ، نحن في اللغة العربية ، وأناقة التعبير .

قال : إن العرب لم تتأنيق ولم تعرف الترف اللغوى أو السكاليات إلا بعد أن استفدت كل الضروريات والمقومات اللغوية ، فكان لكل مدلول دلالة لفظية ، ثم دلائل لمظية كثيرة ، مكنت للعرب أن تنصرف في تلك الثروة اللغوية البالغة تنصرف صاحب الملايين - أو صاحب الآلاف المؤلفة إن لم يكن فوق الآلاف عد - الذى يريد أن يستمتع ، فلا يفوته لون مز ألوان الاستمتاع .. أفترانا نحن عرب هذه الأيام في مثل هذه الحال .

قلت : بل أرى مدلولات جد كثيرة ليس لها دال لفظى عربى ، فهذه أداة لم تسمها العرب ولم تعرفها ، وتلك آلة تتألف من مئات الأجزاء أو آلافها ، وما عرفت العرب لها كلا ولا جزءا ، وإذا تركنا عالم العلم والصناعة ، فقد نجد فى مملكة الحيوان أو مملكة النبات كثيرا جهلته العرب فلم تسمه .

قال : فأنت إذن فى طور استكمال الضروريات لا فى طور الكاليات والترف الكلامى ، أنت فى طور الله وحده يعلم متى كانت العرب فيه بالقياس إلى لغتها قبل أن تستكمل ، فكل ما يمكن أن يصح صحة علمية هو أن تطور لغة العرب كان بطيئا وكان فطريا .

قلت : فإن المجمع اللغوى هو الذى يؤدى الآن مؤدى التطور الغريزى .. وقد يستطيع أن ينجز فى أيام معدودات ما لم ينجزه التطور الفطرى إلا فى قرون ودهور .

قال : ليست المسألة يسيرة كما تصور ، فليس المهم وصف آلة وتنسيق أسماء المخترعات كما قال حافظ إبراهيم رحمه الله ، وإنما المهم أن يتقبل الناس هذا التنسيق وذاك الوصف .. ولو كان إلى وحدى مرجع الأمور لقبلك كل مسمى باسمه الموضوع له فى لغة صانعه ، فكذلك فعلت العرب فيما ورد لها .. لقد جاءنا من الغرب شئ اسمه (الراديو) فقلنا (مذياع) فلم يستمع إلينا وقالت الناس (راديو) ولو أنه جاء العرب قبل الإسلام أو فى صدره لقبلك الاسم والمسمى ، وما كانت لتخترع له (المذياع) .

قلت : فأنتم ياسيدى الشيخ مجددون ، بل مبالغون فى التجديد .

قال : إنه لن يضير لغة القرآن أن نضيف إليها جديداً ، وأن ندخل فى حظيرتها (الاتمبيل) و (الموتسكل) و (الراديو) و (الراديو) .

قلت : كما لا يضيرها أن نغفل قواعد النحو والصرف .

قال : هنا يقف حمار الشيخ ، فلست داعية خطأ ، وأنه ليضير لغة القرآن كل الضير أن نغفل قواعدهما ، فيخر علينا السقف من فوق ونحن لا نشعر .

جددوا ما شاء لكم التجديد في حدود ، هي أن تكون لنا جميعاً لغة واحدة : هي لغة القرآن . فأما أن تتكلم أنت اللغة العربية المصرية وأنا اللغة العربية العراقية ، فتلك هي الكارثة أو الهوة ، التي ودعوا القرآن أن نتردى فيها . . . إنه قرآن عربي غير ذي عوج . . . وأى عوج أعوج من أن تتخذها لغة ذات شعب ، فهذه الشعبة العربية المصرية ، وهاتيك الشعبة العربية الشامية ، وتلك الشعبة العربية الحجازية . . الخ . أفتريدون لها أن تصير إلى ما صارت اليه اللاتينية بالقياس إلى الفرنسية والإسبانية والإيطالية وغيرها من بنات اللاتينية .

قلت : وما حيلتنا إذا قضى التطور هذا القضاء ، أفنستطيع - والتطور سنة الله في خلقه - أن نقف في سبيله ؟

قال : لا أحد يكلف الوقوف في سبيل التطور ، ولكنه لا يفتعل افتعالاً ، وأتم حين تحاولون وضع لغة عربية مصرية وأخرى شامية وثالثة يمانية ، إنما تصنعون وتفتعلون . فأما التطور الذي هو من صنع الله ، فإنه يتلقى تلقياً اجتماعياً لا فردياً .

لقد ولد منذ نزول القرآن لغات وماتت لغات . وبقيت العربية القرآنية هي على كثرة كيد الكائدين وتربص المتربصين أن يعدوها من اللغات الميتات ولكن هيهات هيهات ، لقد مكروا ومكر الله والله خير الماكرين .. اذكر قوله تعالى : إنما نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ، وكن على يقين من إن حفظه يستلزم حفظ لغته ولو كره الكافرون .

قلت : إذا أعجز الكافرين أن يذهبوا ببلغة القرآن فإنه لم يعجزهم أن يفرقوا الكلمة ، ويشنتوا الأمة الواحدة أئماً لست أدري كم تكون في لغة الإحصاء والإحصائيين .

قال : تعلم أن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون . فلا تهولك السنوات والقرون التي تجاوزها المسلمون وهم في غفلة ساهون عن قوله تعالى : إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ، لقد حدثني شيخى المستر - وهو على بصيرة -

أن أمور الأمة الإسلامية قد يغلب الخوف فيها على الرجاء ، إذا لم تتعد نظرتك ظواهر الحال ؛ إلا أن مرسل محمد للناس كافة مبشراً ومنذراً ، لا بد محدث أمراً ، فإن الإسلام أكرم عليه سبحانه وتعالى من أن يكون عمره في الأرض تلك السنوات المحدودات التي فقه فيها المسلمون معنى الوحدة : معبود واحد ، وأمة واحدة هي أمة التوحيد .

قلت : فمن شيخكم المستتر هذا ؟ أو مستتر وجوباً أم جوازاً ؟

قال : بل وجوباً ، فهو ألطف من أن يظهر لذوى الجسوم الغليظة .

قلت : أو ما زلتُ فيما ترون غليظ الجسم ؟ ألا فاترجعوا البصر فمسي أن أكون غير كفيف ، ولعلى صالح لأن تظهرونى على شيخكم اللطيف ؟

قال : يزعمون أن بشار بن بروكان يشبه أن يكون فيلاً حين قال :

إن فى بردى جسماً ناعلاً لو توكأت عليه لانهدم

قلت : ولكنى است شاعراً ، وأعوذ بالله من بشار ومن جماعة النار .

قال : لو شئت لحدثتك عن بشار وعن الطين والنار .

قلت : بل عن شيخكم اللطيف ، والدين الحنيف .

قال : فهذا حديث لا يجيء ذيل كلام ، فإلى جلسة أخرى .

لَكِنْ قَالَ شَيْخِي

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوي
الأستاذ في كلية اللغة العربية

إلياس - إلياسين :

ستكون دراستنا في مجلسنا اليوم دائرة حول العلاقة بين هذين الاسمين بعد أن تكرر تعهدى لك بتلبية سؤالك في جلسات الاموس حتى لا نحال لدى ليّا وأن وعدى برق خلب .

وعسى أن نهدى فيه بمعونة الله إلى المرتضى من آراء العلماء في الصلة بينهما بعد أن أسمك رأيي المتخالفين ، وأوازن بينهما لتؤثر معى الحق عن بينة فتستريح نفسى ، وقبل التحدث عنها نعرض للمامة وجيزة في سيرة الرسول إلياس عليه الصلاة والسلام ، فهذا الرسول من نسل هرون أخى موسى الكليم أرسله الله بعد يوشع فتى موسى عليه الصلاة والسلام إلى قومه من بنى إسرائيل فى بعلبك وما حولها بالشام يدعوم إلى التوحيد ويفندهم فى دعائهم الصنم ، فنجوا الموحدون المخلصون ، وأحضر المعاندون المشركون ، كما قال تعالى حاكياً عنه :

« إذ قال لقومه ألا تتقون ، أندعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ، الله ربكم ورب آبائكم الاولين ، فكذبوه فإنهم لمحضرون ، إلا عبادة الله المخلصين . »

ولقد أوحى الله سبحانه وتعالى بهذه القصة إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه فى مكة المكرمة فى سلك سورة الصافات ، مبتدأة بذكر علم الرسول ومختمة بالتسليم عليه من الله ، على نمط القصاص الثلاث السالفة قبلها : قصة نوح ثم ابراهيم

ثم موسى وهرون ، قال جل من قائل : ، ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ...
وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين ، وإن من شيعته لإبراهيم ...
وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم ، ولقد متنا على موسى وهرون ...
وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهرون .

وهذه القصص الثلاث مع الترتيب الزمنى يتجلى فيها التكريم الإلهى للأبناء
فالآبناء ، سلام على نوح ثم سلام على ابنه إبراهيم ثم سلام على ابنى إبراهيم : موسى
وهرون ، وعلى منهاجها ذكرت قصة إيلياس بعد هرون ، وفيها التسليم عليه ،
كالتسليم على أبيه هرون من قبل ، قال عز من قائل : وان إيلياس لمن المرسلين ...
وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إيلياسين .

وهنا فى آية إيلياس عليه الصلاة والسلام مبعث الحديث المقصود لنا بالذات ،
غير أنه لا بأس من الإشارة الى أن قصة إيلياس أردفت بقصتى لوط ويونس
عليهما السلام فى السورة ، ولم تختتما بالتسليم عليهما ، كما اختتمت الأربع قبلها ،
وربما يطول القول اذا حاولت بيان الحكمة لذلك تفصيلا .

غير أنه يدرك السر فى ذلك اجمالا مما تقدم آنفا ، على أن فى ختام السورة
الشريفة بالسلام على عامة الرسل سلاما على لوط ويونس ، اذ قال سبحانه وتعالى :
« وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » .

والتعميم بالسلام على الرسل بعد تناول سيرهم ذات العبر والعظة تسليم عليهم
كافة ، فما ورد فى القرآن على حد ما ورد هنا تماما ما جاء فى سورة النمل ، فإنه
بعد سرد قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط ، قال عز من قائل : « قل
الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى » ، وقد قال المفسرون ان السلام بهذه
الصيغة العامة لا يقف عند المذكورين قبله ، بل يراد منه الشمول للرسل الكرام
جميعا عليهم الصلاة والسلام .

ولنعد الى ما نحن بسبيله خيفة أن يتفرع الحديث الى ما يتشعب فيه القول .

الياس - الياسين :

للقراء في الياس والياسين روايات متخالفة ، ولسنا في مقام دراسة استيعابية بل في خلاصة اجمالية تلزمنا أن نقف عند قراءة الأكثر التي يقرأها عامة الناس ، على أن القراءات مع الاختلاف كلاً أو لهجة أو حركة تنول الى هدف واحد في المعنى ، وذلك تيسير من الله على عباده المؤمنين .

قرأ الأكثر لإلياس والياسين بقطع الهمزة فيهما مع كسرهما ، فاختلف نظر المفسرين بناء على الاختلاف بين الاسمين في مستهل قصة هذا الرسول ونهايتها كما رأيت ، لجمهور المفسرين على الاتحاد بين الاسمين ، وأنهما علما لشخص لمسمى واحد هو الرسول عليه السلام ، وقلتهم على التغاير بينهما ، وأن الأول هو العلم الشخصي للرسول ، والثاني جمع مذكر سالم لهذا العلم على أحد اعتبارين سيأتي الكلام عليهما ، وهاك تفصيل القولين .

جمهور المفسرين :

ومن أوائلهم ابن جرير الطبري في تفسيره الكبير (كتاب جامع البيان في تفسير القرآن) فإنه بعد بيان أن القراءة السابقة التي اعتمدت مجالا لمشار الرأيين - هي قراءة العامة وأنها أصوب من غيرها من القراءات الأخرى قطع بجزءه الى تصويب الاتحاد بين الاسمين ناقلًا عن غيره الرأي السديد في الياسين فيقول: (ويقول إنه كان يسمى باسمين إلياس وإلياسين مثل إبراهيم وإبراهيم ويستشهد على أن ذلك كذلك بأن جميع ما في السورة من قوله سلام ، فإنه سلام على النبي الذي ذكر دون آله ، فكذلك الياسين إنما هو سلام على إلياس دون آله . . . ونظير تسمية إلياس بإلياسين قوله ، وشجرة تخرج من طور سيناء ، ثم قال في موضع آخر وطور سينتين وهو موضع واحد سمي بذلك) .

ثم يقول على هذا القول ، ويتلمس وجه التغاير بين اللفظين من بعده جار الله الزمخشري في كشافه إذ يقول : (وقرأ على الياسين . . . على أنه لغة في الياس . . . ولعل لزيادة الياء والنون في السريانية معنى) .

فها أنت ذا تراه أعتبرهما علماً شخصياً ، وترجى في ذيل عبارته أن تكون

الزيادة لمعنى مع جزمه أنهما لفتان فى العلم مسماهما وحد وإن لم يكشف له عن هذا المعنى بعد .

فقد التقي الطبرى والزحشرى فى رأى واحد هو الاتحاد بين الاسمين ، وإن كان معتمد الطبرى استعمال العرب من جهة والنظام المتبع فى السورة من السلام دون غيره من جهة أخرى ، وقد اقتفاهما كثير من المفسرين بعدهما ، فيقول أبو السعود عن الياسين : (هو لغة فى إلباس كسيناء وسينين) وقد نقل البيضاوى هذه العبارة بحروفها فعلق عليها الشهاب الخفاجى بما يزيد الموضوع وضوحا لا تجديداً فى معنى ، فقال : وجه التشبه بينهما أن الأول علم غير عربى تلاعبوا به لجعلوه بصيغة الجمع ، أو أن زيادة الياء والنون فى السريانية لمعنى كما فى الكشف لا فى الوزن ، وإلا لكان حقه أن يقول كميكال وميكائيل ، واختار هذه اللغة على هذا رعاية للفاصلة) .

وقال السيوطى فى الاتقان : (وإلباس بهمزة قطع اسم عبرانى وقد زيد فى آخره ياء ونون فى قوله تعالى : سلام على الياسين ، كما قالوا فى إدريس لإدراسين وقد جمع ملخص ما فات كله فى تفسيره روح المعانى خاتمة المفسرين الألوسى فقال : (إن إلباسين لغة فى إلباس ، وكثيراً ما يتصرفون فى الأسماء غير العربية ، وفى الكشف ولعل لزيادة الياء والنون معنى فى السريانية ، ومن هذا الباب سيناء وسينين ، واختار هذه اللغة هنا رعاية للفواصل) .

ومن عبارة الشهاب بدفع ما عساه ، يقال تعقبا على دعوى الاتحاد أن الاتفاق بين العلبين فى المدلول لا يقتضى التعبير آخر القصة بالعلم الثانى دون الأول ، فإن مراعاة الفواصل فى القرآن الكريم مما سما به الى أن لا يكون من مقدور البشر .

قلة المفسرين :

وقلتهم يرون التباين بين الاسمين المذكورين أول القصة وآخرها ، فالأول منهما علم شخصى للرسول عليه الصلاة والسلام ، والثانى منهما جمع مذكر سالم لهذا العلم بزيادة الياء والنون على سنن ما هو متبع فى جمع المذكر السالم .

وفي مقدمتهم الفراء نقل عنه النيسابورى : (قال الفراء أراد به الياس وأتباعه من المؤمنين كقولهم : المهلبون والأشعرون بتخفيف ياء النسبة) .
وكذا رأى أبو العباس المبرد ، فقد ذكر في الكامل لمناسبة الحديث عن التغليب في المتن قال : (وقال آخر :

قدنى من نصر الحبيبين قدى

يريد عبد الله ومصعبا ابني الزبير ، وإنما أبو خبيب عبد الله ، وقرأ بعض القراء : سلام على إلياسين فجمعهم على لفظ الياس ، ومن ذا قول العرب : المسامعة والمهالبة والمناذرة فجمعهم على اسم الأب (١) .

يريد أبو العباس أنه جعل كل واحد من عشيرته الأقربين الياس فجمعهم على لفظه ، ثم كرر أبو العباس هذا الحكم مرة أخرى لداع اقتضاه في باب النسب إلى المضاف ، ودأبه الاستطراد مع الاطناب ، قال : (وقد تنسب الجماعة إلى الواحد على رأى أو دين ، فيكون له مثل نسب الولادة كما قالوا أزرق لمن كان على رأى ابن الأزرق كما تقول تيمى وقيسى لمن ولده تيم وقيس ، ومن قرأ سلام على إلياسين فإنيما يريد الياس عليه السلام ، ومن كان على دينه كما قال :

قدنى من نصر الحبيبين قدى

يريد أبا خبيب ومن معه (٢)

من هذين النصين يتبين لنا أن أبا العباس يجعل إلياسين جمع مذكر سالم ، وإن كانت الجمعية للتغليب مختلفة السبب فيهما ، ففي الأول بتغليب النبي الياس على ذوى قرابته ، وفي الثاني على من اتبعوه في دعوته فإن ذلك لا دخل له في أساس الموضوع ، إذ المهم أنه عد إلياسين جمعاً كالجموع الشائعة في العربية وما أكثر الثنية والجمعية على سبيل التنايب ، وقد نظر اعتبار التغليب في جمع إلياس جمع مذكر سالم بالتغليب في الرجز المسوق مع الفراء في النقلين للنمائل بينهما في التغليب غير أنه يلاحظ أن التغليب في رواية الرجز المذكورة أولاً في النص الأول للثنى ،

(١) الكامل شرح الرغبة ص ١٣٢ — ١٣٣ ج ٢ .

(٢) الكامل شرح الرغبة ص ٤ — ٥ ج ٨ .

وفى روايته الثانية فى النص الثانى للجمع ، فالثنية والجمعية فيه على روايته مبنيان على التغليب ، والمبرد بصدد بيان التغليب ووقوعه فى الأساليب العربية .

والرجز المذكور الذى اعتمد عليه المبرد من أرجوزة قالمها حميد الأرقط التميمى الرجاز أحد البخلاء الأربعة ، ثلاثهم : أبو الأسود الدؤلى والخطيطة وخالد ابن صفوان ، يمدح بها الحجاج بن يوسف الثقفى ويعرض فيها بعبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، يقول فيها قبل الرجز المذكور :

أو ترِدِّى حوض أبى محمد ليس الإمام بالشحيح الملحد
أو ينَجِرْ فالجحر شر محسَد قدنى من نصر الخبيثين قدى (١)

وهو رجز جانف فيه الحق ومالاً به الباطل ، والناس مذ كانوا عبيد الدينار والدرهم ، استذلهم مطامعهم ، فطالت ألسنتهم ولم يتخرجوا من ثناء على جائر والنيل من أروع طامر :

وحضرتى بهذه المناسبة حادثة لها مغزاها ومرماها ، هى أن عمران بن حطان السدوسى الخارجى ، وكان رأس القيد من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم ، مر على الفرزدق ، وهو ينشد شعراً يمدح فيه ويهدح متحيفاً على من يثله ، آفتكا فى أطرائه على من يأمل فيه ، فوقف عليه وقال :

أيها المادح العباد ليعطى إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارج فضل المقسم العواد
لا تقل للجواد ما ليس فيه وتسم البخيل باسم الجواد

فبهت الفرزدق وقال : لولا أن الله عز وجل شغل عنا هذا برأيه للقيننا منه شراً .
إن الفرزدق وعمران مختلفان الاتجاه والزعمة ، فأبو فراس شاعر الهوى والشهوة ، وأبو سماك شاعر العقيدة المتعالى فيها على دنيه وطريقته .

(١) أو تردى : خطاب للماقة ، أبو محمد : كنية الحجاج ، الملحد : الظالم فى الحرم ، ينجر : يدخل الجحر ، محكد : ملجأ ، يريد أنه عائد بالحرم لا يستطيع أن يخرج إلى الحل .

وهنا ينبغي العود إلى المقام الذى كنا فيه فقول : إن هذا رأى السابق للفراء ، فالمراد اقتصر عليه النسفى ، ولم يزد عليه فقال فى تفسيره شارحا إلياسين (أى إلياس وقومه المؤمنين كقولهم الخبيون يعنى أبا خبيب عبيد الله بن الزبير وقومه) - والذى يحار الباطر فى فهمه اقتصار النسفى على هذا الوجه وقد رده قبله الزمخشري - وهو أصله الذى يجرى فى الوجوه البلاغية على سنته - بأسلوب لا بدع مجالا لقبوله فى صورة سؤال وجواب ، فكان من اللائق أن يذكر بعد الوجه الذى ارتآه الوجه الآخر الذى قطع به الإمام الزمخشري ليكون ذلك تجويزا للاعتبارين عنده مثلا .

لم أفهم السر فى هذا والعلم عند من يعلم السر وأخفى .

تصويب رأى الجهرة :

إن إلياسين هو إلياس ، ولا يصح أن يكون جمعا له ، لا من ناحية أسلوب السياق فى السورة ، ولا من ناحية الاستعمال العربى ، فهذان أمران :

(١) أسلوب السياق فى قصص المذكورين من الرسل قبل إلياس يقضى بأن السلام المنتهى به قصته عليه لأعلى آله نظير المختوم به قصة كل من نوح ثم إبراهيم ثم موسى وهرون ، وهؤلاء قد أعيد ذكرهم بأعلامهم دون تغيير فيها ، وقد تقدم فى كلام الطبرى ما فيه مقنع ، وقد شفعه بقوله : (فإن ظن ظان أن إلياسين غير إلياس ، فإن فيما حكينا من احتجاج من احتج بأن إلياسين هو إلياس غنى عن الزيادة فيه الخ .

(٢) إن اللغة العربية تحتم فى جمع العلم تعريفه بأل ، فكان من اللازم أن يقال : سلام على الإلياسين ، لأن العلم إذا جمع وجب تعريفه بأل بعد الجمعية جبرا لما فاته من العلمية عندها لوجوب تنكيهه حينها ، وكذا قالوا : إذا تلى العلم وجب فى مثناه التعريف بأل لمثل هذا تماما ، قال الزمخشري : (وكل مثنى أو مجموع من الأعلام فتعريفه باللام إلا نحو أبانين وعماتين وعرفات وأذرعات ، قال :

فقبل مات الخالدان كلاهما عميرُ بنى جحجحوان وابن المضلل

وفى حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه هؤلاء المحمدون بالباب (١).

ولم يفت الزخشرى فى كشفه رعاية ما دونه فى مفصله ، فيقول مؤيدا رأيه السابق ، مفنذاً الآخر بعد صحة اعتباره على قراءة وصل الهمزة إذ لا مانع منه معها وليس حديثاً معها أما على قراءة قطعها وهى التى نتكلم عنها فلا . مانع : (فإن قلت فهلا حملت على هذا إلياسين على القطع ، قلت لو كان جمعاً لعرف بالآلف واللام) .

ويشاكله أبو السعود فيقول حاكياً بصيغة التريض لهذا رأى مع الدفع له بالحرف (وقيل هو جمع له أريد به هو وأتباعه ، كالمهلين والخديين ، وفيه أن العلم إذا جمع يجب تعريفه كالمايين) وهذه عبارة البيضاوى بنصها ونفسها ، ونقل أبو حيان فى البحر ما ذكره الزخشرى ، ويشير الى كل ما سلف الألوسى ، ولا حاجة إلى نقل ما فى كتب المفسرين ، إذ أنها تصمد إلى هدف واحد هو رأى الصحيح ، ويحاولى أن أضخم إلى ما فاتت مختماً به ما قاله ابن منظور فى اللسان مادة (ليس) ومن قرأ على إلياسين فعلى أنه جعل كل واحد من أولاده أو أعمامه إلياساً فكان يجب على هذا أن يقرأ على إلياسين .

صفوة القول فى إلياس - إلياسين :

إلياس بقطع الهمزة وكسرهما علم شجعى اعجمى ، وإلياسين كذلك ، وليس جمعاً لإلياس ، ولا إلياس نفسه بعد قلب فتحته كسرة مع زيادة ياء ونون ، وإنما هو لغة ثانية فى الاسم ، هدا ما الله سواء الصراط وألهمنا الصواب .

قلت أحمد إليك الله على ما جلوت من عرفان فى هذا الموضوع ذى الشأن ، وقد أطمعنى التهم العلى فى التقدم إليك استزادة فى الحديث عن إلياس ، فإنه سمي به جد النبي صلى الله عليه وسلم ، فهل يعد هذا العلم معرباً وتقطع همزته وتكسر كإلياس علم الرسول ، والظن أنه لا يمانله ، ولكنى أتريث حتى تكشف لما عن حاله .

قال ألا تبصرني يا بنى مجهوداً فتترقني ولا ترهقني ، فقد تصيب عرقاً ، وليست
هتدي مُنة تشد من عزمي لأواصل الحديث ، ولكر (هان على الأملس ما لاقى
الدبر (١)) ولو أصبحت مستولاً لمر عليك أن تعنت فليس الجواب من المهون
كالسؤال .

روى التاريخ أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه كان في معية النبي صلى الله عليه
وسلم عند ما مر على مجلس للمرب لنشر الدعوة الدينية فسألهم أبو بكر عن أنسابهم
لإذ كان نسابة ، فلما انتهى الحديث الى ما طامن من كبرياتهم قام إليه غلام قد بقل
وجهه يقال له دغفل بن حنظلة الشيباني فقال :

إن على سائلنا أن نسأله والعبد لا تعرفه أو تحمله (٢)

فهلم يا بنى الى الصلاة لترح بها أنفسنا ، وسوف أجيبك غداً عما سألتني
إن شاء الله .

قلت : أما والله إن الرغبة الخالصة للعلم هي التي غطت على بصرى ، فعدرة
معدرة ، والعفو عن كرام الناس مأمول ؟
• للسلام صلة •

(١) في مجمع الأمثال (الهاء) يضرب في سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه .

(٢) في مجمع الأمثال (الهزلة) يضرب لتقدير المتولية .

(١) عاد

لوضرة الطالب الكبير السيد صدر الدين شرف الدين

صور - لبنان

مرتين خلق الله (عاداً) .
 خلقها يوم أنشأها أول مرة ، أمة ذات أيدٍ وقوة ، وخلقها يوم أنقأها عبرة ،
 يفتح منها للاعتبار كوة .
 وجودين أناح لها من عديمين .
 أخرج الأول من فناء الأزل .. من ظلامه ، وأخرج الثاني فناء الأبد ..
 من ركاهه .
 فعاشت « عاد » ، في أولها عيش حركة .. عيش ثلاثى ، وعاشت في ثانيهما
 عيش جمود .. عيش خلود .
 بقاء فى ، وفناء بقى .
 امتدادات ذرات آفاق وأغوار ، تواف هذه الاضداد المتوافقة في قصة « عاد »
 التى تقض « القرآن » ، الكريم الغبار عن أوراقها ، وعلقها في (كعبة) التاريخ .
عاد في القرآن :

والحق أن « عاد » ، كانت جديرة أن ترتد إلى رحم الأزل لولا عناية القرآن
 الكريم ، فإذا قلت منها خبر ، لم يؤخذ إلا على أنه أسطورة من تمويه الخيال ،

وصنع الوضاعين ، ولكن القرآن الكريم جلاها حقيقة تاريخية ثابتة ، ثم أعارها من الاهتمام ما أعاد خلفها كما بدأه أول مرة ، فهي فيه مدار حديث يتكرر بالخاح شديد ، ويظهر بانتان كلما استخدم التاريخ القديم لتنبية الطغاة ، في صدد بيان قدرته ، وأخذه بأعراف الأقوياء ، ونواصي الجبابرة ، وقد صورده عاداً ، في هذا الصدد قوة من القوة ، في مختلف المظاهر وشتى الأشكال : في بناء الأجسام ، وغفوانية الانفس ، ونشاط الحياة ، وضخامة الآثار ، وشدة البطش ، وبعد النفوذ ، وعظمة الثروة ، ولم تكن عنايته أقل ، إن لم تفق ، عنايته بقوم نوح قبلها ، وبشود و قوم لوط وإبراهيم ، وبفرعون وأهل مدين بعدها ، بل لعله يصورهم أرسخ الأمم القديمة وأشدّها شكيمة .

وأقل ما يترتب على هذا الأكيد الملح من أثر ، نفي الزيف عن وجودهم التاريخي (١) ، وحمايته من شكوك التحريف الذي تناول تفاصيل أخبارهم بتصوير أسطوري ، اشتباه بعض القصاصين مثل كعب الأحبار لبتع به بعض الملوك ، مثل معاوية ، أو يضلّ به الرأي العام وفق سياسة معينة .

وقد تحدث القرآن الكريم عنهم في مواضع كثيرة منه ، تحدث عن عاد في سورة الأعراف ، وفي سورة التوبة ، وفي سورة هود ، وفي سورة إبراهيم ، وفي سور : المؤمنون ، والفرقان ، والشعراء ، والعنكبوت ، والسجدة ، و (ص) والأحاف ، و (ق) ، والذاريات ، والنجم ، والقمر ، والحاقة ، والفجر .

نعم لم يكن القرآن مؤرخاً ، وإنما أوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم من

(١) في محنة ابن رشد نسب إليه خصومه كلة قيل إنها من أسباب نكبه ، وهي أنه قال — وقد شبهت عاصنة بريح عاد — : « وأن وجود عاد ما كان حقاً فكيف سبب هلاكهم » . ويقول عندى افتراء هذه الكلمة عليه أنه — وهو العالم الفلكي — لا تخفى عليه طبيعة الريح التي يصورها القرآن ، وهي لا تزيد عما تسجله المراصد اليوم من سرعة العواصف التي تقتلع الأشجار ، وتهدم القصور ، وما أطن عصر ابن رشد غريباً عن هذه العواصف ، هذا فضلاً عما يصحح ، مناد الآية من وقوع منازل عاد في مواقع بركانية .

« أبناء الغيب » (١) ونتائج التاريخ ، عبراً تأخذ بأعناق قومه إلى الاستقامة والإيمان ، وعاد من تلك الأنباء مثل ما جاء مقصوداً لذاته كي يتخذ منه موضوعاً مستقلاً ، وإنما جاء شاهداً من شواهد الحياة في مرض التحذير من العصيان ، والإغراء بالطاعة ، أو جاء - بعبارة أخرى - مشهداً من مشاهد العرض التاريخي في رواية الحياة .

ومع ذلك فقد توافر حديثه العميق المحمل بالمعاني على إبراز ملاحظتها ، وتحديد أهم العناصر التي يحتاج إليها باحث يريد أن يؤرخ لعاد ، لحدد زمانها ، وحدد مكانها ، ووصف طبيعة أرضها ، وموارد عيشها ، وقوتها وفنها العمواني ، وثقافتها الزراعية والحيوانية ، ثم صور كارتتها في ضبط حسابي دقيق .

واليك صوراً من حديثه عنها كستندات في هذه الخطوط الجوهرية من حياتها :

زمانها :

« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله . جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به . وإنا لاني شك مما تدعوننا إليه مريب ، سورة إبراهيم .
« وأنه أهلك عاداً الأولى ، - النجم - والأولى : القديمة خلافاً لوم القدماء الذين رأوا عاداً ثانية ، إذ ظنوا (الأولى) عدداً . على حين أنها وصف .

« وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . » « وأرعبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح . وزادكم في الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ، الأعراف .

ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ، أتتهم رسلهم بالبينات ، النوبة .

(١) « تلك من أبناء الغيب نوحياً إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر أن العاقبة للمتقين » . سورة هود

مكانها :

« واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالآحفاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ، ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، الآحفاف .

طبيعة أرضها :

أثناء الجدل بين هود وقومه قال « ويا قوم استغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرادا . ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين ، هود .

قوتها وفنها العمراني :

« كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود : « ألا تتقون ، . » أتبنون بكل ربيع آية تعبون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فأنقوا الله وأطيعون ، وأنقوا الذى أمدكم بما تعملون ، أمدكم بأنعام وبنيين ، وجنات

وعيون ، الشعراء

« ألم تركيب فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلاً في البلاد ، الفجر .

طغيانها :

« وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقولوا من أشد منا قوة ، أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يمجدون ، السجدة .

كارثتها :

« فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً - شديدة البرد . أو ذات صرير - في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، السجدة .

« كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر - شديد المرارة أو متتابع - تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر - منقطع - ، القمر .

« فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين ، الآحفاف .

ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من هذاب غليظ ، هود .

مدة الفارة :

« وأما عاد فأملكوا برح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لم من باقية ، الحاقة .

صدى أخبارها :

كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى الريح نزع وقال : اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به ، وإذا رأى بخلة - غيمة - قام وقعد ، وجاء وذهب ، وتغير لونه ، فيقال له : يا رسول الله مم تخاف ؟ فيقول : أخاف أن تكون كارثة عاد إذ قالوا هذا عارض ممطرنا (١) .

وكانت أشد آية في جميع القرآن ، وأشق آية نزلت على النبي - كما يقول عبد الله بن عباس - هذه الآية :

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ، هود . وهي من الآيات الشداد الواردة في هوامش قصة عاد ، والتعليقات عليها ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حين نزولها : لقد شيتنى هود والواقعة وأخواتهما (٢) .

المحصول القرآني :

يخرج الباحث من القرآن : هذا المصدر القدسي الأسمى ، مطبئاً يمشى في أرض « عاد ، على وضع بين غثار التاريخ ، ويبيده من القرآن « بوصلة ، تدله عبر المحيطات الخبرية على مقر عاد وراه الرمال .

والواقع أنه رسم لها صورة كاملة ، وأن لم يتخذ موقف المؤرخ ، لجاء تمامها على وجه توبيده مكتشفات العلم الحديث إحدى معجزاته التي جعلها القدماء ، وخرّجوها لجهلهم - وهم معذورون - تخريباً أسطورياً لا طبيعياً .

(١) الكشف ج ٣ ص ٤٤٨ والبداية والنهاية قصة هود .

(٢) الكشف ج ٢ ص ٢٣٧ .

وقبل أن أقص حكاية عاد مسدودة النفرات ، أحب أن ألم أطراف صورتها العلمية القرآنية الرائعة ، في ضوء ما علق بالذاكرة من نتائج الأدلة المادية المستخرجة من النصوص والمقارنات والآثار والبحوث (الجيولوجية) و (البيولوجية) و (الأنثروبولوجية) وما شاكلها من المعارف المتشابهة التي سهلها وقدمها للناس رجال الاختصاص بمجهود يقل عنه شكره مهما عظم .

ضجة بابلية :

وقبل البدء يجب الاعتراف بأنني في منغاي هذا على شاطئ صور من الأبيض المتوسط ، لا أملك من مصادر التاريخ غير (ضرواء بابلية) من هذين المؤرخين القدماء ، وتشوشهم في هذا الموضوع ، وغير ذكريات دراسة تنقذها من العقم ملكة الفكر والتأمل والمناقشة ، أما الأدلة المادية من شواهد العلم الحديث فبعيدة عني الآن ، إلهما في أدراج لا تألف منغاي المهتم بأخبار المعارك العشارية في ظل نظام قبل : أنه ديمقراطي ١ .

ولو كنت إزاء بطل مثل (عوج) ابن عنق ، لهان الأمر ، وسهل الحديـ كنت - إذن - أحذئك عن أعاجيبه يوم يحجر بالطوفان ، وراح ينقل فوق أمواجه ساقين : قصبتهما أطول من سارية السفينة ١ وكنت - إذن - في سعة الحرية الأدبية ، استخدم ما تشاء من خيال ، واصطنع ما تشاء من إغراب ، في أمن من صرامة المهج التاريخي ، ورقابته العلمية .

ولكنني من عاد ، إزاء حقيقة تاريخية يلزمني المنهج أن أتحدث عنها بأمانة . وأن أنقلها بواقفها نقلا مؤثرا مافعا ، باعتبارها جزءا من ذلك (المركب) العظيم : الإنسان والأرض والحضارة ، إنسانا وأرضا وحضارتا .

وأنه لو لم ذلك الرأي الذي يقول بتحرر الحاضر ، كل حاضر في ماضيه ، فإن الحاضر - في أصح الأقوال - إنما هو نتيجة من نتائج الماضي الحتمية ، وأن خفيت المقدمات ، أو تماصت على الانهزام لحفاء أسباب الربط ، ونحن الآن في حاضر يأخذ برقبته ماض قديم ، ويشد على خنافة بقبضة قاسية يضاعف قسوتها أهما تمتد إلى عقه في ظلام ، ولكي نحرره من قسوتها ، ولا أقول منها ، يجب

أن نستجلى الماضى استجلاء متصلاً متسلسلاً ، وندرسه على أنه حكايته البشرية ..
حكاية حياتنا المأضلة فى هذا الكون ، وبهذا نفيد من الماضى إخضاع تجاربه
للارتقاء لا لامتناع الأذواق وإرضاء العواطف . واستتارة الإعجاب فقط .

و د عاد ، كانت ساقية من نهرنا الكبير ، نعم ودفعها سوء المصير إلى أرض
رملية عطشى ، فلم تلبث حتى ابتلعها ، ولم ينه الأمر ، فقد التقت على رمسها رياح
القضاء الهوج ، وبراكين الأعماق الحر ، هذه تقيؤها ، وتلك تدملها ! .

ترى أنتهى القصة عند هذا الحد ؟ لقد مضت آلاف السنين على هذا الحادث
العجيب ، أفينأس ؟ إنها حلقة من حياتنا ضاعت ، ولكن لابد من العثور عليها ،
إن لم يكن الآن فى وقت آخر ، وإن لم يكن بيدى فيد باحث غيرى .

وأكثر ما أستطيع أنا فى هذا المنفى المهم بتفامات الإقطاع ، وسخافات
العصبيات ، أن استهدى إلى تحديد زمنها بهدى القرآن مستعيناً بحركات المجتمع
البشرى الكبرى التى دارت حول الجزيرة فى قلب هلالها الخصب ، وشواطئ
الأيض المتوسط .

كانت الأمة العربية نائمة فى مهدها .. هذا صحيح ، ولكن الأمم النائرة على
أسوارها عيت بها أحياناً كثيرة ، ومتى استطيع العثور على رأس الخيط ، فى
تحديد زمن معروف لهذا الشعب الضائع منا ، فإن لم أستطع فحسبى أن أستفهم .

من هى عاد ! ومتى ظهرت ؟ وأية أرض عمرت ؟ وكيف عمرت ؟ ومن أين
جاءت ؟ ما عتيمة عاد ؟ ومن هو د هود ، نبيا ؟ وكى عاشت ، وكيف انتهت ؟
ولماذا انقرضت ؟

تلك هى الأسئلة التى تجيب عنها قصة د عاد ، التى أما بسددها ، وليس شئ .
أسهل من تأليف هذه القصة على من يفتح (ضجة بابل) ويصاب بعدواها ، أما
الذى يخرج منها مالكة لآسره ، فسيجد فى تأليفها حرجاً من أيسره عناء التوفيق
بين متناهات المسابين بالضجة البابلية ، وليس شئ أهدى إلى المعرفة فى هذا
الخضم من التمسك بعرى القرآن ؟

أثر الفلسفة الإغريقية في الفكر الإسلامي

لمحاضرة الطائفة الفاضلة الدكتور محمد البرهي
أستاذ الفلسفة في كلية اللغة العربية

— ١ —

(١) مما لا شك فيه أن تنظيم الجدل وأسلوب الحجّة في الفكر الإسلامي قد استفاد كثيراً من المنطق الإغريقي الأرسطي .

والفكر العربي ، وإن كان يعرف قبل الاطلاع على المنطق الإغريقي ضرر .
التخيل في الاقتناع - إلا أنه قد ربح بالتركيب المنطقي الدقيق الذي عرف في الفياس
الأرسطي ، وأفسح له المجال في المناقشة وتبادل الحجّة العقلية .

(ب) كما تجاوز به نطاق الجدل في الحجّة إلى تنظيم العلوم العربية ، وتوسيع
دائرة الاحتمال العقلي في بحث أصول الفقه على وجه خاص ، وكتاب (المستصفي)
للغزالي مثل واضح لذلك .

وقد كان المنطق الإغريقي بعد أن ترجم إلى اللغة العربية سبباً قوياً لدى العرب
في ترجمتهم بقية أنواع الفلسفة الإغريقية : من إلهية وأخلاقية ، ورياضية وطبيعية .

(ج) والفكر الإسلامي كما انتفع في صورة إيجابية بالمنطق الإغريقي على النحو
المشار إليه - انتفع أيضاً بالجانب الرياضي : فاستخدم تعلم الرياضة لتربية المملكات
الذهنية وللتدريب العقلي على العموم . ومن ناحية أخرى نأثر بها في تنظيم العلوم
العربية وضبط قواعدها ، وباب الميراث في الفقه الإسلامي ، وحصر احتمال
الدلالات والإمكانات حصراً عقلياً في العلوم العربية يشير إلى هذه الظاهرة .

- ٢ -

لكن بقية جوانب الفكر الإغريقى : وهى الإلهيات والأخلاق لم يستطع الفكر الإسلامى أن يتأثر بها بحيث تُعد مقدمات أو لبنات فى بنائه ، أو بحيث تمثل حلقة فى تطوره ، وذلك لأن الفكر المنطقى الإغريقى ، وكذا الجانب الرياضى فيه عندما ترجما إلى اللغة العربية وجدا ميدانا رحبا خالياً فى تاريخ الفكر الإسلامى فلم يكن الإسلام رأى معين فى هذين الجانبين .

هذا سبب . وهناك سبب آخر هو أن هذين الجانبين كانا جديدين كل الجدة على العقلية العربية لما لهما من طابع الدقة والضبط .

أما الجانب الإلهى وكذا الجانب الأخلاقى من الفلسفة الإغريقية ، فبعد توجعتهما إلى اللغة العربية وجدا أن الإسلام بتعاليمه فى الإلهيات والأخلاق قد سبقهما فى قيادة التوجيه فى الجماعة الإسلامية ، وفى احتلال المسكان الأول فى تفكير المسلمين وإيمانهم .

ولهذا وضع العقل الإسلامى هذين الجانبين موضع النظر والاختذ والرد ، وكان مقياس ردهما ودفعهما هو نفس مقياس الأخذ بهما وقبولهما ، كان هذا المقياس هو الدفاع عن الإسلام .

وإذا قيل : إن الفكر الإسلامى قد تأثر بالفلسفة الإلهية والأخلاقية الاغريقية ، فذلك على معنى أن هذه الفلسفة قد أثارَت عملاً عقلياً لدى المسلمين واسع النطاق ، يدور مرة حول قبول هذه الفلسفة ، ومرة أخرى حول رفضها ، فالدين يُعرفون بفلسفة المسلمين كالفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد دار عملهم العقلى حول التدليل على أن الفلسفة الإلهية والأخلاقية الاغريقية توافق تعاليم الإسلام ، ويلائم بعضها بعضاً .

وعلماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة وإن قبلوا بعض مبادئ الإغريق فى ذلك كبدا الجوهر الفرد ، ومبدأ الوحدة من كل وجه فى العلة الأولى ، إلا أن صفتهم العقلية كانت تدور حول بيان : أن الفلسفة الإغريقية الإلهية والأخلاقية

تعارض مع تعاليم الإسلام ، إما من كل وجه أو من بعض الوجوه ، ففكرة قدم العالم ، وفكرة الفيض ، والقول بالطبع في شأن العلة الأولى ، والقول بأن العلة الأولى مادة رقيقة على نحو قول الرواقيين ، والقول بعدم مسئولية الإنسان أمام الموجود الأول ، والقول بأن الموجود الأول لا يعرف ما يدور في العالم ، وبالتالي ليس مريداً للشرفية . وأمثال هذه الأقوال كانت محور المعارضة من جانب أو دفع هذه المعارضة من جانب آخر .

لهذا لم يأت المسلمون في إلهيات الإغريق وأخلاقيهم بجديد يعد بناءً واستمراراً في تطور الفكر الإغريقي ، كما لم يتأثروا بهذا الفكر في هاتين الناحيتين تأثراً إيجابياً بحيث يصور في نفسه مرحلة تمد لاحقة لما قبلها ومقدمة لما بعدها .

ولكن مع ذلك بصرح أن يقال : أن الفكر الإسلامي الفلسفي عند ما نقل إلى الغرب لم يكن هو نفس الفكر الإغريقي الذي نقل إلى المسلمين أولاً ، بل الذي نقل إلى الغرب عن المسلمين ، كما يمثل الفكر الإغريقي يمثل الكناح العقلي للمسلمين حول مبادئ الفكر الإغريقي في هذين الجانبين : الإلهي والأخلاقي على وجه أخص . هذا الكناح الذي طال أمده ، واتسعت رقعته ، واشتركت فيه أجيال متعاقبة من علماء المسلمين في شرق الدولة الإسلامية ومغربها .

ولهذا لا أعتبر تعليق أمثال جولد زهر المنغاري ، وهارتمان الألماني ، وكارادى فو الفرنسى من المستشرقين ، وأخالفهم الرأي فيما يقولونه ، فهم يذهبون إلى أن المسلمين لم يستطيعوا أن يهضموا الفكر الإغريقي ، ولذا لم يكن لهم بناء في مدارس الإغريق ، ويملكون ذلك بأن العقل العربي يستطيع التقليد والمحاكاة ، ولكنه لا يقدر على البناء .

لا أميل إلى اعتبار هذا التعليق اعتباراً علمياً من جانب أمثال هؤلاء المستشرقين لأن السبب في أن العقل الإسلامي لم يأت بجديد في الفكر الإغريقي الإلهي يعد استمراراً في تطوره - يرجع إلى أن في الفكر الإغريقي القديم ما يعارض تعاليم الإسلام ، ولهذا اتجه العقل الإسلامي بعد أن اطلع على الفكر الإغريقي من أول

الامر، إما لإبراز هذه المعارضة أو محاولة سترها، وإذن لم يكن السبب هو ضعف العقل الإسلامى عن الانتاج الفكرى ، إذ لو كان العقل الإسلامى ضعيفاً عن الانتاج الذهنى ، لما استطاع الكفاح في صورة القبول والدفع للبداءى الاغريقية التى تتعارض مع الاسلام ، ولما استطاع البناء في جوانب أخرى كالطب والرياضة مثلاً .

فهذا الكفاح هو كفاح عقلى وإنتاج عقلى ، ولكنه لا يعد استمراراً لتفكير سبقه ، لأنه لم يقم على أساس التسليم بما سبقه والاعتراف به .

ولهذا لا يصح أن يدعى أيضاً أن مرحلة آباء الكنيسة في القرون الوسطى التى يمثلها توماس الاكوبنى وأوغسطين ، تعد فقط ترديداً للمكر الاغريقى ، إذ الذى عمله المسلمون في الهيات الاغريق وأخلاقهم يشبه ما عمله مفكرو المسيحية في القرون الوسطى في هذين الجانبين .

إن الفلسفة تنشد الحقيقة لأنها ولدت من صراع العقل الانسانى العام ضد الهوى والتحيز ، إن الفلسفة نشأت عن ثورة مفكرى الاغريق ضد اصحاب المعرفة الدينية في جماعة الاغريق بعد أن سلك هؤلاء في توجيه المعارف الدينية مسلك الحريص على تحقيق مصلحته الخاصة ، ولكن باسم الله أو باسم العقل العام الذى هو آية الله في هذه الأرض .

إن الفلسفة لذلك تنكر على المشتغل بها أن يتحيز ، وأن يؤمن مقدماً بفكرة معينة في موضوع يبنى بحثه والحكم عليه .

جار الله الزحشرى وَأَنشَرَهُ فِي الْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ

لقصة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ على الممارى
المدرس بالأزهر

ثلاثة من أعلام العلماء نشأوا في إقليم واحد ، في ثلاثة عصور متتابعة ، وكان لكل منهم أثره في علوم البيان ، أولهم الإمام عبد القاهر الجرجاني (النحوى) ، وقد عاش في القرن الخامس ، والثاني جار الله ، وقد عاش في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس ، وثالثهم أبو يعقوب السكاكى ، وقد شهد جزءاً كبيراً من أواخر القرن السادس ، وجزءاً آخر من أوائل القرن السابع (توفى سنة ٥٦٢٦هـ) .

كتب عبد القاهر أربع ما كتبه في علوم البيان - وإن كان ابن خلدون لم يذكره فيمن دونوا هذه العلوم - وكان طبيعياً أن يتأثر به العالمان بعده لقرب الديار ، ووفرة الرغبة - عندهما - في الاطلاع والدرس ، فأما السكاكى فقد تأثر بعبد القاهر تأثراً بعيد المدى ، ويظهر ذلك واضحاً لمن يطالع ما كتبنا .

ولا يفوت السكاكى أن يشيد بجهود عبد القاهر ، ويثنى عليه ، وأما الزحشرى فعلى طول ما نظرت في كتابه لم أعتد فيه إلى رتبة الشيع السكبير ، ولعل مرجع ذلك إلى قرب العهد ، وسوء حظ الشيخ في مبدأ الأمر ، فقد جنت عليه إقامته في بلده ، وعدم مغادرته ، فلم تعرف كتبه إلا بعد حين .

ومع عدم تأثر الزحشرى بعبد القاهر - فيما ظهر لى - لم يدع الزحشرى أنه في هذه الدقائق البيانية ابن مجدتها ، وإنما كان يحيل على علماء البيان ، ولكن

لا يبعد أنه نظم بعض المعارف البيانية ، وامتدى إلى بعض الجزئيات ، ولا أشك في أن السكاكى استعان بصنيع الزخشرى هذا ، وامتدى بنبراسه في كثير من قواعده التى دونها فى كتابه (المفتاح) ولضرب لذلك مثلاً ، عند قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ، يقول : (واعلم أن هذا النوع من الاستشاف يحى تارة بإعادة اسم ما استوفى عنه الحديث كقولك ، أحسنت إلى زيد ، زيد حقيق بالإحسان ، وتارة بإعادة صفته كقولك ، أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك ، فيكون الاستشاف بإعادة الصفة أحسن وأبلغ لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه ، وفى اسم الإشارة الذى هو أولئك إيذان بأن ما يرد عقبيه ، فالمدكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الحُصَال التى عدت لهم كما قال حاتم ، والله صعلوك ، ثم عدده خصالاً فاضلة ، ثم عقب تعديدها بقوله :

فذلك إن يهلك لحسنى ثناؤه وإن عاش لم يقعد ضعيفا مذمما

ومعنى الاستعلاء فى قوله (على هدى) مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه ، وتمسكهم به ، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشئ وركبه ، ونحوه هو على الحق ، وعلى الباطل ، وقد صرحوا بذلك فى قولهم : جمل الغواية مركبا ، وامتنى الجهل ، واقعد غارب الهوى ، ونكر هدى ليفيد ضرباً مبهماً ، لا يبلغ كنهه ، ولا يقادر قدره كأنه قيل ، على أى هدى ، كما تقول ، لو أبصرت فلاناً لا أبصرت رجلاً ، وقال الهذلى :

فلا ، وأبى الطير المربة بالضحى على خالد ، لقد وقعت على لحم

وفى تكرير أولئك تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الأثر بالهدى ، فهى ثابتة لهم بالفلاح ، لجملت كل واحدة من الأثرين فى تمييزهم بها عن غيرهم بالمنابة التى لو انفردت كفت مميزة على حياها .

(فان قلت) لم جاء مع العاطف ؟ وما الفرق بينه وبين قوله : أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم العاطلون ؟ (قلت) : قد اختلف الخبران هنا ، فلذلك دخل العاطف بخلاف الخبرين ثمة فأشبههما متفقان ، لأن التسجيل عليهم بالعلة ،

وتشبههم بالبهائم شيء واحد ، فكانت الجملة الثانية مقررة لما في الأولى ، فهي من العطف بمعزل ، وهم فصل ، وفائدته الدلالة على أن الوارد بعده خبر لاصفة ، والتوكيد ، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره ، ومعنى التعريف في المملوحون الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلامك عنهم أنهم يفلحون في الآخرة ، كما إذا بلامك أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو ، فقيل زيد التائب ، أى هو الذى أخبرت بتوبته ، أو على أنهم الذين أن حصلت صفة المفلحين ، وتحققوا مامهم ، وتصوروا بصورتهم الحقيقية فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة ، كما نقول لصاحبك : هل عرفت الأسد ، وما جبل عليه من فرط الافدام ، إن زيدا هو هو) .

وإنما أطأت بهذا المثل لذلك أولاً على طريقة الزمخشري في تدوين اللطائف البلاغية ، ولاضع يدك على موضع القوة والسلامة والمحو من الفضول في بيانه ، ولاقول لك ثانياً : إنه ذكر في هذه الجملة نحو سبع جزئيات بيانية ، فارجع إلى كل منها في كتاب السكاكي فستجد الدليل الواضح على نأثر السكاكي بالزمخشري وأخذه عنه .

• • •

علماء البيان - ومنهم الزمخشري - متفقون على أنه لا بد لمن يتعاطى التفسير من معارف واسعة ، ومتنوعة ، ربما لا تنهأ إلا لأفراد الناس ، وفي السدرة ، وليس يكفي أن يكون العالم متبحراً في مادة أو مادتين ليسوغ له أن يخوض في التأويل . فالتحوى وإن كان أحمى من سيئويه ، واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه ، لا يستطيع واحد منهما ولا من كان على شاكلتهما من نبغ في علم واحد ، أن يسلك تلك الطرائق ، ولا أن يغوص على شيء من هذه الحقائق .

ويرى أن أول ما يجب لهذا العمل أن يكون الرجل بارعاً في علمين مختصين بالقرآن ، هما : علم المعاني والبيان ، ثم يأخذ من سائر العلوم بحظ ، وأن يكون حافظاً محققاً ، كثير المطالعات ، ولا بد أن تكون له طبيعة مسترسلة ، وقرينة

مشتغله (قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويرصف ، طالما دفع إلى مضايقه ، ووقع في مداحضه ومزاقه) .

ولذا كان الزمخشري قد جعل على المعاني والبيان كالأصاوين لدراسة كتاب الله فإن هذه اللغات التي أشار إليها من دقائقه ، وأنه لحق ألا يعرف أسرار الكلام إلا من كان مشتغل القريحة وقادها ، دراك اللجة ، منتبها الرمزة طالما دفع إلى مضايق الكلام ، ووقع في مداحضه .

على أن من التفسير نوعا لا يحتاج إلى كل هذا ، وهو التفسير النقلي الذي يعتمد على الآثار المقولة ، لكن الطريقة التي نهجها جار الله في التفسير ، وهي طريقة متأخرة ، بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة تحتاج إلى علم غزير ، مع فطرة سليمة ، وهذا ما كان عند الزمخشري ، ولذلك جاء تفسيره سجيلا لكثير من المباحث البيانية ، واللغوية ، والحدوية ، ويرى ابن خلدون أنه مبني على علم البيار (وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله) غير أن اعتزال الزمخشري ، وإتيائه بالحجاج على طريقة أهل العدل والتوحيد جعل مخالي المعترلة ينفرون منه بعض النفرة .

وقد أحدث هذا حركة بلاغية واسعة النطاق حول آي الكتاب الكريم ، فقام غير واحد من أهل السنة بتتبع الآيات ، وتبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة ، ومن أشهر من كتب في ذلك شرف الدين الطبري من أهل تويريز من عراق العجم ، وبين أيدينا كتاب الانتصاف لناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير السكندري ، وقد كانت عنايته متوجهة إلى أن يرد على الزمخشري في العقائد ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يمتدحه فيما أتى به من وجوه البلاغة ، ومن ذلك ما كتبه تعليقا على كلام الزمخشري عند قوله تعالى : د فآفها الله لباس الجوع والخوف ، قال صاحب الانتصاف : (هذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر لا بالخبر) .

وهي شهادة لها قدرها ، إذ هي من ناظر في العيوب قبل المحاسن ، وباحث عن العثرات لا عن الحسنات .

كما اختلف علماء البيان في كلامه ، فتناظروا في تخريج عباراته ، وفي الانتصار له ، والنمص عليه ، وذكرتم له آراء مختلفة في كذب البلاغة كانت موضع مناقشات بين العلماء ، ومن أشهر ذلك المناظرة التي وقعت بين السعد والسيد حول اجتماع الاستعارة التمثيلية والتبعية في كلام الزمخشري عند قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم » .

والناس في هذا العصر يطالعوننا بشيء يزعمونه جديداً ، ويؤكدون أن القدماء لم ينهوا إليه ؛ يقولون إن قواعد البيان يجب أن تقوم على أصول علم النفس ، ولكن الحقيقة أن القدماء تنهوا لهذه الملاحظ وصدروا فيما كتبوا عنها ، وكل ما فانهم أهم لم يجعلوا هذه الأمور النفسية علماً ، وإن كانوا تنهوا إلى أثرها في الكلام ، ونكتفي هنا - بهذه المناسبة - بمثلاً واحداً من أمثلة كثيرة ، يبين كيف يختلف الأسلوب تبعاً لاختلاف مكان معاني الكلام من النفس ، فيترك تأكيد الحكم المنكر لأن نفس المتكلم لا تساعد على تأكيده ، ويؤكد الحكم المسلم لصدق الرغبة فيه والزواج ، وذلك حيث يقول صاحب الكشف في قوله تعالى : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأفردى الكلامين وأركدهما لأهم في ادعاء حدوث الإيمان منهم لا في ادعاء أنهم أوحديون فيه ، إما لأن أنفسهم لا تساعد عليه ، لعدم الباعث والمحرك من العقائد ، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة ، وإما مخاطبة إخوانهم في الإخبار عن أنفسهم بالثبات على اليهودية فهم فيه على صدق ورغبة وفور نشاط ، وهو رائج عنهم متقبل منهم ، فكان مظنة للتحقيق ، ومثمة للتوكيد .

وفي هذه النظرات وأمثالها ما يرد على بعض من كتبوا في البلاغة من المحدثين ، حيث عابوا على المتقدمين أنهم قصروا التوكيد وعدمه على حال المخاطب دون حال المتكلم .

وللزخشري جهود أخرى في خدمة البيان العربي ، منها تلك الجهود التي اشتمل عليها كتابه : « أساس البلاغة » ، هذا الكتاب - لاشك - نسج وحده ، فهو وإن كان كتاب لغة ، لكنك تجد فيه مزايا كثيرة غير لغوية ، فالزخشري لم يذكر المواد اللغوية جافة - كما يصنع أصحاب المعاجم - وإنما كان يذكر معنى الكلمة ، ثم يسوق عبارات مرادفات لها من كلامه أو كلام الشعراء والخطباء ، وهو يقول في ذلك أنه تخير لهذا الكتاب ما وقع في عبارات المتقدمين ، وانطوى تحت استعمالات المتقدمين من التراكييب التي تباح وتحسن ، ولا تنقبض عنها الألسن لجرها رسائل على الأسلات ، ومرورها عذبات على العذبات ، ويتحدث بأنه أطل البحث والتقصي في العربية ، وفلى لهذا الكتاب ما فصح من لغائها ، وملح من بلاغاتها ، وما سمع من الأعراب في بواديها ، ومن خطباء الحلل في نواديها ، كما أنه عني في كثير من المواد بالفصل بين الحقيقة والجاز ، وهذا شيء انفرد به عن جميع كتب اللغة ، وإن كان لم يذكر ذلك في كل المواد ، وإن كان يخلط في بعض الأحيان بين الجاز والكنية والتشبيه ، مع أن الفوارق بينها واضحة في كتابه الكشف .

وكان الباحث له على تأليف هذا الكتاب أن يتخرج عليه جبل لغوي عربي فصيح ، خُشِّل الثمر ، جُزِل الشعر ، يناهض المتقدمين ، ويحاطر للمقربين ، ولا يرى هذه الغاية بعيدة ، ولكها في حاجة إلى أشياء أخرى غير مطالعة كتابه ، (فن حصل على هذه الخصائص - التي ذكرها في كتابه - وكان له حظ من الإعراب الذي هو ميزان أوضاع العربية ومقاييسها . وأصاب ذرواً من علم المعاني ، وحظي برس من علم البيان ، وكانت له قبل ذلك قريحة صحيحة ، وسليقة سليمة) فقد أوفى على الغاية .

ونلاحظ أن جار الله لم يفته في كل مناسبة يتحدث فيها عن النبوغ في اللغة ودراستها ، لم يفته أن يشير إلى ضرورة القريحة الرقادة اللامحة ، والسليقة الصحيحة السليمة ، وهي نظرة دقيقة لها مغزاها البعيد .

في معجم الأدباء أن ولادة الزمخشري كانت في سنة ٤٦٧ هـ ، ووفاته كانت سنة ٥٠٨ هـ ، وفي بعض كتب التراجم أن ولادته كانت سنة ٤٩٧ هـ ، وأكاد أجزم بأن الرواية الأولى هي الصواب لأمور :

أولاً : أن الزمخشري فرغ من تأليف كتابه المفصل سنة ٥١٥ هـ ، فيكون معنى هذا أنه ألف هذا الكتاب - وهو (ما هو في النحو) - وسنه ثمانية عشر عاماً .

ثانياً : أنه فرغ من تأليف الكشف الذي قال أنه بدأ في تأليفه بعد أن تقدمت به السن في سنة ٤٢٨ هـ ، فسنه حينئذ ثلاثون سنة ، وهذه ليست بالسن المتقدمة .

ثالثاً : ذكر الزمخشري أنه بدأ في تأليف الكشف ، وقد ناهز العشر التي تسميها العرب دقاقة الرقاب ، فعلى الرواية الأولى تكون هي العقد السابع ، وهو المعقول ، وعلى الرواية الثانية تكون هي العقد الثالث ، وليس ذلك بمتقول .

لذلك أرجح بأن ولادة الزمخشري كانت على ما رواه صاحب المعجم ، فيكون كحل عينيه بهذه الدنيا قرابة اثنتين وسبعين سنة .

هذا ، وقد فرغ الزمخشري من تأليف الكشف في مكة المكرمة ، في الحرم الشريف ، ومكث في تأليفه كما يقول : مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة .

رحم الله جار الله ، وأجزل له المؤبقة .

الْعِلْمُ الدِّينِيّ

وَأَسْلُوبُ تَرْيِيقِهَا عِنْدَ الشَّيْعَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ

لمحاضرة الأستاذ الأديب السيد محمد صادق نائت
الأستاذ المتدرب بكلية الآداب بجامعة القاهرة

لقد أفاد الإمام السادس عند الشيعة ، جعفر الصادق (ع) الذي ينسب إليه أساس مذهب الشيعة وفقهه وحكمته وكلامه وأصول معتقداته من الصراع بين الأمويين وبنو العباس (وهما في نظر الشيعة غاصبون للخلافة) ووطد البناء الأساسي لمذهب الشيعة بما كان يلقيه على تلاميذه من دروس وتعاليم لدرجة أن اشتهر هذا المذهب بالمذهب الجعفري .

وكان بيت جعفر الصادق كالجامعة ، يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام ، فكان يحضر مجلس درسه في أغلب الأوقات ألفان وفي بعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين ، وقد ألف تلاميذه من جمع الأحاديث والدروس التي كانوا يتلقونها في مجلسه مجموعة من الكتب تعد بمثابة دائرة معارف للمذهب الشيعي أو الجعفري ، وقد بلغ عددها في أيام الإمام الحادي عشر أربعمائة كتاب .

فهشام بن الحكم ، والطاقي ، وزرارة ، وأبو بصير ، ومحمد بن مسلم من نواخع تلاميذ جعفر الصادق ، وهم في الحقيقة المرجع الأصلي لفقه المذهب الجعفري ، أو مذهب الشيعة وحكمته ، وكان خلفاء الإمام جعفر الصادق كذلك يعدون مورداً فياضاً للاستفادة المذهبية والعملية للشيعة ، إلى أن آل الأمر إلى الإمام الثاني عشر وقد صار العلماء الكبار الأربعة - أعني حسين بن روح ، وعلي بن محمد ابن محمد السمرى ، وعثمان بن سعيد ، ومحمد بن عثمان - الذين كان لهم سمة النيابة الخاصة عن الإمام الثاني عشر - مرجعاً للعلم الشيعة ودروسهم أولاً ، ومن بعدهم صارت

نيابة الإمام عامة ، فكان يصل إلى مقام النيابة العلماء والمدرسون الذين كان لهم مقام الاجتهاد ، أى الذين يستطيعون أن يستنبطوا حسب قواعد علم الأصول والقواعد الفقهية المذهبية المتعلقة بالعبادات والمعاملات والتعاليم الماثورة عن النبي والآئمة ، ويلتقنوها بدورهم لاتباع المذهب .

وأقدم وأكبر هذه الزمرة من العلماء ثلاثة تسموا باسم محمد ، وهم الذين دونوا الكتب الأربعة ، أى (الصحاح الأربعة) عند الشيعة - وهى كالصحيح الستة عند السنة - وذلك طبقاً لأصول الأربعمائة والأحاديث المروية عن الرسول وعن الآئمة عن جدهم وهؤلاء الثلاثة هم :

١ - أبو جعفر محمد بن يعقوب الكلىنى (المتوفى سنة ٣٢٩ هـ) صاحب كتاب الأصول والفروع الكافية .

٢ - الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن بابويه القمى (المتوفى سنة ٣٨١ هـ) مؤلف كتاب : د من لا يحضره الفقيه .

٣ - أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى المعروف بشيخ الطائفة (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ) الذى ألف كتابى التهذيب والاستبصار .

والكتابان الآخران مع كتابى الكافى و (من لا يحضره الفقيه) وهى التى دونت هؤلاء الثلاثة المسمون (أبو جعفر محمد) أهم الكتب الدينية عند الشيعة الإمامية ، وهى فى حكم صحاح المذاهب الأربعة عند أهل السنة .

وكان للشيخ مفيد أبو عبد الله محمد بن النعمان (المتوفى سنة ٤١٣ هـ) والشيخ الطوسى فى طلبه العلماء الذين دونوا فقه الشيعة وأصولهم ، وبعد ذلك ألف المحقق الحلى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ ، وابن أخيه العلامة حسن بن يوسف بن المطهر (٦٤٨ - ٧٢٦ هـ) كتباً كثيرة فى فقه وأصول قواعد الشيعة ، أشهرها تهذيب الأصول ، ونهاية الأصول ، والشرائع والقواعد ، والتذكرة ، والتبصرة ، وقد ألف كتباً كثيرة فى هذا المذهب الشهيد الأول محمد بن المكي الدمشقى المقتول سنة ٧٨٦ هـ ، والشهيد الثانى زين الدين على بن أحمد العاملى المقتول سنة ٩٦٦ هـ .

الليدان ظهرا ببلاد الشام وذهباً شهيدين ضخمة لتعصب المخالفين ، وأهم هذه الكتب
اللمعة ، والقواعد ، والمذكرة ، وشرح اللمعة . . . وكذلك ظهر في علوم الفلسفة
والعلوم الإلهية علماء مشهورون في التشيع أعظمهم نصير الدين الطوسي (٥٩٧ - ٦٧٢)
العالم الملكي الرياضى الكبير ، وكان مستشار هولاكو خان المغولى فاتح بغداد ،
وكتابه التجريد وشرح الإشارات مستغن عن كل وصف .

هذه الجماعة من العلماء ، وكثير غيرهم من قبيل السيد المرتضى علم الهدى
(سنة ٣٥٥ - ٤٢٦ هـ) والذين لم تذكر أسمائهم في هذا الموجز ، هم الأشخاص
الذين ظهروا في عهد الحكومات السنية في إيران والعراق والجهات الأخرى من
أواسط القرن الثالث حتى أواخر القرن الثامن الهجرى ، ونشروا علومهم
ومعتقداتهم المذهبية التى كانت دائماً معرضة لحملات المخالفين ، واستطاعوا بجهدهم
وتضحياتهم أن يخرجوا مؤلفات وآثاراً بارزة في تقرير المذهب الشيعى وقواعده
وأصول تدريسه .

وفي أواخر القرن الثامن الهجرى حيث ظهر الشاه إسماعيل الصفوى وجعل
مذهب الشيعة المذهب الرسمى للشعب والمملكة الإيرانية وأسس السلطنة الصفوية ،
نشط علماء إيران من الشيعة في دعوتهم وأشر مذهبهم ، ودونوا المؤلفات وكثيراً
من الآثار العلية النفيسة . ومنذ ذلك التاريخ اتخذ المذهب الشيعى - فضلاً عن
الناحية الدينية - لوناً جديداً مصطبغاً بالسياسة الإيرانية في مقابل السياسة العثمانية .

وفي ذلك العهد الذى انتهى بانقراض الأسرة الصفوية ، وغلبة الأتقان
سنة ١١١٢ هـ ، ظهر كذلك جماعة من العلماء أمثال المحقق الكرعى والشيخ الحر
العاملى والمقدس الأردبيلى والشيخ بهاء الدين العاملى وعبد الرزاق اللاميجى
ومير داماد وملا صدرا (صدر الدين الشيرازى) ، ولكن أكثر هذه الجماعة نفوذاً
وأثيراً الملا محمد تقى ونجله ملا محمد الباقى المعروفان بالجلسى الأول والجلسى الثانى .

وقد بقى كذلك الأساس الذى كان قد وضعه الصفوية لترويج مذهب التشيع
مع استيلاء الأفغان وهم من أتباع المذهب السنى ، وبادر شاه وهو شيعى يميل

إلى رفع الخلافات ويعمل لأجل ذلك ، وقد عقد مؤتمراً من علماء الفريقين لتلك
 الفكرة بضعاً وثلاثين سنة ، وقد ظهر في نفس تلك الأيام ، وفي عهد الزندية
 والتفاجرية علماء كرام آخرون ما زالت دروس طلاب العلوم الدينية في الاعتبار
 المقدسة على أساس تأليفاتهم وكتبهم ، مثل آقا محمد الباقر البهبهاني (١١١٠ - ١٢٠٥ هـ)
 الملقب بمحقق ومروج ومجدد مذهب الشيعة ، وميرزا محمد الاخباري الاسترآبادي
 المتوفى سنة (١٠٢٢ أو ١٠٢٦) والشيخ محمد بن ابراهيم السكاسي المتوفى
 سنة ١٢٦٢ هـ ، والسيد محمد المهدي بحر العلوم البروجردي المتوفى سنة (١١٥٨ -
 ١٢١٤ هـ) والشيخ محمد حسن الأصفهاني النجفي المتوفى سنة ١٢٦٦ هـ صاحب
 جواهر الكلام ، وآقا سيد علي المتوفى سنة ١٢٣١ هـ صاحب الرياض والشرح
 الكبير ، وآقا سيد ابراهيم القزويني المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ صاحب ضوابط الأصول
 والشيخ جعفر النجفي المتوفى سنة ١٢٢٨ هـ صاحب كشف الغطاء ، والسيد محمد
 الباقر الخونساري المتوفى سنة ١٣١٣ هـ صاحب كتاب روضات الجنات ، وميرزا
 أبو القاسم القمي المتوفى سنة ١٢٣١ هـ صاحب القوانين ، والعلامة الحاج ميرزا حسن
 نوري (١٢٥٤ - ١٣٢٠ هـ) صاحب مستدرک الوسائل ، والحاج ميرزا حسن
 الشيرازي المتوفى سنة ١٣١٢ هـ ، والشيخ مرتضى الانصاري (١٢١٤ - ١٢٨١) ،
 صاحب كتاب فرائد الأصول المعروف بالرسائل ، والآخر ولد ملا محمد كاظم
 الخراساني المتوفى سنة (١٢٥٥ - ١٣٢٩) مؤلف كتاب كفاية الأصول ، وهو
 من أهم الكتّاب الدراسية لطلاب العلوم الدينية من أكبر علماء الأصول في القرن
 الأخير ، وميرزا محمد تقي الشيرازي وسيد محمد كاظم اليزدي ، وكثير أمثالهم
 من العلماء الأجلاء .

وبناء على السنة الجارية عند هؤلاء العلماء يصل الطلاب إلى درجة الاجتهاد ،
 أي درجة الاستاذية في العلوم الدينية بعد استباط الأحكام الشرعية من الأصول
 والقواعد الفقهية ، ومن يك منهم أعلم الجميع وأفقههم وأتقاهم وأعدلهم ، يصبح
 المرجع الأعلى الذي يرجع إليه الشيعة ويفلذونه ، ويقال لمن طبق أحكامهم
 وفناهم الشرعية مقلدون .

والكتب المقررة للتدريس وتعليم طلاب المذهب الشيعي ، هي تلك الكتب التي ألفها العلماء المذكورون آنفا في أصول الفقه ، والذين يدرسون الكتب المذكورة يفيدون من استخدام قواعدها ، وفي استنباطاتهم الفقهية يحصلون على درجة الاجتهاد ويقال لهم مجتهدون ، ولكن يتحتم عليهم قبل البدء بدراسة هذه الكتب أن يقوموا بدراسات أخرى في الصرف والنحو والمعاني والبيان واللغة العربية والمنطق والأدب تمهيداً لها .

وبحصول هذه العلوم يقال لهم الطلبة أو الطلاب ، ولا يشترط سنة محددة للبدء في التحصيل ، ولكن أغلب المبتدئين يبدأون الدراسة بعد سن البلوغ . ولا يكلف الطلبة بأي نوع من الصفقات غير احضار الكتب ، ولا يتقاضى المدرسون منهم أجراً أو يتطاعون إلى شيء آخر، وإن كان الطلاب فقراء . وأغلبهم كذلك . يمدحهم كبار العلماء مما يصل إليهم من التبرعات ووجوه الخير من المقلدين ، وكلما تقدموا في تحصيلهم ازدادت هذه المعونة لهم إلى درجة تكفي لسد جميع حاجاتهم من هذا الطريق ، وهي من حيث البساطة والقناعة بمكان .

وزي الطلاب على اختلاف أجناسهم هو عادة الزي العربي المعروف ولا فارق إلا أنهم يلبسون العباءة ، فمن كان منهم من نسل النبي عليه الصلاة والسلام يلبس العمامة الخضراء أو السوداء ، وبقيةهم يلبسون العباءة البيضاء . وأما كن التحصيل أبنية واسعة ممتازة اصطلاحاً على تسميتها بالمدارس ، وليست هذه المباني ملكاً خاصاً لأحد ، وقد بناها كلها ثروة الشيعة من الإيرانيين في العتبات المقدسة (مثل كربلاء والنجف والكاظمية وسامرا و قم ومشهد) وطهران وأصفهان وشيراز وتبريز ويزد وغيرها من البلاد من أموالهم الخاصة ، وقد وقفوا عليها الأوقاف لحفظها ورممتها على أن يصرف ريعها من بعدهم عليها ولا تترك حتى تهدم بمرور الأيام .

وبهذه المدارس غرف صغيرة على نمط واحد تخصص كل منها لسكنى طالب أو طالبين ، وهذه الغرف التي يسمونها حجرات إما أن يسكنها الطلاب ليل نهار وإما أن يتنصوا فيها أوقات النهار للطلعة وكتابة دروسهم ، ويمودون ليلاً إلى بيوتهم الخاصة إذا لم يكونوا غرباء .

وهؤلاء الطلاب ينقسمون حسب المعلومات التي يدرسونها إلى ثلاث طبقات :

أولاً : طلاب الدراسات التمهيدية :

ثانياً : طلاب السطح أو الدراسات الوسطى .

ثالثاً : طلاب الخارج أو الدراسات العالية .

ويدرّس طلاب الدراسات التمهيدية أولاً كتاب (جامع المقدمات) الذي يشمل الأمثلة و (صرف مير) والتصريف وغير ذلك ثم يدرسون بعد ذلك كتب الأنموذج والصمدية والآلفية والمغنى .

وهذه الكتب كلها تشتمل على الصرف والنحو العربي ، والذين يريدون التبحر في هذه الموضوعات يتتبعونها في كتب السيوطي والآلفية وشرح الرضى والجامي وكتب النحو الأخرى .

وبعد فراغهم من تلك المرحلة يبدأون بالمطابق فيدرسون كتاب الكبرى الفارسي ، وحاشية ملا عبد الله ، والشمسية في المنطق ، ثم يشتغلون بدراسة المؤلفات والبيان ، ويدرسون كتاب المطول للمتأزاني ، وهنا إذا زاد شعف الطلاب بالدراسات الأدبية واللغوية يتابعون الدراسة في الكتب اللغوية الهامة من قبيل السجّاح والفاموس وجمع اللغات . ويقرأون ضمناً لغصد التوسع في آداب اللغة العربية مقامات الحريري ، والمعلقات السبع ، ويرجعون إلى دواوين شعر العرب ، وبدراسة هذه الكتب والمقدمات التمهيدية ينتهي الطالب من هذه المرحلة التمهيدية التي تستغرق في الغالب أربع سنوات .

ثانياً : طلاب السطح وهم في حكم طلاب المرحلة الوسطى يدرسون : —

أولاً : كتاب المعالم في الأصول والشرائع في الفقه ، ثم يقرأون كتابي القوانين في الأصول ، وشرح الدعة في الفقه ، أما في هذه الأيام فقد صار من المؤلفات أن يكتبني الطلاب بدراسة كتاب كفاية الأصول لآخوند الخراساني طلباً للتبحر في علم الأصول ، والسبب في تسميتهم بطلاب السطح هو أنهم يتابعون دراساتهم على متون الكتب ، أي أن الأستاذ يقرأ أولاً قسماً من الكتاب ثم يشرح مفاد

العبارات ويفصلها تفصيلاً دقيقاً من كل الوجوه ، ويوضح استدلالات صاحب الكتاب ، وإذا كان له أو لشخص آخر رأى خاص أو تعليق يذكره وفي نفس الوقت يفسح المجال للطلاب للرد والنقد والمناقشة حول موضوع الكتاب وتلك الآراء .

ولما كانت كتب السطح كلها استدلالية فإن دراستها والاستفادة منها توسع ذهن الطالب ، وتمنحه مقدرة خاصة لإقامة الدليل أو رد البراهين والدعوى ، والدراسة فيها كما قدمنا ، ولكن يتفق أحياناً أن لا يكتفى أحد هؤلاء الطلاب بكتب الفقه والأصول ، فيدرس إلى جانبها كتاباً في الحكمة (الفلسفة) من قبيل منظومة السبزاواري أو التجريد ... للخواجة نصير الدين الطوسي ، والشفاء لابن سينا ، وأسفار ملاصدرا ، وعلوماً في الهيئة ، وكتب النجوم القديمة والحساب والتفسير والحديث ورجال الحديث وغير ذلك على أساندة متخصصين في (الفلسفة) أو يبحث هو بنفسه في الكتب إذا كانت فلسفية ، وإذا تخصص في الفلسفة سمي اصطلاحاً (حكى) ومدة مرحلة (السطوح) عادة من ثلاث إلى ست سنوات ، وقد تزيد أحياناً عن ذلك .

ثالثاً : مرحلة التحصيل المسماة (الخارج) مرحلة عالية ، ولا يكون في هذه المرحلة مع الطلاب كتب وقت الدرس ، بأن يجعل الأستاذ موضوع الدرس إحدى فروع الفقه أو المسائل الأصولية ، ويتناقشون في هذا الموضوع بلغة علمية تعتمد على الاصطلاحات الخاصة ، وتبدو عبارات الأستاذ غريبة بالنسبة لمن ليس لهم إلمام بتلك الاصطلاحات ، فلا يفهمون معاني ومفاهيم تلك الاصطلاحات ، وأن يكونوا من أهل تلك اللغة والمنطقين فيها ، وقد يستغرق البحث في أحد تلك الفروع أو الأبواب عدة شهور أو يطول إلى عام . وبحجوة فقه الشيعة تشمل عدة كتب أو عدة فصول هامة ، أولها كتاب الطهارة وآخرها كتاب الديات وتنضمن في جملتها العبادات والمعاملات وأحكام المذهب الجعفرى ، وكل واحد من هذه الفصول أيضاً شامل لفروع ومسائل هامة كثيرة ، فثلاً يطرح الأستاذ للبحث مسائل في باب الصلاة صلاة الفريق أو المسامر أو المريض أو أحكام القبلة

وثياب المصلى المنقصة ، أو أن يتكلم في باب الحج وشروط الاستطاعة أو في الصوم والزكاة والفضاء والشهادات ، ويورد على سبيل الاستدلال والحصر العقلي أقوال أو فتاوى العلماء والمجتهدين السابقين أو المعاصرين ، يأخذ من بينها مع إقامة الدليل بالقول المختار أو برأيه هو .

وفي هذه الحالة يكون الطلاب أحراراً في أن يتباحثوا في باب كل موضوع ، ويحكمون بما يرون ويردون رأى الأستاذ أو غيره كلية ، ويدللون على صحة آرائهم وعقائدهم ، وقد يحدث حيناً أن يشتد الجدل حول تفسير حديث أو تأويله أو استنباطه من قاعدة أصولية أو فقهية وتعلمو الضوضاء ويصل الأمر إلى حيث يظن من لادراية له أو المار بهم لأول مرة أن القوم قد احتدموا في النزاع أو أن بينهم خصومة ، في حال أن المسألة في نظرهم عادية للغاية ، وليست أكثر من مجرد بحث على ١١

والطلاب الذين في حلقات الدروس الخارجية (العالية) يحضرون عدة سنوات ولهم القدرة على إيراد الاشكال والدفاع والاستدلال وتكون حججهم موضع عناية الأستاذ والطالب ، ويعرضون على الأستاذ كتاباتهم وتقاريراتهم المدونة ساعات الدرس ورسائلهم التي دونوها على أساس الاستدلال في فروع الفقه المختلفة ، والأصول ومنحهم الأستاذ بدوره بعد المطالعة والتدقيق شهادة كتابية يقال لها إجازة الاجتهاد ، وعند ما يحصل الطالب على هذه الإجازة يصبح (مجازاً) وفي ذلك الوقت يكون قد بلغ مقام الاجتهاد ، وقد صار باصطلاح القوم (مجتهداً) .

وللمجتهد الحق في أن يصنف في أحكام الدين كتاباً يسمى بالرسالة طبقاً لاجتهاده أى بحثه واستنباطه أو أن يكتب الحواشي ويصادق على رسائل العلماء السابقين ، ويفتى في الاختلافات والاشتباكات والإشكالات التي تفرض لاتباع المذهب ، أى المقلدين بمعنى أنه يبدى رأياً وحكماً يأخذ به هؤلاء ويعملون بمقتضاه .

أَنْبَاءٌ وَأَرَاءُ

مات شيخ الإسلام : عبد المجيد سليم :

في يوم الخميس التاسع من شهر صفر سنة ١٣٧٤ هـ (٧ من أكتوبر سنة ١٩٥٤ م) اختار الله إلى جواره عبده الصالح التقى النبي شيخ الإسلام ، وعلم الأعلام ، المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، فانطوى بذلك كتابٌ مشرق الصفحات في التقى والعلم ، والخلق الكريم ، والجهاد الحق في سبيل الله ، والغيرة الصادقة على الإسلام والمسلمين (١) .

كان الفقيه رضي الله عنه مؤمناً حق الإيمان ، صافي النفس ، سليم الفطرة ، قوياً في علمه وخلفه وقلبه وعقله ، داعياً إلى الله بقوله وفعله ، واسع الأفق ، لا يحده من القيود إلا ما قيد الله به المؤمنين من اتباع كتابه ، وأن يحذروا المخالفة عن أمر رسوله ، يعيش لأفكاره ومثله وخدمة دينه وأمنته ، لا للسل ، ولا للجاء ، ولا للنائب ، فكثيراً ما سارمه المال على الواجب فأباه ، وكثيراً ما أعرض في غير ضعف ولا تردد عن مظاهر الجاء ، وكثيراً ما ضحى بالمنصب الكريم ، والسلطان العظيم ، مؤثراً عليهما رضا ربه ، وطمأنينة قلبه .

وكان رضي الله عنه وفياً شديد الوفاء ، كريم الصحبة ، عف اللسان ، قوى الجنان ، لا يخاف في الحق لومة لائم ، وكانت غيرته على الدين والعلم مضرب الأمثال : يزار في وجوه الظالمين كما يزار الأسد المصور ، غير مبال بما يصيبه من بأسهم وطغيانهم ، فإذا رأى فساداً أو شراً ولم يستطع له دفعاً بكى حتى يسمع

(١) لا تاريخ : ولد الفقيه في ١٣ من أكتوبر سنة ١٨٨٢ هـ فمعه اثنتان وسبعون سنة إلا ستة أيام .

له نشيج ، وتفيض بالدموع عيناه ، وكان يرى عن إيمان واعتقاد جازم أنه لا صلاح للأمة الإسلامية إلا بأن تتمسك بدينها في كل شأن من شئون حياتها ، على شريطة أن تعلم هذا الدين علماً واضحاً صافياً لا تشوبه شائبة من جهالة أو تحريف أو سوء إدراك .

وكان رضى الله عنه مؤمناً بفكرة التقريب إيماناً فطرياً دفعه إليه سمة أفقه ، وصفاء عقله ، وصحة علمه . وقد جرى طول حياته العلمية في الإلتناء وغيره على تلقى المذاهب الإسلامية ولو من غير الأربعة المشهورة بالقبول مادام دليلها لديه واضحاً ، وبرهانها راجحاً ، وله توجيهات علمية كان من أثرها أن أخذت لجنة الأحوال الشخصية في مصر برأى (الإمامية) في عدة من المسائل الفقهية هي إلى الآن ضمن القانون المعمول به .

وقد ظهر منه رحمه الله هذا الروح القوى حين ألفت جماعة التقريب فإنه احتضنها وجاهد في سبيلها ، ووجه كثيراً من جهوده إليها ، ولم تله أعباء منصبه الجسماني في مشيخة الأزهر عنها ، حتى أنه أدلى غداة تولى هذا المنصب للمرة الأولى بحديث حدد فيه أهدافه وقال فيه :

إن مثل المسلمين إذا احتفظوا بخلافاتهم ، وأنصتوا لداعى الفرقة والقطيعة ، كمثل شعب قامت فيه حرب أهلية طاحنة ، ففى تشغل أبادهم ، وتستفقد قواهم ، وتضيع جهودهم ، وتلهيهم عن إصلاح أحوالهم ، وتقويم معوجهم ، وتعين عليهم أعداءهم ، وتكون سبباً دائماً في إنقار كرامهم بما لا يحتملون من الأعباء ، وفى لباسهم لباس الذل والخوف والشقاء . . . وإن أحسن ما قطعاً به هذه الحرب الأهلية التي ظلت مستعرة بين المسلمين قروناً طويلة ، هو التفاهم ، وأن يدرك كل شعب ما عند الآخر ، ويومئذ يظهر للجميع أن أمة الإسلام متفاهمة على كل ما يكون به المسلم مسلماً ، وأن ما وراء ذلك لا يضر بالدين ، ولا ينبغي أن يكون سبباً في قطع حبس الأخوة والاتلاف ، وسأنظر إن شاء الله تعالى في كل ما يعين المسلمين على إدراك هذه الحقيقة والعمل بمقتضاها ، وإن رسالة

« جماعة التقريب » ، في ذلك ، لتلتقي مع رسالة الأزهر ، الذي يرى حقا عليه أن يصير الأمة الإسلامية بأمرها ، وبرشدها إلى ما يجب أن يقوم عليه شأنها من المودة والتراحم والآلفة ، وتبادل العلم والمعرفة ، (١) .

هذا هو الرجل الذي فقدناه ، وهذا هو روحه القوى ، وعلمه الجلي ، ومن لطف الله في قضائه ، أن هذا الرجل العظيم لم يمت حتى رأى فكرة التقريب قوية قائمة مستقيمة ، قد تآزر عليها من أهل العلم والرأى من يستطيعون بفضل الله حمل لوائها ، وتلبية ندائها ، وبذل النفس والنفيس في سبيلها ، فالحمد لله على قضائه ، والحمد لله على لطفه ، وأحسن الله في الفقيه عزاء المؤمنين ، وأجزل له عما قدم أجر العاملين و « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

ولقد شعرت جميع الأوساط العلمية في مصر والبلاد الإسلامية بالحنسارة العظمى في الفقيه الكريم ، فاهالت الرسائل والبرقيات على « دار التقريب » وحضر إليها الأفراد والوفود ، وكلهم يزورون فيه ، ويدكرون مآثره ، ويعبرون عن احتسائهم إياه عند الله ، كما كتبت الصحف اليومية والأسبوعية في تأيينه ، بحمة على أنه بقية العلماء العاملين المتقين ، وهذه مقتطفات منها :

* * *

قالت الأهرام بتوقيع الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد العسكري :

طوى الموت صفحة عالم من كبار العلماء ، وفقهه من خيرة الفقهاء المجتهدين الأحرار ، هو المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر الأسبق ، ووكيل جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وقد وقع نفيه في داوثر العلم والأدب والدين وقعاً الياء ، إذ خسرت البلاد بوفاته مناضلاً قوياً ذا طابع خاص يصول ويجول في مختلف ميادين النضال الفكري والعقلي ، لا يرهبه تهديد أو وعيد ، ولا يثنيه عن وثابته سلطان حاكم ولا طيش ظالم ، وخسر الأزهر والعالم الإسلامي بصفة خاصة رجلاً عبقرياً فذاً من طراز المجاهدين من الفقهاء

الذين أضاعت لهم عبقريتهم طريق الحياة وسبل النجاح ، ولم يكن نجاحه في أية معركة عليية يخوضها يرجع بالغنى إلى شخصه ، وإنما كان يغنى به الإسلام ويظفر من ورائه المسلمون في مخلف بقاع الأرض .

وقد تلقى الشيخ عبد المجيد سليم عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مبادئه في الإصلاح ، وأخذ عنه طريقته في البحث والدرس والتفكير ، وكان الإمام رضوان الله عليه يحبه ويؤثره على غيره من ندائه وأقرانه .

وقد شغل فضيله وظائف التدريس والقضاء والإفتاء ومشيخة الجامع الأزهر ومكث في الافتاء قرابة عشرين عاماً ، وله من الفتاوى ما يروى على خمسة عشر ألفاً فيها آلاف من الفتاوى ذات المبادئ ، وقد اتجهت وزارة العدل إلى جمعها وطبعها للانتفاع بما فيها من الآثار العلية ذات النفع العام ، ولا شك أنها تعد مرجع المفتين والعقهاء والقانونيين مهما تعاقب عليها الزمان .

وركز نشاطه في السنوات الأخيرة في الاشتغال بجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وقد جعلت هذه الجماعة من أهدافها أن تنقاه الطوائف الإسلامية على ما ينفع المسلمين ، وأن تعمل على نسيان الخلاف واستلال الضغائن من بينهم ، وله - يرحمه الله - في هذه الناحية كتابات ورسائل ومراسلات يثنيها وبين كثير من علماء البلاد الإسلامية ، فلم يقتصر فضله على العلم في مصر ، ولكنه تجاوز ذلك إلى آفاق الإسلام في كل الطوائف .

يرحمه الله بقدر ما جاهد وقدم لأمة وادبته من فوائد ونفع ، وعوض الأمم الإسلامية ، والإسلام عن فقد هذا المجاهد العظيم .



واشرت الأهرام أيضاً كلمة بتوقيع القانوني الكبير الأستاذ محمد محمود وكيل وزارة العدل ورئيس محكمة استئناف مصر سابقاً ، جاء فيها عن منزلة العقيدة في لجنة الأحوال الشخصية التي كانت تجمع فطاحل رجال الشريعة والقانون في مصر .

... وقد كان المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم في هذه اللجنة النجم اللمع ، والكوكب الساطع ، والحركة الدائمة ، إذ كانت تعرض الموضوعات والمسائل على اللجنة بعد سبق بحثها وخصها ، وعند ذلك يأخذ الراحل الكريم الكلمة فيتولى شرح الموضوعات والمسائل الواحدة بعد الأخرى ، مستعرضاً شتى الآراء ومختلف الصور في كل مذهب من المذاهب ، مقررأ حكم الشرع في كل مذهب ، ذاكرأ رأى الأئمة والمجتهدين والفقهاء المؤلفين ، متبعأ في ذلك حكم الشرع ، ومسارأ روح الزمن ، منتقلا من فنن إلى فنن يقطف من أزهارها أبهاما ، ويحني من ثمارها أحلاها وأشهاها ، وهو في ذلك كله البحر المتدفق ، والعالم المحقق المدقق ، حتى إذا انتهى من جولته العلمية ، ومحاضراته الفقهية ، قامت اللجنة بالبحث والتحصيل واستباط الحكم الملازم تمهيدا لإعطائه الصيغة الهائية ، تلك ناحية من نواحي التفريد العظيم أسردها وأشهد بها ، عليه رحمة الله وطيب الله ثراه .

وجاء في مجلة « منبر الشرق » بتوقيع فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية السابق :

توى علم من أعلام الإسلام ، وانظفا مهباح طالما استنار به الانام ، وخسر العالم الإسلامى بفقده نصيراً للحق من أعز النضراء ، وفقها من أجل الفقهاء ، وتقياً من خيرة الانتقاء ... ثم قال :

أختير للقضاء وقضى به سنين ، ثم للانتاء فسكت شاغلا لمنصبه سبعة عشر عاماً أصدر فيها كثيراً من الفتاوى الهامة القيمة ، وكان لا ينقيد في بعضها بمذهب الحنفية ، ويفتى بما ترجع عنده من المذاهب الأخرى لقوة أدلته وظهور المصلحة فيه ، وكان يتجرى الحق ويأخذ به أنى وجده ، وما كان للهوى في فتواه سبيل إلى نفسه وسلطان على ضميره .

ثم عين شيخاً الأزهر مرتين لم تمكنه الظروف فيهما من تحقيق آماله في الإصلاح وخدمة الإسلام والمسلمين .

وفد شق عليه كثيراً أن يحال بينه وبين تنفيذ ما يراه إصلاحاً جوهرياً في النظم
الآزهرية لا يصلح أمر الأزهر إلا به ، ولا يؤتى العلم الأزهرى ثمرته إلا بتقريره .

لن ننسى الشيخ عبد المجيد سليم الفاضل النزيه والعالم القدير والفقير المجتهد ،
والصالح التقى ، والأخ الوفي ، والصابر المحتسب الذى أودى وحورب واضطهد
وحرم منه العلم والعلماء في الأزهر وغيره .

وسنذكر له التاريخ بعد حين مواقف مشهودة ، وشجاعة ، وقوة إيمان ،
وصلابة عقيدة ، وليس هو بأول من عصفت به السياسة من أعلام الإسلام .

* * *

وجاء في مجلة (الدعوة) :

كان رحمه الله ينظر في آراء العلماء الأولين ، ويستعرض دليل واحد كل منهم ،
مترفعاً عن التعصب لمذهبه ... فإذا وجد الدليل والحجة فى أى مذهب أخذ به
غير مبال بمخالفة مذهبه .

وكان يقرر أن الفقه الإسلامى موسوعة كاملة لكل شئون الحياة ، وأنه
لا يعرف مسألة واحدة ليس للأولين فيها رأى ، أو يمكن استنباط الرأى فيها
بما قاله الأولون .

وكان تمسكه فى الفقه وسعة أفقه وعدم تعصبه ، هى الدوافع التى جعلت منه
الركن الرئيسى لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ... وقد اشتغل عملياً بهذه
الفكرة ، واختار عدداً من العلماء لمشاركته ... وقد ترك فيها من المبادئ وحدد
لها من الأهداف ما جعلها فكرة واضحة ماضية فى سبيلها بقوة ... وكانت بينه
وبين علماء مختلف الطوائف مراسلات ومساجلات فى كثير من المسائل تسودها
الرغبة فى إجلال الحق مع التزام النقاش الهادى الذى يليق بوقار العلماء ... فهى
تذكرنا بما كان يدور بين الليث بن سعد ومالك من مساجلات تعتبر من الصحف
الحالات فى الفقه الإسلامى ... ولفضيلته بحوث فى مجلة « رسالة الإسلام » ،
التي تصدرها دار التقريب ، ولعل الدار تهم بنشر مساجلاته العلمية مع علماء الطوائف .

ولى عهد اليمن عضو غفرى بالتقريب :

اهتمت « دار التقريب » في هذا العام بتقوية القسم اليمنى الزيدى فيها ، لتوفر للباحثين في فقه الزيدية وسائر علومهم ، ما يحتاجون إليه من مراجع تفيدهم ، وتقرب إليهم غاياتهم ، فإن في المذهب الزيدى علماً عظيماً ، وفقهاً جيداً ، ومن حق المسلمين أن ييسر لهم سبل دراسته ، والإفادة منه .

وقد كان من حسن المصادفة أن زارها في هذا الشهر حضرة صاحب السمو الأمير البدر ولى عهد المملوكة الترككية اليمنية ، ولمس هذا الاتجاه ، وأبدى سروره العظيم به ، مما نرجو أن يكون له إن شاء الله أثر طيب ، ومما يذكر أن اليمن مثلة في جماعة التقريب منذ تأسيسها .

بين الهيآت العلمية و « دار التقريب » :

(أ) اتصلت المؤسسة العلمية العالمية « اليونسكو » التابعة لهيئة الأمم المتحدة بدار التقريب سائلة : هل يمكنها أن يعتمد على معاونة الدار في مدعائها بما تحتاج إليه من المعلومات المتصلة بالطوائف الإسلامية في الشرق والغرب ، سواء أكانت معلومات إحصائية أو فكرية مذهبية .

وقد أجابت « دار التقريب » بأنها ترحب بكل طلب للمعاونة في هذا الشأن ، تتقدم به أية هيئة ، وانفة بأنها تؤدي بذلك طرفاً من واجباتها العلمى والإسلامى ، وتعمل على تجلية الحقائق في كل محيط ما وسعها العمل ، كمرکز إسلامى عالمى توافرت له أسباب العلم بأحوال الطوائف المتعددة في مختلف الشعوب الإسلامية .

(ب) كما اتصلت بعض الجامعات العلمية خارج مصر بالدار في طلب معلومات في مسائل معينة مما تهتم به « جماعة التقريب » ويكون لها رأى موضوعى فيه . ولا شك أن « دار التقريب » إذ تتجه إليها الهيئات العلمية على هذا النحو ، تشعر شعوراً كاملاً بما ينبغى أن تحمله من الأعباء في سبيل الثقافة الإسلامية وكل ما يعرف بالمسلمين ، وأنها ستقابل هذه الأعباء الى تطرد زيادتها حيناً بعد حين بالترحيب وتتمام الاستعداد . وبالله التوفيق .

معجم ألفاظ القرآن الكريم

من بحوث مجمع اللغة العربية^(١)

- ١٤ -

ر ف ع

رفع

رفع يرفع رفاعة : علا .

ورفعه يرفعه رفعا : أعلاه .

وقد ورد الرفع في القرآن على معانٍ تتنوع باختلاف المرفوع وترجع جميعها إلى العلو .

١ — فهو تارة يكون على معناه الحسى في أعلاء الاجسام الموضوعة عن مقرها ، وذلك في المواضع الآتية :

« ورفع أبويه على العرش ، ١٠٠ / يوسف ، « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ٢ / الرعد ، « رفع سمكها فسواها ، ٢٨ / البازعات ، « ورفعنا فوقكم الطور ، ٦٣ / البقرة ، ٩٣ / البقرة . « ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ، ١٥٤ / النساء . ويفسر رفع الطور بأن الله قلعه وتنقه فوقهم وأماله عليهم كأنه ظلة حتى ظنوا أنه واقع بهم ، أو بأنه أعلاه وأطاله .

وكذلك الرفع في ٧ / الرحمن ، « ولذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ١٢٧ / البقرة ، فهو بمعنى الإطالة و ١٨ / العنكبوت ، « خافضة رافعة ، ٣ / الواقعة ،

(١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد رئيس المجمع .

« والسقف المرفوع ، ٥ / الطور ، « وفرش مرفوعة ، ٣٤ / الواقعة ، « فيها سرور مرفوعة ، ١٣ / العاشية .

٢ — وتارة يكون رفعاً معنوياً بإعلاء المنازل وتشريف المقامات وذلك في « ورفع بعضهم درجات ، ٢٥٣ / البقرة ، « ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، ١٦٥ / الأنعام ، ٣٢ / الزخرف ، ١٧٦ / الأعراف ، « ورفعناه مكاناً عليا ، ٥٧ / مريم ، ٨٣ / الأنعام و ٧٦ / يوسف ، « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، ١٠ / فاطر ، ١١ / المجادلة ، « وفي بيوت أذن الله أن ترفع ، ٣٦ / النور ، « ورفع الدرجات ذو العرش ، ١٥ / غافر ، « وفي صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ، ١٤ / عبس .

٣ — وتارة تحتل الرفع الحسي والرفعة المعنوية ، مثل : « بل رفعه الله إليه ، ١٥٨ / النساء ، « أنى متوفيك ورافعك إلى ، ٥٥ / آل عمران . فقد اختلف في ذلك على ما هو معروف .

٤ — وتارة يكون الرفع بمعنى التنويه مثل « ورفعنا لك ذكرك ، ٤ / الشرح وهو يرجع إلى المعنى الثاني وهو التشريف .

٥ — وتارة يكون الرفع حسياً مع غير الأجسام كالصوت مثل « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ٢ / الحجرات ، فإنه إعلاء للصوت من غير قراره المعهود .

ر ف ق

رفق به وله وعليه يرفق رفقا ورفق برفق ورفق : لأن وسهل ولم يعنف فهو رقيق ورفق فلانا : نفقه ، والمرتع الرفق : السهل المطيب . ومنه سمي الرفيق بمعنى صاحب ، لأنه يلين لصاحبه ، ويلطف في المعاشرة ، ومصدره الرفاقة ، وهو وصف يستوى فيه الواحد وغيره ، ومنه : « وحسن أرائك رفيقا ، ٦٩ / النساء . وقيل أفرد اكفاء بالواحد عن الجمع في باب التمييز لفهم المعنى ، أو لأنه قصد بيان المجلس مع قطع النظر عن الأنواع ، والمرفق كسبر ما يستعان به من الأمر

ومنه : د ويهيء لكم من أمركم مرفقا ، ١٦ / الكهف ، ورفق العمل من باب فعل أحكمه ، ورفق الناقة : شد عضدها : إذا خيف أن تنزع إلى وطنها ، ولعل منه المرفق أو المرفق : وهو موصل الذراع في العضد ، لأنه موضع الربط والاحكام بينهما ، وقالوا سمي بذلك لأنه يرتفق عليه أى يتكأ ، أو لأنه يستعان به ، ومنه : د فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، ٦ / المائدة .

ارتفق انكأ على مرفق يده أو امتلا أو وقف ثابتاً دائماً ، وقد ورد من هذا : د بنس الشراب وساءت مرتفقا ، ٢٩ / الكهف ، وفسر المرتفق فى الآية بتفسيرات عدة ، فقيل المرتفق : المتكأ بأن يكون لاهل النار ارتفاق فيها ، أى انكأ على مرافق أيديهم ، كما يفعله المتحزن المنحسر ، وقيل هو المنزل والمقر وقيل هو موضع الترافق أى ساءت موضعا للترافق والتصاحب ، فهو بمعنى المجتمع .

وكذلك يقال هذه الأوجه فى : د نعم الثواب وحسنت مرتفقا ، ٣١ / الكهف ويكون الحسن طبعاً فى مواضع السوء فيما تقدم .

ر ق ب

رقبه يرقبه رقبة ورقبانا ورقوبا ورقابة : حفظه وحرسه وشهده أو انتظره ونوقمه فهو رقيب .

١ — فن معنى الحفظ والمراعاة هذه المواضع : د إلى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى ، ٩٤ / طه . هذا إما كات جملة د ولم ترقب قولى ، من مقول القول ، فهى حينئذ معطوفة على د فرقت بين بنى إسرائيل ، أو كانت حالا من فاعل د فرقت ، والمراد بالقول حينئذ قول موسى ، أما إذا كانت الجملة حالا من فاعل (تقول) كان (لم ترقب) بمعنى لم تظره والقول حينئذ قول هارون ، ومنه أيضا : د كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، ٨ / التوبة . د لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، ١٠ / التوبة . أى لا يراعون ، ومنه : د فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، ١١٧ / المائدة أى الحفيظ المراقب ، أو المطلع المشاهد وكذلك . إن الله كان على كل شئ رقيباً ،

ارتفق

رقب

١ / النساء . د وكان الله على كل شيء رقيباً ، ٥٢ / الأحزاب . د ما يلفظ من قول
إلا لديه رقيب عتيد ، ١٨ / ق .

٢ — ومن معنى الانتظار والتوقع د ولم ترقب قولى ، ٩٤ / طه على أحد
الوجهين ، أى ولم تنتظر أن نسمع قولى ، د لى معكم رقيب ، ٩٣ / هود .

والرقبة : العنق وقيل أعلاه ، وقيل مؤخر أصل العنق ، والجمع رقب ورقاب
وأرقب ، ويعبر بالرقبة عن الذئمة وجملة الشخص وجعل في التعارف اسماً للهايك
كما عبر بالرأس وبالظهر عن الركوب ، فقيل فلان يربط كذا رأساً وكذا ظهرأ ،
والظاهر أن أصل لإطلاق الرقبة على العبد أو الأسير ناشئ من أنهم كانوا يربطونهم
من رقابهم عند الأسر أو الاسترقاق ، ولذلك ورد في القرآن فك رقبة أو تحرير
رقبة . ولو لم تكن مربوطة مثل د ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ،
٩٢ / النساء أى تحرير عبد ، د وما أدراك ما العقبة فك رقبة ، ١٣ / البلد : أى
تخليصها بالاعتاق إذا كان يملكه أو بالمعاونة عليه ، كما في إعطاء العبيد المكاتبين .

وقد وردت بمجموعة في د والمساكين وابن السبيل والساكنين وفي الرقاب ،
١٧٧ / البقرة ، د والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب ، ٩٠ / التوبة :
في الرقاب : أى للصرف في فك الرقاب وإعتاقها بأن يعان العبيد المكاتبون بشيء
منها ، وقيل بأن يتباع منها الرقاب فتعتق ، وقيل بأن يفدى الأسارى . وفي
د فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، ٤ / محمد : مجازع القتل سواء بضرب
الرقبة أو غيره ، وعبر به لإشعاراً بأنه ينبغي أن يكون بضرب الرقبة حيث أمكن
وتصويراً له بأشنع صورة ، وتشجيعاً للمؤمنين ببيان أنهم يتمكنون من ذلك
في الحرب .

ترقب يترقب ترقباً : انتظر وتوقع ورصد ، ومنه د فأصبح في المدينة خائفاً
ترقب ، ١٨ / القصص ، أى يترصد الأخبار أو يتوقع المكروه من فرعون ،
وكذلك د فخرج منها خائفاً يترقب ، ٢١ / القصص : أى يتوقع لحوق الطالبين .
ارتقب يرتقب ارتقاباً : مثل ترقبه ، ومنه د فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، ارتقب

١٠ / الدخان ، « فارتقب إنهم مرتقبون » ، ٥٩ / الدخان ، « وارتقبوا إلى معكم رقيب » ، ٩٣ / هود ، « فارتقبهم واصطبر » ، ٢٧ / القمر .

ر ق د

رقد رقد رقاد ، وراقدا وراقدا : نام ليلا أو نهاراً ، أو نام بالليل فقط ، أو نام يوماً قليلاً مستطاباً ، فهو راقداً وجمعه رقد وراقود ، ومنه : « ونحسبهم إيقاظاً وهم رقاد » ، ١٨ / الكهف .

والمرقد : مصدر ميمي أو اسم مكان ، وقد ورد في موضع واحد « قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا » ، ٥٢ / يس ، أي من رقادنا أو من موضع رقادنا .

ر ق ق

رق برق رقا ورقة : ضد غلاظ وثخن ، فهو رقيق ورق وهي رقيقة ورقاقة . والرق بالفتح وبكسر في لغة قليلة : الجلد الرقيق يكتب فيه ، أو الصحيفة البيضاء ، وجمعه رقوق ، وأصله من الرقة أو من اللعان ، يقال : ترقق الشيء إذا لمع . وقد تجوز فيه عما يكتب فيه مطلقاً ، وقد ورد في موضع واحد : وكتاب مسطور في رق منشور ، ٣ / الطور .

ر ق م

رقم الثوب يرقه رقاً : وشاء ، ورقم الشيء أعله بعلامة تميزه عن غيره ، ورقم الكتاب : كتبه أو أعجمه ويثنه فهو رقيم ومرقوم ، ومنه : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا » ، ٩ / الكهف . والرقيم : اسم كلهم ، أو هو لوح من حجارة كتبت فيه قصة أهل الكهف ، وقد وضع على باب الكهف أو هو لوح من حجارة كتب فيه أسماؤهم وجعل في سور المدينة ، وقيل لوح من رصاص كتب فيه أسماؤهم ، ووضع في تابوت من نحاس في قم الكهف ، وقيل من ذهب ، وقيل كتاب كان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين موسى أو دين عيسى ، وفعل بمعنى مفعول ، وقيل اسم واد دون فلسطين قريب من (أبله)

والكهف في ذلك الوادى فهو من رقة الوادى ، أى جانبه . وقيل اسم القرية التى خرجوا منها ، ومنه : « وما أدراك ما ييجين كتاب مرقوم ، ٩ / المطففين . » وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم ، ٢٠ / المطففين . فرقوم : بين الكتابة أو معلم أو محتوم أو مثبت كالرقم لا يبلى ولا يمحى .

ر ق و

الترقوة : العظم المكتشف ثغر النحر عن يمين وشمال ، جمعها تراقى ، وقد ورد تراقى الجع فى : « كلا إذا بلغت التراقي ، ٢٦ / القيامة ، أى بلغت الروح أعلى الصدر وحشرجت . »

ر ق ي

(أ) رقى فى السلم ورقيه ورقى إلى الشيء يرقى رقيقاً ورقياً : علا وصعد ، رقى ومنه . « أو ترقى فى السماء . » وان تؤمن لرقيق حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، ٩٣ / الإسراء . « وقيل من راق ، ٢٧ / القيامة . أى من لا يرقى ويعرج يروح الميت ، على أحد قولين . »

(ب) رقا المريض برقيه رقيقاً ورقياً ورقية : عوده ونفث فى عودته ، ومنه : رقى « وقيل من راق ، ٢٧ / القيامة : على القول الثانى : أى من يرقيه ويطيبه بالقول أو بالفعل لينجيهِ . »

ارتقى الشيء وارتقى إليه وارتقى فى السلم : صعد ، ومنه : « فليرتقوا فى الأسباب ، ارتقى ١٠ / ص ، أى فليصعدوا فى المعارج إلى العرش ، ويدبروا أمر العالم . »

ر ك ب

ركب الدابة يركبها ركوباً : علاها وركب السفينة وركب فيها ، وأصل ركب الركوب كون الإنسان على ظهر الإبل ، ثم استعمل مع غيرها ، ومنه : « حتى إذا ركبنا فى السفينة خرقها ، ٧١ / الكهف » فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله ، ٦٥ / العنكبوت « لتركبن طبقاً عن طبق ، ١٩ / الانشقاق ، الركوب هنا بمعنى الملاقة ، أى لتلاقن

حالا بعد حال ، أو الركوب على حقيقته ، وتجمل الحال مركوبة مجارا ، والمعنى :
لتركن أحوالا بعد أحوال هي طبقات بعضها أرفع من بعض في الشدة ، وهي
الموت وما بعده من موطن القيامة وأموالها ، أو هي طبقات الحياة وتطورها
من النطفة ، وما بعدها إلى الموت ، وما بعده من البعث والاستقرار في إحدى
الدارين .

وقد ورد الفعل أيضاً في ٧٩ / غافر و ١٢ / الزخرف و ٨ / النحل و ٤٢ / يس
و ٤١ و ٤٢ / هود .

والركب : اسم جمع راكب على الصحيح للعشرة فصاعداً ، ومنه : • والركب
أسفل منكم ، ٤٢ / الأنعام يجوز أن يكون ركب خيل أو ركب إبل ، ويجوز
أن يكون الجيش منهما جميعاً ، والمراد به في الآية العير أو أصحابها أبوسفیان وأصحابه .

والركبان : جمع راكب ، وكان لا يقال إلا لراكبي الإبل فقط ، مثل الراكب
والركب ، ثم استعمل مع ركاب غيرها ، وقد ورد في : • فإن خفتم فرجالا
أو ركباناً ، ٢٣٩ / البقرة .

والركاب : غلب في الإبل التي يسار عليها واحدها راحلة ، ولا واحد لها
من لفظها ، وجمعها ركب مثل كتب ، وقد وردت في : • فسا أوجفتم عليه من
خيل ولا ركاب ، ٦ / الحشر :

والركوب : المركوب فعول بمعنى مفعول كحضور وحلوب وقروع . وهو
عما لا يتقاس . وقد ورد في • فنهز ركلهم ومنها يأكلون ، ٧٢ / يس ، أي :
فبعضها مركوبهم .

ركب الشيء : وضع بعضه على بعض ومنه • في أي صورة ما شاء ركبك ،
٨ / الأنعام : أي وضع أجزائك وألف بينها بحيث تبرز الصورة التي يشاؤها .

وتراكب الشيء : ركب بعضه بعضاً ومنه • نخرج منه حيا متراكبا ،
٩٩ / الأنعام . أي بعضه فوق بعض كما في السنبيل .

تركب

تراكب

ر ك د

ركد الماء والريح والسفينة يركد ركوداً : سكن وثبت في مكانه ، فهو راكد وهي راكدة جمعها رواكد ومنه : أن يشأ يسكن الريح فيظلل رواكد على ظهره . .
٢٣ / الثورى . أى فتظل السفن ساكنة ثابتة في مكانها .

ر ك ز

ركز العرق يركز ركزاً : اختلج والركز الصوت الخفى ، والحس وخصه بعضهم بالصوت الخفى بدون حرف ولا فم . ومنه : هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً . ٩٨ / مريم . وأصل الركز هو الخفاء ومنه ركز الريح إذا غيب طرفه في الأرض ، والركاز للمال المدفون .

ر ك س

ركس الشيء وأركسه يركسه ركساً : قلبه على رأسه ، أو ردأوله على آخره أركس فهو مركوس وركيس ، وقد ورد في موضعين : والله أركسهم بما كسبوا ، ٨٨ / النساء أى ردهم إلى الكفر ، وكلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ، ٩١ / النساء أى قلبوا فيها .

ر ك ض

ركض الدابة يركضها ركضاً : ضرب جنبها برجله أو هو الضرب بالرجل وتحريكها والدفع واستحثاث الدابة للعدو وركضت الدابة نفسها ، كأن الركض منها مع أن الأصل هو ضرب الراكب مركبها .

ومتى نسب الركض إلى الراكب فهو استحثاث المركوب واعدائه ، ومنه : إذا هم منها يركضون لا تركضوا ، ١٢ ، ١٣ / الأنبياء ، ومتى نسب إلى الماشي فهو وطء الأرض نحو : اركض برجلك ، ٤٣ / ص ، أى اضرب برجلك الأرض .

أى إذا هم منها يفرون راكضين دوابهم ، لا تفروا ، ويجوز أن يكونوا قد خرجوا راجلين ، وشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم ، لأنهم يركضون في الأرض بأرجلهم .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

- ١ - نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أذى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .
- ٢ - ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، وألا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .
- ٣ - ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتي هي أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يهدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للودعة بينهم وبين إخوانهم .
- ٤ - من المعروف أن سياسة الحكم والحكام ، كثيراً ما تدخلت قديماً فى الشؤون الدينية ، فافسدت الدين وأتارت الخلافات لا لشيء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتاً لأقدامهم ، وأهم سخروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكم وانقضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمتهى الحذر والحيطه .

وعلى الجملة ، نرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستتيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هي : —

ا - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

٣٣٩	كلمة التحرير
٣٤٣	تفسير القرآن الكريم
٢٦٥	هدية من تجاربنا
٣٧١	تأييد جديد
٣٧٩	الغلاة في نظر الشيعة الإمامية
٣٨٢	الرابطة الوطنية والرابطة الإسلامية
٣٨٨	قال شيخى
٣٩٧	لكن قال شيخى
٤٠٥	عاد
٤١٢	أثر الفلسفة الإغريقية في الفكر الإسلامي
٤١٦	جار الله الزمخشري
٤٢٣	العلوم الدينية
٤٣١	أنباء وآراء
٤٣٨	معجم ألفاظ القرآن الكريم
٤٤٦	رجاء من التقريب
٤٤٧	من القانون الأساسي لجامعة التقريب

رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلة إسلامية عالمية
تتبع من دار النشر بين المذاهب الإسلامية بالقطر
صاحب الامتياز : محمد تقى القمى

رئيس التحرير: محمد محمد المدين مدير الإدارة: عبد العزيز محمد عيسى
الإدارة: ١٩ شارع جيشناش بالرمالك القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤
قيمة الاشتراك عن سنة في البلاد العربية خمسون قرشاً مصرياً
وفي أمريكا أربعة دولارات وفي البلاد الأخرى ليرة إنجليزية